الطبعة السابعة

سقف الكفاية

محمد حسن علوان

دار الساقي

«تمكّن هذا الروائي الشاب من أن يحوّل قصّة حب عادية إلى ملحمة كاملة. وكتابة الملاحم ليست بالأمر السهل ولا هي بالشيء الذي يتكرّر كل يوم. لكم البشرى! يولد اليوم روائي موهوب اسمه محمد حسن علوان. تذكروا هذا الاسم قبل أن يفرض نفسه عليكم فرضاً».

د. غازي القصيبي

«في سقف الكفاية يحضر قيس وليلاه في صورة حديثة ومبتكرة، ولو قُدِّر لقيس أن يكتب نصاً نثرياً لليلى لاستعان بمحمد حسن علوان ليكتب له هذا النص. لقد كتب قيس عن حبيبته شعراً وكتب علوان عنها نثراً. وهو نص يتفوّق على ذاته في جلب المتعة للقارئ وذلك لأنه قد امتلك زمام اللغة وسبر أسرارها وغاص في قيمها التعبيرية، وهذا دليل على اكتشافه للعبة اللغة ولعبه معها إلى أقصى مدى».

د. عبد الله الغذامي

محمد حسن علوان روائي سعودي. صدرت له في الرواية عن دار الساقي «صوفيا»، «طوق الطهارة»، «القندس».

56
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

ISBN 978-1-85516-329-4
9 781855 163294 >
DAR AL SAQI
دار الساقي

سقف الكفاية

تصميم الغلاف

ماريا شعيب

محمد حسن علوان

سقف الكفاية

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، دار الفرابي ٢٠٠٢
الطبعة السابعة، دار الساقي ٢٠١٢

ISBN 978-1-85516-329-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٢٠٣٣ ـ ٦١١٤
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ـ ١ ـ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ـ ١ ـ ٩٦١

Email: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

﴿إِنَّمَا أشكُو بَثِّي وحُزْني إلى الله﴾

[سورة يوسف، الآية ٨٦]

الفصل الأول

لم تكوني أنتِ امرأةً عادية حتى يكون حبي لكِ عادياً. كنتِ طوفاناً يجرفُ أمامه كل أشجارِ القلق وجلاميدَ الترقُّبِ والتروي. كنتِ قادمةً كوجه الفجر الذي يُسقِط رهبانية الليل الطويلة. كنتِ نازلةً على جبين الكوكب المهجور وبين يديكِ ماء وحياة ومخلوقات ودورة شمسية جديدة.

كنتِ حبيبتي؛ ذلك الإتيانُ الأنثويُّ العاصف الذي لا يمنحُ الأشياءَ تفسيراتها بينما يكوِّن اتجاهاتٍ جديدةً على خريطة الحياة، يخلقُ أُمماً وحضارات. يغيِّرُ تواريخ الميلاد وعادات الليل والأحلام المعلَّقة على جدار النهار، وقوانين الصمت والكلام، والنظام الأزليّ لنبضات القلب.

نوعُكِ هذا من النساء لا يرفِقُ بي، أنا عاشقُ المرّة الأولى. إنه يسحقني حتى آخر خليّةٍ تزورها الدماء، ثم يجمع فُتاتي ويُلملم ذرَّاتي و يعجنني من جديد، رجلاً آخر، كما يريدني الحب.

رفعتُ المرساة، واتجهتُ إلى عينيكِ مباشرة، وفي داخلي يتشكَّلُ إيمانٌ جديد ومبادئُ أخرى ولغاتٌ وأساطيرُ وأقلامٌ ودفاترُ حكمة. كلّها راحت تخلُقُ نفسها في غمرة المواجهة، وتتفاعلُ مع بعضها البعض بأفضل ما تستطيع، لتصل إليكِ بسرعة، قبل أن تفلتي في السماء كما يُفلِتُ الغيم.

كنتُ أكثرَ رجال الدنيا اشتهاءً لكِ.

وكنتِ أنتِ، ببساطة، حدِّيَ الأخير الذي لا أتمنّى بعده شيئاً، من كل احتياجاتي الذكورية إلى الأنثى.

لذلك، لم يكن الحب قراراً أسعى لأخذه، بقدْرِ ما كان قَدَراً يسعى لأخذي.

في تلك الحالة الابتدائية من المشاعر المتعملقة بجنون، كنتُ أشعرُ أن كل محاولةٍ للتفكير في ما أنا مقبلٌ عليه تُعتبر خربشةً يائسة على خريطةٍ تقودُ إلى مكانٍ واحد في النهاية. كل الاتجاهاتِ تشيرُ إليكِ. كل الكلمات. كل التصرفات. كل التفاصيل الصغيرة، والتشابهاتِ الطفيفة، كل الأشواق، والعادات، والأمنياتِ المتأرجحة على سنواتِ العمر، والأمل، والانتظار، ودوائرِ الترقُّبِ التي تنمو طفولةً، ومراهقةً، ونضجاً.

باختصار شديد جداً، لا تبقى بعده حاجةٌ للتبرير، كل الأقدار.

قرأ الحبُّ ماذا ينقصني، جسَّ الروحَ والجسد والإنسان، وأحصى الفراغاتِ التي عجز الدهر عن ملئها في داخلي، والثقوب

التي أحدثها بيديه في ثياب العمر، وعجن كل أحلامي وأدويتي وخيوط وسادتي وأسنَّة أقلامي مع بعضها، واختاركِ أنتِ، ليضعكِ في طريق حياتي الأول، دون أن أرى في منامي أحد عشر كوكباً والشمس والقمر.

جئتِ على بساطِ القَدَر. قالت لي أمي ذات مساء: «السماء مليئةٌ بالنجوم يا ولدي. وكلّها أساطير، هناك نجمةٌ واحدةٌ لك فقط، لا تلمع إلا ليلةً واحدةً في العمر». وكنتِ أنتِ نجمتي التي تعلم، قبل ليلة اللمعان، أيَّ رجال الأرض سيتبعها إذا نَزَلت، ويموتُ إذا أَفَلَتْ.

ولم أكن أعلم أن عشق النجوم صعب، لأنها لا تبقى.

ولكنه قَدَري.

لا يكون الحب قراراً أبداً، إنه الشيءُ الذي يختارُ اثنين بكل دِقَّة، ويُشعِلُ بينهما فتيلَ المواجهة، ويتركهما في فوضى المشاعر، دون دليل.

إنه يريدهما بذلك أن يتعلّما أول دروس الحب.

كيف يحتاج كلٌ منهما إلى الآخر.

***

يدي معلّقةٌ على قلمٍ أبيض صغير.

القلم الذي أخذتُهُ منكِ لأكتب قصيدة أخيرةً تحتفظين بها، وأصررتِ أنتِ على أن أحتفظ به للذكرى، فعلَّقتُه في جيبي، وعدتُ

به إلى البيت، وأنا لا أدري أيَّ دورٍ سيكون له في حياتي.

هاأنذا أسخِّرُ هذا الصغير لكتابتي الكبيرة، بعد سنتين ونيّف من رحيلكِ، بالرغم من أن قِصره ونحافته البالغين يؤذيان أصابعي كثيراً، أنا الذي أكتبُ بخطٍ صغير، وأنعطِفُ بالقلم في مساحةٍ ضيّقة جداً، فأفقد كثيراً السيطرة عليه، فينحرف خارج السطر، أو خارج الفكرة.

ولكني اعتدتُه بعد لأي، أو أنه اعتادني.

الأقلام التي تأخذ رؤوس أحزاني وتكمل البكاء وحدها على الأوراق هي أقلامٌ تعوَّدت شكل يدي، تعوَّدت نوع كلماتي، وطريقتها في إثباتِ حضورها على الورقة، فأنا عشوائيٌ جداً في بذاري، ألقي البذور ولا أهتمّ أين وقعت، وكيف ستنمو، ومن سيرعاها حتى تكبر، ففشلت مني كلمات، وتعصَّمت أخرى فنجت.

لا أحبّ الكتابة الثديّية، تلك التي تلِد وتهتمّ بصغارها، بل أحبِّذُ أن أترك ما أكتبه ليواجه الحياة وحده، ويتعلم الصمود وحده، فلن أكون معه عندما يواجه قارئاً ما.

الوحيد الذي أشعر بانتمائي إليه، أو انتمائه إليّ، أو تلاقحنا المشترك لتفريخ كلمة، هو القلم، دائماً أتساءل من خلال ما أراه من كدحِه، أيُّنا يمنح الآخر مجداً يا تُرى؟ أنا الذي أنحتُ ذاكرتي لأمنحه تعباً، أم هو الذي ينحتُ روحه ليمنحني سطراً؟

أنا وهو محورنا أنتِ. لم يكن ليتذمَّر من طول الركض على الأوراق، وهو الذي يعلم أن من كانت تملكه تستحقُّ هذا حتماً،

مريحٌ أن أصوِّر حزني بقلمك، كما شكَّلتُه من قبل بحبّك، تدهشني المرأة التي تتكفل بحزني كله، من البداية حتى النهاية.

كان جبينُ الشمس يلوحُ لي من وراء نافذتي المربّعة، والرياض هذه الأيام هولوكوست حقيقية، تحشُرُ ملايينها القليلة في أتون الموسم الحار، وتنام مثل سفينةٍ فضائيةٍ هائلة جثمت فوق الصحراء منذ مئة عام ولم تتحرك حتى الآن، ولكن حتى هذه القائلة القائظة لم تكن لتُسكِتَ شوارعَها المزدحمة عن الحركة، وأنا تأتيني صرخاتُ السياراتِ المارقة من بعد، رغم أزيز جهاز التكييف المُجهَد، وشَغَبِ الأفكارِ المتحالفة مع ارتجالية ذاكرتي.

جلستُ أكتب، أو أكملُ ما بدأتُ بكتابته في فانكوفر، فقد جاء قَدَرُ عودتي طارئاً وإلاّ لأتممتُ كتابتي هناك كما كنتُ قد قررت، في العزلة الباردة، ولكن يبدو أن أقدار كتابتي صحراويةٌ مهما حدث، ويبدو أنَّ بعض الأحزان لا تتناسل إلا في مواطنها الأصلية.

رحِم الله جدّتي التي قَضَتْ ولم أرها، وأقرأتني السلام على مَن حولها قبل أن تموت، وكأنها تبثُّني عِتابها الأخير، فعدتُ إلى وحدة أمي قبل أن تلوم هي انعزالي هناك دون بيتنا الذي بدأ يجفُّ، وحُجراته التي بدأت تخوى.

يُطلُّ عليَّ وجهُها لثوانٍ من فُرجَةِ الباب الصغيرة التي أتعمَّدُ تركها هكذا حتى لا تزعجني الطرقات، تبتسمُ بهدوء وأنا أرفعُ لها رأسي فزعاً ثم تنسحب، يكفي أن تراني أمي أو حتى الخادمة في حالةِ كتابة

حتى يتراجعا، لم أكن أطالبهما بهذا، ولكنّ علاماتِ الإرهاق التي ترتسمُ على وجهي إذا قاطعتني إحداهما كانت تكفي لجعلهما تشعران أني أحتاجُ إلى العُزلة.

أحتاجُ إلى التركيز حتى لا تهزمني الورقة.

طاولةُ المكتب تشبه ساحة حربٍ ماكرة، تمرّدي في طرفٍ وخنوعي في آخر، هنا الطريق الوعر الذي أشقُّه في جبيني، المِعول الذي أضربُ به بحثاً عن قعر مأساتي، أشياء لا يراها إلا أنا، ولكنها تتخايل لأمي والخادمة، ويبدو لهما أنني في لحظاتِ الكتابة لا أجرُّ قلماً كسولاً فحسب، بل أُشعِلُ دفتراً مِزاجياً مصاباً بالصرع.

لم أكن أكتبُ هكذا، ولكنّكِ امرأةٌ تُغيِّرُ أشكالَ الكتابة، تتحكم في أطوال الأقلام، وعاداتها في الاستقامة، والانحناء، ورش النقاط، وتتصرف في استواء الأوراق، وسلوكها في الانتعاش، والاصفرار، والذبول، والموت.

جامحةٌ هي الكتابة التي تستمدُّ مِدادها من الذاكرة، التي تغمسُ يراعها في الوجع، التي تشربُ من ماء الروح الشحيح بنهم، التي تخرجُ إلى الحياة، قبل أن أحجز لها مكاناً فيها.

موقّتاً سيؤويها هذا الدفتر. وعدتها أن أجد لها مقعداً في قطارٍ تنتظرينها أنتِ في محطته الأخرى. ولكن لا أحد يعيش في صالة الانتظار إلى الأبد.

ستبقى فيها مجبرةً ريثما تكتمل إجراءاتُ هجرتها إلى الحياة.

خواء البيت الذي تعوَّدت أمي امتلاءه يضايقها ويضايقني أنا الذي لا أريد من أحدٍ أن يجرح عزلتي.

منذ عدتُ من فانكوفر وعطاؤها ينصبُّ عليَّ وحدي بعد أن كان مقسوماً على سبعة أبناء وجدّةٍ عجوز. تفرَّق الأبناء وماتت الجدّة وبدأ السكّريُّ يزحف في عروق أمي، ووجد الأنسولين طريقه إلى صيدلية المنزل وأوقاتِ الأكل. وبدأت أمي تشعر بالوهن. فراحت تعتصر كل ما تبقى من عطائها لتصبّه عليَّ، وكأنها تخشى أن تلقى الله وعندها بقيةٌ منه فيعاقبها به.

أعرف أن أعمار الأمهات لا تقاس بالسنين بل بما استودعه الله في قلوبهنّ من خير العطاء. فإذا انتهى أخذهنَّ الموت! لهذا لم أكن أقلق عليها كثيراً.

إلا أن جِلستي وراء مكتبي الصغير طوال اليوم والليل، وبين أوراقي المتناثرة هنا وهناك، وعلى ظهرِ كّلٍ منها أشلاءُ قصيدةٍ مثقوبةٍ لم تكتمل، أو أنها اكتملت ولم أعترف بها بعد، وشرذمة أفكارٍ متفاوتة النمو، بعضها نُطفة، وبعضها علقة، ومُضغة، ولحم، وعظام، كانت تمنحني مساحة البوح الشاسع، أكثر من أمي.

بوح الكتابة بريء وجريء. تتلوَّن فيه الهموم الرتيبة، يتمطَّى ظهرُ الحزن، ويطقطقُ القلقُ أصابعَه. بوحها يشبه حنظلةً مُرَّةً مغموسةً في سُكَّرٍ محروق، أو ربما يشبه موتاً يُبعثُ تحت قشرة الحياة أو مأتماً قاتماً في ليلة عيد أو وجه مهرِّجٍ ضحوك تراوده الحياة عن دمعة.

فرقٌ بين الاعتراف المنهمر وبين سرد الذنوب فقط مثل محاضر التحقيق. من المرهق أن أكون، عبر قلم، قاضياً ومتَّهماً ومحامياً. ولا شاهدَ إلا ذاكرةٌ صعبة. ولا جريمةَ إلا حبٌ شارد.

أتخيَّلُ دائماً ردود الأفعال تجاه ما أكتب أثناء كتابتي. أتخيَّلُ ردَّة الفعل لدى أحدهم دون غيره من الناس أحياناً. ليستُ الكتابة مشروعاً انعزالياً أبداً. إنها لغة تواصل، وهذا قدرُ اللغات. إلا أني عندما أنفعلُ تماماً مثل أعواد الكبريت التي تحملُ موتَها فوق رؤوسها لا أراقبُ أحداً. وأكتبُ كما أريد لا كما يُراد، لأني أعرفُ أن ما سأحبسه بين جنبيَّ لأتوارى من أحدهم، سيمزِّقُ أنحائي يوماً آخر.

ستناديني أمي لقهوة الظهيرة بعد قليل. هذا ما كانت تعنيه إطلالتها الطيبة من فُرجَةِ الباب في مثل هذا الوقت. وربما تؤخِّرُ غداءها قليلاً ريثما أنتهي من كتابتي وأخرج من صومعتي الضلالية، كما تسمّيها، وهي تذكِّرني دائماً بقصة الراهب الذي سكت لصلاته عن جواب أمّه، فأراه الله وجوه المومسات.

تختلسُ مكثي معها من أوقاتِ القهوة ووجباتِ الطعام. وأنا مجبولٌ منذ صغري على البقاء وحيداً، ولم ألبث أن مارستُ تمريناً طويلاً على ذلك لعامين في فانكوفر. إنَّ عظامي تبردُ إذا جلستُ مع الآخرين ولا بد أن أخلو بنفسي لأُشعِلَ حزناً وكتابة.

يا لأقدار الكاتب الضعيف. إنه لا يتخلص من قيود حياته إلا بقيود خياله. ولا يلبثُ أن يضع ثيابه من الليل حتى يلبس ذاكرته من النهار،

وكأنه لا يستطيع أن يبقى عارياً أبداً وإلا تآكَلَ جِلدُه. أتذكَّر أن جدّي كان يقول: «كدتُ أن أكون شاعراً قبل أن يُقسم عليَّ أبي أن لا أفعل». تأمّلتُ رحيل عينيه إلى سرمد الماضي، لماذا ذلك التعهير المبكر للشعر؟ قال لي كهلٌ آخر والثمانون تقرض أسنانه: «حرمني أخي من الشعر، لأنه يُضعف القلب، ويورث الحزن، ويجلب الهمّ، ويفضح الستر»، ولم أفهم آنذاك كيف كيلت كل تلك الاتهامات لهذا المخلوق الطيب ولكني أشعر الآن بها حقاً.

الكتابة، نقصُ المناعة المكتسبة للروح، مثلما هو الإيدز، نقص المناعة المكتسبة للجسد.

تخيّلي أن تكون مناعتي ضعيفةً إلى هذا الحدّ، وأمرض بامرأةٍ مثلكِ.

لم يعُدْ في البيتِ الذي كان عامراً بالأبناء والبناتِ من يقاسم أمي وجبةً ما إلا أنا. تزوَّجوا جميعاً وبنوا لهم أسراً صغيرة خارج أسوار البيت وخارج أحلام أمي الاشتراكية. حتى كانت عودتي من فانكوفر مبرِّراً كافياً لينسحب آخرهم، خالد، بزوجته وأبنائه إلى منزلٍ مستقل، ليُخلي لي مكاناً في البيت على حدِّ عذره.

لعلّي أكتبُ قليلاً قبل أن أوافي أمي فلم يحن وقتُ الغداء بعد. بقي ساعتان على أذان العصر. ستجلسُ أمي في الصالة بلا جليس، وستفتحُ مذياعها ليخرج منه صوتُ المقرئ عبدالله خيّاط الذي يؤلمني بتقادمه. ولن تسمعه طويلاً. تنشغلُ عنه بالتسبيح أو تقليبِ

الجريدة الخاوية بين يديها لدقائق، مستنفرةً في سطورها قدراتِ القراءة المنحسرة وبقايا الثقافة المتآكلة، قبل أن تعودَ إلى مُصحفها وأذكارها مرةً أخرى، فتقرأ فيهما رغم ما تحفظه منهما عن ظهر قلب، أو تسعى إلى أمرٍ من أمور البيت التي لا تنتهي طبعاً، لأن أمي لا تريدها أن تنتهي.

كتابتي صعبةٌ هذه الأيام. أنا لا أنفعل بقصيدةٍ أرميها على الدفتر وأمضي. إنها روايةٌ تولد. تقليبٌ حرٌّ في جيوب الذاكرة. أحتاجُ إلى الخمول في بطن الصفحات أكثر مما أحتاج إلى النشاط. لا بدّ من المشي البطيء بعيداً عن ركضِ الأبيات الذي تعوَّدتُه. حتى لو مَثَلت كل الأفكارُ في ذهني معاً، لا بدّ أن تختمر تماماً، لا أحد يقرأ عجيناً.

كم يؤرّقني هاجسُ الرتابة، أنا الذي لم أكتب روايةً في حياتي. لأنَّ حبَّكِ الكبير هذا، حبكِ القاهر هذا، ما مرَّ عليَّ مثله من قبل، ولم تَقِفْ عليه حدودُ مخيّلتي العذراء، ولا شَغافُ قلبي البكر، ولم تتورَّد في فمي حلمةُ حبٍ قبله قطّ.

لا بدّ من كلامٍ يليقُ بأول إنسانٍ على سطح القمر، وأول حبٍ ينزلق في شِقِّ حياتي، ولا بدّ أيضاً من تأبين يليقُ بسطح القمر الذي لم يعد إليه أحدٌ بعدها، وحياتي التي ظلَّت مهجورةً بعدكِ، مثل وديان الجنّ.

يا لحبّنا، كيف أتى، وكيف رحل.

التقينا كما يلتقون، جمعتنا الحياة في أزقَّتها، لكنّنا لم نتوقَّع أن

تكون الملحوظة التي كتبتها الحياة على هامش التقائنا هناك: «سيقعان في الحب»، وعلَّقت الورقة الصفراء على لوح القدر.

دائماً أعتقدُ أن العلاقة التي نتوقَّع شكلها مسبقاً لن تكون حباً بطبيعة الحال. دائماً يأتي قَدَرُ الحب غريباً على نَسَقِ حياتنا، جديداً على أوراقنا وأحلامنا، دائماً يفرِضُ نفسه كجملةٍ لحنيةٍ مُبهِرة في نوتة العمر.

ولأن وجودكِ في مدايَ كان فوق العادة، وانفعالكِ بي كان خارج حدود الطبيعة، وعلاقتنا بأسْرِها تحليقٌ علويٌ لا تحكمه قوانين الجاذبية، ولا اتجاهاتُ الرياح، كان أن استسلمتُ له تماماً، مثل تائب.

دائماً هو الحب الأول خرافيٌ مجنون، حتى لو تأخر إلى آخر العمر، يجيء مراهقاً.

تذكّري ما قال نزار:

«حبُّكِ مثلُ الموتِ والولادة
صعبٌ بأن يُعاد مرّتينْ»

وآه لو كان يُعاد مرّتين! لو كان يُنسخ ويُعرضُ مرّةً أخرى في حياتي. ولكنها أُحادية القدر الخالدة. تمنيتُ لو كان غروركِ كاذباً عندما كنتُ أسألكِ: «أين أجد مثلكِ؟»، وتقولين لي: «مثلي تماماً؟ لا يوجد»، كنتُ أعلمُ أنكِ فُرادة الخالق على هذا الكوكب، ولكن يروقنا أحياناً أن ننطِق باليأس بعد أن تقرف منه أرواحنا.

عندما كنتِ هنا، كنتُ أفكر أحياناً وأنا ملفوفٌ مثل شرنقةٍ في المساحةِ الدافئة التي يمنحني إياها صدركِ الحاني وذراعاكِ السخيّتان، في أيِّ الأماكنِ التي نلتقي فيها، إنْ كنتُ سأجدُ بعد رحيلكِ امرأةً أخرى تختصرُ مسافة حزني عليكِ؟

هل حقاً سأجدُ بعدكِ من تصلُحُ للحب؟

سؤالٌ هَلْوَسيٌّ، ولكنه يليقُ بذهن عاشقٍ مريض كان يعلم أنَّ حبيبته سترحل بعد حين، ومع رجلٍ آخر.

صحيحٌ أن بعض النساء لسنَ أكثر من منديلٍ نمسحُ به دموعنا على فراق امرأة أخرى، ولكن منهنَّ أيضاً من تمسَحُ شريطَ الذاكرة بأكمله لتتربَّع عليها وحدها.

وأكثرُ النساء حناناً وذكاءً، لأن حنانَ المرأة وذكاءها كثيراً ما يعملان جنباً إلى جنب، هي تلك التي تتركُ وراءها عندما ترحل ذاكرةً غير قابلةٍ للطيّ ولا النسيان ولا إعادة الكتابة.

وأنتِ وجدتِ عندي ذاكرةً لم تُمَسَّ أصلاً من قبل، وقلباً خالياً لا يشغله شيء أبداً، فدخلتِ فيه بسلام، وعزَّزتِ مكانكِ ووطَّدتِ ملككِ وسخَّرتِ الدماء والشغاف والأوردة لكِ.

وإذا عجزنا عن إيجاد الدواء، لماذا نناقش بحرج مدى حاجتنا إليه أصلاً، هل نفعل ذلك لنبرّر عجزنا عنه؟

أعني، ما دمتُ عاجزاً عن إيجاد بديلةٍ لكِ، فهل أنا حقاً أحتاجُ بعدكِ إلى حبٍ يأخذني بعيداً عنكِ؟ يا أنتِ التي رَحَلت مع زوجها

إلى حيثُ لا يراكِ إلا عيناه العاريتان خلف شبابيكِ الغربة الخائنة وأرصفتها الخالية من الوفاء.

هل أنفُضُ يديَّ من حبكِ الذي جاء من حيث لا أدري، وراح من حيث لا أستطيع اللحاق به؟

حتى وإن فعلت، أيُّ امرأةٍ تلك التي ستكفيني بعد أن رفعتِ أنتِ سقف الكفاية إلى حدٍّ تعجزُ عنه النساء؟

هذا السقف الشاهق، معجزتكِ معي، ومأساتي معكِ.

عندما تنجح امرأةٌ في الوصول بسقفِ الأنوثة إلى حدٍ تتساوى تحته النساء، وتستحيل فوقه النساء أيضاً.

لأني أتصنَّمُ أمام قدرتكِ الأنثوية الهادرة. أتكسَّرُ على أرضية المعبد الحجرية. أترمَّد حُفَناً حُفَناً وأتناثرُ بين أخشابِ التوابيت وخيوط المومياءات التي تصنَّمت وتكسَّرت وترمَّدت وتناثرت قبلي. فالأسئلة التي تتركينها وراءكِ تشبهُ لُغزَ النقوش الغامضة على جدرانِ القبور، لها حُرقةُ الجرح المفتوحِ لقرون دهشةً وعويلاً، لأنها لا تستطيع فهم الأسئلة المُحنَّطة.

لو أجبتني عن سؤال واحدٍ فقط ربما أستطيع فهم مرضي بكِ: أخبري قلبي المتعب كيف تستطيعُ امرأةٌ ما أن تغيِّر ظروفَ رجل ومقاييسه ونظرته إلى الحياة وفلسفته في الكون ثم تتركُ توقيعَها على كل شيء فيه، حتى صار يشكُّ في وجودِ امرأةٍ أخرى تكفيه مرارة الوحدة التي يلعَقُ فيها جراحه؟

كيف فعلتِ هذا به، ثم رحلتِ عنه وقد انقلبت عقائدُه ومسلَّماتُه، دون أن تفكري في هذا الحرمان الصعب الذي تركتِه فيه؟ حرمان القناعة.

لماذا جئتِ شبيهةً بي إلى هذا الحد؟ ملتصقةً بإنسانيتي إلى هذا المستوى؟ متوحِّدةً مع روحي مثل ذراعيْ صليب. وكأن قدرينا كُتبا في السماء على لوحين متعاقبين.

لماذا هو تعويضكُ أكثر إعجازاً من وجودك؟ وأيُّ امرأةٍ ترينها تعيدُ كتابة حياتي مرةً أخرى لأقع بين عينيها بعدكِ، فتنتشلني من واقعي المؤلم، ولا تتخلَّى عني هذه المرّة؟

أين أجدها في بلدٍ مثل بلدي، لا ينمو الحبُّ فيه بكثرة، في بيئةٍ صحراويةٍ جافّة تغتالُ هذه البراعم الربيعية في لحظاتها الأولى، تَلبَس بها، وتُلبِسُ عليها.

ليس لدينا حبٌّ يولد حُرّاً، وينمو حراً، ويعيش حُرّاً، لا بد أن ينقلِبَ عليه الجميع، لا بد أن يُلقى أمامه بالقاذورات، لا بد أن تُزرع دونه الأشواك، ويُنفى إلى الشِّعْبِ الأجرد.

لا يوجد مولودٌ يولد بأغلاله إلا الحب، وهُنا فقط.

كِذبةٌ أنَّ أخصب أوراق الحُبِّ هي الصحراء. كِذبةٌ كل أساطير العشق التي أخرجها التاريخ من عندنا. عُذرة هذه قريةٌ خياليةٌ ضاعت مثل إرم. حصانٌ سافر عكس اتجاه الحقيقة. الصدق الوحيد هو أنَّ قيساً الذي قَبَض الجمرَ بكفّيه أمام ورد، وعُرْوَةَ الذي استفهم الحبَّ

من شيباتٍ عفراء، كلهم كانوا نُطَفاً خاطئة، خارج رحِم المنطقة.

خطأ ما وقع، لا ندري أين، لا ندري متى، محا الحُبَّ من قائمةِ المشاعر، وكتبه في قائمةِ الفضائح. فصار هذا الحب منبوذاً قبل أن يُفهم، مرفوضاً قبل أن يتكلم، ومنفياً خارج حدود الوطن حتى قبل أن يفكِّر في التمرّد.

في مثل هذه الظروف، كيف أصنعُ حُبّاً؟ كيف أبدأ عهداً جديداً على القلب الرازح تحت الكَلْمِ؟ كيفُ أرمي صوتاً في دوّامة الصدى؟ كيف أُجدِّدُ هديراً عائداً للآلة التي أكلها اليأسُ والسكوت والصدأ؟

أنا ميْتٌ حتى تقفي مرةً أخرى على أركان الروح. إما أن تعودي إلى البيت المهجور وإلا فلن أهدمه لأبني غيره. فطللٌ بالٍ خيرٌ من بيتٍ خال.

***

عدتُ من عند أمي إلى الأوراق السوداء الحائرة، والبيضاء الأشدِّ حَيْرة. ما زلتُ أراهِنُ على هذه البداية بجموح ذاكرتي ومساحة حزني لعلّها تكتملُ ذات يوم، فأعيد بها قراءة ذاتي. ربما استطعتُ في آخر المطاف أن أكمِلَ شيئاً من هذا الحب الناقص.

إنني أكتبُ فحسب مقدوحاً بما عشته من الحب والحزن، وكفى بهما. نصف أقدار البشر تدور حول هذين المحورين. ونصف مآسي التاريخ انطلقت من عندهما. وروايتي كذلك.

استويتُ على مقعدي الرمادي المعتاد على نحولي، وعلى حركتي الدائبة فوقه مثل قُنْدُسٍ متوترٍ يبني سدَّه وهو يُراقِبُ السيل. تارةً أجلس عليه باعتدال وتارةً أطوي قدماً تحتي وأنكفئ على أوراقي بميلٍ شديد. وأحياناً أعودُ به إلى الوراء حتى ألتصِقَ معه بالجدار، وأمدُّ رجليَّ فوق المكتب، وأحتضِنُ ما كتبته من أوراق، وأقرأ فيها حتى يستقرَّ في داخلي أحدُ شعورين، الرضا أو عدمه.

هل أبدأ من مولد الحلم أم من مأتمه؟

هل أجعلها رواية أم رسالة؟

وإذا كانت رواية، من سيمليها عليَّ، قلبي أم عقلي؟ وإذا كانت رسالة، من سيحملها إليكِ منهما؟

تداخلاتٌ كثيرةٌ في حياتي الماضية تجعلُ الكتابةَ عندي الآن عمليةً معقدةً جداً. كل يومٍ تزدادُ هذه الأوراق سواداً بين يديّ وهي لا تدري ماذا يُراد بها، وأنا لا أدري ماذا سأفعل بها!

تخيَّلي أن أصرخ بهذا الصوتِ العالي في مجلسٍ يُكْرَه فيه الهمس بالحب. تخيَّلي أن أضيع بين أمانة ما يجب أن أعلنه من حبنا وما يجب أن أخفيه عن عيونهم.

ولماذا أكتب؟ هل هي حاجةٌ في نفس يعقوب قضاها؟ هل هو مرض الكُتَّابِ المعتاد في فضح أنفسهم وعادتهم الأزلية في كشف عوراتهم؟ أم أنني أحاولُ فقط أن أطرُدَ ما تبقَّى من حبكِ في هذا الدفتر الأخضر، لعلّ حيِّزاً من الذاكرةِ يخلو في رجلٍ تملئينه حضوراً وغياباً؟

أتراكِ أحاولُ غسل ذاكرتي معك بهذه الرواية؟

أتُراكِ أنقضُ عهد وفائي لكِ إذا حاولتُ إخراجكِ من حياتي؟

لم أكن أتوقع أن معنى الوفاء سيكون نصّاً مغلقاً إلى هذا الحد، ولم أكن أتوقع أن سؤالاً نسينا أن نجيب عنه قبل رحيلكِ سيعود معتمراً قبّعة وجع، ماذا يعني أن نظل أوفياء؟

كيف يفي عاشقٌ أعزب لامرأةٍ متزوجة؟ هل يترهَّب؟ أم يعلِّق عينيه في السماء، وينتظر أن تعود حبيبته مع المطر؟

وكيف تفي هي له بعد أن تخلّت عنه؟ هل تدعو له في ليلة القدر مثلاً؟ أم لا تستجيب لزوجها؟ أم ماذا؟

ياللسخرية!

كيف يمكن أن أظلَّ وفيّاً لحبّكِ، وتظلّي وفيّةً لزوجكِ؟

أتُرانا تجاهلنا هذا السؤال عن عمد لنختصر من الفوضى التي كانت تُشتّت أفكارَنا آنذاك؟ أم أننا بالفعل كنا أطفالاً في الحب؟

بماذا أقنعنا أنفسنا تلك الأيام؟ وفاؤنا الضعيف كان يعني لنا آنذاك أن نتمسك بالوعود القديمة: سأتذكرك، لن أنساك، سأشعل شمعةً كل أربعاء، إلى آخر هذه الكلماتِ الضالة. ولما رحلتِ، سقطت كل أيامي من تقويمكِ، وليس الأربعاء وحده.

ما كان ليمرَّ في أسوأ كوابيس حياتي أنه سيمضي أربعون يوماً بعد رحيلكِ، قبل أن تأتيني رسالةٌ مسجَّلةٌ قصيرةٌ جداً منكِ، تعلنُ وفاءك الأول.

أنا الذي ظننتُ أن لا شيء في الدنيا أقرب لكِ مني، كما هو لا شيء في الدنيا أقرب لي منكِ، اكتشفتُ أخيراً أنَّ الكلمات التي يقولها عاشقان في لحظة عناق، والوعود التي يقطعانها في غمرة بكاء، يجب ألاّ تؤخذ بجدّية.

أربعون يوماً!

أيُّ حبٍّ هذا الذي يحتاج إلى أربعين يوماً كي تكتمل فيه دورة الحنين، ويُقرع فيه جرس الشوق؟

ماذا كنتِ تفعلين أيتها الفتاة التي بكت بين ذراعيَّ طول الليل وهي تودّعني؟ ما الذي شغلكِ أربعين يوماً عن الرجل الذي قلتِ له ملء فيكِ: «لم أكن أتصوَّر أنني سأعشقك إلى هذا الحد». فهل تجاوز زوجكِ يا ترى هذا الحد، في أربعين يوماً فقط؟

كان كلُّ يوم ٍ يمرُّ ألتمس لكِ فيه عُذراً بحجم ألمه. حتى إذا تجاوزتِ كل هذه المدة، لم أجد في قواميس الحب عُذراً يغطي خطيئتكِ، ولا صبراً يكفي صدمتي.

كنتُ أجلسُ في معتزلي الحزين الذي اتخذته لنفسي بعد رحيلكِ الجديب. هضبةٌ صغيرة تختبئ غرب المدينة وتنام ليلاً في سُباتٍ غاشٍ حتى لا يُسمعُ فيها إلا صرصرةُ حشراتِ الليل وحفيفُ الأشجار التي تؤويها أطراف الحي الدبلوماسي بالرياض، بعيداً عن ضوضاء المدينة. آوي إليها إذا انتصف الليل وأُصلّي، وأدعو في هذيانٍ أو أهذي في دعاء، ثم أنحني على التراب انحناء المفجوعين، أو

أضطجع لأتأمل السماء في حسد، لأنها تُظلّكِ الآن كما تُظلُّني، ويعصرني حبل الحنين، ويأخذني البكاء الهادئ.

كنتُ ساذجاً في حزني، كلاسيكياً في اجترارِ الأوجاع والتعايش معها.

فجأة، نَبَضت في جيبي رسالتكِ القصيرة، انتفض لها هاتفي الصغير وكأنما عاد إلى الحياة، كان رنيناً يُعتبر ضجةً على خمول الوادي. سمعتُ رسالتكِ، صوتكِ، وارتعدت في جفني دمعةٌ أفزعتها دهشة الأمل المسحوق.

«هلا عيوني، أنا الآن في سيدني، الساعة الآن السابعة والنصف، كل شيء على ما يُرام، طمئنّي عنك، سأنتظر رسالة، مع السلامة».

وانتهت حروفكِ المتقطعة.

شعرتُ أنَّ الليل فوقي انكمش وتجمَّع وتكوَّر ثم دسَّ نفسه في حلقي غصّةً لم يشهدها من قبل حلقُ رجل.

عيوني!

لماذا (عيوني)؟ وليس حبيبي، حياتي، كما تعوّدنا؟

ليس هذا ألمي، ولكن...

أنتِ تستخدمين كلماته!

كلمات زوجكِ، سالم، وأنا ما زلتُ أتذكر رسائله المسجلة التي كان يتركها لكِ إبّان الخطبة، كلها كانت تبدأ هكذا، (عيوني)، كيف لم أفكر في هذا؟ كيف لم أنتبه أن رجلاً يلتصق بكِ أكثر من ثيابكِ

طوال أربعين يوماً، في أكثر أوضاع الجسد حميميةً، سوف يزرع في لسانكِ كلماته؟

لماذا كنتُ حياتَكِ، ثم تقلَّصتُ لأكونَ عيونَكِ فقط؟ هل كنتِ بذلك تُعلنين أن بقية جسدكِ لم تعد لي؟

هل كان انتظاري أربعين ليلةً يستحقُّ منكِ ألماً كهذا؟

كم كانت درجاتكِ في امتحان الوفاء الأول مُزرية، وكم تعاقبت بعدها الانحدارات، وكم تضخَّم العار.

تبقى المرأة متوازنة حتى تتذوّق رجلاً ما، فيخلطُ في داخلها كل الأشياء، بدءاً من لسانها، ومروراً بقلبها وماضيها وحبها ووفائها. تدخل فراشه متماسكة، لتخرج منه وهي امرأة أخرى، لها سلوكٌ مختلف، وعقيدةٌ أخرى، وذاكرةٌ جديدة.

كيف قررتِ أن تتركي لي رسالةً تلك الليلة يا تُرى؟ ولماذا بعد أربعين يوماً تحديداً، وكأنّ فِراقنا كان ولادةً كئيبة خرجتِ من نِفاسها توّاً؟ أتُراكِ زرتكِ في منامكِ تلك الليلة، فتذكرتني؟، أم أن رجلاً مثل سالم أقام متاريسه على وسادتكِ أيضاً، كما أقامها على جسدك؟ من أين تسلّلتُ إلى جفنكِ إذن؟ إنَّ امرأةً لم أمثل أمامها بكل مصائبي طوال هذه المدة، هي امرأةٌ عمياء، لا أريد أن أكون (عيونها).

مكثتُ على الليل، أقلِّبُ في نبضة الحزن هذه. لماذا يجمعنا الزمان ولا يجمعنا المكان؟ ها أنتِ تسجّلين رسالتكِ وأنا أسمعها

في غضون ثوانٍ، ولكن أين أنتِ، وأين أنا؟

كمْ تبعدُ سيدني تلك عن هضبتي هذه؟ يا الله، ما أبعدكِ، وما أشقَّ الوصول إليكِ، وما أصعب إقناعكِ بأني أموت!

شعرتُ بالاختناق، أخذتُ نفساً كبيراً وتمددتُ على سجادتي مُبحلقاً في السماء، وفي جفني مصنعُ دموعٍ نشِط.

لماذا يا مها؟ لماذا؟

أيُّ بلدانٍ تلك التي زرتها في شهر العسل جعلتكِ تنسينني بقسوة؟ أيُّ مدنٍ تلك التي تخدِّرُ القلوب وتصادر المشاعر وتجرِّدكِ من الوفاء قبل أن تتجاوزي صالة التفتيش في المطار؟

هل اكتشفني جهاز كشف المعادن معكِ فرميتِ بي على الفور قبل أن تُفضحي أمام سالم؟ هل انتزعني المفتشون من قلبكِ ثم أعادوني على أول طائرة، لأن جواز سفركِ لا يخوّلكِ أن تجلبي معكِ حبيباً؟

أيُّ فنادق تلك التي تتجمدين أمام هواتفها عاجزةً عن تذكُّرِ رقمي؟ أيُّ أقلامٍ تلك التي نَسِيَتْ كيف تُرسَمُ حروف عنواني؟ أيُّ امرأةٍ تلك التي أطفأت رجلاً في عقلها بهذه السهولة؟

هل يبيعون تعاويذ نسيانٍ خارج الوطن؟ اجلبي لي بعضاً منها يا حبيبتي.

شهرُ عسلٍ سعيد إذن أيتها القمر الغائب، شهرُ ألمٍ لم يعرف مثله في حياته الرجلُ الطافي على يمِّ نكْبته. لا تعليق لديَّ. لا تعليق لدى

الحياة. ربما كانت خلف جبينكِ أفكار امرأةٍ متقلِّبة بين رجلين لا تعلم أيهما تحب.

بدأ يشربُ منكِ سالم. بدأ يسلبكِ جمالكِ وروعتكِ ورواء جسمكِ. بدأ يمارسُ إقطاعيته الشرقية على الأرض الجديدة التي ضمَّها إلى أملاكه. فهل تتصورين شعوري الآن؟

أربعون يوماً على قصبة الشنق، هكذا يموت المخلصون.

والرياض في شهر يوليو، وخمسون درجةً مئويةً توقِّعُ عليها الشمس كل يوم.

كُليتاي تبتسمان للموت قريباً؛ تماماً مثلما تبتسمين لسالم عندما يستيقظ ذات صباح، ويسألكِ عن تفاصيل الليلة الماضية.

عدتُ إلى البيتِ ونجوم الليل تستحي مني لفرط حُزني. جررتُ الخُطى جرّاً. دسستُ المفتاح في الباب البارد. تجاهلتُ أختي أروى تماماً وهي تناجي هاتفها في الحديقة وتبحلق فيَّ بدهشة. صعدتُ إلى غرفتي وليس في جبيني فكرةٌ تشبه أختها لفرط ما كان يكتنفني من ظلماتِ الحَيرة.

كتبتُ لكِ رسالتي عبر البريد الإلكتروني. كان يكفيني ربع ساعةٍ فقط حتى أفي لكِ. ربع ساعةٍ هو زمن استماعي إلى رسالتك وبكائي عليها، بينما يمرُّ أربعون يوماً قبل أن يصل وفاؤكِ الضئيل هذا.

أيُّ عُتْبى تُرضيني، وأيُّ عتابٍ يكفيك؟

عاتبتكِ في رسالتي على ترحيبكِ الموجع، وسردتُ أوجاعي، وختمت.

بعد هذا الموسم الخصب من الألم، حاولتُ ألفَ طريقةٍ لأتخلَّص منكِ، ذاكرةً، ووجعاً، وحلماً.

أنا الذي لا تقتلني أحزاني بقدر ما تقتلني أحلامي، آمنتُ أنه يجبُ أن أتخلَّص من الأحلام الزجاجية التي انكسرت وإلا آذتني شظاياها.

حاولتُ أن أنساكِ، لأني لم أكن أعتقد أن بقائي معلَّقاً على عارضةِ الحب يُعتبر وفاءً، بينما تأوين أنتِ إلى فراشِ رجلٍ آخر كل مساء، بمحض رغبتكِ واختيارك.

ولكنَّ نسيانكِ هذا تمنَّع عليّ، وفشلت محاولة...

حاولتُ أن أكره بعض تصرفاتكِ الخادشة جدران الذاكرة، جمعتُ كلَّ ما آذيتني به طوال أشهرنا الأربعة عشر: علاقتَكِ الماكرة بسعد، حُبَّكِ القائم لحسن، خيباتي الكبيرة عندما أطلقتِ عليَّ عيارَكِ الناريَّ الشهير: «لستَ إلا مثلهم»، وارتماءَكِ في أحضان سالم بعد ضجة الحب معي، ثم أخيراً، هذا الوفاء الوضيع الذي لم يستحِ أن يأتي بعد أربعين ليلة.

حاولتُ أن أعبر كراهيتي لتصرفاتكِ هذه جسراً إلى الرضا والتسليم بأن رحيلكِ لم يكن خسارةً كبرى، ولكني اكتشفتُ أخيراً أنني كنتُ أرسم أفكاري على مساحةٍ من الرمل لا تلبث أن تغمرها موجةٌ قاسية

فتساويها ببعضها، فكففتُ يديَّ عن هذه السخافات، وتوقَّفتُ عن محاولةِ العبث بالأوراق القَدَرية، وتعلّمتُ من هلوَسة عاشق محموم أن ما تكتبه الأقدار لا يمكن أن تمحوه الأيدي، وفشلت محاولةٌ أخرى.

لأن رحيلكِ، بالفعل، كان خسارتي الكبرى في بورصة الحياة.

لماذا أُعلِّقُ نفسي بكِ مثلما يتعلَّقُ الجهلة بأولياء الله الصالحين؟ لماذا محوتُ بيدي كل ما كتبته على جدران المستقبل، ثم كتبتُ اسمَكِ بطبشور الوهم على كل زاوية وحائط وقطعة طوب؟

يا امرأةً تزرع الأسئلة في عقلي مثل السيوف، لماذا أنا مرهونٌ بيديكِ إلى هذا الحد؟

حاولتُ أن أسيء أدبي مع الحب نفسه، ما هو هذا الملعون؟ أليس إلا محاولةً لتحسين صورة الأقدار في حياتنا؟ الحُبُّ هذا قَدَرٌ ناقصٌ، لا يمكن أن يكتمل يوماً ما. إنه دائماً يجيئ بما يكفي لنحترق، ثم ينسحِبُ سريعاً ويتركنا في مواجهة هذه النار المتأججة.

أريد أن أفهم لماذا لا يُكمِلُ الحبُّ دائماً ما بدأه؟

لماذا يستغلُّ دائماً دهشتنا به ليرحل؟

ولكنّ محاولتي هذه أيضاً جاءت فاشلةً، كان الحب في قصتنا هذه سخياً إلى أبعد الحدود، ولكن يبدو أننا لم نحسن التعامل معه، ففرَّ من أيدينا.

قرَّر لحظتها مذياع سيارتي أن يغني: «ياالعيب فيكم، يافحبايبكم»، في اللحظة التي كنتُ أفكر فيها فعلاً، هل العيبُ فيَّ أنا الذي لم أكن

بمستوى تضحيتكِ، أم فيكِ أنتِ التي لم تكوني بمستوى وفائي؟

لأن كل الأشياء، عندما ننهار، تسخر منا.

أن يكون الزمان والمكان مناسبين، هل هي مشكلة الحب، أم أنها قضيّتنا نحن أن نجعلهما كذلك؟

هذا هو السؤالُ الغارقُ في وحلِ مجتمعنا.

***

مأساتنا أني عندما أحببتكِ، كنتِ مخطوبةً أصلاً لسالم، ومنذ أسابيع قليلة فقط.

كانت الخطبة قد أُعلنت رسمياً على الملأ، بعد أن عاين الرجل بضاعته التي امتدحوها له مرتين، فجاءت على قدر المساحة الخالية التي بقيت من حياته. وافق هو، ووافقتِ أنتِ، وليس في قلبيكما نبضةٌ واحدةٌ تُبارك هذا القرار، والدليل على ذلك، حبنا الذي بدأ تماماً بعد هذه الخطبة بأيامٍ فقط.

وانطلقنا في هذه المتاهة الطويلة الحزينة التي لم أخرج منها حتى هذه اللحظة.

شعرتُ أن الحُبَّ لِصٌّ، اختَلَسَنَا من غُرفاتِ الحياة، وعلَّقنا في السماء، وهرب.

ماذا أفعل بامرأةٍ مرتبطة؟ وماذا تفعَلُ هي برجلٍ لا يملِكُ لنفسه من حبها دفعاً ولا اتقاءً؟ رغم أننا بدأنا ونحن على درايةٍ بكل ما يتراءى

أمامنا، نعلم أننا سنفترق، سنحترق، إلا أنني لم أعد أدري أين كانت تلك الفجوة الزمنية التي عبرناها ساهِمَيْن، فإذا بنا قد عشقنا وغرقنا دون أن نعرف لهذا الحب معنى أو نلتمس له أملاً في وسط ظروفٍ كهذه.

منذ البداية كان حبي لكِ قلِقاً مشوباً باليأس. كنتُ أتعامل معه كما أتعامل مع رجلٍ ميت. تروعني صُفْرةُ وجهه وشحوبُ ملامحه وحَفَنَاتُ الرماد التي تتساقط من جسده النحيل. أنتِ مسجّلةٌ في دفاتر الحياة باسم رجلٍ آخر. لم يكن اعتباره لكِ وأهمّيتكِ عنده تتعدَّى كونكِ امرأةً تحملُ شهادةَ تزكية من إحداهنَّ، فقط.

ضآلة القلب عندما تبيع امرأةٌ حبها العظيم بهذا الزهد.

وقِلّة البصيرة عندما تظنُّ أن من يحبها يقلِبُ الموازين، ويخترع هذا التمرُّد، ويكتُب، ليحرِّضها فقط، بينما الحب الحقيقي لا يحتاجُ إلى تحريض ليجعلنا نغيّر شكل حياتنا بأسرها، من أجل من نحب.

حقيقةً لا ظنّاً، بدا لي سالم بِرميلاً صدِئاً، نُسخةً مكرّرةً من آلاف الرجال الذين يدبُّون في مجتمعنا بلا فائدة، ويعيشون النمط نفسه، والفكر نفسه، والغباء نفسه. الفلسفة الطَّبَقية تُغلِّفُ إطار حياته، بمقدارٍ لا بأس به من الانتفاخِ الفارغ الذي لا يحوي شيئاً. غرورٌ مهجَّنٌ بالجهل، ولؤمٌ مثير للشفقة، يظنُّه هو ذكاءً وقدرةً على إغراء امرأةٍ مثلك، وهو يحاول أن يبدو وسيماً ولبِقاً.

لستُ أدري أيُّ الأشياء كان يمنحكِ حداً أدنى من الانجذاب إليه أو الرضا به. كان يكبركِ بعشر سنواتٍ تقريباً. وعقلكِ أنتِ يكبره

بعشرين سنة على الأقل. هو رجل السطح دائماً. الطافي على الماء مثل الطحالب الميتة. وأنتِ اللؤلؤة النائمة في محارتها العميقة.

هل يُعقلُ أن تتزوَّج أميرة البحر من ضفدع الضفة؟

أتذكّر تماماً ليلة العقد، قبل أن يُفتح عليكِ الباب ليُدخلوا دفتر النكاح في انتظار توقيعكِ. كان صوتكِ يأتيني عبر الهاتف خائفاً مرتعشاً بالدموع. قلتِ لي: «ابقَ معي حتى آخر لحظة». ظللتُ أناجيكِ والهمُّ قائمٌ فوقنا كسماءٍ سوداء كالحة، حتى إذا جاءت اللحظة المؤلمة، وجاء دفتر النكاح، وأغلقتِ سمّاعة الهاتف، شعرتُ أن نصلاً حاداً يخترقُ جسدي بكل عنف، ويجولُ في أرجائه ممزّقاً اللحم والعروق والأعصاب، وناثراً الدماء في كل مكان.

على أوراق ذلك الدفتر، وقَّعتِ بيدكِ المرتعشة قرار إعدامي.

عاد الدفتر إلى الجمع الرجالي. هنّأوه جميعاً بكِ، ولم يُعزّني فيكِ أحد. وتحوّلتِ إلى امرأةٍ متزوجة في اللحظة نفسها التي تحوّلتُ أنا إلى رجلٍ ميت.

الحياة ملأى بهذه الدفاتر المزدوجة التي تصلحُ عقدَ نِكاحٍ لرجل، وشهادةَ وفاةٍ لآخر.

هل تُرى علمت الأيدي التي توقِّعُ عليها شيئاً عن هذا الوجه الأسود للورقة التي تبدو بيضاء؟

صرتِ الآن زوجته شرعاً، لن يكتفي منكِ بصوتكِ هذه المرّة، لن يتركَكِ لي كما كنتِ طوال أشهر، سيطرق بابكِ متى شاء، ويصحبكِ

متى شاء، ويتسلَّى بكِ بطول يديه حتى تأتي ليلة الزفاف بعد شهر آخر.

كنتُ أجلس على الكرسي الرمادي نفسه الذي أكتبُ من فوقه سطوري هذه. رعبُ تلك الليلة لم يبرح ذاكرتي حتى الآن.

أُطرق في صمتٍ والفكرة الرهيبة تقبضُ على دماغي بقسوة. لساني يخشى تماديه، ودبابيس الأسئلة تُدمي أفكاري.

لماذا أحببتكِ دون أن أعي ما أنا فيه من هوانٍ وضياع؟ ودون أن أحاول اتخاذ قرارٍ ما بشأن الهاوية التي تقترب؟ لماذا أجَّلتُ كلَّ الأشياء وبقيتُ أختلس حبكِ اختلاساً طوال سنة، تتخللها لحظاتٌ أفيق فيها من خَدَري، لأجلس معكِ جلسة مبتهل، أتوسَّل إليكِ بدموعنا معاً، وليس دموعي وحدي، أن تفعلي شيئاً لهذا الحب الذي ينتظر إعدامه؟

لا بد من تضحيةٍ ما، لا بد من ضجَّةٍ ما، فالأقدار لن تمنحنا كل ما نريده دون سعي.

رغم كل وعودِ الصمود التي وعدتكِ بها قبل أن ترحلي، فقد توقَّفَت حياتي تماماً. أصبحتُ أحيا خارج الزمن، وخلف المدار، وقبل الشمس بأمتارٍ قليلة. أخذتُ أفلسف هذه الحالة. أحاول أن أُبصِرَ في البلقع الذي تركتني فيه شيئاً أعيش لأجله. ألتفتُ يمنةً ويسرةً، وأركع وأسجد، وأرشو مِخدّتي كلَّ ليلةٍ بألف دمعةٍ لعلّي أنام، ولا أجد إلا الأمل الخافت الصعلوك، الأملَ بأن تكتشفي يوماً أنكِ فرَّطتِ في

الحب الكبير الذي لا يتكرَّرُ في الحياة، وضيَّعته إلى الأبد.

يبدو أن البداية البسيطة كانت مضللة فعلاً بالنسبة إلى رجل مثلي، أنا الذي لم أنزلق في الحب من قبلُ حتى أدرك أنه يجب أن أنتبه جيداً أين أضع قدميَّ، وأنتِ التي تصرَّفتِ بعفوية أنثى شرقية تدرِكُ أنه ما من قوةٍ في الدنيا توقِفُ نبضاتِ قلبها عندما يقرِّرُ أن ينبض.

***

إلى لقائنا الأول تهربُ مني ذاكرتي.

صباح الخامس من أبريل. اليوم الذي وجدتكِ فيه غارقةً في قراءةِ قصيدةٍ لي علَّقتُها في جريدة، ووجدتُ نفسي غارقاً في إطراءِ امرأة رقيقة، ووَجَدَنا الحُبُّ فجأةً في هذه الفرصة السانحة، فألقى علينا شِبَاكَه، وهَرَب.

مرَّت دقائقُ قليلة فقط ونحن نتحدَّث. ذهبتُ بعدها لأنام بينما ذهبتِ أنتِ إلى الجامعة. هذا ما كنتُ أعلمه، أما ما لم أكن أعلمه فهو أنَّ هذه الفتاة التي تركتني في لقائنا العابر ذاك سوف تعود لتعيش معي قصّة حُبٍّ بيضاء، تزيِّن فيها شعرَها كل يوم بثلاثةِ عصافير تخرجُ من قلبي.

بكل هذه البساطة التي تكاد تخرج عقولنا من جماجمها تقلبُ الأقدارُ حياتَنا.

بعد ستة أيام فقط من هذا اللقاء العابر، كنتُ أناديكِ عبر سمّاعتي.

- آلو..

وتصمتين، أكرّر بصوتٍ أعلى:

- هل تسمعين؟

ويأتيني صوتُكِ والحياءُ ينقِّطُهُ حرفاً حرفاً:

- أسمعك، لكن أرجوك لا تصرخ.

- لم أكن أصرخ.

- أكادُ أبكي حياءً منك، قلبي ينبض.

وتنتفخُ رجولتي بسذاجة. بعد أعوامٍ من الأمنيات والرغبات، وسنواتٍ من الرجولة المعطَّلةِ الصامتة، ها هي أخيراً فتاةٌ تكلّمني، وتخجَلُ مني.

أحشُدُ ثقتي حشداً، وأغيِّرُ نبرتي، وأرحَلُ معكِ إلى حيثُ تأخذنا الكلمات.

بعد بُرهةٍ من حديثنا الذي كان يُقطِّعه الخجلُ تارةً وازدحامُ الأفكار تارة، يرنُّ بجواركِ هاتفٌ آخر. ألتقطُ رنينه بأذنٍ لهفى. تتركينني لدقائق فيكسوني فضولٌ نَزِق، ثم أتسربلُ بالشوق الأول إليكِ. تعودين، وأتخذُ أنا قناعاً مازحاً:

- من تكون؟

- قُل: من يكون؟

أبتسمُ بقلق، أصطنع اللامبالاة محاولاً كسب ثقتك.

- اتصالٌ عاطفيٌ إذن؟

- حرام عليك، كان خطيبي!

بعفويتكِ إذن وقبل أن نخطو خطوةً واحدة، كنتِ تفصلين تماماً بين سالم وعاطفتك إلى حدِّ التحريم، ولكني لم أنتبه لهذا في خِضَمِّ خيبة أملٍ صغرى أخذتني لوهلة، بينما عمرُ علاقتي بكِ يحبو نحو دقيقته الخامسة تقريباً.

أنتِ مخطوبةٌ إذن، خيِّل إليَّ أني سمعتُ قلبي يتثاءب، ويعود إلى النوم.

ولكني سأبقى معكِ على أي حال، ليس هناك ما يمنعنا من الحديث.

وليتني امتنعت.

شوقاً بعد شوق، صرتُ أجِدُ في صوتكِ ملاذاً لمللِ الشاعر الهادئ، وطريقاً آمناً أسلكه في ردهاتِ الليل قبل أن أنام، وصباحاً بارداً ممتلئاً بالغيوم، أستقبِلُ فيه صوتكِ الطريّ، وأنتفضُ في فراشي مثل طيور البحر.

صرتُ قبل أن أنام أدقُّ أرقامكِ بأصابع سكرى وأنتظر. جفافٌ، صمتٌ، جفافٌ، صمتٌ، ثم تمطِرُ السماواتُ دفعةً واحدة، وتولدُ في غرفتي مظاهرةٌ كبرى، تتجمَّعُ فيها النجمات صفوفاً، وتنزل الطيور

ألواناً، وتحتشد الأقمار، وتزحف الأشجار، ويُصغي الجميع إلى خطابِ القائدِ المُلهَم الذي قرَّرَ في غمرةِ انهماره العنيف أن يؤمِّمَ هذا الليل بقرارٍ جمهوري، ليلاً خالداً سرمدياً من أجلكِ أنتِ، وحدكِ.

بدأتِ تهمسين باسمي، ناصر، فتنصهرُ الأوردة التي احتَقَنَت شوقاً من أول الليل.

لم يعد بابُ غرفتي صامتاً أمام أهلي، منغلقاً على أوراقي وانطوائي. الآن صار عندي صوتُ امرأةٍ حنونٌ. أخبِّئه تحت لحافي، وأنزلُ معه مسحوراً بكل نبراته ودرجاته.

يا الله، كم تَحَلَّبَ ريقي أيام المراهقة على رغبة، على أمنية شاردة، أن تكون عندي أنثى أناجيها، فقط أناجيها، لا أطمع في أكثر من ذلك.

يؤجِّلُ الله أمنياتنا، ولا ينساها.

منذ الطفولة وأنا أستعذبُ اللهوَ مع الفتيات، بعيداً عن عنف الصبيان ومشاكساتهم. أمكثُ طويلاً معهنّ بين العرائس والمرايا، وما أن يتغامز عليَّ الأولاد، أو تتآمر الفتيات على وجودي بينهنّ، حتى يبدأ التنابز والإهانات التي لا تتحملها ذكورتي الناشئة، فأنزعُ نفسي من بينهنّ، وأعود إلى مجتمع الأولاد.

لا عجب، في الرياض يعلّموننا أحياناً كيف نكون ذكوراً قبل أن يعلّمونا كيف نكون بشراً. تكتمل ذكورتنا قبل إنسانيتنا. ويجتهدُ الجميع في تلقينِ هذا الدرس، حتى النساء أنفسهنّ، يربّينَ أولادهنَّ

على الذكورة الصرفة، ويوحينَ للابن منذ طفولته بأنه رجل، لا يجدر به اللعب مع البنات.

ولم أفهم كيف يمكن لأمٍّ أن تربّي ابنها على انتقاص بناتِ جنسها دون أن تدري. فيكبر الفتى وهو مُستعلٍ على النساء، وتكبرُ الفتاة وهي خائفةٌ من رجلٍ لم تعرفه. لم أفهم قطّ لماذا يعلّمون الأولاد دروس التفاضل على النساء، ولا يعلمونهم دروس التكامل معهنّ من أجل معادلة صحيحة.

***

يأتيني كوبُ الشاي ساخناً تحمله الخادمة. تطرُقُ الباب بحياء، وتستأذن بأدبها المعهود، وتضعُ الكوبَ بين يدي. تطفو على سطحه وريقاتٌ من النعناع وأبتسمُ لمرأى أوراقه الطافية بوداعة، وأنا أسترجع معكِ ذكرياتِ الكلماتِ ومدلولاتِها، وأرشُفُ رشفةً أجاملُ بها عائشة قبل أن تذهب، وأتابعُ خروجها على استحياءٍ كأنها رسولة الشيخ إلى موسى، آخذةً معها كوبَ الحليب الصباحي الفارغَ من فوق مكتبي، وساحبةً وراءها الباب إلى حيث كان.

قالت لي مرةً: «أنت تشبه ابني»، كانت أعوامها الخمسون جليةً على ملامح وجهٍ لم يعرف إلا الكدح طوال العمر. ولدٌ وخمس بناتٍ وزوجٌ سكّير، وعمرٌ يقترب من نهايته قبل أن يومض فيه الفرح. كيف تُراها تملك حتى الآن قدرةً على تدليلي لأني أشبه ابنها؟

عائشة أحياناً تأتيني بكوبِ الشاي دون أن أطلبه، ما أن تنتبه

لوحدتي في الغرفة حتى تحمله إليَّ بسعادة، أو ربما بأمومة من تحمل إلى ابنها شرابه المفضل.

منذ أحببتكِ وأنا أستلذُّ الشاي كثيراً. اندهشتُ كثيراً لهذا الوحم العاطفي الذي انتابني أثناء حبكِ، وبعده.

هل كنتُ أحاول تقليدكِ في ما تحبّين وما تشتهين؟ ولماذا صرتُ أشتهيه مثلكِ خالياً من السكّر تماماً وكأنّ حلماتِ التذوّق أصبحت مربوطةً برغباتِ القلب؟

أتذكَّر عندما قلتِ لي مرّة: «لا تكن رائعاً إلى هذا الحدّ»، وكانت عيناكِ بِركتيْ دموع، ولم تعرفي أني كنتُ أكرِّسُ كل قطرةٍ من دمي لإرضائكِ، أحاولُ أن أشتري بها عودتكِ، قبل رحيلكِ.

ولم يُجدِ ذلك شيئاً للأسف. لم يُجْدِني أني كنت رائعاً إلى هذا الحد. بنيتِ لي غروري وحطّمتِهِ باليد نفسها.

احتسيتُ الشاي بسكينة، وتعلَّقت عينايَ على الجدار المقابل، ودارت ساقية الذاكرة ببطء.

لا أدري لماذا تذكَّرتُ تحديداً، دون كل سقطاتِ الذاكرة، اعترافاتنا الأولى الغارقة في حيائها عن دهشاتِ البلوغ. ربما هو النعناع الطافي ذكَّرني بذلك. أنا الذي عرفتُ منكِ التفاصيل، وتفاصيل التفاصيل، وأنتِ التي كنتِ أول كتابٍ أقرأه في علم الأنوثة.

كيف انتابتنا حالات البلوغ؟ وكيف لوَّحت لنا تلك المرحلة السنِّية الحاسمة فجأة، وكيف بُحنا بها لبعضنا للمرة الأولى.

قطَّرتُ لكِ حكايتي بخجل، كيف أخذني بلوغي على حين غرّةٍ بينما كنتُ أشاهدُ فيلماً كرتونياً في الثالثة عشرة من عمري، وأضحكتكِ كثيراً على هذه الهجمة الفسيولوجية على الحالة البريئة التي ينتابني فيها الشبق.

واعترفتِ بدوركِ بعد تردُّد قصير، وحياءٍ كثيف، أنكِ فوجئت، أو فُجِعتِ، في الحمّام بدمائكِ الأولى.

يبلغُ الذكور بلذَّة، وتبلغُ الإناث بألم.

كم من الناس تمنّى لو ظلَّ طفلاً قبل أن يكتملَ لباسُه البشريُّ الكامل؟

لكي نكون بشراً كما خلق الله البشر، لا بد أن تنمو في بطوننا شهوة الجسد، وفي عيوننا حبُّ الدنيا، ونظلُّ نلبسُ فيها ومنها ضَعْفَاً فوق ضَعْف، مقتربين أكثر وأكثر، من حقيقتنا البشرية الأولى.

عندما كنا أطفالاً، كنا أقوى.

أعودُ إلى دفتري، وأحاولُ أن ألتقطَ فيه السطورَ الأخيرة.

تفاضل، تكامل، بلوغ، نعناع.

اضطرابٌ واضحٌ لكاتبٍ لا يستطيع السيطرة على انفعالاتِ ذاكرته.

لن أمحو شيئاً، فقلمكِ الأبيض الصغير بدون ممحاة.

سأعود من حيث انحرفت، وأترك انحرافاتي شواهدَ على كتابةٍ حائرة، مثلما هي آثار الإطارات المنحرفة في صفحة الشارع، شواهدُ

قيادةٍ متهورة.

من السماء حقاً نزلتِ عليَّ عطاءً إلهياً لا يُردَّ. في صِغري، وقف خوفي وانطوائي في وجه وصولي إلى فتاةٍ أخرى تجلس معي على كرسيٍّ بوح، لأني كنتُ أنطفئ خجلاً فلا أسعى كما يفعلون. كنتُ أسلِّي نفسي وأتعزَّى بالصمتِ والكتابة وأصنام الخيال. أتمتمُ في خواء الروح: «سأنتظرها، ستجيء وحدها مثل أقدار الله»، ولكن المراهقة قَضَت مني وطراً ونسيتُ الشأن، حتى طرقتِ أنتِ بابي على غير موعد.

أتذكَّرُ في طفولتي إغفائي الخادع الذي كنتُ أمثِّله بجوار أخي عمر وهو يسحبُ صوته خافتاً ليناجي فتاته ويظنُّ أن أعوامي الخمسة لا تعي ماذا يفعل. وأنا أدركُ أنه يمارسُ ممنوعاً وإلا لما اختبأ. ويعشقُ بسعادة وإلا لما ارتجف. ثم ألمحه يُقبِّلُ سمّاعة الهاتفِ عشرين مرةً قبل أن يعيدها إلى مكانها وينام.

تعلّمتُ آنذاك أنَّ للحب ثلاثة ملامح: ممنوع، وجميل، وللكبار فقط. وقررتُ أن أرتكبُ الحب عندما أكبر. كبرتُ، وكبرتُ، وبعد العشرين بسنوات، جاءني حبكِ. وأخيراً قلَّدتُ عُمر في ما فعل تماماً تلك الليلة التي نمتها معه في غرفته.

كنتُ أتسلَّقُ صوتكِ حرفاً حرفاً. وأنزلق، لأعيد المحاولة، مثل نملةٍ جائعة تتسلَّقُ جبلاً من السكّر. كنتُ أتشبَّثُ بالكلماتِ التي أخشى ألا تعود، وأدورُ حول المعنى الذي

أحلُمُ به كثيراً، وأهربُ بعيداً بعيداً عن كل ما قد يجعلُ المكالمة الليلية تنتهي.

منذ البداية كنتُ ضئيلاً إزاءك، ومنذ البداية اعترفتُ لكِ بالعلوّ والمِنّة، وتنازلتُ لكِ عن حق القِوامة كأول رجلٍ يفعلها في التاريخ، وقلتُ لكِ بحرفٍ وحيد: «لكِ الفضل في كل ما نفعله، وليس لي منه شيء»، وجاءني صمتكِ المغرور جميلاً، وكنت قد عشقتُ فيكِ الغرور كما يعشقُ الآخرون التواضع.

أعلمُ أنَّ ما أكتبه الآن لو قُدِّر لي أنْ أخطَّهُ على ورقٍ شفّاف لوجدتُ أنَّ في الدنيا ملايين العشاق أستطيعُ أن أضع ورقتي على أوراقهم، فلا أجد فرقاً بارزاً. ليس الحب مفارقةً كبرى. ليس حادثةً كونيةً غريبة. إنه انسياقٌ فطريٌ لنواميس الطبيعة. لذلك يتكرر ملايين المرات ويأتي عادياً، سهلاً، بينما تتجلى أسطورته في ذواتنا، وليس على السطح من حيواتنا.

بدأ الحب يتسرَّب من حيث لا ندري، وبدأتُ أمرضُ بكِ يوماً بعد يوم.

أبقى في مناجاتكِ حتى تسقط السمّاعة من يدكِ وتنامي، ويوقظكِ عند الغد صوتي، حتى أظفر قبل الجميع بلذةِ سماع صوتكِ المغموس في خَدَرِ النوم.

بين حدَّي اليقظة، بين النعاس والفواق، ثمَّ صوتي.

كان استيقاظكِ دائماً ما يبعثُ في عروقي اشتهاءً لا أفهمُ كُنهه.

الصوتُ الضعيف الواهي الذي يسألني ساعةً أخرى ينام فيها. والتأوّهاتُ الخفيفة التي تخرجُ من فمكِ لتدخل في دمي. وتمطّيكِ الفاتن في سمّاعة الهاتف وأنا أكاد أسقطُ في غيبوبة الرغبة عندما تأتيني أول قُبلةٍ بعد الاستيقاظ.

حتى تكوني قريبةً من سلكِ الهاتف البعيد عن سريرك كنتِ تنامين على الأرض ليتسنَّى لكِ النوم على صوتي حتى ولو أورثكِ هذا آلام الظهر عند الاستيقاظ. هذه الآلام الطفيفة التي يبرّرها الشوق كانت تجعل استيقاظكِ أكثر إغراءً ودلالاً، وأبقى أعالجها معكِ بحنانٍ لا أملك غيره. حتى تقومي أخيراً من فراشكِ الأرضي البسيط، وتبدئي يومكِ.

حتى وأنتِ تغتسلين صباحاً هناك مجالٌ لحديث. تجول الفرشاة في فمكِ فتتبعثر الحروف دون فهمي، وأنا معلَّقٌ على الطرف الآخر من الهاتف، مبتسماً كطفلٍ أبله، وفي عينيَّ دُوار الحشَّاشين في جغرافيا النعاس. وورائي ألف عملٍ ينتظر إنجازه وهو يموتُ في أدراجي وأوراقي. وأنا أهمِلُ كل شيء، وأتناسى كل شيء، وأقضي معكِ اليوم كله على هاتفي. أمزُجُ الظنَّ باليقين، ولا أدري ما الذي ستغيِّره في حياتي هذه الفتاة التي لا يشبهها شيء في الدنيا.

مرَّت أيامٌ فقط على هواتفنا الأولى، قبل أن أراكِ لأول مرة.

خرجتُ من البيتِ مدعواً لغداءٍ عائلي في منزل عمي. كُنَّا على

أعتاب صيف يشبه هذا الصيف.

وهذا الفصل من السنة يؤرقني كثيراً. فيه عرفتكِ، وفيه تخلّيتِ عني، وفيه بدأتُ كتابة روايتي، مع اختلاف السنين.

وجدتُ نفسي أقود سيارتي تلك الظهيرة إلى حيث لم أتوقع، سلكتُ شارعَ التخصصي شمالاً، اجتزتُ نفقاً، انعطفتُ يميناً بعد إشارتين، ووقفتُ عند ثالثةٍ مزدحمة.

بدأتُ أهاتفكِ من هاتفي المتنقل. كان الانعطاف يميناً يقودني إلى بيت عمي، أما يساراً فيقودني إلى بيتكِ. كنتُ أعرف أين تسكنين لفرط ما كنتِ تثقين بهذا العابر منذ ليالٍ فقط. فكَّرتُ أن أقصد بيتكِ لعلّي أرى بعيون رغبتي الغريبة ذلك الجدار الذي يأتيني صوتكِ من خلفه. تملَّكتني الفكرة، أدرتُها في رأسي سريعاً ريثما تمنحني الإشارة ضوءها الأخضر.

ماذا لو أغضبكِ هذا؟ ماذا لو أدّى بكِ إلى التراجع عن علاقتنا التي تبدو شقيةً من بدايتها؟ ولكن ماذا لو أن المفاجأة تروقكِ، وتغمركِ السعادة عندما أخبركِ أني الآن أقف تحت شباككِ مباشرة؟

كنتُ أتمنى لو تقع عيناي على هذه الفتاة التي تحملني كل ليلةٍ إلى فراشي، وتعتني بي كثيراً، وتغمرني بحنانها وودِّها، قبل أن تتركني أنام، ترى كيف تبدو؟ كيف هي ملامحها، عيناها، شعرها؟

ولكنني قَلِق.

الرياض مدينةٌ كبرى، نصفُ هواتفها عِشقٌ، ونصفُ هذا العشق

مراودة. وأنا أخشى لَبْسَاً كهذا تتبرئين به مني. أعلمُ أن أنوثتكِ مختلفة، وطيورك الواثقة أعلى تحليقاً من كل طيور المدينة، غير أني لم أكن أثق تماماً آنذاك بأن هناك امرأةً ناجيةً من أسطورة الخوف في بلادنا. كلهنّ يخشينَ الألسنة، ويحذرنَ التمادي، وأنتِ فوق هذا مرتبطةٌ برجل، فأيُّ حماقة أرتكبها عندما أستغلُّ معرفتي بكِ، ومن تكونين، وأين تقطنين، لأتصرَّف بثقة، وأمنحَ نفسي حقَّ الوقوف أمام أسوار البيتِ، دون إذن منك؟

استرجعتُ كلماتكِ الأولى لعلّي أستشفُّ منها ردة الفعل. من أول الحلم وأنتِ تبدين لي واثقةً من جنبات نفسك. لكِ أنوثةٌ راقيةٌ جداً تقطُرُ حضارة. منذ اليومين الأولين كنتُ أعلم من تكونين، ومن أيِّ أسرةٍ أنتِ، بينما قد يتطلَّبُ الأمر شهوراً مع فتاةٍ أخرى في مجتمع الألسنة هذا.

لا شيء مما عرفته منكِ ينذر بانزعاجكِ إن أنا أتيت.

كنتِ تقرّبينني من أسراركِ رويداً دون تحفُّظ، وأنا لم أكن أسأل كثيراً، بينما تنهمرين عليّ أنتِ بكل ما يحيط بكِ، حتى ظننتُ أنكِ لا مبالية، والحقيقة أنكِ كنتِ شديدة الذكاء حين اكتشفتِ من صوتي أني رجلٌ أشبه البئر التي تحير فيها الدلاء، و تعجز عنها متحاً وسُقيا.

هل كنتِ تثقين بي، أم تشكّين في قدرتي على الكلام أصلاً؟ هل كنتِ تتكئين على قوّتي، أم ترتاحين لضعفي؟

ربما كنتِ محتاجةً إلى الكلام، فتكلمتِ. وتكلمتُ أنا أيضاً عن

كل حدود حياتي. كان الكلام مثل البحر الذي لا يحدّه المجرى كالأنهار. لا يوقفنا عن الحديث إلا الحياء أحياناً، أو النوم. أحرقْنا كل الساعات، واستنفدنا كل البوح، والتصقْنا توأمين على حدِّ الليل حتى لم يعد لدينا الكثير مما نخفيه لفرط ما كانت شهية الكلام عندنا على أشدِّها.

لم أبْدُ بهذا العُري أمام شخصٍ آخرَ في حياتي، حتى وإن لم يكن عندي ما يحتملُ الستر، ولكنّ الصمت رفيقي منذ طفولتي، عيّاً، كما أظن، وليس حكمة.

قدتُ سيارتي إليكِ أخيراً حتى وقفتُ مثل الملاّحِ التائه تحت شبّاكِ الجميل وبي قلقٌ عميق. ألقيتُ نظرةً سريعةً على المرآة الداخلية في السيارة. أصلحتُ من هندامي ثم حملتُ هاتفي وأخبرتكِ أني هنا، على مرمى أمتارٍ من جدار منزلك.

جاءتني صرخة دهشتكِ الممتزجةِ بالجذل السعيد، ولم ألبث بضع ثوانٍ حتى كان أحد شبابيكِ القصر يُفتح، ويطلُّ منه طيفُ امرأةٍ تحمل في يدها سمّاعة هاتف، وتبعث إليَّ نظراتها من بعيد. تنفستُ الصُّعَداء عندما علمتُ أني لم أتجاوز ولم أثر ضيقكِ وأنا أسعى إلى بيتكِ في وضح النهار، وكأنكِ صرتِ لي. رأيتكِ سعيدةً بهذه المفاجأة وكأنكِ كنتِ مشتاقةً مثلي إلى رؤية هذا الذي يناجيكِ كل ليلة منذ أيام، وهو واقفٌ هذه المرة تحت جدار القصر.

كنتِ تلوِّحين لي من الشباك وأنتِ أجمل من بياضِ الشمس التي

تنعكسُ على الطلاء الأبيض وتحرمني التفاصيل. كنتُ أجاهِدُ لأميِّز ملامحكِ وأملأ ذاكرتي من أعشابِ وجهكِ فقد لا أراكِ ثانية. الأمتار عشرون تقريباً، بين مكاني على رصيف المنزل المقابل وشباكِ المعلَّق في جدار القصر، وأنتِ بين حدوده تطلّين عليَّ بوجهٍ مشرق، وفي تلويحكِ جَذَلٌ طفوليٌ رائق يشوقني إلى المزيد، المزيد منكِ.

كنتُ لا أدركُ أن الحب ينسج لنا قصةً ما في خفايا قَدَرٍ قريب. كل ما يدور حولي لم يبدُ كأكثر من شقاوةِ طفلين يتلذذان بكسرِ بضعةِ مبادئ. أن أهاتفكِ، أن أقصد بيتكِ في وضح النهار، وأن ألمح عن بعد، ومن بين القضبان الحديدية المتقاطعة على شباككِ، كتفيكِ العاريتين اللتين نسيتِ سترهما في غمرة المفاجأة، ثم تداركتِ ذلك بعد قليل.

كتفان رائقتان كنهري لبن.

حتى الآن، ومن وراء السنوات التي خَلَفَت، وحتى بعدما عرفتكِ، وعشقتكِ، والتقيتُكِ مئاتِ المرات، ما زلتُ لا أدري إذا ما كنتِ عمدتِ إلى كشف كتفيكِ عن قصد ذلك اليوم، أو أن الأمر كان نسياناً حقيقياً.

ربما أردتِ أن تهبي هذا الذي جاء من منزله في هذه الظهيرة العابثة قليلاً من اللذة يتأملُ فيها هذين الجدولين الساحرين، ربما أردتِ أن تكتبي له على الصفحة الأولى من كتابكما: «كل لذّاتنا موقّتة».

ربما أوحيتِ لي أنكِ ستغيبين عني يوماً ما، مثلما غابت كتفاكِ.

دون أن أدري لماذا، شعرتُ لوهلة أن اشتهائي لهما تضاعف فجأة، بعد أن تناولتِ قميصاً، وارتديتِه على عجل.

ألأنني ظننتُ أني قد لا أراهما بعد اليوم؟

أو لأنهما كانتا فاتنتين حقاً؟

أو لأن الأكتاف بالذات تثيرني، أنا الذي لم أجد منذ طفولتي كتفاً أبكي عليها؟

يُغري المرأة بالرجل، آثارُ إغرائها عليه. قلتِ لي بنفسكِ ذات يوم، أنَّ استمتاعي بكِ يُمتِّعُكِ أيضاً. وذكّرتني بمقولة قديمة «أشهى رغباتنا نراها في مرايا الآخرين».

انتهى اللقاء، وانغلق الشبّاك، وانصرفتُ أنا تخوفاً من جارٍ قد لا يفهم معنى وقوفي هنا، أو ربما يفهمه. ورحتُ أتساءل وأنا أقود سيارتي إلى منزل عمي الذي تأخرتُ عليه إن كان الأمر بعد ذلك سيأخذ شكلاً تصاعدياً، أم أن علاقتنا التصقت بالسقف فعلاً، ووصلت إلى حدِّها الأخير.

قبل أن ألج على ضيوف عمي، أخرجتُ مفكرتي، واخترتُ ورقةً جديدة، كتبتُ عليها: «الثاني عشر من أبريل، إن مها تبدو جميلة».

لم أكن أدرك أنَّه في اليوم نفسه سيصبح ظني هذا يقيناً.

لقاؤنا الثاني كان أقرب مما تصورت.

بعد ساعاتٍ قليلة، هاتفتِني أنتِ لتقولي بكلماتٍ عوَّجها الحياء أنكِ ترغبين في رؤيتي عن قرب، وفي مكان عام.

لستُ أدري ما الذي أشعله حضوري التائه عندكِ؟ أيُّ أشواقٍ تسلَّقتِ السور، وتسرّبت من نافذتكِ، وجعلتكِ تسعين للقائي بهذه السرعة؟

أجبتكِ طائعاً، مدهوشاً، وفي قلبي ينتفض هرٌ صغيرٌ بلَّلَه المطر.

لا أدري كيف تدحرج الزمن ذلك اليوم.

لا أدري كيف خرجتُ من بيتِ عمي مسرعاً دون أن أودّعه، لا أدري كيف حلقتُ ذقني في عشرين ثانيةً فقط، لا أدري كيف أخذتُ حماماً، وارتديتُ ثياباً في ثلاث دقائق على وجه التحديد، لا أكثر.

وقفتُ في لحظة قلق، انعقد حاجباي أمام المرآة وكأني أسأل الصورة التي أمامي جواباً ما، أطرقتُ في توتّر، حرَّكتُ أصابعي في الأشياء المبعثرة أمامي، اجتاحتني رهبةٌ غريبة.

لأول مرةٍ في حياتي ألتقي فتاةً ما.

هل سيرانا أحد؟ هل سيشي بنا أحد؟ هل سأبدو أنيقاً وسيماً واثقاً لبقاً ذكياً؟ أتُراكِ أخذتِ معي هذا الموعد لتختبري جاذبيتي فقط؟ أتُراي سأنجح في اختباركِ، أم أنه سيكون اللقاء الأخير، وستتعللين بعده بصعوبة اللقاء، بينما الحقيقة أنني لم أكن جذاباً بما يغري للقاءٍ آخر؟

فرشتُ سجادتي، وصليتُ ركعتين وَجِلَتين.

وخرجتُ من البيتِ، وقدتُ سيارتي بشرودٍ عجيب لا يشي بألفِ رحىً تطحن حباتِ القلق في عقلي.

قلتِ لي في الهاتف أنكِ ستكونين هناك بحثاً عن كتاب طاغور،

ولم أشعر بالضيق طويلاً. بالطبع، كان من الضروري لكِ كأنثى أن تفعلي هذا حتى لا يبدو مجيئكِ من أجلي فقط.

كان عليكِ أن تفسدي غروري حتى تحافظي على غروركِ. بينما تُجيَّر كل أمجاد اللقاء الأول لحساب طاغور.

عندما سألتِني قبل موعدنا إن كنتُ قد سمعتُ بهذا الشاعر، أجبتكِ باختصارٍ مجحف: «شاعرٌ هندي». لم أشأ أن أخبركِ المزيد عنه، رغم أني قرأتُ له الكثير، كانت غيرةً لم أملك لها تبريراً آنذاك.

لم يكن لديَّ ما يشفع لي عندكِ إلا قصائدي. كيف سأحشر معي شاعراً آخر، أياً كان، ليزاحمني في هذا الإعجاب الوليد؟

قبل سنةٍ فقط من لقائنا ذاك كنتُ محتاراً بين روايته «جورا»، ورواية تولستوي «آنا كارنينا»، بأيّهما أبدأ. اشتريتهما معاً في اليوم نفسه، وأخذت أقلّبهما بين يديَّ بحيرة. فتحتُ رواية طاغور، قرأتُ في مقدمتها سيرته كاملة، مختومةً بقصة فوزه بنوبل ١٩١٣.

الدهشة الكبرى عندما علمتُ أنه انتزع الجائزة من تولستوي نفسه تلك السنة، لم أدر كيف تشكَّلت هذه المفارقة الصغيرة، وكيف عاد الكهلان إلى الحياة ليتصارعا مرةً أخرى على مخدة شاعرٍ مبتدئ؟

قررتُ عندها أن أقرأ جورا. وخلال أسابيعَ قليلة، قرأتُ الكثير من آثاره، وتوثَّقت عُرانا، واتفقت رؤانا، وصار صديقي.

ولكن عندما وقف ذلك اليوم جواري أمامكِ، دفنتُ صداقتي معه في تراب المصلحة. لن يضيره أن يموت في جبين فتاة، من أجل أن

يحيا فيه شاعرٌ آخر. ليترك لي فتاتي، فعنده من الأمجاد ما يكفيه، هو الذي اتخذه الناس في البنغال إلهاً يعبد.

ماذا كان سيبقى لي من مجد الشعر لو قلتُ لكِ ذلك اليوم إنَّ البرلمان الهندي برمّته يجتمع في جلسة استثنائية، بعد ستين سنةً من وفاة طاغور، للتصويت فيما إذا كانوا يملكون الحق البشري في غناء قصائده المقدسة؟ أكثر من ألفي قصيدة اتخذوها ألواحاً منزَّلة. إن كاتباً نال كل هذا المجد لن يغضب إذا أخفيتُ شموسه عنكِ، حتى يبقى قنديلي الصغير مضيئاً.

رغم هذا، حاولتُ أن أبحث عن أحد كتبه في المكتبة لعلّي أهديه لكِ. فليس من اللباقة أن تفصحي لي عن رغبتكِ في البحث عن الكتاب ثم أتركَكِ تشترينه بنفسكِ.

على مضض، سألتُ المشرف أين أجد كتبه ليجيبني أنها غير موجودة، شعرتُ بالارتياح، ها هو ذا طاغور ينسحب وحده.

بقيتُ أُسَرِّحُ أقدامي في المكتبة، وأراقبُ الساعة المنتصبة في وسطها.

كان بي عُثار مغناطيسٍ غِرّ، لم يتعلم بعد الفرق بين التجاذب والتنافر. التصق ظفر إبهامي بفمي وأخذتُ أسلخُ لحم توتري حتى جاء هاتفكِ أخيراً، ليخبرني أنكِ صرتِ معي، تحت سقفٍ واحد.

كان يتبعكِ شابٌ يبحث في وجهكِ الجميل الذي لم يختفِ وراء

خِمار عن مستقرٍ لنزوته. ظل يلاحقكِ في أرجاء المكتبة، وأنا أتابعكِ من بعد، وألعنه سرّاً.

هل كنتُ عنيفاً في قتالي عليكِ ذلك اليوم؟ لماذا أبدأ معاركي الأولى مع الذكور الذين يزاحمونني عليكِ بالبراءة من طاغور، والملاعنة لهذا الشاب؟

ولكن ما دام العنف سِمة بدايتي، فلماذا إذن وقفتُ عند هذا الحد مع الرجال الآخرين في حياتك، فلم أفعل إزاء اقترابهم منكِ شيئاً يذكر؟

هل كان وجود هذا الشاب يرسم منذ البداية حدود قدرتي على الاحتفاظ بكِ لنفسي؟ اللعن سرّاً فقط؟

لماذا يجبُ أن أنتظر حتى يفرغ من سخافاته حتى أبدأ بالكلام معكِ؟

لماذا كان مقدوراً عليَّ دائماً ألاّ أَرِدَ من بئركِ حتى يصدُرَ منه الرِّعَاء؟ لماذا كُتِبَ عليَّ دائماً أن أنتظر انصراف الرجال عن حياتك قبل أن أتقدَّم خطوةً واحدةً نحوكِ؟

لماذا انتظرتُ حتى رحل حسن قبل أن أبدأ حبي؟

لماذا انتظرتُ حتى يتلاشى سعد من حياتكِ حتى أستعيد كبريائي؟

ولماذا ما أزال حتى الآن أنتظر متى تفرغين من سالم هذا أو يفرغ منكِ، حتى تعودي إليَّ؟

ولماذا لم أنتبه لهذه التخلخلات في رجولتي إلا الآن، بعد

رحيلك؟ لماذا لا تتضحُ لي هشاشتي دائماً إلا وأنا أكتب؟ أجلو وجه حياتي فلا أجد في تاريخي إلا الضعف والفقر والتخاذل.

لماذا ألقت الأقدار ضعيفاً مثلي في وجه قوّتك؟ لماذا أنا دائماً أمام التحديات الصعبة، أمام الأحلام المستحيلة، أمام الطموحات السرابية؟

رجلٌ أنا أم كيسُ رملٍ تتدرَّبُ عليه الحياة؟

هل حقاً ما تقوله الحكمة التي قرأتها قديماً: «لا توجد امرأةٌ قوية، هناك فقط رجلٌ ضعيف».

بين لعناتي، حاول الشابّ أن يكلّمكِ بنبرةٍ أرستقراطيةٍ سمِجة، وترك ورَيقته الحمقاء التي تحمل رقمه على مرأى منكِ، وأخيراً اعياه صمتكِ، وتجاهلكِ المتقن له، فرحل يجرُّ الخيبة مروراً من جواري، وظلَّت الوريقةُ معلقةً في مكانها.

وقفتِ أنتِ أمام المشرف الذي سألتُه قبل قليل، وسألتِه بدوركِ عن كتاب طاغور، ليتمتم في تعجب: «ما قصة طاغور هذا اليوم؟».

وكان خوفكِ ربما هو الذي جعلكِ تجيبينه بسرعة: «إنها ذكرى وفاته».

ابتسمتُ عندما سمعتُ اعتذاركِ الملفَّق، منذ متى يحتفلون في الرياض بذكرى طاغور؟ كم تُورِثنا اللقاءات العابرة توتّراً كبيراً في مدينة مثل الرياض، هنا الجميع رقباء، حتى هذا المشرف تخيَّلناه رقيباً يجب أن نغافله، بل يجب أن نقتلَ في داخله بذرة الشك، حتى

هذا الشاب العابث كان رقيباً علينا رغم عبثه، واضطررنا أخيراً أن ننتظر انصرافه.

حتى الخادمة التي تتبعكِ كان علينا أن نغافلها.

فجأةً مررتِ أنتِ بالممر نفسه الذي كنتُ أقف فيه. لم ترفعي عينيكِ إليَّ قطّ بينما اخترقتكِ أنا بنظرة عنيفة. ولم أتمالك نفسي. لفرط جمالك، كنتُ أشعر أن الكلمات التي كتبتها قبل ساعةٍ في مفكرتي تغيَّرت وحدها في جيبي، دون أن ألمسها.

نسيتُ تماماً وجود الخادمة. وألقيتُ وراءكِ كلماتي بسذاجة العاشق الأول: «كم أنتِ حلوة».

بعد شهرين قلتُ لكِ: كم أنتِ رائعة. بعد ثلاثة قلتُ لكِ: كم أنتِ حنونة. بعد أربعة، عندما جاء سعد، قلتُ لكِ: كم أنتِ قاسية. بعد أربعة عشر شهراً، وأنتِ تحزمين حقائبكِ استعداداً للزواج، قلتُ لكِ: كم أنتِ ظالمة. بعد ستة عشر شهراً، وأنتِ تقتلينني كمداً ولا تتصلين، قلتُ لكِ: كم أنتِ جاحدة. وبعد أن انتهت الرواية، اختصرتُ علامات التعجب كلها في واحدة: كم أنتِ أنثى!

سمعتِ الخادمة غزلي الأول، وتبعتْ حياءكِ الهارب مني بعيداً، وهَمَسَتْ لكِ كما أخبرتِني أنتِ فيما بعد: «أرأيتِ يا سيدتي؟ حتى ذلك الصغير كان يكلّمكِ».

كانت تسخرُ مني هذه البسيطة. تتعجبُ من ملامحي التي تجعلني أبدو أصغر من عمري كثيراً. ولكني لم أشعر بالإهانة لقولها، فلم تكن

تدرك أن هذا الصغير هو من جاءت سيدتها إلى هنا من أجله.

ربّما عليَّ الآن بعد سنوات أن أتوجَّع لإهانتها. ألم يكن صِغر سنّي من ضمن الأسباب الصغيرة التي جعلتكِ ترحلين عني، وإن لم تبوحي لي بذلك؟

أدركتها الخادمة إذن منذ البداية. البسطاء تجري على ألسنتهم النبوءات أحياناً ما دامت عقولهم لا تصنع الحكمة. تعرفُ مستوى سيدتها، وتعرفُ من يليق به أن يتطاول إليها، ومن يجدر به أن لا يفكر في الأمر من الأساس.

أخيراً، تركتِها في الطابق السفلي آمرةً إياها بالمكوث ريثما تعودين، واخترتُ أنا ركناً قصّياً لا يرتاده الكثير في هذا الوقت من العصر، ووقفتُ خلف الرفوف الضخمة وأنتِ على بعد خطواتٍ قليلة من مكاني. رحتُ أختلسُ النظر فأراكِ مقبلةً عليَّ، تقتربين، وتقتربين، وقلبي يدقُّ بعنف، حتى وصلتِ عندي أخيراً.

ليتني لم أكن هناك.

أشياءُ كثيرة كانت ستتغير في حياتي لو لم أقف هناك، لو لم أنتظركِ وراء الأرفف، لو لم أعشقكِ بصمت خلفها.

لو لم أكتشف مثل أرخميدس كيف تصنع امرأةٌ لها شفةٌ عليا بارزة أروع ابتساماتِ الدنيا.

سألتُ ربّي امرأةً أعشقها، ولكني لم أسأله إياها جميلةً إلى هذا الحد.

إنّ يديَّ ترتعشان، وحلقي يجف.

هل كان ريختر مقياس زلازل حقاً، أم آثار امرأةٍ على رجل؟

لماذا وقفتُ يا ترى؟ لماذا لم أهربُ من قَدرٍ جميلٍ مثل هذا ما دام سيلاحقني طوال حياتي، ما دام سيورثني بعد ذلك غُبنَ الدنيا وقهرها وظلمها وغيرتها وحسدها ويأسها؟

لماذا كان عليَّ أن أكتشف ملامح كهذه ما دامت ستُرتسم يوماً ما على مرآةِ غيري؟

لماذا أنظر إلى شفةٍ لن تبتسم لي وحدي، وعينين لن تتعلقا بي وحدي، وخُصلات شعرٍ ستطير ذات يوم على متن قاربٍ فينيسيٍّ برفقة سالم؟

لماذا صافحتكِ، لأتخذ بعدها هذه الكفّ التي ارتعشت في كفّي لثوان بيتاً، سيسكنه رجلٌ آخر؟

لماذا تسلَّقتُ أزرارَ القميص الوردي لأصل إلى قمّته المنفرجة عن مثلثٍ يكشف نحراً، وأنا أعلم أن سالماً لن يكتفي بهذا المثلث فقط؟

لماذا لم أتأملكِ بفضولٍ فحسب، كما نتأمل جدران الكنائس الإيطالية ثم نمضي ونتركها؟

لماذا كنتِ جميلةً جداً ذلك اليوم؟ هل لأنكِ أنثى، أم لأني رجل؟

ولماذا كانت عيناكِ تختصران قصة الحب، من أولها إلى آخرها؟

ولماذا كل هذه النظراتِ الحيية التي تزرعين بها قدميّ في الأرض؟

ولماذا العباءة ناقصة؟ ولماذا الخُصلاتُ غافية؟ ولماذا الشفة العليا بارزة؟ ولماذا الحذاء أبيض؟ ولماذا أنا محاصرٌ بكل هذه

التفاصيل المتفجرة؟

ولماذا ديوان الشابي بين يديكِ؟

ما قصة الشعراء الذين لم يجدوا إلا هذا اليوم ليزاحموني فيكِ؟ لماذا انقلب وفاؤهم القديم معي في أول حبٍ أعثر عليه إلى جحودٍ صارخ، وتكالبٍ حقيرٍ على عينيكِ الجميلتين؟

لماذا يسرقونكِ مني هم الذين طبَّقت شهرتهم الآفاق، وافتتنت بهم آلاف النساء من قبل؟

لماذا يدوسونني بقضِّهم وقضيضهم وأنا أتسلّق ببطء جدران إعجابكِ بي؟

ولماذا أنتِ تجمعين حولكِ منافسيَّ منذ اللقاء الأول شباباً عابثين، وشعراء ميتين؟

ثم لماذا اخترتِ الشابي بالذات دون غيره؟

لماذا هذا الشاعر مثلي، اليتيم مثلي، المريض مثلي، الضعيف مثلي، التعيس مثلي، الجريح مثلي، النحيل مثلي، المغلوب مثلي، الفقير مثلي، والمولود في فبراير، مثلي؟

بقي أن أموت في السابعة والعشرين، مثله.

أخذتُ منكِ الديوان، قلَّبته بين يديَّ وأنا أتطيَّرُ من أحزانه.

كنتُ أحاول أن أشتّت ارتباكي في تقليب الصفحات. فكّرتُ أن أكلّمكِ قليلاً عنه. لماذا لا أعبر الشابي جسراً لنظرة إعجابٍ أخرى منكِ؟

وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، جاءني صوتكِ الشّفاف ليئد المحاولة والكتاب بين يديَّ: «اكتب لي عليه».

شرعتُ في الكتابة عليه كما أردتِ وأنا أختلس النظر إلى صورة الشابي في مقدمة الكتاب، تُراي كنتُ أستأذنه في ذلك؟ أو ربما كنتُ أشعر بالحيرة مما يمكن أن أكتبه فوق كلماته؟

فكرتُ أن أهرب من هذا الحرج. سأضعُ غيري في مواجهة الشابي. فكرتُ في طاغور. لقد كان حاضراً في ذهني قبل دقائق، من الطبيعي أن يكون هو أول من يطرأ عليَّ إذن.

لشدة ارتباكي كدتُ أكتب مقولةً له على الكتاب، أنا الذي تبرأتُ منه جهلاً قبل نصف ساعةٍ فقط، لتنكشف أمامكِ كذبتي الأولى مبكراً.

أتذكَّر تحديداً أني كنتُ على وشكِ أن أكتب: «إن الله حين أراد أن يخلق حوّاء من آدم لم يخلقها من عظام رجليه، ولا من عظام رأسه، وإنما خلقها من أحد أضلاعه، لتكون مساويةً له، قريبةً إلى قلبه». كنتُ أريد أن أتقرَّب منكِ بهذه الكلمة، أنا الذي عرفتُ جيداً خلال أيام مدى اعتدادكِ بأنوثتك، غير أني كتبتُ بدلاً منها كلماتٍ لستُ أذكرها.

كنتُ أتكئ على الجدار، وأنتِ تتأملينني من الخلف، تتأملينني حتى جاء خطي مرتبكاً كتوقيع مريضٍ على إجراء عمليةٍ مميتةٍ.

كان هذا قبل ثلاث سنوات.

أتساءل إذا ما كنتِ حتى الآن تحتفظين بديوان أبي القاسم الشابي ذاك؟

أين تحتفظين به؟ وكيف تخفينه عن عيني سالم؟ هل ستخلّفينه وراءكِ في بيتِ أهلكِ؟ ماذا لو تصفَّحه أحدهم ليجد إمضائي في صفحته الأولى؟

حتى وإن لم يفعلوا، ماذا يفيدني أن تظلَّ كلماتي ملتحفةً بغبارها وأنتِ في آخر الدنيا؟

دعي عنكِ أمر ذكراي، ليس ثمّة قاتلٌ يفتِّشُ في مذكراتِ قتيله، ولكن فكري لماذا أخذتُ أنا ذكرى قاتلي معي؟ لماذا طرأت لي الفكرة فجأة، فتركتكِ للحظات، وعدتُ بكتاب سيرانو ديبرجراك، لأسرق منكِ بضع كلماتٍ عليه، أحتفظ بها حتى آخر العمر، وأمشِّطُ بها شعث ذاكرتي يوماً من الأيام؟

تركتُ مكتبي الصغير. وقمتُ إلى حقيبةٍ يملأ ظهرها الغبار، عالجتُ قُفلها مرتين حتى استجاب، واستخرجتُ من صمتها كتابي الأصفر الصغير. فتحتُ صفحته الأولى لأجدكِ ماثلةً أمامي كما كنتِ ذلك اليوم، الثاني عشر من أبريل، قبل أكثر من ثلاث سنوات.

«عزيزي..

لا أدري ماذا أقول، ولكن كل ما أستطيع قوله هو أنك تصنع بصمةً مميّزةً في حياتي، لا يمكن نسيانك أبداً. – مها –».

تُرى، هل كنتِ تتنبّئين؟ أم كنتِ ترسمين المِشوار من أوله كما سيكون، بهذه الكلمات الغامضة؟

كيف كتبتِ عليَّ منذ البداية ألا أكون أكثر من بصمة في حياتك؟

ما أكثر الذين يضعون البصماتِ في حياتنا ويرحلون، فأيهم كنتُ أنا؟

هل ظننتِ أنكِ تنقذين نفسكِ من هذا السؤال إذا أضفتِ كلمة «مميّزة»، لتَصِفِي بها بصمتي إلى جوار بصماتهم، وتمنحيني غروراً صغيراً؟

تعلَّمنا منذ الطفولة أنَّ البصماتِ لا تتشابه أبداً، كل البصماتِ مميّزة أصلاً.

ألقيتِ بي في اللُّجة إذن. منذ الكلماتِ الأولى كنتِ تكتبين عليَّ أن أكون ضائعاً في زِحام من حولكِ.

هاأنا أتحوَّلُ من رجلٍ إلى بصمة، وهاأنتِ تلقين بي بين ملايين البصماتِ في الدنيا.

كان لقاؤنا ذاك تمزُّقَ أول جرحٍ لم أشعر به في خَدَرِ السعادة، ولم أنتبه إليه إلا بعد أشهرٍ طوال، وقد غرقتُ في نزيفه.

عندما عدتُ إلى البيت، قبّلتُ أمي قبلةً عظيمة من تلك القبلاتِ التي تشي لها بنتيجة اختباري أيام الدراسة قبل أن تسألني عنها. كنتُ أشعر بالفعل أني اجتزتُ اختباراً صعباً، ولكني لم أعرف أني رسبت فيه، رسبت بجدارة.

خرجتُ رجلاً كاملاً، له يدان تنتهيان بعشر أصابع، لكل منها بصمة، وعدتُ وأنا بصمةٌ واحدة في حياة امرأة.

والأوجعُ أني عدتُ سعيداً.

أويتُ إلى غرفتي، وفي قلبي تنميلٌ يشبه اقتراب العشق. ارتميتُ على السرير، هذا الذي يعرف أسراري أكثر من دفاتري، اضطجعتُ عليه بحبور.

حملتُ ذاكرتي، ورحتُ أهزُّها بعنف لأسقِطَ ما تجمَّع فيها من لقائنا هذا، وآخذ في تأمّله، وتقليبه بين يدي، وتركيبه مرةً أخرى مثل قطع البازل.

كتبتُ في دفتري تلك الليلة:

«....كجدولِ ورد، كسربِ عنادل، كنقرةِ بيانو، كخَجْلَةِ كرز، كنتِ تتسرَّبين إلى داخلي، وتترسَّبين في العمق الأخير مثل رُكام السُّكَّر في آخر الفنجان، أشعرُ أني أعشقكِ منذ زمنٍ بعيدٍ جداً، وأنَّ سنواتٍ كثيرةً من الحب نَسَخَت نفسها بيننا فجأة، وراحت تتجدَّدُ معنا، وتعيشُ حاضرنا، وفاءً، ومتعةً، وسعادة......».

أغمضتُ عيني ذلك اليوم على فكرةِ الحب، واستيقظتُ عليها، وأنا لا أعلم أني ذات يومٍ سأغلق عيني على دمعة الفراق، وأستيقظ عليها أيضاً.

لم يكن هذا عادلاً. أنا الذي ينتابني الحب لأول مرة. كيف لي أن أنظر إلى ما هو أبعد من عتباته الأولى حتى أخاف من الفراق؟ كيف

لـي أن أبـيـع إبـهـاره الأول وجـنـونـه الأول ولـذّته الأولى اتقـاءً لألـمٍ مستقبليٍّ لن يكون إلا بعد أشهر؟

لم يكن هذا عادلاً.

***

خرج وقتُ الفجر قبل أن أصلي. قبل نصف ساعة كانت أمي تُطلُّ عليَّ من فُرجة الباب المعهودة، لا تتراجع هذه المرة، بل تُردِّدُ بصوتٍ عالٍ بين دعواتها الفجرية: «الصلاة يا ناصر، الصلاة. إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً. رحم الله المشّائين في الظُّلَم». رفعتُ رأسي قليلاً من بِرْكَةِ الورق. كان وجهها الأبيض يستدير في حجاب الصلاة الأزرق. افتعلتُ حركةً توحي لها أني على وشك النهوض ريثما استدارت وتركتني. فعدتُ لأطارد آخر كلمةٍ شاردة، معتزماً اللحاق بالصلاة بعد قليل. ولكنَّ الكتابة أخذتني في لُجَّتها حتى فاتني الفرض، وضاع صوتُ الأذان.

ضاع في صُراخ الذاكرة.

هل عندي حكمة الأنبياء حتى أمزِّق أوراق روايتي كما أهلك سليمان الحكيم جياده عندما شغلته عن الصلاة؟

تذكرتُ، وأنا أوبِّخُ نفسي بصمت، أنِّي سمعتُ حديثاً يقول من صلّى الفجر في جماعةٍ فهو في ذِمَّة الله حتى يُمسي. أطرقتُ ورأسي ثقيلٌ من بيداء السهر وصهيل القهوة، كم أحتاج أن أكون في ذمّة الله هذه الأيام.

ولكني ضيَّعتُ الفرصة، وسأظلُّ هذا اليوم حتى المساء خارج ذِمَّته.

روحانية صلاة الفجر ساعدتني كثيراً إبّان الأيام الأولى بعدكَ. كنتُ إذا فرغتُ من ركعتيها الطويلتين، عدتُ إلى البيت ماشياً أدبُّ في الظلام الأخير، وأتأمل السماء التي بدأت تتمزق قليلاً بنصل الضوء. همستُ مرّات: «ربّ أعد إليَّ مها قبل أن يفنيني الهم»، تمتم مسنّ حولي: «آمين..»، وحثَّ خطاه ليتجاوز ارتباكي وجفولي وعلى شفتيه نصفُ ابتسامة. لم أنتبه لوجوده في محيط صوتي، أما وقد مضى، فلعلّ الله يستجيب له.

توضّأتُ وركعتُ وسجدتُ على سجادة غرفتي التي ما زالت في مكانها منذ رحلتُ إلى فانكوفر حتى عدتُ إلى الرياض مرةً أخرى. هذه السجادة التي كنتُ أمارس عليها توبتي كلما عدتُ من بين يديكِ، صرتُ أمارس عليها ابتهالي حتى تعودي إليّ. صارت بعدكِ أنيسة وحشتي ورفيقة رحلتي السَّحَريَّة البائسة إلى معتزلي الذي اتخذته، أفترشها وأحلامي، وألعن فوقها كل صباحٍ سيأتي لا تعودين فيه.

سمّيتُ ذلك المكان غيهبَ الوجع.

لم أكن أدري لماذا أُطلق اسماً على مكانٍ لن أُخبر عنه أحداً ولن أضطر إلى تمييزه يوماً ما؟ هل إلى هذا الحد أصبح حزني مدللاً حتى أطلق أسماء على الأشياء التي أناديها في داخلي فقط؟ هل قرر الحزن

أن يقيم فيَّ طويلاً حتى بدأ بإرساء لغةٍ جديدةٍ يتخاطبُ بها مع ذاكرتي؟

لماذا الذهاب إلى هناك؟

منذ طفولتي وأنا أبالغ في انفعالاتي، مس تنغل تسمّي هذا: «Overacting».

لماذا أمارس هذا الاعتزال مثل عاشقٍ قديم، هذه العادة اختفت منذ مئة سنة. إنهم لا يهيمون في الفلوات هذه الأيام، ما هكذا يتصرّف عشّاق هذا الزمن.

ربما يبتلعون حبوب النوم، يدّخنون في جنون الشوارع، أو ينتقمون من حبيباتهم أو أي امرأةٍ أخرى، ويلقون بأنفسهم فوق جنسٍ عابر. كلُّها عاداتٌ يتخدَّرُ معها الحب.

وأنا لا أريدُ أن أخدِّرُ الحبَّ، أريده أن يبقى مشتعلاً كما هو ولو أطعمته أضلاعي. لم يزل في داخلي أملٌ لم يحتضر بعد.

الأشياءُ في غرفتي ظلت كما هي طوال غيابي. وفاء الأوراق التي تنتظرني في غرفتي الصغيرة الفقيرة. تدخلها أمي كل أسبوع، تنفض الغبار عن أثاثها القليل، تأخذ الأوراق التي كانت على يمين الطاولة، وتضعها يسار الطاولة، وفي الأسبوع القادم، تأخذها من يسار الطاولة، إلى يمينها. سنتان والأوراق تتأرجحُ بين اليمين واليسار على برود الطاولة نفسها.

تتأمل أمي صورتي المنزوية. تمسحُ شحوبها، وتهمسُ فيها: «الله

يردّك، الله يحفظك، الله يوفّقك». ثلاثية الأم والابن الغائب. ثم تتحسسُّ سطحها البارد، وكأن برودتي في فانكوفر تخترق الأميال والأزمان وتدخل في صورتي، فتتركها أمي قبل أن تتمادى الدمعة في غيِّها.

تذكرتُ يومَ أفصحتِ لي ليلةً عن رغبتكِ في رؤية غرفتي كيف تبدو. حملتُ آلة التصوير ودرتُ بها في أنحاء الغرفة. السرير والحيطان ودفتر الشعر، وأهديتُ إليكِ الشريط الصغير لتحتفظي به، ثم ليصلني منكِ بعد ذلك شريطٌ آخر، صوَّرتِ لي فيه غرفتكِ الواسعة بكل ما فيها. حتى خزائن الملابس لا أنسى أنكِ فتحتِها، وصوَّرتِ ما فيها درجاً درجاً.

أنا وأنتِ، وليس لأحدٍ في الرياض أن يَحُدَّ من نزواتنا، والأشكالِ الغريبة التي يتَّخذها شوقنا أحياناً. كنَّا نتبادلُ أشياءنا هذه في أماكن عامة، نختارها حيث العيون أقل، والرقباء أكثر انشغالاً. وما زلتُ أحتفظُ بهذا الشريط، كما يحتفظُ البوذيُّ بتمثال بوذاه، أخفيه مع تذكاراتكِ الأخرى في حقيبة الأسرار.

كم من لعناتِ المدينة ستنهمر عليكِ لو قُدِّر لهذه الحقيبة أن يفتحها أحدٌ غيري، وينشر ما بداخلها؟ صوركِ العديدة، رسائلكِ الحميمة، عطركِ المقدَّس، هداياكِ الثمينة، أشياؤكِ التي لا تتصورين أني ما زلتُ أحتفظُ بها.

سيكون أول ما يجده فاتح الحقيبة من بعدي، وصيّتي أن يحرقها

بما فيها، قبل أن تحترقي بها أنتِ.

أعودُ إلى مكتبي بعد الصلاة. منذ ساعاتٍ وأنا أحاور هذا الصداع الذي يُلهِب رأسي. أمي أنكرت عليَّ مجلسَ الأوراقِ وهِجران مجلِسِها، هجرتُ حتى الآخرين الذين صِرتُ أُغلِقُ هاتفي أمام إلحاحهم على رؤيتي، وعائشة التي صارت تعدُّ لي أكواب الشاي والقهوة بالجُملة، حتى أعفيتُها من ذلك، واتّخذتُ لي إبريقاً صغيراً في غرفتي، يدقُّ باب عقلي طوال الليل.

عكفتُ على الكتابة ليل نهار، أنام على أوراقي، وأصحو على مسوَّداتِ الأمس، أخلو بنفسي في الغرفة مثل راهب، لأني أريد أن أكتب لكِ ما أحتاج أن أكتبه، فقد رحلتِ عني طويلاً وآذاني الحزن، وأنا منعزلٌ عن الكتابة إلا من بقايا شهقاتٍ على ورقةٍ تشبه الريح، أتركها كما هي، دون تغيير، أما في كندا، فلم تنقش أصابعي حرفاً عربياً واحداً طوال سنتين، فتضخَّمت ذاكرتي بالأوجاع.

ها أنذا أطلقها الآن، على غير موعد.

ويصهل حصان الذاكرة..

الفصل الثاني

وراء السنتين اللتين غيّبكِ فيهما الفقد..

في أيام الحزن الأولى..

يُفتحُ ستار الحياة ويُسدل كيفما اتفق، لا شيء يتغيَّرُ في حياة الرجل.

لا أحد يتفرَّجُ أصلاً.

أعيش كيفما يريدُ اليأس على اختراع الأوهام فقط. كل يوم أخترعُ وهماً جديداً أقتاتُ به حتى المساء، و أعجن كآبتي بيدي، لأجعلها خبز صباحي التالي.

لماذا جاء نصيبي من الحزن بهذا الشكل؟

لماذا انحرفتُ عن الاعتياد؟ لماذا تركتُ الطعام؟ لماذا هجرتُ الآخرين؟ لماذا التقطتُ من الأرض حصى حقارتي وجلستُ أمصُّ ترابه كالمجذوبين؟

لماذا تسلَّيتُ بتجميعِ الأشكال العاتبة في صدري، تجاهكِ، وتجاه الآخرين؟

لماذا لم أكن أُسعِفُ نوباتِ اكتئابي كما ينبغي؟ لماذا لم أكن ألجأ إلى الصبر بأسرع مما ألجأ إلى أغنيةٍ حزينةٍ أحمِّل عليها حُطامي الواهن، وأبثُّ في آهاتها تباريح صدري، أو أبحث في ذاكرتي عن أقربِ صورةٍ محزنةٍ فارقتِني عليها، لأبكيكِ من خلالها مرةً أخرى؟

لماذا انهرتُ إلى هذا الحد؟

هل هي قوالب جاهزة في حياة العشاق؟ هل هي ثيابٌ مفصَّلة تماماً على مقاس رجلٍ فقدَ حبيبته؟ هل هي سيناريوهات مكتوبةٌ مسبقاً على عباد الله العاشقين؟

ربما كان جَلداً للذَّات ذلك الذي مارسته مع نفسي تلك الأيام التي أعقبت رحيلكِ. ولكني كنتُ مريضاً جداً، وفي قلبي حُرقةٌ حقيقية لو أنها تَرَكَتني هادئاً ما حملتني على التفكير بمثالية الأمس.

هجرتُ الكتابة منذ فارقتِني. قررتُ أن أتناسى فجأة كوني شاعراً. وتخيّلتُ أني ولدتُ بدون هذه الرئة الثالثة في صدري. واتخذتُ من صدمتكِ حُجّةً أمام احتجاجِ أصابعي على هذه البطالة، فمنذ أن بدأ شعري يتحوَّلُ إلى هلوسات ليليةٍ، وأنا أخافه.

وحدي أنا والليل وهذا اليأس الجامح، وقلمي يتأرجح في يدي، أليس مخيفاً حقاً ما يمكن أن تنتهي به ليلةٌ كهذه؟ كلّما سوَّدتُ صفحةً طارت أمامي مثل خفّاشٍ قبيحٍ، وتعلَّقت بقدميها في سقف الغرفة.

كان لا بد لي أن أتنازل عن الكتابة، فلا يمكن لغرفتي أن تظل كهفاً للخفافيش. برّرتُ خسارتي هذه بإقناع نفسي أن من يخسر امرأةً مثلكِ فلن يعنيه أن يخسر شعره ومجده وطموحه أيضاً، وأن فقدكِ يستحق حداداً كهذا، وفهمتُ أن الصدأ بدأ يعلو عظام يدي، وأن الكتابة بعد الفاجعة، فاجعةٌ أكبر.

تُشبه الكتابةُ العدسةَ المكبّرةَ التي تجمع الأحزان، وتركّزها في شُعاعٍ واحدٍ حارق يسقط على قلبي. أردتُ آنذاك أن أوفّر على نفسي الوجع الذي أصنعه لها، فلم أكن بحاجة إلى هذا النزيف الإضافي، وكل ما في روحي ينزف. بكل ضعف، أغلقتُ دفتري على آخر كلمة كتبتها فيه: «لم يعد العائد من الكتابة أكبر من الحزن الذي أبذله أثناءها، ولم يعد لديّ من أكتب لأجله، بعد أن رحلت مها، سيدة دفاتري».

لأول مرة أشعُرُ أن حزني أكبر من أوراقي. كنتُ دائماً أصرُّ على أن الورقة عندما نُحسن استغلالها تكون قادرةً على الاحتواء، أيّاً كان حجم الجرح، وشدة البرد. ولكني عاجزٌ عن مناقشة حزني معها الآن. هي تتكلم لغة الكتابة، وأنا أتكلم لغة المنكوبين، والمفجوعين، والمطعونين بقسوة في صميم أحلامهم ومشاعرهم.

«إنَّ مها ضاعت، إنَّ مها حلمُ حياتي الأكبر منذ لفظتني أمي خارجها، إنَّ مها لن تضيع وحدها، لا بدَّ من خسارةٍ ما، لا بدَّ من ثمنٍ لكل شيء».

معكِ أنتِ تعلّمتُ كيف أكتب وأنا في حالة حب، لأن الكتابة دون حب ليست إلا حرفة، وكنتُ أمارسها بعشوائية. أُمسك القلم وأرسم الخطوط، ومع نهاية كل خط أتخذُ قراري بالانعطاف يميناً أو يساراً. ارتجالية تتسع لتكوِّن فوضى منسَّقة بإطار فكرتي الشاردة. الآن اتخذت هذه الفكرة مداراً حول امرأة، بعد أن كانت تائهةً في علم الله.

قبلكِ كنتُ أنظم كلماتي على سطوري بحذر محاولاً أن أخرج بقصيدة، ثم أعطيها عنواناً، وأذيّلها بتاريخ، وأضعها بجوار أخواتها حتى تجف، كما يفعل الخزّاف بأوانيه الفخّارية.

ومنذ أحببتكِ أصبحتُ أكتب على الهواء ولا أحتاج إلى أسطر. أستطيع أن أكتب بلا حدود ما دمتُ سأقرأ عليكِ ما كتبتُ حالما أنتهي من كتابته. أستطيع أن أطارد الأقمار الشاردة حتى تختفي. أستطيع أن أستخرج الكنوز المدفونة تحت حدّي قوس قُزَح، أستطيع أن أخبر الجميع أني أحبكِ في أول القصيدة، أو آخرها، أو أترك الأمر لتقديرهم، وأجعل الخبر ضائعاً بين مبتدأ الشعر ومنتهاه.

أستطيع أن أسجّل اسمكِ في سجلّ النساء التاريخيات اللواتي غيَّرن أقدار الرجال، ولكن لا تتركيني أفكر فيكِ دون أمل.

اتركي لي دائماً فجوةً صغيرةً أمرِّرُ من خلالها قلبي، فأنا لا أكتب وأنا يائس.

الكتابة أثناء اليأس تشبه آلام الروماتيزم. عندما يتملكني هذا

القنوط أكتب بطريقة مختلفة عن كل أساليبي. ألقي بأصول الكتابة عرض الحائط. لا أكتب كلماتٍ ذات معنى، لا أضع النقاط على الحروف، لا أصل الخطوط حتى تكتمل، ولا أحترم بداياتِ الأوراق ولا نهاياتها. أكتب طولاً أو عرضاً، لا يهم.

والكلمة القبيحة أضغطها بقوة على الأوراق حتى تتألم، وأسمع أنينها بساديّة يائس. أحفرها حفراً حتى يصبح لها شكلٌ آخر أو أشرّدها بين سطرين متعاقبين حتى يتمزَّق فيها المعنى. هكذا أركض على أوراقي بجنون، وألعن كل شيء، وأبكي عليه.

لا تجعليني أيأس لأن اليأس دائماً شعورٌ فوضويٌ هدّام. كم مرَّةٍ أنقذتُ قصائدي من فم النار وكم مرّةٍ جمعتُ أجزاءها من سلّة المهملات وكم مرّةٍ أعدتُ كتابتها في ورقةٍ أخرى بعد أن شوّهتها بخربشاتٍ كثيفةٍ تشبه الظلام. الكتابة اليائسة تشبه زِنى التّقيّ إذا استيقظ قلبه. وأنا أكره أن أفعل ذلك، ولكنه القلم، عصاي التي أتوكأ عليها وأهشُّ بها على ألمي.

أفقتُ من النوم وأنا كئيب.

ذلك الصباح تحديداً، قررتُ أن أرحل.

كان صباحاً لم أدرك معناه. تقلَّبتُ فيه على سريرٍ اشتَعَل أرقاً، ثم راح يأكُلُ نفسه في تعب. قُمْتُ إلى نافذةٍ حمقاءَ تُواعدُ الصباحَ في شروقٍ آخر وقد حمل شعاعُ الشمسِ رائحةَ احتراقِ الغلافِ الجوي، وصُداعَ السماءِ الأولى، والغثيانَ اليومي لهذه الأرض الحبلى.

ليلة أمس تزوَّجت أروى، البنتُ الأخيرة في بيتنا. قبَّلتُها بشحوبٍ وهي تطوي ذيل فستانها وتستعدُّ للركوب في سيارة زوجها، كانت عيناها تفضحان سعادتها المحتقنة في وجهها بقوة، وعلى جبينها رضا الدنيا بأسرها.

أعلمُ وحدي دون عائلتي التي تشارك في وداعها أنَّ زواجها هذا لم يكن إلا نجاحاً أخيراً في قصة حبٍ جميلةٍ ظلَّت تطويها لأكثر من سنة، وأنا أشمُّ رائحة الأشواق في بيتنا وأتجاهلها، وتتفتَّحُ شهيّتي للحب معكِ. تكبرني أروى بسنة، ماذا عساني أن ألوم عليها؟

لا أحب أن أترك آثاري على قلبها كما تركتها من قبل على جسدها. يكفيها مني تلك الندبة في ظهرها منذ طفولتنا عندما سحبتُ قميصها ونحن نلعب ليغرز مشبكه في جلدها وينسحبُ دامياً عشر سنتيمترات ويبقى أثره حتى الآن. وأنا لا أدري إن كان زوجها سيغفر لي هذا التشويه عندما يكتشفه غداً في جسد زوجته.

أروى، توأمي الأنثوي الأول، ضحكاتُ طفولتنا متشابهة، نومنا الدافئ في فراشٍ واحد قبل أن تفرِّقنا أمي ما زال صاحياً في الذاكرة، لم تُجْدِ معنا أصوليّتها وتمسُّكها بالتربية الشرعية، «فرقوا بينهم في المضاجع»، عادت أروى إلى النوم معي وهي كبيرة إذا كانت مريضة، وأنام معها إذا كنتُ أنا مريضاً، وبيننا تواطؤٌ في شغب الطفولة لم تفسده حدود الذكورة والأنوثة.

سرُّ عِشقِها الجميل لم يتطلّب منّي كثيراً لأحدس بداياته. كان هذا

واضحاً لأخ مثلي لا يعوزه أن يطرق باب غرفتها إذا أراد منها شيئاً، بل يلج بلا خجل. بدأ بيننا ابتسامٌ غامضٌ ثم تحوَّل بعد ذلك إلى بوحٍ جريء. أخبرتني قصتها معه، وعيناي تتسعانِ مع عذوبة الحكاية التي تخرجُ من فمها التوتيِّ الصغير. لم تكن أروى فتاةً عاديةً حتى يشتعل في قلبها حبٌ مزيَّف، وكان حدسي في محلّه، وهو ما جعل خط الهاتف يخرجُ من نافذتي ليدخل في نافذتها، بعيداً عن عينَي أمي، وتحت ستار حصانتي الذكورية في المنزل.

لم أكن أتخيَّلُ، قبل أن أعرف قصة أروى، أن يحتمل بيتنا عاشقين تحت سقفه. كان خالد قد تزوَّج قبل أشهر، ولم يبق سوانا، حبنا كان في أوجه، وكان حبهما في أوجه أيضاً، ولكن ثمّة فرقاً في درجات الأمل ومستويات التضحية.

لم تعلم أروى عن قصتنا شيئاً رغم ثقتي لها، ولكنها كانت تشعر بها حتماً، بل كانت تتكلم عنكِ بصفة الغائب أحياناً محاولةً أن تحترم كتماني ما استطاعت، هي التي تعرف عاداتي أكثر مني. مرَّت أيامٌ على هذا الازدواج العاطفي في بيتنا، أنا وأنتِ، وأروى ومحسن، وأخيراً، ها هي تركب في سيارته، بينما ركبتِ أنتِ سيارة سالم للأسف.

كأنَّ الذي منح هذا البيت تذكرتَي عشق، لم يمنحه إلا رخصة سعادة واحدة فقط.

للأسف يا مها، كنتِ جميلةً في كل شيء، ولكن أبجديتكِ كانت

ناقصة خمسة أحرف، كان ينقصها «تضحية»، ولم تكن الأحرف الثلاثة والعشرون الباقية لتبقيكِ معي رغم كل ما كان بيننا.

ربّما ضحّيتِ، ولكن في الاتجاه الخاطئ، ربّما بعتِ واشتريتِ في سوق الحياة، ولكن بخُسرانٍ مُبين. تأمّلي بضاعتكِ التي بين يديكِ الآن، سالماً، وتأمّلي طائر الحب الذي فرَّ بعيداً. قارِني بينهما، وسجّلي في دفتر حساباتكِ صفقة فاشلة.

طفرت من بين جفنيّ دمعةٌ وسيارتهما تبتعد، لمحني أخي عُمر وأنا أحاول جرفها على جفاف الوجه الباقي حتى لا تبدو. ربّت كتفي ومضى، وبقيتُ واقفاً عند عتبة المنزل، وفي رأسي شبه دوخة.

أويتُ إلى فراشي مصحوباً بحبَّتَيْ أسبرين. تقلَّبتُ فيه حتى الفجر. قمتُ في وهن. دخّنت سيجارة وشربت شاياً. انتابني لوهلةٍ وسنٌ طفيف. استيقظتُ منه على صباح الكآبة الآنف الذكر.

صباح الحزن أيتها الرياض الخاوية. الرياض التي لا تعِد بشيء، ولا تفي بشيء. أروى الآن في بلدٍ، وأنتِ في بلدٍ، والجميع مشغولٌ عني هنا. حتى أمي لديها ما يشغلها. إنها تقيسُ انتفاخ بطن زوجة عمر، تُقطِّرُ الدواء في عين جدَّتي الرمداء، تسمعُ النشرة الزوجية لسارة وندى، تَعُدُّ الأيام الباقية ليعود خالد من انتدابه الأخير. حتى يوسف كان يأخذ من وقتها نصيباً رغم أن الموت غيَّبه عن عينيها منذ سنواتٍ ثلاث.

رحمكَ الله يا يوسف، كم أحتاج إليك هذه الأيام.

كان موته أغنيتنا العتيقة..

خمسُ سنواتٍ وهو يبني شهادته الأولى، وأدركه الأجل قبل اللَّبِنة الأخيرة.

من قال إن الموت يعترفُ بالشهادات، ويفكر في الطموحات، ويحترم الأحلام، ويؤمن بالآمال التي تستهلك العمر؟

هذا هو العزاء الثاني في بيتنا بعد أبي.

كان حادثاً دموياً، شهد على دمويّته بابُ الجامعة الذي كان المكان، وصباحُ السبتِ الذي كان الزمان.

أظلَّت على قلبي غمامةٌ سوداء ثقيلة، ولكنها بلا مطر. تركنا المقبرة ملتاثين بالفجيعة الصباحية. ازدحم الناس في بيتنا ظهراً. تسلّلتُ إلى غرفتي متجنّباً أيَّ طريقٍ يضعني في مواجهة أمي.

ستحرقني رؤية وجهها الباكي ثلاثة أشهرٍ على الأقل.

أغلقتُ باب غرفتي، وانهرتُ على السرير. رفعتُ بصري لأتأمل الصورة التي تجمعنا معاً قبل عشرة أعوام، وهو يستذكر لي دروسي.

حاولتُ أن أبكي، ولكني اصطدمتُ بأعنف عِنادٍ عرفه جفني.

حاولتُ أن أكتب إليه، أن أفي له كتابةً، هو الذي علَّمني كيف أضع حرفاً جنب آخر، لأصنع كلمة، ثم حزناً جنب حزن، لأصنع قصيدة.

أخذتُ قلماً من مكتبي، شرَّعتُ الدفتر، وتشكّلت أبياتٌ فقيرة

تتوسَّل إلى دموعي على قارعة ورقة.

واصطدمتُ بنصيحته لي عندما نشرتُ أول قصيدة: «لا تفاجأ عندما تكتشف ذات يوم أن أوسع قصيدة في دفترك أضيق من أضيق حزن في صدرك».

بالفعل، من المجحف أن أرثي يوسف بقصيدة، وهو الذي علّمني كيف أكتبها، ماذا قدَّمتُ له إذن؟

أغلقتُ الدفتر على الصمت المخجل، كوَّرتُ نفسي تحت الفراش، وبدأتُ أشعرُ بالملل من هذا الاستدرار اليائس للبكاء.

فقدَ بيتُنا إنساناً آخر.

بقي عُمر، الأخ الذي لبس عِمامة الأب مبكراً، وندى وسارة، ثم مكان يوسف الخالي، ثم خالد، فأروى، فأنا.

سبقني يوسف إلى الكتابة، ثم لما أبصر فيَّ أعراضها المَرَضية أيضاً، تبنَّى كل مطلع قصيدةٍ خجول حتى أوقفني على قلمي.

أيقظني من نومي ذات ليل، كان وجهه يضيء، وعيناه تومضان، أخذ بيدي، وتسللنا معاً خلف الحياة، حتى أوصلني إلى كهفها العميق، جلستُ معه على الأرض، وضع يده على هامتي، لقّنني عشرين طِلْسماً، وبعث أمامي دخاناً كثيفاً، وتمتم بالحروف المقدّسة، ثم قلّدني تميمة الشعر، وأوصى بي نجوم السماء، وأعشاب الأرض.

خمس سنواتٍ بيننا، إنها مسافةٌ حائرة، أمارس معه احترامه

ويمارسُ معي شقاوتي، لا أتبسّط معه مثل أروى، ولا أتحفّظ معه مثل خالد، ولكني ألتصق به كثيراً. صديقٌ في جُبّة أستاذ. لم أكن أفارقه إلاّ لِماماً. يصحبني أينما ذهب. حتى قالت سارة ذات مزحة أني أكاد أنتعل حذاءه معه.

كلُّهم بكى عليه بدموعٍ صادقة. فلماذا أنا لا أستطيع أن أبكيه معهم؟ لماذا هذا الإحجام الفظيع في حزني عليه؟ لماذا تخونني حاسّة البكاء عندما أحتاج أن أرى بها مصيري؟ لماذا كان كلّ ما يمكن أن أواري به جثمان يوسف، تُراباً وقصيدة فقط؟

وقفتُ في العزاء لعلّ البكاء يشتهيني. صافحتُ مئتَي رجل وليس إلا الغمامة السوداء الثقيلة نفسها. مضى الناس، وجنَّ اللّيل، ونام عند أمي نساءٌ كثيرات. نظرتُ إليها من شباك غرفتها وهي تصلّي في خشوع رهيب. شعرتُ بالطمأنينة. دخل عُمر عند زوجته. ونام خالد مع زوج ندى على الأريكة في مجلس الرجال. واختفت سارة وندى في زِحام اللون الشاحب الذي اتَّشحت به كل النساء.

عرّجتُ على غرفة يوسف.

كان ضوؤها مُشعلاً، يتسرَّبُ من عقبِ الباب، ويتسرَّبُ معه أيضاً صوتُ بكاءٍ خفيف.

لم أندهش عندما وجدتُ أروى منكفئةً على ملابسه التي كان قد خلعها عنه ذلك الصباح، ولبس أخرى جديدة، وكأنه يستقبل الموت بأناقة، كما عاش طوال حياته أنيقاً. آخر قطراتِ عرقه كانت أروى

تدفن وجهها فيها بقوة، وتشمُّ رائحة جسده بحُرقة أختٍ تعرف أنَّ هذه الرائحة لن توجد في الحياة مرةً أخرى.

أوقفتها على قدميها، واحتضنتها بقوة، لوَّنَ الكحلُ الطفيف في عينيها بياضَ ثوبي عند الكتف بعد أن أذابته دموعها. غزيرةٌ دائماً دموع أروى منذ الطفولة، لها مساربُ دمعية ثرّة، تملأ كفّها دموعاً لو أرادت.

رحتُ أرتّب معها فوضى الغرفة. أخرجنا الملابس من دواليبها وحشرناها في حقائب قليلة استعداداً لإخراجها. جمعنا كل حاجياته وأغراضه ومتعلقاته الشخصية واقتسمناها، أنا وأروى والفقراء الذين سنتصدق عليهم بملابسه. كان نصيب أروى كل صوره، ونصيبي أنا كل دفاتره، والبقية لهم.

كنَّا نسعى لإفراغ الغرفة قبل أن تدخلها أمي. هي التي تعيد شحن نفسها بكاءً بعد سنواتٍ من رحيل أبي كلما رأت شيئاً من أشيائه، ربما مارست العادة نفسها مع أشياء يوسف. يكفي أمي بطارية بكاءٍ واحدة، ستحترق إذا اشتعلت فيها أخرى.

ساعدنا يوسف كثيراً. لم يخلِّف وراءه إلا حقيبتي ملابس، وحقيبتي كتب، ورزمة دفاتر، ثلاثة ألبوماتِ صور، وأشياء أخرى بسيطة.

قُبيل الفجر، كانت غرفته خاوية. وَعَدَ خالد أن يُحضر من ينزع عنها أثاثها في الصباح، ولكن من ينزعه هو عن ذاكرة بيتٍ بأكمله؟

إننا لا نتجنب الحزن، إننا نتجنب المرور فوقه فحسب، نُقيل أنفسنا من عثرات الأقدام بتسوية الطريق، من يقيلنا من عثرات القلوب؟

شيَّعتُ أروى إلى غرفتها. تركتها وفي ثغرها شبح ابتسامةٍ قانطة. ومضيتُ إلى غرفتي.

تقلَّبتُ ولم تأخذني سِنَةٌ، وما زال خدي جافاً مثل صحراءٍ إفريقية.

لم أكن قد عرفتكِ آنذاك، ولم يكن ليدور في ظنّي أنَّ امرأةً في هذه المدينة، اسمُها مها، لن أواجه معها مشكلة انحباس البكاء هذه أبداً.

امرأةٌ ستضعني عند خط الاستواء، حيث لا يتوقف المطر.

***

خلا بي البيتُ تماماً بعد رحيل أروى. كل الأشياء صارت تأخذ طابعاً استهتارياً وأنا أشعُرُ وكأني مريضٌ نفسيّ يتنصَّل من كل المسؤوليات، ويتقلَّب على يومه وغده مثل الحيتانِ التي تنتحر على الشاطئ.

لأن رحيلها يذكّرني برحيلك، ولأني رجلٌ يكره المترادفاتِ الموجعة، ويكره أن يُلدغ من حزنٍ مرتين.

تعوَّدتُ قبل أن أنام أن أتحدَّث قليلاً مع أروى، ألهو معها بأي أُلهية، أن أضمّها برفق وأتركها تبكي وهي تستعد لفراقنا، أن أسمع

معها آخر أغنية، وأربّي معها آخر لوحةٍ تُبدعها أناملها.

ليس من السهل تغيير هذا. آلاف الأيام مرّت من حياتي وكان آخر ما ينغلق عليه جفني قبل أن أنام وجه أروى.

ها هي الليلة الثانية بدونها، صعبةُ الحل، مثل سابقتها.

تنتابني فكرةٌ محبطة، ماذا لو أحصل على حبّةٍ من تلك التي يصفها الأطباء النفسيون لمرضاهم؟ أليست الكآبة مرضاً نفسياً؟ لا ريب أن دواءها يمنعها إذن، فَلِمَ لا أجرِّب؟ كآبتي قاسية هذا الصباح، حتى أني أتنازل أمامها عن عقلي وصُداعه، من أجل قلبي وهمومه.

فنجانُ الشاي يخبِّئُ طعمَه عني، وفمي المرُّ يسجن، حتى الآن، سيجارةَ الفجر الحزينة. تلك التي دخَّنتُها على الدرج الصغير، عند باب منزلنا الواجم أمام وجومي، وورقةُ الثاني من أغسطس تتأرجح على التقويم، ونسماتُ الفجر الأولى تحمل إلى البيوت المجاورة في حيِّنا رائحةَ رجلٍ لا يستطيعُ أن ينام.

هل هؤلاء النائمون سعداء إذ ناموا؟ أنا أؤمن أن بعض الهموم يولَدُ أرَقُها معها، وبعضها يولد يأسُها معها، ربما هذا الهمُّ اليائسُ يجعلهم ينامون.

لماذا يتهلَّمُ في داخلي مفهومُ السعادة هذا الفجر؟ لماذا يتشبَّحُ ويتداخلُ كخيوطٍ سرابيةٍ كثيفة في نسيج الغبار الذي يلفُّ الرياض هذه الأيام؟

هل أمي التي يتناهى إليَّ صوتُ قرآنها الفجريّ سعيدةٌ هذا اليوم؟

أم أن حزنها الأرملَ القديم أصبح عجوزاً مثلها، وراح يأخُذُ شكلاً معقّداً لا نفهمه نحن الذين ما زِلنا في أبجديَّةِ الحزنِ الأولى؟

هل جدّتي، التي يكفيها من الليل ساعتان فقط تنام فيهما، تستطيع أن تقضي الاثنتين وعشرين ساعةً الباقية دون أن يدهمها الحزن؟ إنَّ في ذاكرتها ثمانين جداراً، فما أكثر الشقوقَ التي يمكِنُ أن تتسرَّب منها السعادة، وتختفي.

هل إخوتي الذين يتوسَّدُ كل منهم زوجته في هذا الوقتِ من الليل قريرون بهذا الكهف الأنثوي الذي يحتمون به كل ليلة؟ وهل أخواتي البنات سعيداتٌ بأزواجهنَّ، بخلاف أروى التي بالتأكيد تتلوَّن سعادةً الآن، أم أنَّ هموماً لا نراها يُخفينها عن أعيننا؟

كم أودُّ لو أنامُ في غرفةِ أمي الآن.

كم أتمنى لو أعرفُ لذاكرتها حداً لا يبقى بعده شيء، أبكي عنده على رجليها حتى تنطفئ عيناي أو يبرد صدري، أيهما يحدث أولاً.

ولكن أمي لن تتركني أبكي طويلاً عند هذا الحد.

هي تخشى عليَّ من كِتمانٍ يقرضني، وأنا أخشى عليها من بوحٍ يؤلمها. ستستجوب دموعي حتماً، وهذا ما يمنعني من اللجوء إليها.

ماذا لو علمتْ بأمر حبي؟ ماذا لو علمت بأمر مرضي وصحتي التي تتدهور؟ ماذا لو قَرَأَت ما يدور في صُداعي من قلقٍ، ويأسٍ، وطموحٍ خائب؟

يا ليتني أعقد معها اتفاقاً خفياً أسكب بموجبه العبرات، وأحتفظ بالأسرار. آخذ منها دفئها، وأمنحها بدلاً منه دموعي فقط.

ولكنها أمي، لن تتغير.

أبداً ستظنُّ أنها قادرةٌ على حلِّ جميع المشكلات، ولن تحتمل فكرة أن مشكلات أبنائها الذين أنجبتهم أصبحت أكبر منها. ستظلُّ حتى آخرِ نبضةٍ من قلبها تدافعُ عن أمومتها لأحزانهم كما تدافعُ عن أمومتها لهم.

ربما كان ذلك شعوراً منها بالمسؤولية لما يتعرضون له. أليست هي التي أخرجتهم من رحِمها إلى حزنٍ ما يتلقفهم في هذه الدنيا؟

وأنا أيضاً، لن أتغير.

سأظلُّ أبداً أتأبط فكرةَ الصُّمودِ الواهي، الشجرةَ التي تصفِّرُ فيها الريح، وتظلُّ واقفة، ولا تشكو إلى أحد.

أمارسُ هذا التهريج، ولا أنتبه إلى أني قد أموت وحيداً ولا يعلمون.

حتى أنتِ قد لا تعلمين، رغم رسالتكِ المسجَّلةِ الثانية التي تركتِها لي في هاتفي قبل ساعة، خاويةً من أيِّ كلمة حبٍ أُرمِّمُ بها قلبي، عدا اعتذارٍ مُلفّقٍ عن حشر تعبير «عيوني» في الرسالة السابقة، حتى يضيع التذكير والتأنيث في العبارة، فلا ينتبه سالم أنكِ تسجلين رسالةً لرجل، ثم اختلطت الحروف ببعضها، فلم أسمع شيئاً.

كأنكِ تتحاشين الكلام. شهرٌ وزيادة ولم تجدي دقيقةً واحدةً تهاتفين فيها قلقي واحتراقي ولهفتي. يبدو أن سالماً هذا لا يدخل الحمّام أبداً، يبدو أنه لا يترككِ في مكان وحدكِ ولو ليشتري أتفه شيء، يبدو أنكِ لم تتزوّجي رجلاً، بل عَلَقَةً طبيةً من تلك التي تلتصق بالجلد.

إذا كان ما أمضاه معكِ حتى الآن يتجاوز الأربعين يوماً، فهذا يعني أنه أخذ منكِ مليوناً وأربع مئة وخمسين ألف ثانية، بكل ما فيها من الحب والحنان والدفء، وأخذتُ أنا عشر ثوانٍ فقط، هي طول مكالمةٍ مسجَّلةٍ، لم تخلُ من آثاره عليكِ أيضاً.

كيف ستعوّضينني عن كل هذا؟ عن ألف جزءٍ احترق في قلبي قهراً ولم يعد صالحاً للحياة؟ عن الكُليتين المريضتين إلى الأبد والذاكرة السوداء التي لن تمّحي؟ وآلاف آلاف الدموع التي ضاعت، وخط حياتي الذي انحرف، وسقف طموحي الذي انهار، وسعادتي التي فقدتها تماماً بعدكِ؟

رميتُ الآلة الحاسبة بعيداً عني وذرفتُ دموعاً عابرة، واستحضرتُ مرةً أخرى فكرةَ أن أموت ولا يشعر أحدٌ بما يدور في صدري.

حتى جبين أمي، وسجادتها المسافرة في أوراق الله..
حتى قصائدي التي يَبِسَتْ على مكتبي ولم تكتمل..

حتى سيجارتي التي تحترق في انتظار الموت..
حتى نسمات الفجر التي تفضح أرقي بين بيوت الحي..
حتى هذا الباب الواجم..

***

شوارعُ الرياض الخاوية صباح يوم الجمعة ستأخذني إلى وهمٍ ما أفطر عليه، أو منديلٍ قديم أمسحُ به دموعي الثقيلة.

لا أحتاج إلا إلى سيارتي وسجائري وموسيقى ياني القديمة الهادئة التي عرفتنا معاً، وذاكرةً من وحلٍ وغبار.

ياني يستثمر في أحزان صدري. بساطٌ يونانيٌ منبسطٌ فوق هذه الهضبة النجدية الباردة. سمعتُ موسيقاه أول مرة في غرفتك، ثم رحلتِ، وظلَّ هو معي.

يؤلمني أنَّ كل الأشياء ظلَّت وفيةً، إلا أنتِ.

تعلّمتُ لغةَ روحه بسرعة، بفِطرة الحسّ. تماماً كما تعلَّم هو موسيقاه الأولى في السادسة دون أن يحضر درساً واحداً. لأنه إغريقيٌ موغلٌ في عصاميّته، كان ينقر في جدران الروح، وأنا أمتصُّ فوضى سجائري. يختلط الدخانان في صدري، ويدور محرّك الذكرى بقوة البخار.

أتذكر سلوككِ الغريب في سماع موسيقاه، ما أن يبدأ عزفُ ياني حتى تبدئين بتقبيلي حتى وأنا أتكلم، تختلسين القبلاتِ بين كلمةٍ

وأخرى وكأني طفل، وأشعُرُ بالضيقِ لأنكِ لا تُصغين إليَّ، ثم أنتبه إلى أن العائد أكبر من المضحّى به.

سأصمتُ إلى الأبد ما دامت هذه الفتاة الجميلة تشتهي تقبيلي مع عزف ياني. إن لنا أساليب كثيرة للتفاعل مع الموسيقى، غير الرقص.

الآن، ما أن يبدأ ياني بمقطوعته حتى تذرف عيناي دموعها ببطء مثل أشجار الصمغ، حتى ينتهي.

أحرِقني يا ياني. أريد أن أترمَّد. أريد أن تنثرني الريح وأتلاشى. اغزلني وتراً مشدوداً في ظهر البيانو الكبير الذي تعزف عليه. جرِّدني من المسؤولياتِ تجاه نفسي قبل أن أستسلم لهذه الكُلية المريضة في جسدي.

سأرحَلُ في هذا الفجر النجديِّ العتيق إلى آخر مدىً يدفِن فيه المتعَبُ تعبَه. سأجول بين حدِّ الصحراء والعُمران كما يفعلُ ثلاثة أرباع العشاق في هذه المدينة وحدهم. ما دمتُ قد عدتُ إلى ممارسة الوحدة مثلهم، بعد أن قضيتُ شهوراً طويلة كانوا يتسكعون فيها على أرصفة الليل، بينما أسعى أنا إلى غرفة حبيبتي.

يا الله..

لماذا اكتشف نيوتن أن لكلّ فعلٍ ردّة فعل؟

فجرٌ كهذا الفجر، كان يحملني إلى غرفتكِ، ويطوِّق بيديكِ عنقي، ويأخُذُ كل همومي ومشاكلي وسُهدي ويرميها من الشباك، ويبقيكِ لي، ويبقيني لكِ، دون غيركِ من نساء الأرض ونجوم السماء.

ستبقى همومي في الفِنَاء، أسفل هذا الشّباك، حتى أنزل وأحملها معي.

ها أنا الآن في ردة الفعل، بعد أن مارستُ فعل الحب أشهراً طويلة، وهي كما قال فعلاً، مساوية له في المقدار، معاكسة له في الاتجاه.

بقدر ما استمتعتُ بكِ، ها أنذا أتعذَّبُ بكِ الآن.

وبقدر ما كان فعلُ حنانكِ جارفاً، جاء فعل جحودكِ مؤلماً.

أتساءلُ وأنا أهيم على وجوه الوحشة، إن كان من حقِّي على هذه الحياة كإنسان أن أجد فيها ما يؤويني؟

حتى الحشرات التي تدبُّ فوق الأرض ستؤويها جحورها الصغيرة.

حتى هذا الشارع الصامت، لن يموت وحيداً، فقبل أن ينتهي سيدركه شارعٌ آخر حتماً.

حتى الموتى لهم قبور.

ربما لم يعد هناك ما يمكن أن يؤوي رجلاً مثلي، يرفُضُ كل الأشياء، وكل الأوضاع، وكل النساء، ويتمادى في التذمُّر والمقارنة، هو يبحث عن مأوىً لجبينه ولحبَّاتِ العرق التي ينضح بها.

حاولت أن أصِلَ هذه الطريق المسدودة بأمي وآوي إليها. نمتُ على رجلها قبل أيامٍ خَلَت، وتركتُ رائحة حنَّائها تمشِّطُ غُربةَ رئتي، ووددتُ لو أنام فحسب. كانت خُصلاتُ شعري تلثم أصابعَها بقوة،

وكانت أنفاسُها تنبِّهُ ذاكرتي إلى أني منذ سنوات لم أنم على فخذها، وهي أخبرتني، وكأنها قرأت جبيني وعلمت ما يدور فيه من الأفكار، أنني منذ طفولتي لم أكن أنام على أي عضوٍ من جسدٍ آخر.

كنتُ دائماً، كما تقول، أنكفئ عند النوم وأتقوقعُ على نفسي وأتوسَّدُ ذراعي النحيلة وكأني أبحثُ عن دفء وسادةٍ لها خلايا جسدي نفسها، لأني أخاف الغربة، وأكره التغيير، وأرفضه بشدة في أكثر لحظاتِ الطفولة احتياجاً للأمان، النوم.

الآن، صارت أشدّ لحظات الغربة عند النوم، وصرتُ أحتاج كثيراً إلى هذا الجسد الآخر، لأنام عليه.

ولكنه النوم..

ميثاقٌ قديمٌ لوفاءِ الذاكرة.

وجوهُ الناس، وأصداء الأشياء، والأحلام المرتعشة، كلها تتجمع على الوسادة المرهقة، لتشوِّه وجهها الناعم، وتبعَث بين خيوطِها برودة اليأس.

لذلك نُشعل الوهمَ في أفكارنا قبل أن ننام، لنشعر بالدفء.

لنشعُرَ أنَّ في آخر هذا الظلامِ السرمديِّ الذي ننامُ فيه ثمَّةَ أملاً قد يجيءُ به الصباح القادم.

صباحُ نافذتي الكسلى التي كانت تواعدُ الشروق، قبل أن يهجرها، ويذرها حُبلى.

راحت تضيقُ شيئاً فشيئاً، أمام حُلم شاردٍ، لا تملكُ أن تُجهِضَه، ولا تملك أن تلده.

بعد أسبوعين، تنغلق هذه النافذة تماماً، ويلتحِمُ الجدار على مكانها كأن لم تكن، وتحملني طائرةٌ هاربة مع حقيبتي، إلى سطحٍ آخرَ للكوكب.

تركتُ خلفي أوراقي اليابسة على المكتب الذي يغصُّ بجراثيمكِ، وتركتُ أقلامي تجوع وتعرى، وودَّعتُ حِنّاء أمّي بقبلة طويلة، وحملتُ شهادتي إلى أرضٍ أخرى، لعلّي أخترع فيها حلماً بنفسي، وأحلم به، ثم أسعى لتحقيقه، لأن الأحلام التي تجيء وحدها تشنقني، ولا تتحقق.

قديمٌ أنت في دفتر اليأس يا ديار، يا صديقي البعيد، أتذكَّر رسائلك:

«عندما لا يمكن للحياة أن تستمر، لا بد أننا نحتاج إلى وقفةٍ طويلةٍ للحزن. الحياة تكره أن نتجاهل ضرباتها لنا، وترفض أن نستمر فيها دون أن نقف مراراً، لنعلن انهزامنا أمام سلاحها القَدَري.

إننا نقدِّمُ لها شيئاً من الحزن كلّما احتجنا إلى مزيد من العمر، وعندما تنتهي أحزاننا، أو تتجمَّدُ في أضلاعنا، نموت. بين الموت والحزن تواطؤٌ وتناقض. الموت الذي نظنّه بداية حُزننا هو نفسه نهاية حُزنه. لذلك لسنا في حاجةٍ إلى أن نخشى الموت، ولكنا نخشى أن تستمر بنا الحياة ونحن حزانى».

لبثتُ بعدكِ أعمى عدَّة أشهر، مارستُ فيها حماقاتٍ كثيرة وأدواراً عدّة، كلّها تنتهي بالفشل، وتضاعِفُ من رصيد آلامي، وتختزل كثيراً من ثقتي بنفسي. شعرتُ أن الرياض التي تعبت معي لن تمنحني أكثر من زِحام الناس الذين لا يشعرون بي، وآلام الكُلى التي تستفحل في خاصرتي، وأنين الذاكرة التي تستنطق حبنا في هذا المكان وذاك، والمزيد من التعجُّبِ الذي تشي به عينا أمي إزاءَ الانطواءِ المريبِ الذي آل إليه أمري.

عدّة زيارات تلد القرار، أولاها للسفارة الكندية، والثانية إلى رصيف بيتكِ الذي صار يضاجع نصف الليل بقرفٍ بعد رحيلكِ.

شبّاكُ غرفتكِ مظلمٌ جداً كأنما من ورائه العدم. تتراءى لي خلف ستارتها الثقيلة أشباحُ الأيام الطويلة التي قضيناها فيها. ضحكاتنا، همساتنا، ارتعاشنا، حكاياتنا الرائقة التي ننام قبلها، ونتوسَّدُ بعضنا خلالها ولا نشعر بحدود الجسدين.

صمتُ الجدران تعيسٌ جداً، والشارع موحشٌ حتى البكاء، وأنا أتهادى بين عموديْ إنارة، مثل قِطٍّ مُشرَّد.

أتذكرين عندما اعتنقنا تحت الغطاء، في الظلام الدامس، ورحتُ أحكي لكِ ما قرأته في رواية نجيب محفوظ «عبث الأقدار»، وأنتِ تقاطعينني فيها، وتستبقين الأحداث، وتتوقعين النهايات، حتى نمتِ أخيراً على عُنقي، وخُصلاتُ شعركِ تداعبُ فمي، وأنفاسكِ تتسلل إلى أذني، ولم أُنهِ الرواية. نمتِ قبل أن أخبركِ كيف تزوَّج ددف بن

رع من الأميرة مرى سي عنخ، وجلسا ملكين على عرش خوفو العظيم.

قرأتُ مرّةً بحثاً علمياً يقول بأن الأصوات التي تخرجُ منا لا تنعدم، إنها تأخذ في الخفوت تدريجاً فحسب حتى لا تعود تدركها أسماعنا، بينما تستمر مسافرةً في الأثير إلى الأبد، وأنهم ربما اخترعوا جهازاً يعيد تضخيم هذه الأصوات التائهة من حولنا.

ماذا لو وضعوا جهازاً مثله في غرفتك؟ أيُّ الكلماتِ ستترجم نفسها أولاً؟ وهل ستكون كلمةً يا ترى، أو رجع آهةٍ، أو نغمة أغنية، أو صوت ضحكة، أو ربما ضجة ارتطامكِ بالسرير، يوم أفلتتكِ يداي فجأة بعد أن تخاذلتا عن حملك؟

ربما سمعوا حديثكِ مع سعد أو سالم؟ ربما كان صوتي هو أكثر الأصواتِ خفوتاً.

***

في معمعة الرحيل، كان طيفُ المرأة التي أحرقتُ أوراقها برعونتي يهرُشُ عقلي بعنف.

امرأةٌ لم تكن أنتِ، ولكنّ سوء حظها جعلني أفكر فيها بديلةً منكِ.

هي تقبَعُ في بيتٍ آخر، على رصيفٍ آخر، وأنتِ تقبعين خارج نطاق الليل والنهار في بلدي. إحداكما قتلتني وَجْداً، والأخرى قتلتني ذنباً.

كدتُ أن أضمِّدُ جرحكِ بها، ثم توجَّستُ فجأة من ضِمادٍ يُسمِّمُ الجرحَ ولا يشفيه، فتراجعتُ في أنانية، وأنا أجرُّ ورائي أحلامها وآمالها وأمزِّقُها على قارعة الطريق، وأَذَرُها ورائي حزينةً مهمومة، لا تفهم كيف صارت بين ليلةٍ وضحاها مُطلَّقة وهي لم تمسَّ بعد.

بعد العَقْدِ عليها بأسابيع طلَّقتُها، وقبل موعد الزواج بأسابيعَ أخرى. تماماً في منتصف الحلم هذا كانت طعنتي لها محكمةً جداً، وفي صميم كبريائها التي تناثرت دماؤها على وجه ذنوبي، ولم أفهم لماذا فعلتُ هذا، ولكني شعرتُ أن قلباً تملئينه أنتِ إلى هذا الحد، لن تجد فيه امرأةٌ أخرى مساحةً كافية لسعادتها.

كم تُراها تكرهني الآن؟ ربما كان قدري وقدرها أن أكون أنا أسوأ رجلٍ في حياتها، كما هو زوجكِ سالم أسوأ رجلٍ في حياتي. ها أنذا هاربٌ من ذنبها الحارق الأليم، بينما ما يزال هو يقطِفُ من شفتيكِ كل يوم تفاحةً أو عنقود عنب كما يشاء.

طلّقتها قبل أن أدنِّسها بحزني. ليس في قلبي شيء يُمنح إلا وقد منحته لكِ أصلاً. كان الذنب يصهرني صهراً، وكنتُ أتخيل حجم الألم الذي أرسلتني به الأقدار إليها، ولكني لم أكن أملك شيئاً. ارتبكت، وأفقت يوماً فوجدتني عاقداً على امرأةٍ لا أدري من هي، ولا على أي غيمةٍ تنام، ولا من أي قمرٍ تقتات.

مشاعرُ كهذه هي التي خبَّأتها في حقيبةِ ملابس، وتواريتُ معها

خلف تذكرةِ سفر، وتركتُ مدينتي إلى ضِمادٍ آخر، لا أدري ماذا في قُطنه ولفائفه.

لو أستطيعُ أن أستنشق رائحة السعادة التي كدتُ أنساها ربما تتغيَّرُ الأشياء. ربما يتحوَّلُ حلمي بكِ إلى وهمٍ لا يبكيني. وربما يبلغني أن مطلّقتي لم تحترق تماماً، وأنها تزوَّجت بعدي رجلاً ما، وأن فصلاً مختلفاً قد يحلُّ، وأن رجلاً قديماً مثلي، قد يتحوّل، ويتجدّد، وينمو، ويعيش.

هذا ما حملته معي في حقيبتي، بالإضافة إلى بعض الملابس.

أما ما حملته في قلبي، فأنتِ.

حملتُ عينيكِ الضاحكتين..

وشفتكِ العليا البارزة..

ونهديكِ المستديرين كقرصَين شمسيّين..

ورائحة العطر على جانبي عنقكِ..

وقصيدتي القديمة التي كتبتها لكِ، انتشلتُها وحدها من بين رفيقاتها، وحملتها معي، لعلّي أتكئ عليها، أو تتكئ عليّ..

وحملتُ ألبوم صور، ودفتر خواطر، أيضاً..

ورحلتُ إلى فانكوفر..

إلى شَتَاتٍ دافئ يساعد على الحزن بتركيزٍ أكثر.

***

كانت أمي لا تدري لماذا أرحل. أنا الذي تركتُ ورائي علاماتِ استفهامٍ كبرى، وامرأةً نصف محترقة، ووظيفةً لا بأس بها، وبيتاً كانت أمي تظنُّه يوماً سيحتضن أبناءها وأحفادها معاً، وحزمتُ حقائبي إلى مدينةٍ لم تسمع عنها من قبل، تختبئ خلف مئات الأميال، وبضع سنوات.

بطيبة أمٍّ لا تفهم ماذا يعتمل في داخلي، كانت تخاف عليَّ من ملامحي الكئيبة هذه. ربما ظنَّت بأمومتها أني أشعر بالوحدة بعد أن تزوّجت أروى، وأني أحتاج إلى أنثى ما.

كانت أمي قريبةً من الحقيقة، ولكني لم أكن أحتاج إلى أي أنثى والسلام.

عندي وطنٌ بأكمله احتلّه سالم، وراح يبني فيه كل يومٍ مستوطنةً جديدةً.

كل يومٍ يكتبُ فوقكِ سطراً ويمحو سطراً كتبته أنا من قبل. سينزعني سالمٌ من عينيكِ شيئاً فشيئاً دون أن تشعري. النساء دائماً أوراقٌ قابلةٌ لإعادة الكتابة.

ألم أكتب أنا فوق حسن؟ ألم يكتب حسن فوق عبد الرحمن؟

اقتربت مني أمي كعادتها عند التأنيب والتحذير. همست بنظراتٍ لها لون رجاء وشكل قلق: «يا بني، إياك أن تتزوج» ضحكتُ من قولها قليلاً. اقتربتُ منها وقبّلتُ وجنتيها وهمست بنبرة الصدق التي

تخرج مني أحياناً ولا أستطيع اختلاقها: «صدّقيني يا أمي، آخر ما أفكر فيه الآن، النساء».

أومأت لي أمي برأسها، تركتني وهي بين الفهم والحيرة وخَرَجَت. وعدتُ أنا إلى فوضى السفر.

منذ آلاف السنين، المنفى هو مكان آمن للحزن.

وأنا كنتُ أريد أن أنفي نفسي بعض الوقت، ريثما أعود إلى الحياة.

بياتٌ قلبيٌّ بحجم غصَّة.

عادت أمي لتجلس بجواري وأنا أرتِّب حقائب السفر. كانت تراوِحُ بين الضحك والبكاء وتحاول أن تساعدني. لم تدرك لماذا أعدتُ بلطف دفاتري التي أخَذَتها هي من فوق المكتب وراحت تبحَثُ لها عن حيِّزٍ خالٍ داخل الحقيبة. ظنَّت في البداية أني سأحملها بيدي فراحت تذكِّرني بها عند خروجي.

لم يكن رحيلٌ كهذا يحتمل الكتابة لأن تقاربها اللفظي مع الكآبة يؤرقني كثيراً. أنا الذي أصبحتُ أؤمن بالخُرافات وأتطيَّرُ حتى من شكل كلمة أو غلاف دفتر.

حَمَلَت أمي الدفاتر ولحقت بي عند باب البيت وهي تصيح: «ناصر، نسيت دفاترك»، توقفتُ عن الحركة والتفتُّ إلى وجه أمي الذي يبدو على شفا دمعة. تلك اللحظة شعرتُ حقاً بألم فراق أمي ودفاتري. عانقتهما معاً في الوقت نفسه، وأخَذَت أمي في البكاء. تركتُها ورحلت.

عندما تبكي أمي أحترقُ مثل الأغصان الجافة. لا أفكر في أسبابٍ منطقية، فقط أكتشفُ أننا شخصٌ واحد، يبكي بعيونٍ أربع.

تودّعني بصوتٍ يكاد يختفي: «ودعتك الله، احفظ الله يحفظك».

أبتعد عنها خطوتين وأردّد بصوتٍ أحاول أن أجعله يبدو واثقاً: «أشوفك على خير يا يمَّه، انتبهي لنفسك، وصحتك، وتوكلي على الله».

أبتعد أكثر وأسمعها تردد خلفي: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله يحفظك»، ثم تتحول إلى دعاءٍ خفيض: «الله ييسّر أمرك، ويسمح دربك، استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه».

إن في صوتها حُرقةً وحيرةً سكناها منذ القدم، كلّما ألمَّت بها نائبة نَشِطَتا في قلبها واستنهضتا حزن الماضي لحزن الحاضر. أشعر أنها تبكي أبي على ظهري المبتعد، وأشعر أنها ظلَّت تبكيه عشرين سنةً في كل ملمَّةٍ أنشَبَتْ ظُفراً جديداً في قلبها المثخن بالألم، هي التي فقدته شابَّةً ثم علَّمتنا كيف نبقيه معلّقاً في قبابِ ذاكرتنا من الداخل مثل ثُريَّات المساجد حتى عدتُ أكتب له الرسالة تلو الرسالة حالما تعلّمتُ الكتابة وواجهت أحزاني الأولى في الحياة.

لم أفتقد أبداً لغة حوارٍ مريحةٍ بيني وبين أبي. كنتُ دائماً أصطدم بوجوده داخلي كلما ركنتُ إلى الواقع وتظاهرتُ بالسلوى. صوتُه الحرُّ ما زال يجولُ في أرجاء نفسي، أنا الذي عرفته طفلاً ولم تلتقط

ذاكرتي منه سوى القليل من حنانه وصورة جسده المسجَّى على فراش الموت.

عاشت أمي زمناً تدندن بذكراه مثل الراهبات. ولاسيّما أنها لم تتزوج بعده. لم تترك لنا فرصةً لنسيانه. كانت تشعلُهُ قنديلاً في كل مجلسٍ نتَّخذه حولها، وتحيي الليل على أضواء سيرته وطباعه، وتعاقِبُ به ضمائرنا كلما حُدْنا عن الطريق المستقيم. علَّمتنا أمي كيف نُدْمِن ذكراه فلا نكون بدونها إلا رماداً بشرياً لا يستحقُّ الذكر. علّمتنا كيف نتخذه قضية نجاهد من أجل إبقائها قائمةً بين أفكارنا وخطواتنا، وجَعَلَت حزننا عليه ممدوداً إلى الأمام، لا يطويه السير في الوراء، ونحن نسعى إلى حيث لا ندري.

كما صرتِ أنتِ قريبةً مني كأبي، فكأني أشعر أن المسافة بينكِ وبين أمي تتداخل دائماً. لا أكاد أميِّز بينكما فرقاً صغيراً. طوال وصالنا كنتُ أقسم بحواسّي الخمس أنكِ أمي لفرط حنانكِ، وأن امرأةً تحتضنني ليلاً كما تفعلين، هي امرأةٌ يتداخل حبها وأمومتها في دائرتي.

وأمام ازدواجية الأمومة تلك كانت أمي تشعر أثناء علاقتنا أني لم أعد ابنها الذي تعرفه. لم أعد ألجأ إلى سريرها ليلاً كما كنتُ من قبل، ولم أعد أطرقُ بابها وأنا أحملُ فراشي لأضطجع جوار سجادتها وأشمَّ رائحتها الحبيبة التي تعلّمني كم هي دافئة غرفة أمّ.

منذ أن فَقَدَت غرفتُها ساكنَها الآخر، أبي، لم تَعْدَمْ أمي أنفاسَ أحدِ

أبنائها يشاركها الغرفة. مهما كبِرت أمي، مهما انحنى ظهرُها وصارت قصيرة، فإنها تظلُّ الملجأ الآمن الذي تعرفه خُطايَ جيداً، كلما توغّلتُ بعيداً عنها في أدغال الحياة.

ولكني آنذاك، كان عندي ما يُشبعني من الحنان. كان حبكِ يمنحني كل ما أحتاج إليه من عاطفة فلم ألجأ إليها. هكذا الأبناء، لا يصلون أبداً إلى سقف البِرِّ بوالديهم. أتخلّى عنها دون أن أدري، ولمّا تخلَّيتِ أنتِ عنِّي وجدتُ أمي تنتظرني وليس في عينيها ومضة عتب.

كنتُ أشعر بأمومتكِ السرابية لي عندما أشتاق إليكِ ذات نهار، فأدقُّ أرقامكِ، وأنتظر ردَّكِ، وعندما لا تردِّين، يتحوَّلُ الشوقُ في داخلي إلى خوفٍ خفيٍّ يتدثَّرُ بثيابٍ قلق. أواصل الاتصال بتوتّر، وبعد برهة، إما أن أنهار على صوتكِ، أو على بكاء لست أدري كُنهه ولا سببه. أتألَّمُ لهذه الحاجةِ الملحّةِ إليكِ لأني أعلم أني ذات يومٍ سأبحثُ عنكِ فلا أجِدُكِ، وذات يوم سيرنُّ هذا الهاتف في غرفتكِ الخاوية في نوبةِ يأسٍ مجنونة تدفعني لأن أتصل بكِ وأنا أعلم أنكِ في آخر الدنيا، وأن لا أحد يلتفتُ لرنين هذا الطفل الباكي في غرفتكِ. سيرنُّ كثيراً، سيرفع رأسه، يتأمل الغرفة التي كانت مسرح حياة وقد صارت مقبرةً صغيرة. كل الأشياء صامتة. السرير الوردي والأكواب الفارغة و بقايا الأثواب القديمة والشموع الذاوية والأوراق والكتب. ينتحبُ طويلاً، ثم يخبو، ويموت.

أبرُدُ لهذا العُرْي الفاضح الذي تركني فيه حبُّكِ أمام الدنيا.

صرتُ أعتقد أن فقداني للكتابة والوطن وأمي لم يكن إلا محاولاتٍ مني لفقد أشياء أخرى غيركِ. أردتُ أن يجتمع الحزن على الحزن فيمتزج بعضه ببعض حتى تندثر معالم حزنكِ الأول. ربما صدَّقني بعضهم وأنا أقول له هذا فيما بعد، وربما ظنَّني مجنوناً ذهب الحب بعقله، ولكني أؤمن أن الطعنة الواحدة أشد إيلاماً من الطعنتين، والجرح يكون أكثر وجعاً عندما تكون بقيةُ الجسم سليمة، وأنا أردتُ أن أشتِّت أفكاري بين عدَّة أحزانٍ حتى لا ينفرد بي حزنٌ واحد، فيقتلني.

***

والدي البعيد،

المطر الذي عرفتُهُ مهذباً لم يعد ينتظر إذناً للهطل. أصبح ينهمر بشراسةٍ على المدينة الملقاةِ تحته كالمغتصَبَة. غرقت الطرقات والشوارع في ليلةٍ لم أشهد مثلها منذ وصولي إلى فانكوفر. إنه الشتاء الأول لي في مدينة الشتاءاتِ هذه. منذ أسبوع لم أرَ وجه الشمس الخائفة. السماء ملتحفةٌ بغيومها والمطر يختزلها اختزالاً وهي تَركُمُ بعضها فوق بعض حتى خَلَعَت كآبتها الرمادية على زجاج النوافذ وواجهاتِ المحالّ المغلقة، وسَحَبَت وشاحاً من الحزن الشفيف على الأرصفة المطعونة بأعمدة الإنارة، الملتحفةِ بأوراق

الشجر، الغارقة في حدِّ الصمتِ الأخير.

منذ أن مات السيَّاب، وفلاسفة المطر حائرون في تركته.

«أتعلمين أيَّ حزنٍ يبعثُ المطرْ؟

وكيف تنشُجُ المزاريبُ إذا انهمرْ؟

وكيف يشعُرُ الوحيدُ فيه بالضياعْ؟

بلا انتهاء،

كالدم المُراقِ،كالجياعْ

كالحبِّ، كالأطفال، كالموتى، هو المطرْ».

رحل السيَّاب، وأبقى وراءه حيرةَ هذا المطر الذي تقطُرُ معه بقيةٌ من روحه الحزينة واستنطاقِه اليائس لأرض العراق المتعبة بالسياسة. تذكرته وأنا أراقبُ ليلةَ المطر هذه وأتمطَّى في حدِّ الذهول الذي تركتني فيه الأمطار محبوساً بين جدران الشقة، مستنفراً كل المفارقاتِ الذِّهنية الماطرة، أنشِّطُ دماغي المتعب قبل أن يعتريه الذبول، وأجمعُ المتناقضاتِ والمترادفاتِ أمام النافذة التي يغيِّرُ المطر ملامحها كل ثانية.

مات السيَّاب حزيناً، وظلَّ المطرُ يهطِلُ بعده دون توقُّف.

كم هذه السياسة ملطخةٌ بدماء شعرائنا. ليتها تَرَكَتهم لنا واكتفت بالشعوب التي تلوكُ شعاراتها الكاذبة منذ عشرات السنين ولم تبصقها بعد. ولكن يبدو أن قَدَرَ الشعراء أن ينعجنوا بعناء شعوبهم حتى الموت، وأن يبكوا عنهم ما داموا مشغولين بالهتاف، وأن

يسيروا في جنازة الوطن ما دام الشعب يسير في مظاهرة ما.

«ومنذ أن كنّا صغاراً،

كانتِ السماءْ

تغيم في الشتاءْ

ويهطِلُ المطرْ

وكلَّ عام حين يُعْشِبُ الثرى نجوعْ

ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليس فيه جوعْ».

بعد السيَّاب، حاولت كثيراً أن أفلسِفَ المطر. كنتُ أخرج إذا هطل في الرياض إلى حيث أبقى أنا وهو وحيدين. وإذا عجزتُ عن الخروج كان سطحُ بيتنا يشهدُ الإرهاصاتِ الأولى التي أحاول فيها أن أشرح المطر على مسوّدته. الآلافُ من النقاط الصغيرة تقذف جبين الأرض. هذا العناقُ السماويُّ الأرضيُّ العنيف، لقاءُ توأمي الأزل اللذين يحملان على عاتقيهما مصير المخلوقات والحياة.

الرياض لا تغيم كثيراً، ومتى غامت انتابت الجميع رغبةٌ عارمةٌ في الفلسفة المطرية. الجميع يهذر حسب فهمه. الشاعر بدفتره، والمسنّ بذاكرته، والأنثى بقيودها، والعاشق بسهومه، والمتشرد بحفائه، والفلكي بأنوائه ونجومه.

في فانكوفر، فتحتُ مسوّدةً جديدة. كانت دورةُ المطر فيها تبدو لي مثل عمليةٍ تناسلية شاقة، بحجم الغيوم الكثيفة المليئة بالشَّبق،

واتساعِ البحار التي تصعدُ بشهوتها إلى السماء، وارتعاشاتِ اليابسة التي تنتظر الرزق والأطفال.

هذا المطرُ الغريب يُلقِّحُ كل شيء، حتى ذاكرتي العقيمة صارت تضطجع تحت انهماره القاسي اللذيذ لأجدها بعد حينٍ حُبلى من جديد، وفي أحشائها طفلٌ يختلطُ في دمائه ركودُ السماء التي لا تَعِدُ بشيء، وجيناتُ ذلك الماضي التعيس.

الأشياءُ هنا تَبعثُ في حزنها على الكسل. خلا الشارع إلا من مُشاةٍ قليلين يسحبون ذيولَ معاطفهم على بِرَكِ المياهِ الصغيرةِ المتآمرةِ على استواءِ الطريق، ومعظمهم يرتدون معاطفَ سوداء، وكأن بعض الألوان يتفوقُ عليها الجميعُ في هذه المدينة، أوكأن نهاراً شتائياً كهذا كان لا يستحق في وجومهم إلا السواد، يعاقبون السماء باللون الأسود، يطلقون مظاهرةً سلميةً ضدَّها، ويثيرون غضب الغيوم التي تُطِلُّ من فوقهم، وتكره هذه النقاطَ السوداءَ المتناثرة أنحاءَ غسيلها البشري.

أشعرُ منذ وصلتُ إلى كندا أن المطر هنا لا يبالي بوجودي. إنه يواصِلُ انهماره منذ ساعات بمستوى الرتابة نفسه، وأنا أتقلَّبُ تحته بألفِ طقسٍ وطقس دون أن يُلقي لي بالاً. أنا لستُ مجنوناً يا أبي، ولكني تعوَّدتُ أن أمطار بلادي إذا جاءت تكلّمني قليلاً. كانت تشاركني في النزول بكاءً أو البكاء نزولاً، وكأنَّ القطراتِ التي تسقُطُ على كتفي لا تشبه الأخرى التي تسقُطُ على الرصيف.

هنا المطر شيءٌ آخر.

شيءٌ باردٌ سخيف. يهطِلُ ببلادةِ مَن يمارِسُ الهطلَ نفسَهُ منذ آلاف السنوات. ليته يعلم، كلّما لفظته السماء، أنَّ بعض البشر يحتاجون إليه كثيراً، ليس للحياة فحسب، ولكن لطبيعته الانهمارية التي توقظُ في أعماقهم كوامن الرغبة في السقوط الطويل في هاويةٍ آمنة، كما يفعَلُ المطر.

وأنا أحتاجُ أن يُربِّتَ كتفي أيُّ شيء، ولو كان قطرة مطر. إذا كانت السماء التي تُظِلُّ كل شيء لا تشعر بوجودي فمن سيشعر به؟ هكذا سأبدو وكأني فائضٌ عن الحاجة. زيادةٌ بشرية لا قيمة لها. كأن السماء هنا لا تُمطرني بل تُمطر المكان الذي أقِفُ فيه فحسب. هكذا، بلا ذنب، أراها تتحيَّزُ ضدي، لأني طائرٌ مهاجرٌ في غير موسمه، جاء يرفرفُ بجناحيه خارج منطقة الأمل، أو لأني غريبٌ عن هنا، وإن كان نصف من في هذه المدينة غرباء مثلي، أو لأني جئتُ حزيناً أكثر من اللازم، ودخلْتُ البلاد بتأشيرةٍ سوداء، وهرَّبتُ في جيبي حبوب الكآبة، فمن أجل هذا ترفضني السماء بكل جمودها الذي اعتاد وجوه البائسين.

بكل سواد الدنيا أشعر بالوحشة. بكل اصفرار الحياة أشعر بالكآبة. القلق يلتفُّ عليَّ كثيفاً مثل طبقاتِ الظلام، وأشعر بالتوجُّس من كل الأشياء، وأراها تتعامل معي بعدائيةٍ مريبة. ينتِفُ الخوف شعراتِ جبيني وحاجبيَّ. شقتي تقيءُ تعباً هذا المساء وأنا أرتجِفُ في جوفها مثل المحمومين.

لو كنتُ أعرف فقط كيف أحدُّ من توتّري؟

وقفتُ أراقبُ حبّاتِ المطر التي تتوزَّع عشوائياً على زجاج نافذتي ثم تبحلق في وجهي بغباء. فكرت: عندما يسقط المطر على شيء، فإنه يفقد أَلَقَهُ المَطَري الذي استمده من السماء الكبيرة، ويصبِحُ مجرد قطرة ماء غبية. وفي جفني، فقدت الدموع أَلَقَهَا الذي أخذتُه من كبرياء الحزن. شيء ما يجمع بين القطرتين.

شيءٌ اسمه بكاء..

أو غباء.

شيء يتسلَّلُ إلى قلوبنا صغيراً، ثم ينتفخ فجأة مثل صدر ضفدع، ويَضيقُ به المكان، فيتسرَّبُ عبر عيوننا حتى لا ننفجر.

ليتني أستطيع أن أسدَّ منافذ قلبي أمام هذه الأشياء. كل يوم يتسلل منها الكثير إلى قلبي اللاهث. عانيتُ لسنواتٍ من هذه الثغرة القلبية المكشوفة أمام جرثومةِ البكاء. تعبتُ جداً من كثرةِ ما أغلقتُها كل ليلة كما يُغلق الرعاةُ أكواخهم ليلة الريح. ولكني أتخاذلُ دائماً أمامها وأفتحها بنفسي. آمنتُ أنه من الصعوبة على مثلي أن يتَّخذ قراراً كهذا. قراراً بألا يبكي. كم هي محرجةٌ الوعود التي كنتُ أَقطعُها أمام شحوبي في المرآة ألاّ أعاودَ العَبَثَ بالدموع ليلةً أخرى.

هذه الليلة أشعرُ أني واهنٌ جداً أمام هذا الوعد. حرارة الدموع بدأت تدغدغ المنطقة الحسَّاسة خلف جفنيَّ وتثيرُ شهوتي للانهمارِ مثل هذا المطر. ذلك الشيء العاتبُ المظلومُ ينتفخُ في داخلي

بشدة. يتضخَّمُ لا شعورياً ويزدادُ ضغطاً على تماسكي الذي أزعمه خلف زجاج النافذة.

ليلةٌ كئيبة، تدفعُ بعجلةِ الذكرى إلى ليلتي الأولى في فانكوفر قبل شهر. ظلَّت حقائبي فيها محزومةً كما هي، وكل ما في داخلي يؤنّبني ويصرُخُ في وجهي من أجل العودة. كانت ليلةً تشبه هذه الليلة، ولا تقلُّ عنها حقارةً. كل شيء في جسدي كان منقبضاً مثل بزَّاقةٍ خائفة. أضع خطواتي الأولى خارج بوابة المطار، رصيفُ الغربة الأول. أشعُرُ بالقلق والتوتر والرغبة في الانتقام من كل ما يضايقني. أعقِدُ حاجبيَّ قليلاً. أرسمُ الصرامة على وجهي. أحاولُ أن أبدو قاسياً وحازماً وأديرُ حواراً ساخطاً في نفسي مع كل الأشياءِ السخيفة التي تبعث فيَّ الضيق. ليلتها كانت كل الأشياء كذلك. البردُ الذي يتمدَّد بسرعة فوق جلدي، والمطرُ الذي يلعنني بصوتٍ عال، ووجوهُ الناس الذين يعبرون حولي مثل الجمادات، والحقائبُ الثقيلة التي تخلع كتفي، والمعطفُ الذي بلَّلت الأرض أطرافه، وصُداعُ الساعات التسع على مقعد الطائرة الرخيص، والصفُّ الطويل الذي خلَّفته ورائي أخيراً، ويدي المتعرِّقة التي تنقبض على جواز السفر بقوة، والسؤالُ العنيف الذي لم يجد إلا هذا الوقت ليطرح نفسه، ماذا أفعل هنا؟

لماذا اخترتُ مدينةً مَطَريةً كهذه، أنا الذي أفتقِدُ الدفء كثيراً؟ ولماذا المدينة التي لا أعرف فيها أحداً، ولا أحفظ فيها شارعاً، ولا

أدرك حتى إلى أين تأخذني سيارة الأجرة التي شقَّت بي جسراً عملاقاً لا ينتهي؟ لماذا بدوتُ وكأني أتحدَّى نفسي المرهقة أصلاً، وأدخُلُ معها معركةً قاسية، لا أنا أقدِرُ على تحمُّلها ولا هي؟

هل هذه هي العزلة التي أقنعتُ نفسي بضرورتها وأنا أتقلَّبُ ذات ليالٍ على فراشي في الرياض؟ كيف تُراي راودْتُ نفسي عنها، وأقنعتها بضرورتها، وبحاجتي الماسّة بعد رحيل حبيبتي إلى الهدوء والراحة والحزن؟ كيف يا ترى يمكن أن يشعر يتيمٌ مثلي منذ طفولته بالحاجة إلى الحزن؟ وكيف استطعتُ أن أنخلع من كل ما تبقى من الأشياء الدافئة في حياتي لألقي بنفسي خلف ألف إعصارٍ وجبل ثلج؟

الآن فقط أنقضُ فكرتي، وأنا قابعٌ في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، وقد بدأت معالم المدينة الخاوية في ليلةٍ ماطرةٍ كهذه تتضح، وبدأت سخافة أفكاري أيضاً تتضح هي الأخرى، وأيقنتُ أن عهداً كئيباً سوف يبدأ. أنا الذي لا أملك شجاعة النكوص مرة أخرى إلى بلدي، بعد أن حملتُ معي شهاداتي وأقنعتهم، وأقنعتُ أمي، أني مقبلٌ على إكمال دراستي.

كالأطفال، تنقصُهُم الواقعية في تخيُّل الأشياء.

كيف بررّتُ لنفسي أني أحتاج إلى الحزن الآخر، وأنا غارقٌ في أحزاني منذ أن حَمَلت مها حقائبها، أو حملها لها زوجُها، وتوارت في ضباب الغياب؟

ثم ما هذا الحزن الذي صارت تُشَدُّ له الرحال وتُقْطَع إليه الأميال؟

لماذا عرَّيتُ نفسي من كل شيء، حتى الوطن، وجئتُ إلى مدينةٍ باردةٍ مثل هذه؟ وذلك الوطن القابع خلف المحيط يتعجَّب مني، وهو الذي رأى كم شرَّدتني شوارعه ليالي لم يكن لي فيها نديمٌ، إلا بقيَّةٌ من دموعي وذاكرتي وسجائري، ورأى كم أبكاني رصيف بيتها، وكيف كنتُ أراقبُ الباب عن بعد. حتى إذا خرج أحد إخوتها إلى شأنٍ له تبعته بسيارتي في شوارع المدينة، لا لشيء إلا لأن امرأةً مثلها لا يكفي أن أحبها فقط، بل وأن يفيض حبي لها على أسرتها وأهل بيتها أيضاً.

عجيبةٌ هي أحوال العشاق يا أبي، لاسيما أولئك المقتربين من شفير الجنون مثلي. لم يبق في الرياض منها إلا بيتها وساكنوه، فهل كان شكلي وأنا رابضٌ أمام بيتها ألاحق إخوتها في المدينة كالأبله يبدو عاشقاً؟ هل كان سهومي لساعاتٍ على نافذتها أراقب كل حمامةٍ تبيض، وكل فرخٍ يطير، وأنا أعلم أنها في آخر الدنيا يبدو لهفةً واشتياقاً؟ وهل كان احتفاظي بعلبة المشروب الخاوية التي ألقتها أختها أمام الباب قبل أن تدلف إلى المنزل لشهرين كاملين في خزانتي يعتبر خبلاً أم حباً يا أبتاه؟

***

يا أبي،

في الوطن يوجد حزنٌ حتماً.

حزنٌ هادئٌ بسيط. ينسحِبُ على جدران قلبي كما تنسحبُ الأمواجُ الصغيرةُ على الشاطئ العجوز. ينزلُ بخشوعٍ متقن، يؤدِّي صلواتِه بهمس، لا يتمادى، لا يُبعثِرُ الأشياء، لا يصرُخ، لا يُمزِّق، لا يُحطِّم.

يعرف أننا قد نحتاج إليه فيجيء تماماً كما نريده. خالصاً، صافياً، لا تشوبه شائبةٌ أخرى. ليس معه قلق، ليس معه خوف. فقط: حزنٌ طاهرٌ مثل شعاع الفجر الأول، يغسل آثار الليل.

كنتُ وما زلتُ أراه متحفاً للفن، هذا الحزن. هذا المخلوقُ الطيِّب الذي يجيء في موعده، ويستأذن بأدب، ثم يضطجعُ في حجرةٍ قلبيةٍ ما، وينكمِشُ على نفسه ببراءة الأطفال وينام في دعة، ولا يبقى منه إلا انتظام أنفاسه التي يدفع بها شقاءنا، وينظِّمُ دقاتِ قلوبنا، وخلجاتِ مشاعرنا، ويبقينا أحياء.

ما الذي جعلني أبحثُ عن الحزن الآخر خارج حدود وطني؟ لماذا خرجتُ إلى فانكوفر لأنقِّب عن حزنٍ غريب بهذه الحماقة؟ لماذا وصفتُ لنفسي الدواء، أنا الذي لم أتعلم بعد كيف أقي نفسي من لفحة حب؟

سبعة آلاف ميل إلى الشمال الغربي، وكان حزنُ فانكوفر صعباً جداً. لا يألف قلبي ولا يألفه. يتعالى عليه كثيراً. يتمادى على انكساره ويجيء عنيفاً، غامضاً، أسود، مثل ثقبٍ فلكي، ويصحبُ معه ثُلَّةً من الأشرار، وزجاجةً من الخمر، ويجتمعون في صدري. يصرخون،

يدمِّرون، يخرِّبون كل شيء، وأنا عاجزٌ عنهم، لا أملك لدفعهم حيلة.

حزنٌ ثمِلٌ يا أبي. دائماً في يده كأسٌ مائلةٌ، وتقتلني في فمه رائحةُ اليأس والضياع. ثقيلٌ جداً، كأنه قطارٌ عديدُ العربات، يمرُّ بكل أطنانه على أضلاعي، ويحطِّمها ضلعاً ضلعاً.

الحزن الذي أبحثُ عنه، ليست هذه أخلاقه.

في ليلتي هذه، أشعُرُ بازدحام كل المخاوفِ التي يُمكِنُ أن تتجمَّع في غربةٍ ما في صدري أنا. اللاأمان، واللامعنى، واللاأمل. تجوَّلتُ في الشقة. تكوَّمتُ في غرفتي مثل قُنفذ. كنتُ أرتجفُ بقوة وأشعُرُ ببوادر حُمَّى تجوسُ في عظامي وأتجاهلها. أركُمُ الثياب على جسدي. القميص، والمعطف، والحذاء، والكوفية الثقيلة، وأتناولُ مظلّتي، وأخرجُ إلى الشارع، لا ألوي على شيء، ولكني أهربُ من جدران شقتي التي أعرف سوء نياتها جيداً في لحظاتِ الضعف. مشيتُ حيثما يمكن أن تستوي خُطى وتطأ قدم. غصَّةُ البكاءِ تكبُرُ في حلقي وفي داخلي يتفلسفُ مبدأ الضآلة. كم أنا تافه وضئيل. أرخصُ رجلٍ في هذه المدينة. أيُّ هؤلاء المارّة يا تُرى يملك وقتاً ليفهمني؟

شعرتُ أن المسافة بين الموت والحياة تنكمِشُ حتى تُصبح بعرض هذا الطريق، وأن المسافة بين الحلم والواقع تتمدَّدُ حتى تصبح بطوله.

كأنَّ الانهيار كان يوقِّعُ كل تصرفاتي في هذه المتاهة. صباح الأمس بقيتُ ثلاث ساعاتِ نائماً على كرسيٍّ خشبيٍّ في حديقة عامة أدركني التعب وأنا أمشي فيها ساعاتٍ منذ الفجر. جلستُ أراقبُ

ابتداءَ الصباح، والعصافيرَ التي توقِظُ صغارها، والبراعم التي تولد لتموت، ونِمتُ على الكرسي، ولم أكن قد نمتُ طوال الليل.

هل كان أحدهم يتساءلُ لماذا يلجأ هذا الشاب إلى هذا الشتات؟ هذا الهارب من حزن الوطن إلى حزن المنفى. هذا المستجير من ضياعٍ بضياع. هذا الذي صار يشكُّ كثيراً في قدرته على اتخاذِ قراراتٍ صائبةٍ في حياته.

هل كان أحدٌ غير الضائعين الذين جمعوا أحلامهم في سلّةٍ واحدة، فضاعت جميعاً، وبقي على قيد الحياة دون أحلام، هل كان أحد غيرهم سيمرُّ بي وأنا نائمٌ ذلك الصباح على الكرسيِّ، متوسّداً لساني الأخرس الذي لا يبوح ولا يشكو، حتى إذا رآني في حالي هذه قال صادقاً: «يئستَ، فأمِنتَ، فنِمت».

لا ينام هكذا إلا العادلون أو اليائسون.

ولكنّ وحدةً، كتلك التي تقاسمني نصفَ شقتي، أجبرتني على هذا. كل زاوية فيها موبوءةٌ بجراثيم الوحشة حتى الاختناق. الأريكة الصغيرة ترفض أن تستمرَّ دورة الدماء عندي في الجريان. والمكتبُ البسيط يربّي أفراخ القلق في أدراجه المغلقة على ماضٍ تعيس، والسريرُ الوثير يتحوَّلُ بمجرد استلقائي عليه إلى علبة سردين تعتصر ذاكرتي هاجساً هاجساً.

كم أتمنى العودة. للصمتِ هنا، رغم البرودة، شكلٌ حارٌّ خانق. كنتُ أعلم قبل سفري أني لستُ رجل غربة. ملامحُ وجهي تتآكلُ

بسرعة خارج جدران الوطن. ومزاجي تنمو له زوائدُ حادّة في جميع الاتجاهات حتى يصير جارحاً متمرّداً على كل شيء، وكنتُ أظنُّها نقطة ضعف. وأنا منذ مراهقتي أرفض الاستسلام لنقاط الضعف هذه، لا سيّما تلك التي تأخذ شكل العادة المزمنة. أتحداها عشرين مرة، حتى أجبرها على التخلي عني، فإن هزمتني زادتني رَهَقَاً، وإن هزمتُها كانت خسائري مؤلمة.

***

يا أبي،

أكتبُ لك اليوم من خلفِ ذاكرتي التعيسة. أتلمَّسُ بيدي تلك الشقوق الصغيرة التي أغفَلَتْهَا معاولُ الحرمانِ في جدارِ ذكرياتي معك. ألاحِقُ بصيصَ الضوءِ الذي يشرُدُ من خلالها ضعيفاً واهياً غير فاقدٍ قدرته على الانتشار بخطَّين متباعدين يرسُمان زاويةً صغيرةً على أرض الصمت والوحدة. أجلسُ فيها جِلْسَة اليُتْم التي تعوّدتُها. وأجمع أوراقي وأقلامي وأكتبُ لك.

أكتبُ لك يا أبي كلما بدأتُ بالاحتراق. أسابق ألسنة اللهب قبل أن تبلغ أصابعي وأكتب. أنثر على بضع أوراق ألمي وخوفي وقلقي وصُداعي وغثياني وانهياري. ولا أخشى عليك يا أبي، لا أخشى عليك مما لن تقرأه.

ابنك/ناصر

***

هكذا كنتُ أكتبُ لهذا الرجل الذي مات منذ عشرين سنة وخلَّفني ذليلاً. لأنَّ بعض البوح لا يليقُ إلا بالأمواتِ وهم غائبون في عالمهم السرمدي. كتابتي كثيراً ما تشبه الاعتراف. لذلك ألجأ إلى أبي لأنه يمنحني منطقةً من الاحتواء تُغري بالبوح. ولأنني لا أخشى إنكاره عليّ، ولا سوءَ فهمِهِ لكلماتي، هو الذي لا يستطيعُ أن يعبِّر عنها بأي حال، وليس في ذاكرتي القديمة ما يُمكِّنني من تخمين رَدَّة فعله المحتملة على ما أكتب، لأنني لم أقضِ معه أكثرَ من سنواتِ الطفولةِ الأولى، ثم كان لليُتمِ معي بقية العمر.

الطفلُ الذي يستيقظ من النوم على بكاء بيتٍ بأكمله كان أنا. وأنا الذي احترتُ طويلاً في تفسير احتضان سارة لي وهي تبكي على ذهولي. وأنا الذي وقفتُ طويلاً أيضاً أمام ثيابِ أمي السوداء لعلّي أفهم لماذا تُراها تتجنَّبُ النظر إلى وجهي بعينيها الباكيتين.

لم أكن في حاجةٍ لأن يخبرني أحدهم أن أبي قد مات، ولكني كنتُ وقتها في أشدِّ الحاجة إلى من يشرَحُ لي بإيجازٍ يناسِبُ عمري الصغير، ودهشتي الكبيرة، ماذا يعني هذا الموت الذي يُبكي الجميع هنا إلى هذا الحد؟

كان عليَّ أن أنتظر ثلاث سنوات أخرى لأفهم أنه لم يعد لي أب، وأنني أصبحتُ شذوذاً على القاعدة العامة، وهي أنَّ لكل أسرةٍ أباً، ولكل يومٍ أسود قامةَ رجلٍ يلوذون بها، ويشعرون بالأمان. كان

ينقصني الكثيرُ من الشجاعة حتى أتوقف عن الكذب على زملاء المدرسة عندما يسألونني عن أبي. ليس لأني أكره نظرات الإشفاق فقط، بل أيضاً، لأني أكره أن أكون مميزاً بينهم باليتم.

عندما يحرمني الموت من أن أكون مثلهم فإنه يمنحني وحدي حرية اختيار أبي كما أريده. وبشكل يناسب حاجتي إليه كلّ مرّة. كم ستكون الصدمة أكبر لو أنه عاش فلم يفهمني، لمن تُراي عندها سأمارس الاعتراف عشرين سنة على الأوراق؟

تمنيتُ لو أني أبقيتُ هذه الاعترافات المكتوبة معي يوم كبرت، ولم أطعمها النيران ذنباً بعد ذنب. من أين تعلمتُ إحراق الأوراق؟ كنتُ أعبُرُ الكتابة جسراً لحوارٍ أبويٍّ أفتقده، فلما فرغتُ من ذلك، رأيتُ أن النيران أولى بالذنوب من الأدراج وغفرانها.

ومنذ أحببتكِ لم أعد أكتب لهذا الرجل.

تماماً كما استبدلتُ الابتهال إلى الله كل سجودٍ ليرحمه، بالابتهال إليه أن يبقيكِ لي، ويبقيكِ معي، ويبقيكِ من أجلي. قالت لي أمي: «ادعُ لأبيك يا ناصر، إن دعاء الصغار مستجاب»، وأومأتُ علامة الفهم، واخترتُ أن أدعو له في سجودي فقط، لأني لا أريدُ أن يعلم من يصلي بجواري أني يتيم. وسألتُ لأبي الرحمة خمسة عشر عاماً، قبل أن يقتحم فقدُكِ خلوةَ سجودي فأتحوّل إليكِ. لأني كنتُ أشعر أن ما يمكنكِ منحي إياه من الاحتواء إذا صرتِ لي، قادرٌ على شطبِ سنواتِ اليتم من عمري تماماً.

بعد أن اعتادت شفتاي اسمكِ في السجود، رأيتُ في منامي ذات ليلة أنكِ تشربين من كوبٍ كبير، ما زلنا نحتفظ به في بيتنا، هو كوب أبي الذي لم نكن نسقيه الماء إبّان مرضه إلا فيه.

لم أخبركِ بهذا الحلم كما لم أخبر أحداً، ولكني فهمتُ أن لحظاتِ السجود التي كنتُ أسخِّرها لأبي قد صارت لكِ، وأن توبة الكتابة التي كنتُ أرفعها له قد صارت لكِ أيضاً، وأنا ليس عندي أغلى من هاتين، فليتكما اقتسمتماهما على الأقل، بدلاً من أن يؤنّبني بقسوةٍ هذا المنام الشارد.

ولكنَّ حبكِ كان من القداسة حتى أنه أبطل كل تعلُّقٍ لي بالآخرين.

صار الاعترافُ لكِ بالحب أكثر إغراءً عندي من الاعتراف له بالذنوب الأخرى. وصرتُ أشعر أنْ ليس بعد الذنبِ ندمٌ فحسب، بل هناك أيضاً لذَّة اعترافٍ ما.

لست أدري كيف صار واقعكِ هذا يتقاطَعُ مع ذكرى والدي. ففي خيالاتي الهاربة أصبحتُ أتصور أحياناً أن شيئاً ما يجمَعُ بينكما، وهو أن حبي لكما ليس مشروطاً كما هو مع الآخرين، إني أحبكما فحسب.

قبل أن أعرفكِ عشقتُ في والدي كل ما أتذكَّره منه، وأسمعه عنه، وأراه في صُوَرِهِ المتناثرة هنا وهناك. وبعد أن عرفتكِ، عشقتُ فيكِ كل ما رأيتُهُ منكِ، دون أن أستثني شيئاً من دائرةِ هذا الحب إلا تخلّيكِ عني.

أبي تخلّى عني مجبراً بإرادة الموت، وأنتِ تخلَّيتِ عني هكذا فقط لأنَّ سالماً كان أجدر بكِ مني، ولأنكِ لم تقدِّمي أمام ظروفنا أيَّ محاولة تُنقذين به هذا الحب الذي عرفناه عظيماً من أن يموتَ حقيراً.

صار حبنا عادياً ونحن الذين كِدْنا أن نجعله إلياذةً مقدَّسة. ظللنا طوال الحب نراه منزَّهاً ليس فقط من عيوب العلاقات الأخرى، بل حتى من أن يكون تقليدياً عادياً يولد ويموت مثل البشر. ولكن يبدو أن القدر، حتى الآن، يصرُّ على جعله مجرد علاقة لا أكثر، نشأت بين اثنين، واحترقا بها بضعة أشهر، ثم قرَّرت هي أن ترحل مع غيره، وظلَّ هو كما تركته أول يوم، يعتصره الهمّ كل ليلة.

بي كَمَدُ الأسير في سجون العدوّ، وهو يؤمن أنه لن يتوانى عن تفجير نفسه من أجل قضيَّته، ولكنه عاجزٌ مقيَّد، لا يملك إلى ذلك سبيلاً. فأيُّ حُطَام نفسيٍّ صار إليه، بعد أن دَكَّ العجزُ أركانَ روحه، وثار بركانُه الصغيرُ في داخله، فاحترق به وحده.

سأدعو لو تشتعلُ في جنبيكِ هذه القضية. لعلَّ حصانكِ يصهلُ يوماً ما ولعلّكِ تمتطين صهوته لتعبري هذا الحاجز الذي حاولتِ كثيراً أن تقنعيني بارتفاعه، وأنا لا أقتنع بذلك، لسببٍ بسيط، أنكِ حتى لم تحاولي.

مع أبي، كم كنتُ أتصوَّرُ لو أني أحببتكِ وهو على قيدِ الحياة، كنتُ أخبرته كم أنتِ جميلة، وحملتُ إليه صوتكِ الحبيب عبر

الهاتف، ليتكلم معكِ. عندها سأشعر بمساحةٍ واسعةٍ من الأمان والسعادة والجذل. سأكون مندهشاً أمام روعة أن أبصر أمامي كيف يتفاعل أقرب رجلٍ إلى قلبي مع أقرب امرأةٍ إلى قلبي أيضاً.

أتخيّل لو أجلِسُ معه يوماً لأحكي عنكِ كما جلستُ معكِ مرّاتٍ لأحكي عنه. كنت أعترف لكِ بأني قصيرٌ جداً إزاءَ قامته، وتافه جداً جوار سيرته، ولو حكيتُ له عنكِ، لأخبرته كم أنا ضئيلٌ بحبكِ، ضعيفٌ بدونكِ، وتافهٌ أيضاً، ولكن مع زوجكِ.

لأنَّ زوجكِ يا حبيبتي كان اختياركِ أنتِ، ولأنكِ كنتِ اختياري أنا، حَدَثَ أن تزوجتما، وسافرتما، وبقيتُ أنا هنا، أحاول أن أبتلع بصعوبة فكرةَ أن لا يكون لاختياراتي أيّ قيمةٍ في اعتبار الحياة.

الفصل الثالث

انتهى أبريل. غيَّر وجهَ حياتي ورحل. خربش على لوح أقداري، ثم امتطى صهوةَ الزمن، وخلَّف غبار الحقيقة الصاخبة. وعندما انقشع، وجدتكِ أمامي، مغموسةً في دمي كزهرة تيوليب.

وقعنا في الحب ولم نعترف.

لم يصبح واقعاً نعيشه بكل ما يفرضه علينا من حدود البوح. ما زلنا نتأرجح بين مشاعر لا تكفي لتفسير علاقتنا.

غير أننا بدونا متشابهين، طيبين، يفهَمُ كلانا الآخر جيداً. نتكلمُ اللغة نفسها وبالإحساس نفسه. نندهشُ من تشابهاتِ الماضي. الصفات نفسها، العادات نفسها، دمى الطفولة نفسها، الرؤى والأفكار والظنون نفسها. ننطق أحياناً الكلمة نفسها في آن واحد. تطرأ لنا الفكرة نفسها في جبيننا المشترك. نعترف في قرارات نفسينا دون أن ندخل في جدلٍ مع الحياة أنَّ ثمَّة شيئاً يوحّد أقدارنا.

أحياناً يقود التشابه إلى الحب. أحياناً يقود التنافر إليه.

الشخصياتُ الحنونة تحب أشباهها، وتلك التي تفقد توازنها كثيراً أثناء الحياة تحب أضدادها.

أحياناً يحبُّ الرجلُ العاري المرأة الكهف، وأحياناً لا تحبُّ الغيمة إلا أختها. نادراً ما تغازل القمّةُ السفحَ، ولكنّ السفح لا ينفكُّ معلّقاً بها.

بأي نظريةٍ من هذه النظريات أحببتكِ؟ لأنكِ مثلي أم لأنكِ أفضل مني؟

أشعر أن تشابهنا أخذني إليكِ أكثر.

إذا كانت مراقبة النمل في طوابيره المنتظمة عادة طفولتي القديمة، فقد تجاوزتِ أنتِ عادتي قليلاً لتصلي إلى حدِّ إطعامها نصف نصيبكِ من الحلوى تحت شمس القائلة، أو إنقاذها نملةً نملة من الغرق في فيضان الحمام اليومي.

تتضحُ قدرتنا على العطاء منذ الطفولة أحياناً. بعض الحشرات تكسبُ ودَّنا أحياناً بشخصياتها، والنمل منها. أتذكَّر سؤال الأستاذ في الصف الرابع:

- من منكم يضربُ لي مثالاً على حشرةٍ مفيدة؟

انبريتُ بين الجموع بصوتي الحاد:

-النمل.

يضحكُ أستاذي، يحاول دفعي للاستدراك، يسألني أخرى:

- وماذا يمكن أن يفيدنا به النمل؟ إنه يأكل طعامنا، ويوسّخ بيوتنا.

ركب فوقي خجلي. خفتت حِدَّة صوتي وأنا أواجه قوَّته الكلامية، وسلطته العلمية.

_آسف، قصدي النحل، وليس النمل.

-نعم، أحسنت.

فكرتُ كثيراً أثناء الحصّة. لماذا يكره أستاذي النمل؟ لِمَ هذا التآمر الكبير على هذه الحشرة الدؤوبة؟ من قال إنها غير مفيدة؟

ألسنا نضربُ بها المثل على العمل والنشاط، وعدم التكاسل والتراخي؟

ألسنا نتعلَّم منها كيف ندَّخر قوت الشتاء أيام الصيف؟ أو كيف ندَّخر نبضاتِ القلوب لحبٍّ أكثر أماناً، لا يتخلى عنا فيه من أحببناهم؟

أليست النملة هي التي أوقفت جيوش سليمان الهائلة، وأضحكت سنّه، ودفعته لأن يشكر الله ويسأله الرحمة؟

إذا دفعت نملةٌ نبياً إلى مثل هذا، فكيف لا تكون مفيدةً لنا؟

لماذا يحرق المعلّمون دماغي دائماً بهذه التناقضات بين كلامهم وأفكاري؟ ربما من أجل هذا استفحلت فيَّ عادة الصمت، حتى تعلمتُ الكتابة.

سكينٌ قديمة قِدم المعرفة عندي.

كان مللي أحياناً من رتابة الدروس يدفعني إلى أن أخترع ما يسلّيني. أبحثُ في أذهان الطلاب عما قد يستعصي على فهمهم

وأطرحه كسؤالٍ ماكر على سبّورة الأستاذ المملوءة.

يفهمني أحد الأساتذة يوماً، يهمسُ لي بإعجابٍ أبويّ لا يخلو من ضيقٍ عابر:

-أنت فاهم، ولكنك تسأل لتساعد أصدقاءك على الفهم.

لا حاجة بي إلى ذكر هذه القصة هنا. لم يكن ذلك نبوغاً مني بل نهماً في ابتلاع المعرفة حتى سبقتُ لداتي. ولكن غصصتُ بها قبلهم.

الذي يدفعني إلى كتابة هذه القصة هو أنها تكررت معكِ أنتِ تماماً. تألمتُ من شدة الذهول وأنتِ تحكينها لي. لماذا هذا التطابق المثير للغرابة في كل هذه التفاصيل؟

يومها لم أخبركِ بقصتي هذه. خشيتُ أن تظني أني اختلقتها لأدّعي هذا التطابق معكِ.

بداياتنا الأولى كانت مثل هذه. دهشةٌ وتشابه. أما الحب فما زال يُطلُّ خجولاً من نوافذ العلاقة ويحشُرُ رأسه الصغير بين أسلاكِ الهاتف بفضول الأطفال. وكنا نراقبه. نداعِبُ معاً خُصلاتِ شعره ونبتسم بخجل، ولا ننظر إلى بعضنا أبداً.

أشعرُ بعدم الرغبة في مثل هذا النوع من الكتابة كلما تذكَّرتُ مس تنغل وهي تُطلق حكم الرتابة على قصتي البليدة: «مجرّد عاشق آخر»، قالتها بالإنجليزية لتبدو أكثر إحباطاً: «oh.. just another lover»، لا أدري أي الأساطير كانت تبحثُ عنها في ذهن القادم من وراء المحيط.

كرهتُ هذه الكتابة لأني شعرتُ أنه لا حاجة إلى أن أخبرهم كم أنا معجبٌ بكِ مثلاً. كل هذه المقدمات المملولة تختزلها كلمة الحب أخيراً. منذ آلاف السنين والعشاق يحذو بعضهم حذو بعض. منذ ملايين السنين لم تتغيَّر المعادلة الكيميائية للاحتراق. لا داعي للأسطر الزائدة. يكفي أن أحيلهم على التاريخ.

أما تاريخنا الصغير فملكٌ لنا نحن الاثنين فقط.

في منتصف مايو أزِف لقاؤنا الثاني.

آوتنا طاولةٌ صغيرةٌ ومطعمٌ هادئ. تنفض الشمس أشعّتها الأخيرة عصر ذلك اليوم وتسري في أوردتي رجفة اللمساتِ الطويلة هذه المرّة. تتمرَّدُ الحقول في جسدي. يُثمر الجوز قبل أوانه. يسقط التوت على أوراقه فيتَّشحُ اخضرارها بدمائه الحلوة.

كل ما في وجهكِ الحاضر أمامي يشبه الدفء، يشبه الحنان، يشبه الحب.

جاءت يدكِ أولاً. زحفت فوق قحل الصمت الماثل بيننا. لم يَكن عندي جرأة الابتداء. تشابكت أصابع وداخت طاولة. ارتكَبَت يداكِ جرائمَ لا تحصى فوق يديَّ. تحريضٌ عنيفٌ لمراهقتي الجلدية الأولى. ثار الإصبع على الكفّ، والكفّ على المعصم. تعرقٌ طفيفٌ في يديكِ ينزُّ عطراً من مسامة شوقٍ مفتوحة. أنا لا أقاوم نعومةً كهذه، شغباً كهذا. توقفي عند حدِّكِ يا مُدن الرغبة. استئذانٌ مهذَّب وأنقذني النادل من سكتة شوق.

تلعثمتُ في الرشفة الأولى. كل شيءٍ يندفع للخروج من فمي. لا شيء يعكس التيار ولو كان قطرة عصير. أعدتُ الكأس خائبة.

- استيقظتُ متأخراً هذا الصباح، فاتتني المحاضرة.

ابتسمتِ أمامي بجذل، أقمتِ سبّابتيكِ فوق رأسكِ على شكل قرنين دلالة الشر.

- ربما لأن شيطانتك لم تدعك تنام.

ضحكتُ، واستحال جذلُكِ حياءً. حاولتِ إطفاءه في كأسكِ. تأمّلتُ شفتيكِ وهما تتجمعان على طرفها لترشفا منها. تتطاول الشفة العليا قليلاً، وتأخذني رغبة في امتلاكِ هاتين الشفتين. يمتطيني حُمق الفرسان. يصهل النزق بداخلي كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علٍ.

للمرّةِ الثانية، وكأننا لا نملكُ في ما قبل الحب إلا هذه الحركات الأنثوية، أخرجتِ لي دفتركِ الصغير وطلبتِ مني أن أكتب لكِ أيَّ شيء.

كتبتُ: «إن وجودكِ يفتحُ شبّاكاً للأحلام والعصافير الملونة والحب».

دسستُ الكلمة الأخيرة بحذر، مثل جهازِ تنصّتٍ صغير، أتجسسُّ به على نبضاتِ قلبك.

قمتِ للرحيل..

وعدتِ أدراجكِ مرتين متتاليتين.

لم تستطيعي أن تذهبي، ولا أن تخلّفيني وراءكِ وحيداً.

عدتِ تتمسَّكين بيديَّ في لهفة. ترفضين التنازل عنهما لسلطة الوقت الذي دهمنا. غيابُ الحب حتى الآن يجعلُ الأشياء تبدو غير منطقية. لماذا هذا العمقُ الظامئ في نظرتك؟ لماذا هذا الشوق المحروق بين أصابعي؟ لماذا فتيل الدهشة المشتعل، ونظراتُ المكان الحائرة؟

أتأمل بذهول هذه الفتاة التي تمشي عشر خطوات باتجاه الباب، ثم تعود الخطوات العشر لتمسك بيدي عدة ثوانٍ، قبل أن تذهب مرةً أخرى.

أمجنونةٌ هي لغة الأيدي، أم أنها طريقتكِ في الوداعِ فقط؟

ساعةٌ من الكلام، فارقتني بعدها بصعوبة.

وأربعة عشر شهراً من الحب، وفارقتني بعدها، بشيء من المرارة حتى لم يخترعوا له اسماً بعد.

جاء المخاض إذن.

قفزتِ اللحظة الحاسمة إلى مستوى الحدث. تسلَّقَت أحلامي الغيبية التي لا أفكر فيها لفرط ما ظننتها مستحيلة. اقتربت المعجزة وانشق القمر.

وأعلنتِ عليَّ الحب.

بعد ساعات، بضع ساعاتٍ فقط من افتراقنا ذلك اليوم.

أنا الذي لم أُفِقْ بعد من صدمة المناوشات الأولى، جاءني صوتكِ هذه المرة في هاتفي، ليقول بكل حرارة الأرض: «ناصر، أحبك».

واتخذت الأشياءُ أماكنَ عشوائية. لم تنتبه كثيراً إلى كونها مناسبة بقدرِ ما كانت حريصةً على أن يبدو المكان أنيقاً، رحباً، أمام هذا المولد الجديد.

فكّرتُ لحظتها: تُرى هل قدحت كلمتي المدسوسةُ في دفترك زنادَ الحب؟

قمتُ من مكتبي إلى حقيبتي مرّةً أخرى. أخرجتُ منها دفتراً بنّياً أنيقاً. فتحتُ صفحته الثانية. أتأمل خطَّكِ المبعثر. وأقرأ لكِ تلك الكلماتِ الأولى التي أعلنتِ عليَّ بها الحب لأول مرّة. لم يكلّفكِ الشوق إلا ساعاتنا تلك لتنظمي مشاعركِ على الورق، لتلتفتي إلى طفل الحب العابث، لتنتبهي إلى دقات الناقوس الكبير.

جاءني اتصالكِ بعد أن خرجتُ من المطعم. نبرةُ الحلم التي تقفز كوكباً فوق كوكب وتنزل في أذني بينما كنتُ أنا أذرعُ المدينة بحثاً عن أطول شارعٍ فيها أوزِّعُ فيه غرور أصابعي وانفعالاتها المتشنِّجة.

كانت لمساتكِ، تراجعكِ مرتين من أجل يدي، تصرّفات تكفيني جداً، لسنتين على الأقل، قبل أن يفرغ مخزون حناني، ولكنكِ امرأةٌ تأتي جميعاً أو تذهبُ أبداً.

- ناصر، أتذكرُ سؤالك؟

- كانت كلها أسئلة، أيها يا مها؟

- ماذا يعجبني فيكَ؟

- أجل.

- أظنُّ أن لديَّ جواباً الآن.

- ما هو؟

- لحظة.

شعرتُ بانعطافات الورقة بين يديكِ. خشخشة الصفحاتِ التي تسافر بين أصابعكِ بحماس قبل أن يرجع صوتكِ مرةً أخرى، وفيه ارتعاشٌ شبه واثق.

«تسألني ماذا يُعجبني فيك؟ وتظنني أبحثُ عن الإجابة، ولا تدري أنَّ إجابتي مزروعةٌ في داخلي. تُعجبني لأنَّك حنونٌ جداً، تُعجبني لأنّك هادئٌ رقيق، لا تستطيع ولا تعرف كيف تجرح إنساناً. رقَّتك تغزو جدران مناعتي، تدغدغ أحاسيسي، تتملَّكها، تتشعَّبُ في أعماق أعماقها. تُعجبني لأنّك عظيمٌ بفكرك، وبروحك، وبسموِّك، وعظيمٌ في كل ما تقول وتفعل.

تُعجبني لأن الحبَّ داخلك سخيٌ وكريم ومعطاء. يُسبغ عليَّ من نِعَم الدنيا، كبحرٍ من المشاعر لا يهدأ. يغذِّي أنانيتي ويُشبعها ويدلّلها، ويجعلها ملكة الموقف وصاحبة القرار.

أخيراً..

تُعجبني، لأنَّك حبيبي».

أسلوبٌ أنثويٌ جداً في الكتابة.

تدرُّجٌ موفقٌ يجعلني أفهم كيف يتكوّن الحب في قلب امرأة. الحنان، الهدوء، السموّ، العطاء، نكران الذات، ثم الحب.

لا أدري كيف ترتَّبت صفاتي هذه في داخلي. الذي فهمته فقط أنها كوَّنت داخلكِ معجون الحب، ولم أكن أملك إزاء امرأةٍ بمثل اعتبارك إلا أن أكون كما قلتِ.

لم أملك إلا أن أكون حنوناً إزاء امرأةٍ ورِثت الأمومة وحدها، من حواء.

لم أملك إلا أن أكون هادئاً أمام طوفان من الأنوثة العارمة.

لم أملك إلا أن أكون عظيماً ما دمتِ ترينني كذلك.

لم أملك إلا أن أحتلب من ذاتي لأغذي أنانيتكِ كما تريدين.

مدهشة! لقد قفزت فوق رتابة الابتداء. كلّهم يقول في البداية: أحبك، أما أنتِ فقلتِ: حبيبي.

لم يكن همسنا دافئاً بقدر ما كانت عفويتنا في تسلُّقِ جدران الحب دافئة. كانت الأشياء من حولنا تبدو متواطئةً مع هذا الحب القادم، وكانت مشاعرنا تنمو بهدوء وبحدٍّ مناسبٍ من الرواء كل ليلة حتى تكتمل يوماً ما.

قبعتُ تلك الليلة في غرفتي وأنا أفكر في إجابتكِ الكبيرة.

آذيتُ سريري ومكتبي، وأكلتُ دون اشتهاءٍ نصفَ الجلد الميت فوق أظفاري، فنزَّت دماً.

حملتُ الهاتف، لا بد من دليل، إذا كنتِ أحببتني فعلاً فلا بد أن يتغيَّر صوتكِ بعد اليوم.

- مها، أقرأ الآن لفتاة رائعة، موهوبة.

- ماذا؟ من تكون؟ ماذا تكتب؟

- لماذا أنتِ منفعلة؟

- ألا تدري؟

شعرتُ أنَّ شبح ابتسامةٍ لا أراها تتزيَّا فمكِ.

- ربما اتصلتُ لأسمعها منكِ.

- لأني أحبك، هل تفهم؟

ودَّعتكِ وأغلقتُ الهاتف. نجح اختباري التقليدي، اختبار الغيرة.

تغيُّرٌ فلكيٌّ ضخم يقترب من حياتي. بدأتُ أقشِّرُ جلدي بدءاً من أظفاري. غداً سينمو لي جسدٌ جديد.

«حدَّثَتِ الغرفةُ المُرهَقَة بصُداع الفجر سِربَ نسائم عابراً، أنَّ شاعرها الوحيد لم يسكن في صدره نَفَسٌ على نَفَس، ولا رَبَضَ في جسمه عِرْقٌ على عِرْق، ولا هجع تلك الليلة إلى النوم، حتى ظهيرة اليوم التالي».

***

حسن، رجلٌ طارئٌ جداً في دائرة البوح.

نزل قبلي بأشهر..

رحل بعدي بأيام..

انسكب سرُّه عليَّ من فمكِ كالحُمم. لم يكن ذلك ضرورياً على

امرأةٍ تبوح لأنه كان يعرفُ حقاً كيف يتركُ آثاره عليكِ مثل الوشم البدوي ليحرق من سيأتي بعده.

حسن، خط بارليف الطويل من مرسيليا إلى الرياض. قبلةٌ ناصعة البياض فوق جبين التكنولوجيا. جاء بعد المراهقة وبعيداً عن الخيانة وجميلاً حتى في كبريائه التي دفعته إلى الرحيل. لذلك لم ينته سريعاً.

كان عاصفة مقلقة من الحب. رجلُ الحضور الصاخب والغياب الأكثر صخباً. رجلٌ يعرفُ تماماً كيف ينهمر عليكِ بكل رجولته فجأة ثم ينسحبُ إلى ظلٍ ما ليتركك حائرةً بين الحالتين، أيهما أكثرُ جمالاً؟ أيهما أكثر تحريضاً على الحب؟

عاش طويلاً في فرنسا وهو لا يدري أنَّ في حياته قدراً خفياً سيجعله يقطعُ يوماً ما آلاف الأميال إلى الرياض، لينزل بين يدي فتاةٍ اسمها مها، صارت تحبه.

أنتِ التي تدبِّرين المكان والزمان. كريمةٌ جداً في الحب. حتى معي أنا كان لقاؤنا دائماً من تدبيركِ أنتِ.

اكتفى حسن بالحضور فقط ليترك بين أصابعكِ عِطره ويرحل.

إنه يفهَمُ كم ينبغي أن يوجد، وكم ينبغي أن يغيب، حتى تكتمل قداسة حضوره وخشوع غيابه.

يفهم كيف يجعلكِ تخلقين حبكِ له بنفسكِ بينما يرتاح هو من هذا العناء، ويكتفي بصوته التي ينقله إليكِ الهاتف، وعطره الذي يتركه لكِ فوق الذاكرة.

جاء وانتهى قبل أن أغرق في حبّكِ إلى هذا العمق. كان خيراً لي أن ظروفاً كتلك التي يفرضها مجتمعنا هي التي أغلقت الأبواب أمامكما كما ستغلقها في وجهي من بعد، وأن كبرياءً ككبريائه جعلته يرحل ساخراً من أعرافنا فتظلين لي.

نحن الرجال ندرك قوة بعضنا البعض أحياناً. ولو أنه ما زال موجوداً لنظرتُ إليكِ كما ينظر الفقراءُ إلى قصور المترفين، ولكنه غاب في أيامنا الأولى، ليترك خلفه امرأةً لم تُفق بعد من رائحته، ولا تزال في يديها حكايةٌ طويلةٌ من الشوق، بطول ما أبقتهما في يديه.

لا أدري لماذا كنتُ أشكُّ دائماً أن تعلُّقكِ الغريب بعطر سكابتشلر، واحتفاظكِ بقارورةٍ كبيرةٍ منه في غرفتكِ، بالرغم من أنه عطرٌ رجالي، كان وفاءً لعطر حسن؟ هل حقاً كان هذا عطره؟ ربما لما يكن إعجابكِ بالعطر خالياً من الأسباب كما بيَّنتِ لي. لم أجرؤ على سؤالك. كنتُ أفرُّ من الكلام معكِ عنه مثل فرار الضعيف من القوي، وأقلِّبُ قارورة العطر بين يديَّ بحذر، وأخشى أن يخرج عليَّ حسن من زجاجها المعوجّ.

كنتِ تتحدثين عنه واثقةً أنَّ شيئاً من الغيرة لن يُحرقني، أنتِ التي لم تعلني عليَّ حبّكِ بعد، ولكني كنتُ قد أعلنته عليكِ سّراً قبل ذلك. تتحدَّثين كما تفعل الأنثى التي وَجَدَت أخيراً حبها الضائع. رجلها المفقود في كل الحكايات القديمة، والاسم الباقي من بين الأسماء المتساقطة.

وكنتُ أصغي بهدوء.. كما تحترقُ الجمرة.

لم يمنحني الحب بعد تأشيرة شكوى، أو حقَّ احتجاج. كان هذا قبل مايو، قبل أن تقولي لي: أحبك، للمرة الأولى. ليتني لم أكتم شكواي ولم أقتل احتجاجي. تعلمتُ بعدها بأشهر أنه حتى كوني حبيبكِ لن يمنعكِ أن تتصرفي بالرجال كيفما تشائين.

مجنونٌ هو الصياد الذي يُزمع أن يقبض سمكةً ما بيديه العاريتين فقط.

لم يمنحني حيائي منكِ عندما كنتِ تحدّثينني عن حسن بلسان عاشقةٍ ولهى إلا دمعةً كل دقيقة. تنسرب من وراء سلك الهاتف في أعماق ليلٍ ساكنٍ مثل المحيط، لم تريها قط.

ها أنذا أعترف لكِ بها.

حسن الذي رحل، كان الأب الأول لدمعتي الأولى معكِ. ولكني لم أشعر بالندم كثيراً عليها بعد أن رحل تماماً وبعد أن وجدتُ نفسي بعد قليل أقربَ إليكِ من أقربِ موقفٍ كان معكِ فيه. شعرتُ أنه يستحقُّ تلك الدمعة. يستحقُّ هذا الاعتراف بقوته، هو الذي لم يؤذني فيكِ كثيراً، بل تركك لي، وإن كان لا يدري، ولكني أشعر بالعرفان لهذا.

هذا التقاطعُ الوقتيُّ بين بدايتي معكِ، ونهايته هو، ترك في داخلي أثراً ما، أنا الذي ما زلتُ أكتشف في نفسي كل يومٍ أثراً لسلطة أنوثتكِ عليَّ، كنتُ أحاول التماسكَ أمام كلامكِ عنه. أمثّل دور

الصديق الذي يمنحكِ كتفاً تبكين عليها. وفي داخلي يتوجَّعُ عاشقٌ محبوس. ورحتُ ألوم قلبي الذي تصوَّر يوماً أنكِ قد تكونين حبيبته. ها أنتِ الآن تطلقين رصاصة الرحمة على وهمه.

وبقيتُ طويلاً بعد هذا الرجل أتوجَّسُ من شكلِ علاقتي معكِ.

كنتُ أخشى ألاّ أرتقي معكِ إلى أكثر من دور الحائط الذي تستندين إليه بعد التعب، أو كرسيِّ الحديقة الصامت الذي نبثه تباريحنا ودموعنا ثم نتركه، أو ربما محطة الوجع الذي يخلِّفه حبٌ في أيامه الأخيرة.

خشيتُ أن أكون آخر قصة تقفِلُ بها امرأةٌ كتابَ الحبِّ المؤرِّقِ قبل أن تتزوج.

خشيتُ أن أكون حكايةَ العشق ذات المنفعة الحدِّية السالبة التي لا تجدي شيئاً.

قرأتُ مرةً في كتابٍ فرنسي قديم: «الانفعال العاطفي الكامل لغةٌ إقليمية، يتكلمها بطلاقة رجلٌ جرَّب الحب، وامرأةٌ لم تجربه». قلتُ الكلمة نفسها لديار ذات هاتف. حشاها لي باروداً وأعادها إليَّ مرةً أخرى: «كل حبٍ جديد، ينزعُ من عيني الرجل غشاوةً ما، ويجعل على عيني المرأة غشاوةً أخرى».

- يا ديار، حبٌّ مها كاد أن يقلع عينيَّ من محجريهما.

أجابني بعد يومين، وهو يتكلم كجزيرة نارٍ تنطفئ في محيطٍ كبير..

- تلك النجمة اللامعة التي تراها في السماء، إنها أقربُ إليك من أن تفي لك امرأةٌ عشقت رجلاً قبلك.

- ديار، لا تبنِ أحكامك على الإطلاق.

- قلوب النساءِ تشبه غرف الفنادق، يتناوب عليها النزلاء، ويبقى الفندق بأسره ملكاً لشخصٍ واحد.

أبتلعُ الصمت وأطرق. أفكر: لو كنتُ أنا هذا الشخص الواحد الذي يملك قلبكِ، ترى متى يرحلُ هذا النزيل الثقيل، سالم؟

يستطرد ديار:

- لديّ استثناءٌ وحيد، لكنه لا يعنيك.

- ما هو؟

- إنَّ امرأةً تحترم حبَّ الرجل الأول، هي الوحيدة التي تستحقُّ أن تكون حبه الثاني.

هل أفهم ديار بالعكس؟ هل عليَّ أن أحترم حسن من أجلكِ؟ كان هذا ما فعلته حقاً قبل أن ألتقي ديار بعد سنة. بقيتُ على احترامي لحبكِ القديم. كان صمتي إزاء كل حضورٍ كلاميٍّ لحسن فيما بيننا يشبه الانحناء الكبير أمام رجلٍ كبير مثله. أتى ورحل، ولم يفعل ما يستحق أن نزدريه به.

حتى مشاويركِ الصغيرة التي تقضينها برفقتي كنتُ أشمُّ منها رائحة حسن. آخذكِ إلى مكتب البريد. أتركك تنزلين وحدكِ وتعودين بمظروفٍ كبير، تدسِّينه في حقيبتكِ وتسكتين، ولا أسألكِ

عنه شيئاً. وأنا أكاد أقسم أن على هذا المظروف أصابع حسن.

هل هي صورِكِ أنتِ أعادها إليكِ؟ أم صوره هو أرادها أن تمارس دوره الغائب؟

هل كان يدري حسن أن من سيحملكِ إلى مكتب البريد لتستلمي رسالته هو عاشقكِ التالي؟

ربما لم تكن رسالة حسن على أية حال، غير أن صمتكِ إزاءها لم يزل يعكِّر جبيني. امرأةٌ مثلكِ تشبه الوطن الكبير، كلما ازداد اتساعاً أرهقنا أكثر في حماية حدوده.

أقلِّبُ في فاتورة هاتفكِ التي وجدتها مرميةً فوق سريرك، ألمحُ أرقاماً في بلادٍ لا يمكن أن يسكنها أحدٌ تعرفينه إلا حسن. خوفي منه يروِّضُ أسَدَ غيرتي فأموء لكِ مواءً: «هل اتصلتِ عليه؟»، يأتيني كذبكِ المرتعش: «لا.. لم يكن هو.. كانت صديقتي.. كان سالم.. كان.. كان..»، وأبتلعُ سؤالي ولا أكرره.

هنيئاً لكَ الحب الذي يبني نفسه بنفسه في غيابك يا حسن.

لماذا تعكسُ الأقدار قصتنا هكذا. أنتِ تقعين في الحب أكثر من مرة، وأنا أطأ عتبته الأولى في حياتي معكِ، فإذا بي الرجلُ الساذج الذي يتعلم منكِ أبجدية الحب، بعد أن كان أجدر به أن يحمل بين يديه شيئاً من فلسفته، ليغريكِ بها على الأقل.

لست أدري كم علَّمكِ حسن من الحب، ولكنه بلا شك قدرٌ كافٍ

لإبقاء صُوَرِه في أدراجكِ، ورسائله على مكتبكِ، ورائحة عطره في ذاكرتكِ.

أحببتِه هو لطولِ غيابه عنكِ، وأحببتني ربما لشدة التصاقي بكِ، لستُ أدري كم كان ينقصني من الظروف حتى يكون لغيابي كل هذه الجاذبية؟ شيءٌ من شتاتِ هذا الرجل كان مغرياً لامرأةٍ مثلكِ لم تعرف من قبل كيف هي الحياة خلف جدران وطن. هناك، حيث يصبح للحب معنى آخر تختلف معه رائحةُ أجسادنا، وشكلُ كلماتنا، وطقوسُنا في الحب والكبرياء.

هذا رجلٌ تعلَّم من غربته الكثير وتعلَّم من حبيبته الأولى التي لَفَظَت آخر أنفاسها بين يديه الكثير أيضاً ثم جاء بكل هذه الأحزان التي تُغري بالحب، ليقِفَ على باب قلبكِ بعض الوقت، ثم يتركه، ويتركني وراءه عاجزاً عن اللحاق بعينيكِ المعلَّقتينِ بأطرافِ معطفه.

هل كانت الحياة لتمنحني بُعداً دراميًاً كهذا الذي يجعل امرأةً في الرياض، تشتهي رجلاً في مرسيليا؟ ربما. ولكني أذكر أن حزني جاء شاحباً، عادياً، لا يمكن أن يثير أكثر من شفقة.

بعض الأشخاص، حتى أحزانهم تجيء كما يشتهون.

***

تعاقبٌ رجاليٌ سريعٌ على حياتك، ومازلتِ تتراءين لي كلما أمضيتُ معكِ يوماً آخر كامرأةٍ تعتدُّ بأنوثتها حتى الحد الأخير رغم

الانحياز المجحف، والامتيازات الهائلة الممنوحة للذكور في البيت الكبير. كانت دهشتي واسعةً جداً وأنا أسمعُ منكِ هذه الكلمة لأول مرة: «لا تحتاجُ أنثى إلى رجل في حياتها، إلا لتنجب منه».

أذهلني انقلابكِ الداهم هذا على أساساتِ الفِطرةِ الكونية التي تحمل الحياة. أنا عهدتُ نفسي منذ لهو طفولتي مع الفتيات منحازاً إلى الأنثى في كل اصطداماتها الحياتية مع الرجل. لذلك لم أقف يوماً على طرف نقيضٍ معكِ في محاولةِ إثبات أو تفنيد هذا الأمر. لم أؤمن في حياتي بمبدأ الأضعف والأقوى، ولكني كنتُ أؤمن أن رجلاً قادراً على حماية أنثاه مما قد يؤذيها هو يفعل ذلك بدافع حاجته إليها أولاً.

الرجل درعُ المرأة الواقي ضدَّ كل ما هو خارجيٌ ومؤذ. والمرأة درعه الداخلي من انقلابات روحه على جسده. كلاهما يحمي الآخر. وإذا كانت المرأة قادرةً على الاستغناء عن الرجل وحماية نفسها استناداً إلى المجتمع والقانون، فقد لا يجد الرجل ما يغنيه عنها. فليس في قوانين الدنيا ما يحمي أرواحنا من الانهيار والتفتت لشُحِّ الحنان.

المرأة هي الأقوى دائماً في معركة الحياة، ولو نَشَبَت هذه المعركة يوماً لرَفَع الرجال الراياتِ البيضاء قبل النساء.

كان اعتدادكِ بأنوثتكِ يوافِقُ في داخلي اعترافاً قديماً عندي بكل ما هو أنثوي، وانقياداً خفيّاً للأنوثة كمشروعٍ حياتيٍّ أكثر اكتمالاً من

الرجل، وأن الإناث هنَّ أساس الحياة وأمّهاتها. لذلك هنَّ أكثر تعداداً من الذكور على الأرض.

تساءلتُ الآن فقط، وأنا أكتبُ هذه الكلمات، وأتذكر منكِ تلك الكلمة، إن كان زواجكِ من سالم إذن لتنجبي منه فقط.

كم علامة تعجب تكفي لتغطية حيرتي؟ لا أدري بالفعل، هناك جوابٌ خفيٌ في قرارة نفسك، وأنا أؤمن أنكِ لن تبوحي به لي مطلقاً وأنا على هذه الدرجة من العتب.

نحن نبوح بالأسباب الكبيرة المقنعة الدامغة، بينما الأشياء الصغيرة قد نخفيها خجلاً أو هروباً من صعوبة تعليلها. هذه الأشياء الصغيرة قد تكون هي المسؤولة عن صنع القرار برمّته.

دعيني لا أحتار أكثر في الأسباب الصغيرة التي دفعتكِ للتخلي عني، والارتباط بسالم، يكفيني صداع الأسباب الكبيرة وجراحها.

***

بلغتُ فانكوفر في شتاءٍ دميم ولم أنتظر حتى تتراكم عليَّ ثلوجها. فزعتُ ببقية حرارةٍ تجوس في دمائي من الرياض، وحملتُ أوراقي في الأيام الأولى إلى سايمون فريسر، الجامعة التي قبلت شهادتي المليئة بعلاماتِ الرسوب، وجيوبي الممتلئة بقوتِ سنة تقريباً، لا أكثر.

أخذتُ خطاب القبول الرسمي حتى يتسنَّى لي استخراجُ هويةٍ

لإقامتي هنا. حملتُ أوراقي مرةً أخرى وفتحتُ مظلّتي التي لم أتعوّدها بعد، وخرجتُ أفتِّشُ عن عمل.

ما جئتُ لأربِّي شهادةً أخرى. إنها مشجبُ الأعذار الذي علَّقتُ عليه أسباب رحيلي. كان يتأرجحُ بين عينيَّ بنْدول عُزلة، يحشرني داخل قوقعة دافئة، في صمتٍ لا يأخذُ شكل الموت. يمرُّ من فراغاتِ شوكةٍ تمشِّطُ شاطئ الذاكرة، وتأخذ الحصى والأحجار وآثار الأقدام، وتعيدُ الرمل ناعماً، كما كان قبلكِ.

من يُقنعُ أمي بأسبابٍ كهذه؟

ما أسهل أن يقنعها طموحي، وما أصعب أن يقنعها حزني.

وما أصعب أن ألفِّق حزني بالطموح أمامها.

سمعتُ بفانكوفر قبل سنوات، وخبَّأتُ اسمها في عقلي حتى احتجت إليه يوم قررتُ الرحيل. قَفَزَت إلى سطح أفكاري التي ما زالت هلاميةً بإلحاح. لا أدري ماذا كان يسوق قدميّ إلى مكانها البعيد. رحلتُ إليها دون رأي مبرَّر. لم أفكر كثيراً. كل المدن تتساوى إذا دخلناها بتأشيرة حزن.

كان عليَّ أن أجد عملاً ما حتى لا أبقى خاوياً إذا ما انتهت دروسي وطاوياً إذا ما انتهت مدّخراتي. لم يكن ذلك سهلاً على مدينةٍ تستقبلُ آلاف المهاجرين كل عام. كلُّهم يبحث عن عمل وأمل. وكلُّهم حزينٌ مثلي على وجه الجزم. فلا شيء يدعو إلى فراق الأوطان إلا حزنٌ ضالّ. أريدُ أن أحشو أوقاتي في هذه المدينة بكل الأشياء قبل أن

تحشو ثلوجها عظامي غربةً ووحدة. ليس في كوفيَّة الصوف دفءٌ لمهاجر. لا بد من فوضى أدفن فيها وجعي لعله يتوه بين دراستي وعملي، أو لعل ساعات اليوم تنتهي قبل أن يجد البكاء له بينها ساعةً شاردة.

بدأت دراستي بعد أسبوع لا أكثر. حملتُ الحقيبة الصغيرة وقلمكِ الأبيض الصغير وتعلَّقتُ مع المئات ذلك الصباح الماطر في عرباتِ القطار العلويِّ الذي يقوم في فانكوفر مقام الميترو في مدن أخرى. كان يقطعُ بنا المدينة وأتفرَّجُ على كل ما يمرُّ تحتنا من شوارع وأماكن لم أرها من قبل. بعد عدة محطات توقَّف القطار ومشيتُ المسافة الباقية من المحطة، ودخلتُ المبنى الجامعي. طويتُ مظلتي واجتزت البهو بخطى غريب. فتَّشتُ عن قاعة الدراسة. سلكتُ ممرين ووجدتُ نفسي أمام أستاذ شاب وحولي عشرون طالباً آخر.

تصفَّحتُ وجوههم على عجل، كانت ملامحهم موزَّعةً على أقطابِ الأرض في تنوّعٍ بيولوجي عجيب ربما يحيّرُ القادم من الخارج في أي بلدٍ هو. إنها كندا، أكثر الأذرع اتساعاً في العالم. ملايين الكيلومترات الشاسعة، ولا بشر كافون لملئها.

ملامحُ آسيويةٌ طاغية. على المقاعد الأخرى توزَّعت ملامحُ كأنها من أمريكا الوسطى والجنوبية، بدا واضحاً أنني العربي الوحيد في هذا المكان.

انتابني الشرود الأول في هذا المكان، أنا الذي لم أكمل في حياتي درساً واحداً لم أشرد فيه بعيداً، ولو دقائق قليلة.

تُرى، في أيٍّ جامعةٍ تدرسين الآن؟

أعلم أنكِ لن تقبعي بجوار سالم في الغربة مثل لوحة. إنَّ دور الزوجة المكمِّلة لحياة زوجها لن يدور في أكثر أفكاركِ خنوعاً. أنتِ امرأةٌ تدور من حولكِ الأشياء وليس في الدنيا بعد ما يمكن أن يجعلكِ تدورين حوله إلا نفسكِ.

قلتِ لي مرة: «أكثر الأشياء التي أثقُ بقدرتي على النجاح فيها دراستي». المعجزةُ الصغيرة التي مرَّت على قسم الأدب الإنجليزي في الجامعة كانت أنتِ. تخرَّجتِ بتفوقٍ يدهشُ شكسبير وديكنز وإليوت أنفسهم. في عينيكِ يلمع طموحٌ ضخم.

ربما كانت فرصة إكمال دراستكِ خارج الوطن من الأسباب الصغيرة التي أقنعتكِ بسالم.

بالنسبة إليّ، كانت دراستي الجامعية هي الأكثر عثاراً في تاريخي. منذ عرفتكِ والأمور تتدحرجُ نحو الأسوأ، في البدء انبهاراً بكِ، ثم تحسّراً عليكِ. كنتُ أتهاوى فشلاً بعد فشل وأوهمكِ أني أحقق النجاح الذي يرضيكِ.

كذبي كان صعباً، ولكني لم أرد إيذاءكِ.

الفصل الدراسي الذي عرفتكِ فيه خسرتُ جميع موادّه. وعدتُ بخُفَّي حنين.

الفصلان اللذان أحببتكِ أثناءهما كسبتهما معاً للدهشة، كنوعٍ من إثباتِ الذات، حتى لا يصرفكِ فشلي وتأخري عن التخرج عن أمر الزواج مني يوماً ما.

كنتُ أرصفُ طريقكِ إليَّ بحماس طفل، وأحاول أن أجعله مغرياً بالمشي فيه.

الفصل الذي رحلتِ فيه كان الأخير. كسبته استجداءً. كنتُ أحملُ ورقتي المريضة لأستدرَّ إشفاق الأساتذة، حتى ساعدوني جميعاً على تجاوز الموادّ، تعاطفاً مع كُليتيّ الضعيفتين. تخرَّجتُ كقذاةٍ حقيرةٍ في عيون العلم مهندساً وضيعاً لا يصلحُ لشيء، إلا للحزن.

الحزن علمٌ بحدِّ ذاته، مَن قال إنه لا يحتاج إلى شهادة؟

من يستطيعُ أن يستقطر حزناً شفّافاً لا تخالطه مشاعر أخرى تغيِّر لونه وطعمه ورائحته؟

أنا أستطيع ذلك بعد سنتين من رحيلك، ها أنذا أكتبُ في حالة حزن فقط.

سقط من خلفي القلق. سقط الإحباط، التوتّر، الخوف، الوجع، الريبة، الكآبة، الجنون، الهمّ، الشتات، اليأس، المرض، الضياع، الأرق، التشرّد، الوهم، الحبوب، السجائر، البكاء، الغثيان، الضلال، السهوم، القيء.

كلّها سقطت، وبقي الحزن وحده صارياً مزروعاً في صلب السفينة.

لقد غيَّر ديار في حياتي عادات كثيرة.

لم يلقِّنِّي، تعلمتُ أنَّ السلكين إذا توازيا، ربما تنتقل شحنة أحدهما إلى الآخر.

هكذا غيَّرني ديار.

***

جاء الخريف بعد أشهر. تركتُ شقّتي الأولى لأستأجر أخرى تملكها سيدةٌ عجوز، رأيتُ فيها انحناءً من أجل الزمن يشبه غاباتِ فانكوفر التي تنحني هذه الأيام لتبكي أوراقها. ففي هذه المدينة يقِفُ كل فصلٍ عند حدِّه تماماً، ولا يتجاوزه. المطر وحده هو الذي لا يتوقف.

على الجسرِ العملاق الذي يربِطُ نِصفَي المدينة النائمة على قطعتين من اليابسة، يفصلهما مضيقٌ بحريّ، كانت شقتي الجديدة تمنحني حلم الطيور الوادعة التي تطير بين الضفتين لتنزل على شرفات بعض المنازل التي يترك لها أصحابُها كل صباح إفطارها من الحبوب وبقايا الطعام.

أدمنتُ الحنين في هذه الشرفة. كل مرةٍ أتخيَّلكِ تجلسين معي فيها. كم كان هذا المكان جديراً بنا. كأنَّ الجمال سينتهي من فرط سخائه ولكنّ القبح كامنٌ في داخلي أنا الذي جررتُ حزني كل هذه الأميال، لعلي أجِدُ في هذه المدينة تعويذةً للنسيان، وملاذاً من

الوحشة التي باتت معلقةً على جدران ذاكرتي مثل رؤوس الأيائل في بيوتِ الصيادين النبلاء.

يصبح وجه الحياة أصفر إذا شحَّ الأملُ في أسواقها. فانكوفر باردة، ولكن عظامي ترتجف برداً قبل أن أرحل إليها. كم هي صغيرةٌ المدن التي نسكنها إزاء المدن التي تسكننا. في طريقي إلى فانكوفر، قضيتُ ثلاثة أيام في باريس، وحيداً.

إجازةٌ قبل المنفى.

كنتُ أفكر في مدينة تشبهها. أفكر في حمّامٍ ضخم أغتسلُ فيه من ذاكرتي قبل أن أدخل على فانكوفر العذراء.

أطلقتُ قدميَّ في شتاء باريس وسمائها الصفراء المتحفظة مثل مدرسةٍ داخلية. بعض المدن تقلبُ الأشياء على نواميسها. تخترعُ جمالها، تتبهرجُ بطريقتها أمام زوّارها، ولا تحرّك في داخلي شيئاً.

سكنتُ غير بعيد من شارعها الشهير في فندق لا يكلفني الكثير في موسم الشتاء. عند بابه عجوزٌ فرنسيةٌ تبيع الحلوى بفرنكات وتبتسم دون مقابل. ابتعتُ منها كيساً، وبدأتُ يومي صباحاً فوق الأرصفة.

على ضفاف السين، شابٌ يجرُّ عجلاتِ كرسيّه بأمل ويعلّقُ على ظهره لوحةً قرأتها بصعوبة: «لا تشفق عليَّ، أنا أسعد منك».

هذه الأرواح الطفولية يصعبُ أن نجدها في أيِّ مدينة.

في مقهى، جلستُ أمام رسّام من المغرب يرسم العابرين مقابل مبلغٍ زهيد. فتح صفحةً نظيفةً على كُرّاسٍ واسعٍ يحمله وبدأ

ينقش وجهي وينزعُ الأقنعة المتراكمة عليه.

انتابني سكوتٌ عميق وأنا أتأمل المطر الناعم الذي يرشُّ الرصيف. قال لي:

-ما بك يا صاحبي؟

-لا شيء.

-عاشق؟

أعدتُ عينيَّ إلى وجهه. كنتُ أفكر في أن ألقي عليه نظرةً تزدري سؤاله غير المهذب. لا أدري لماذا برزتِ لي فجأة من ثنايا سؤاله وكأنه ذكر اسمكِ، أو كأنه يرسم الآن في لوحته جسدكِ عارياً.

أغار عليكِ من سؤالٍ يطلقه رسّام عابرٌ في مدينةٍ غريبة. يكبر حجم غيرتي ليشمل الأسئلة المبهمة.

طوَّحتُ بنظرتي بعيداً عنه بعد أن اكتشفتُ أنه مشغولٌ بلوحته وأنه لا ينظر إليّ وكأنه لا يبالي إذا كان سؤاله راقني أم لا.

قلتُ له:

ـ كان هذا قديماً يا صديق. في أول الحب فقط يأخذنا السهوم، أما في حزنه فما يأخذنا هو الاستسلام لسطوة الحياة حتى بنظراتنا.

ـ كلها استسلامٌ على كل حال. هذا للحياة التي تأخذ شكل الحب، والآخر للحياة التي تأخذ شكل الحزن.

اتخذت عيناه لون حزنٍ لا مبال، وراحت ضرباته على اللوحة تصدر صوتاً أعلى:

ـ من أين؟

ـ طنجة.

ـ لماذا تركتها؟

ـ بحثاً عن عمل شريف.

ـ هناك أعمال شريفة أخرى تستطيع ممارستها.

ـ نعم يا سيدي، ولكني أخاف المال.

تركني في صمتي قبل أن يستطرد:

ـ أبحثُ في وجوه الناس عن لقمة عيشي، ولقمة عقلي.

ـ كيف ذلك؟

ـ عشرون سنةً مضت وأنا أرسم وجوهاً. أستطيعُ الآن أن أخبرك أنك أكثر شبهاً بأمّك.

لم أُدهش، تصورتُ أن الرسّامين يكتشفون مثل هذه الأشياء بسهولة.

– هذا صحيح، أنا أشبه أمّي كثيراً.

– لم تأكل جيداً طوال أشهر. ولم تنم جيداً كذلك. أنت محبطٌ بعنف يا سيدي.

– كيف عرفت؟

– عيناك يا سيدي. العينان دائماً فتحتان كبيرتان في صندوق النفس.

تركته يتفرَّسُ في ملامحي، وأطلقتُ عينيّ بعيداً.

- ضايقتك؟

- لا يا صديقي. إنني أتأمل باريس قبل أن أتركها غداً.

- عيناك في السماء، ما الذي يعلّقهما هناك؟

- أليست سماء باريس؟

- السماءُ كلٌّ لا يتجزَّأ. هذه نفسها سماء بلادك وبلادي. الأرضُ فقط يقطِّعها البشر.

- كيف تجزم بهذا؟ أليس لكل بلدٍ أجواؤه الإقليمية؟

- نعم، ولكن هل رأيت عصفوراً يأبه للحدود؟

صمتٌّ لوهلةٍ لأفكر قبل أن أسأله..

- والمشاعر؟

- ماذا عنها؟

- هل تأبه للحدود برأيك؟

- ماذا تعني؟

- لا شيء.

- أنت تزيدني فضولاً. قل ما لديك ولا تخف، لن تراني بعد اليوم.

- لا شيء يا صديق. كنتُ أفكر فقط إذا ما كانت مشاعرهم تتغيَّرُ إذا تجاوزوا حدود الوطن.

طوى لوحتي مثل رسالةٍ رومية وأعطاني إياها. نقدته أجر رسمه وفضوله. تركتُ فرنكاتٍ أخرى على الطاولة وقمتُ أمشي. مررتُ على مكتب بريدي. دسستُ اللوحة في مظروف وأرسلتها إلى عنوان أروى في لوس أنجلوس.

ألم ترفض أروى دائماً أن ترسمني؟

لأنها قبل وفاة يوسف بأسبوع فقط كانت قد أتمت لوحةً له.

كانت توقِّعُ على موته دون أن تدري. وعندما أفاقت ذلك الصباح من نومها ولوحته معلقةٌ على الحامل الخشبي مرَّت من جوارها وهي لا تدري أنَّها أصبحت لوحة رجلٍ ميت.

لم تجرؤ أروى أن ترسم أحداً منا بعدها قط. ولم تلوِّث ريشةً بلونٍ طوال سنتين كاملتين.

أتذكَّرُ ذلك الرسّام الصيني الذي اعتزل الناس وعاش وحيداً في كهف مع جماعةٍ مترهِّبة، وراح يرسم عائلته فرداً فرداً، هو الذي لا يسمع عنهم خبراً. وبعد سنوات، حمل لوحة أبيه ليحرقها أمام دهشة الجماعة. وعندما سأله أحدهم كان جوابه: لقد مات. إنَّ السواد يكتنف اللوحة.

وعندما أرسلت الجماعة من يستطلع الخبر كان أبوه قد مات فعلاً.

أروى هي الوحيدة التي يمكن أن تعني لها صورتي شيئاً هذه الأيام. حتى أنا لم يكن يعنيني هذا الشاحب في بياض اللوحة. لم

أرحل لأنسخ نفسي نسخاً أخرى بل لأتوحَّد مع مخلوقاتٍ كثيرة عاشت في صدري متنافرة طوال فترة حبك.

أحياناً أفتِّشُ في حياتي عن شيءٍ أعيشُ لأجله ولا أعود بشيء. ومنذ أن فتَّشتُ عنه آخر مرة قررتُ ألا أعود إلى هذه الحماقة مرة أخرى.

أحياناً يَعِدُ الماضي، بخرابِ القادم.

إنه لا يموت، يظلُّ ينعقُ كالغراب في حجراتِ الذكرى حتى يلفت الأنظار.

إننا نشتهي الموت عندما نشعر أن موتنا سيُحدِث انقلاباً ما في الكون، ونتمنى الموت عندما نشعر أننا أتفه من أن يغيّر موتُنا شيئاً.

فرقٌ بين الاشتهاء والأمنية.

أويتُ إلى شقة. وبدأ يأخذني جهدٌ دراسيٌ ضئيل وعملٌ بسيطٌ وفِّقتُ في إيجاده، يأكل مني نصف ساعات اليوم. الشقة التي استأجرتها من مس تنغل بدت كافيةً لإيوائي تماماً. وزَّعتُ فيها أثاثاً أفقر من أثاث غرفتي في الرياض. كتبٌ قليلة على الطاولة لهيمنجواي وغيفيك ودستويفسكي. أريكةٌ عميقة نمتُ عليها ليالي قبل أن أبتاع سريراً. أدوات مطبخ وتلفازٌ مستعمل ابتعته من مس تنغل نفسها.

شعرتُ أن خصوصية هذا المكان وانفرادي فيه يتيحان لي أن أضع صورتكِ التي حملتها معي في بروازٍ هادئ، وأسنده إلى ركن

سريري الأيمن. قميصكِ الأبيض المفتوح. وجهكِ الوضَّاء كشمسٍ هربت معي. وحياء جلستكِ الذي يقطر من ورق الصورة.

هذا الطرقُ العالي على باب الذاكرة لم يكن يزعجني، كان يمنحني أملاً.

ولم أكتفِ بطارقٍ واحد، فعلى تسريحتي الخالية، تركتُ قارورة عطركِ الأثير جين بول على مقربةٍ من إدمان الليل والنهار، وصهيل الشوق الموجع.

لم تكن رائحة هذا العطر بالذات تضوع وتنتشر ثم تختفي بعد زمنٍ مثل كل العطور. كانت تخترق أنسجة النفس. تبني مخيماتٍ وملاجئ تقيم فيها الروح الضائعة، ويتكئ عليها الجسد المتعب.

ذاكرة الرائحة أشدُّ ضراوةً في إلحاح الشوق، وأكثر احتكاكاً بجدران القلب. كأنكِ كنتِ تدركين هذه الحقيقة التي تعلّمتها من حسن، وأنتِ تتركين لي هذه القارورة الممتلئة قبل رحيلكِ. أدركتِ بحدْس أنثى تقيس دوختي دائماً أنَّ هذا العطر يذيبُ صمودي تماماً. يجمِّدني في مكاني حتى لا تبقى إلا الأنفاس التي تسحبه إلى الداخل.

إنه عطركِ الذي تمنيتُ أن يكون لي وحدي، وتمنيتُ ألا تكوني قد اخترته أيضاً في جملة زينتكِ المكرَّسة لجسد سالم.

ليتكِ تفين لي بهذا العطر على الأقل ما دام هو سيأخذ كل الأشياء.

قلَّبت مس تنغل قارورته بين يديها ذات يوم، كانت تبتسم لشكلها الذي يبدو كجسد امرأةٍ عارية، قالت:

ـ هل تستخدم هذا العطر؟ لا يبدو لي رجالياً.

ـ أستخدمه يا سيدتي، ليست كل العطور تُستخدم للجسد.

ـ لأي شيء تستخدمه إذن؟

ـ للذاكرة.

في يومٍ آخر، كان لديار تعليقه المغموس في جنونه. لمح القارورة على تسريحتي. لم يلمسها. فقط اقترب منها بهدوء وقرَّب أنفه من قمّتها البارزة، ثم رفع رأسه وهو يبتسم دون اهتمام قائلاً:

ـ تبدو أنيقة.

تظاهرتُ بعدم الاكتراث:

ـ من تقصد؟

أجاب وهو يغمز بجفنه المائل، ويبتسم بخبث:

ـ ذاكرتك.

ولم أكن قد أخبرته عنكِ بعد.

***

لقد ألفيتُ مس تنغل طيبة جداً.

أحياناً أفكر: أيهما أكثر نقاءً ونفعاً لنا، الطِيبة المنعكسة عن سذاجة، أم الطِيبة المستمدة من فهمٍ عميقٍ لهذه الحياة؟

بعد أشهرٍ طويلةٍ من جيرتي لها، استطعتُ أن أجزم بشيء. كانت مس تنغل من الشكل الثاني للطيبة، صنو عطاء.

ظلَّت تلاحقني بكرسيّها العتيق محاولةً أن تخرج من رضائي المسالم بأيِّ عيبٍ يضايقني في شقتها. كان سكوتي يُرهِقُ رغبة امرأةٍ طيبة في العطاء. راحت تعتذرُ لي عن شقوقٍ طفيفةٍ في الدهان. شغَّلت جهاز التكييف مرتين. باب غرفة النوم يصدر صريراً خافتاً، ونافذة الحمام تنام خلفها بعض الطيور أحياناً.

لم أسألها إلا ما كانت تلبّيه هي من عند نفسها. كاد أن يكون التلفاز هدية لولا أن تمسَّكتُ بحياء الرجل ودفعتُ لها ثمنه.

سلفي في الشقة رجلٌ ميِّت. خلت لي الشقة بعد أن خلت منه الحياة. انهارت فوق رأسه شجرةٌ مثقلةٌ بالثلوج في الشمال. بعض الأشجار هناك يتجاوزُ طولها الثلاثين متراً. كَتَبَت عنه الجرائد أخباراً صغيرة. كان نحّاتاً جيداً، ينحتُ تماثيل سكان كندا الأصليين ويبيعها للسيّاح في متجرٍ له عند جسر كابيلانو. إزميله وأدواته ما زالت في مخزن الشقة وبضعة تماثيل قصيرة نصف منحوتة. سألتني مس تنغل أن أبقيها عندي في ركنها ذاك احتراماً لذكراه. وافقتُ خجلاً وأنا أتوجَّسُ من السكنى مع أصنام.

مرَّ شهرٌ وهي جارتي. قبل أن يتجاوز عطاؤها حدود الجيرة بكثير. بيننا تحيّاتُ الصباح وحكايات المساء القصيرة. كلّما ذَهَبت لتتسوَّق عادت معها بشيء لي يتغيَّر كل مرة. كانت تمرُّ من وراء شرفتي نحو

السيارة التي تخدمها يوماً واحداً في الأسبوع. تملكُ السيارة بسائقها هذا اليوم فقط. الأيام الأخرى يملكها مقعدون آخرون. تخرجُ صباحاً لتشتري ما ينقصها. تجلسُ في مقهىً مزدحم. تحضر جمعية الأيل. تزور متحفاً، معرضاً، مسرحيةً، أوبرا، وتعود مساءً إلى ستة أيامٍ من الوحدة أمام المضيق الهادئ.

لم تكن تتطفَّلُ عليَّ. أخبرتني بعد أن صرنا صديقين أنها كانت تشعر دائماً أنَّ ورائي حكايةً طويلةً بطول الساعات التي تراني فيها أجلس وحيداً في شرفتي، منكفئاً على البيانو الصغير الذي اشتريته بخُمْسِ ما تبقى معي من مال بعد أن نقدتُ الجامعة ومس تنغل أموالهما لستة أشهر قادمة. كنتُ أحاول تعلُّمَ العزف بسرعة. ليس عندي ما يعوِّضني عن كتابتي التي هجرتها تعسفاً رغم احتياجي إليها إلا الموسيقى. لم تعرف أصابعي سكوناً قاتلاً كهذا من قبل. لا بد من نقرٍ ما يسلّي الروح.

قرأتُ السلّم الموسيقي ولكني لم أتقنه تماماً. كنتُ أتطفل على الأسوار وأتطاول على المحاذاة المتواضعة والتدرج البطيء. أحاول منذ الشهرين الأولين من تعلّم الموسيقى تقليد ياني في مقطوعته To The One Who Knows، أصنعُ شيئاً يشبهها بعض الأمسيات. ولكني غالباً ما كنتُ أشردُ بنشازٍ بطيء حزين، يشبه انطفاء سيجارةٍ قدريةٍ في صدر بطل.

شيءٌ واحدٌ كان يجمع بيني وبين مس تنغل، الوحدة. أنا الذي ما

زلت ألتحفُ بها منذ وصولي قبل ثلاثة أشهر، وهي التي ما زالَت تسكُنُ في جسدها الضئيل منذ ثلاثين سنة.

على هامش الحزن، صرنا صديقين.

دعتني مرةً للعشاء في شقتها المجاورة. لم يتجاوز الأمر كونَهُ دعوةَ تعارفٍ لساكنٍ جديد، ولكني اكتشفتُ في منزلها مساحةً واسعةً من دفءٍ كبير ربما كان ينبعث من ملامحها. عيناها طيبتان عفويتان. فمها دقيقٌ تحاصِرُهُ تجاعيدُ العمر. شعراتها تنقسم بين الشقراء والبيضاء، وصوتها هادئ، ووجهها تَرَكَت عليه الحياة آثار عمرٍ من الخيبات المتتالية.

أكثر الأماكن دفئاً أحياناً وجوهُ المسنّين. إنها تريد أن تخبرنا، نحن الذين ما زلنا نتسكَّعُ أولَ الطريق، عن الكثير من خبايا الحياة، ولكنَّ صمتَ هذه الوجوه يترُكُ لنا تنوّعاً ثرياً للاعتبار.

خلف كل جعدةٍ من وجهها العجوز، ظَلَلَتُ زمناً أختبئ من ألم ما.

بعفويتها التي تدهشني أحياناً كانت تسألني، وهي تحتضن بين كفَّيها كوباً كبيراً من الشاي، وتميلُ بجسمها إلى الأمام قليلاً، وكأنها تستعدُّ للإصغاء.

- لماذا أتيت إلى هنا؟

دراسةٌ أم عمل؟ ليس عندي رغبةٌ في الكذب على إنسانٍ جميل مثلها. ليس عندي أيضاً رغبةٌ في البوح لأحد.

انسحاباتٌ عديدة كنتُ لأختار منها باب هروبي لو أنَّ سؤالها جاء أقل وضوحاً.

– لا أدري يا سيدتي. بعض الأسئلة، من فرطِ ما كرَّرنا إجاباتها على أنفسنا بإلحاح، لم تعد تقنعنا.

مطَّت شفتيها قليلاً أمام إجابتي المتحفِّظة، وهزَّت رأسها بفهم، وعيناها مطرقتان إلى الأرض. ابتَسَمَت بمكرٍ طيِّب وكأنما راقها ما قلته، أو شَعَرَت بتحدٍّ غريبٍ إزاء هذا الذي يفلسف إجابته الأولى. رَفَعَت رأسها إليّ، قالت بهدوء:

– دائماً نحتاجُ إلى أسئلة كهذه يا بني، أليس كذلك؟

– بالنسبة إليّ، لم أعد أدري بماذا تفيدني إجابةٌ لم أكتبها بيدي؟ لماذا نسألُ ما دامت الأقدار هي التي تجيبُ في النهاية؟ أسئلتنا كلها غثيانٌ فكريٌ لا معنى له.

– نحتاج إليها لنقِفَ في وجه فوضانا. كل الأشياء المحيطة بنا تتآمرُ أحياناً على خداعنا. إنَّ الغثيان الذي نقضيه مع بضعة أسئلة يقينا من صدمةٍ متأخرة من تلك التي تحترفُ الحياة مفاجأتنا بها، إمعاناً في إهانتنا.

– لن تعجز عن إهانتنا يا سيدتي ولو وضعنا أمامها جيشاً من الأسئلة. أليست هي نفسها الحياة التي تصوغُ أسئلتنا هذه وتزرعُها خلف عيوننا؟ الحياة نفسها هي التي تَلِدُ المتاهة.

– هل تريدُ أن تعيش في فوضى؟

- لِمَ لا؟ بعضُ الفوضى يشبه الإضراب عن الطعام في سجن الحياة، احتجاجاً على الأقدار السيّئة.

- ولكنها لن توفّر عليك أحزانك.

- إنها تشتّتها على الأقل.

- ستبقى معك.

- خيرٌ من أن يذهب كل شيء.

***

في قصتها تلك، كنتُ أصغي بحذر..

لم أكن واثقاً بقدرتي على احتواء حزنها لو أن ما ستقوله حزن. ولست أدري لماذا توهمتُ أن امرأةً بهذا العمر قد تتكئُ على شاب مثلي ما زال يربّي حزنه الأول، رغم أنها ترسمُ على فمها ابتسامةً رضيَّة، إلا أن الحزن القديم كان يتسرَّبُ بين كلماتها، يغمر الأرض والجدران، ويتحسَّسُ جلدي.

كنتُ قد تحرَّجتُ من المكث طويلاً بعد العشاء. تأبطتُ حيائي وهممتُ بالانصراف المرتبك، أخبرتني أنها لن تنام قبل أن تتناول دواءها عند العاشرة. كانت الساعة وقتها تحبو نحو الثامنة. وافقتُ على البقاء. لبثنا نتكلم كلاماً صافياً. كان العمر بيننا كبيراً جداً على انتقاء الألفاظ. فهي ستقبلُ من الشاب الصغير كل ما يقول، وأنا سأقبلُ من السيدة العجوز أيضاً كل ما تقول. كلانا يُشفقُ على الآخر من حيث لا يدري.

حدّثتها عن حدود حياتي الطافية على السطح، لم أحمل لها أعماقي المظلمة، قلتُ لها في معرض الكلام إن الحياة أحياناً يأخذها نزق العناد، كانت تبتسم بعمق، تنهدت قليلاً بينما لم يزل شبح ابتسامتها قائماً.

لديها أحزانها هي الأخرى. الحزن عنصرٌ ضروري لنكون بشراً. أما السعادة فشيءٌ استثنائي، وجوده أو عدمه لا يؤثر في إنسانيتنا.

راحت تسرده بطلاقة امرأةٍ لم تعد تخيفها الحياة، وعفوية من قصَّت القصة نفسها مرّاتٍ عديدة في عمرها.

أخذتني رعدة ترقُّبِ المحور الفاصل الذي تركها هكذا، وحيدةً ومقعدة.

تابعت حديثها:

– بعد شهرين، لم تحتمل تربةُ الأرض ثقلَ المبنى. كان هناك خطأ ما في تصميم الشابين الصغيرين. فانهارت أجزاءٌ من طابقه الأول الذي أنجزناه ونمنا تحته تلك الليالي احتفالاً به فوقنا معاً. لتدفنه هو وحلمنا إلى الأبد، وتبقيني أنا كما تراني الآن طوال هذه السنوات.

أتأمَّلُ كرسيَّها المتحرّك الذي يحتضن جسمها الضئيل مشلولاً منذ ثلاثين سنة. كم من الخطواتِ كان يمكن أن تمشي هذه العجوز لولا تلك الحادثة القديمة؟ كم من الأخطاء كان يمكن أن ترتكب؟ كم من التأملات كان يمكن أن تُضِيع؟

الحبُّ الذي مات في بدايته، والحلم الذي قضى في مهده،

وقدماها اللتان أبقاهما الشلل هكذا، يا له من محورٍ حادّ.

ربما كان المحور الواحد هذا هو الذي جعلها تفهمني فيما بعد. هي التي قلبت حياتها إصابةُ عمل، وأنا الذي قَلَبَ حياتي حبٌ يائس.

أليس الحب أيضاً إصابة حياة؟

تَشقَّقَ جدارُ سكوتي قليلاً. أشعر أني أرغب في الكلام عنكِ بعد أن بقيْتِ مدفونةً في شريان العمر منذ عرفتكِ. مس تنغل حميمةٌ جداً في كلماتها. ربما سمعتُ منها كلمةً آمنة. ربما منحتني تأشيرة عودة إلى الحياة، من يدري؟

استفزَّني هذا القالب الجديد الذي قفز إلى أفكاري وهي تتكلم، المحور.

هل كنتُ أحاول التنبؤ بشكل محوري بعد ثلاثين سنة؟ هل كنتُ أحاول فهم شيخوختي قبل أوانها؟

بالغتُ في أحلامي.

جاء كلامها محبِطاً. يشبه النصائح التي تموتُ دائماً في الهواء قبل أن تبلغ آذاننا لأنها تأتي دائماً في الوقت الذي نتوق فيه إلى سماع شيء آخر.

يتشابه كلامهم أولئكِ المسنّون.

- حاول أن تلتفَّ على محورك يا عزيزي، ما زلتَ صغيراً.

- وكنتِ صغيرةً أيضاً يا سيدتي، فهل ترك لكِ الحزن مساحةً كافيةً للالتفاف عليه؟

- أحياناً تحكمنا وعورةُ الزمن يا بني، أنا أعلم أنَّ تضاريس الألم لن تختفي إذا تركناها وراءنا، ولكننا إذا فعلنا، فقد نختلس، على الأقل، مجالاً أوسع للرؤية.

ـ . . . .

يُحفِّزها صمتي، تجتهد في كلامها بعد سُعالٍ خفيف:

ـ لن يمسَحَ أحدٌ خيبتك، حاول أنت أن تعتبرها مجرد حقيقةٍ لم تتوقعها فحسب.

ـ لعلي أستفيدُ من خيبتي يا سيدتي، لقد تعلمتُ أن الاستسلام للحزن أحياناً أشجعُ من مقاومته، بعض الأحزان لم تأتِ لتقاتلنا، بل لتعتصم حول جراحنا أمام الأقدار.

ـ استفد من خيبتي إذن، أنا التي أُخِذتُ لسنوات بهذا الاعتصام الذي تسمّيه، وما زلتُ منذ اليوم الذي انهار فيه ذلك السقف أجرُّ عجلاتي الأربع. لقد رفضتُ حتى جلساتِ العلاج. والآن أيقنت ألاّ شيء في الدنيا يستحقُّ أن نتحوَّل إلى جماداتٍ يا بني.

ـ لم أجد حتى الآن قبراً يليقُ بحلمي بها.

ـ أوه، مجرد عاشقٍ آخر. في هذه الحياة التي نعيشها لم يجعل الله مصائرنا في أيدي الآخرين، ولكنه منحنا ضَعْفَاً كافياً لنسلِّم مصائرنا لهم.

ـ سيدتي، هل كان حزنكِ صافياً أم مشوباً بالقهر؟

ـ لا حزن يأتي وحده.

ـ ولكن في قلبي جمرة، وهي لا تزال بين ذراعَي ذلك الأبله.

ـ حاول أن تنساها، كم هي الأحزان الأولى صغيرة.

قالت مس تنغل كلمتها الأخيرة وانتزعت سدّادة الدواء لتزحلق من العلبة حبةً واحدة، ثم تبتلعها بهدوء دون أن تشرب معها كأس ماء. لوهلة، ندمتُ أني أخبرتها عن محوري. صرتُ أسمّيكِ فيما بعد تلك الليلة هكذا، حتى أوقفتني سخرية ديار عندما صار يسمّيكِ دائماً: Ms.axis

لا أجد منها ثمناً كافياً لبوحي. ألا يتقنُ المسنّون غير إسداء النصائح؟ «حاول أن تنساها»، كم هي كلماتهم سهلة. ألم تسأل نفسها قبل أن تتكلم إذا ما كنتُ أريد أن أنساها أم لا؟

أنا لا أستلذُّ حزني، ولكن نسيان حبيبتي حزنٌ أكبر.

أستأذنها في الخروج وقد التحم العقربان عند الحادية عشرة إلا خمس دقائق، وأتركها تطفئ الأنوار، وأمضي.

خرجتُ من عندها وأنا أشعر بضيقٍ خانق. إنها طيبةٌ جداً. لا أشكُّ في ذلك. ولكني أنا المغرور بأحزاني، من يأبه لي ولها؟ لماذا أطالبُ الجميع بفهمي كما يفعل الأطفال؟ أ ليس من الأجدر أن أفهم نفسي أولاً قبل أن يفهمني الآخرون؟

وهمُ سقراط القديم «اعرف نفسك».

لو عاش حتى اليوم ما عرف نفسه.

أنفسنا، أوعية الزئبق التي نولد ونموت فيها. إننا نعيشُ مدفوعين

بغريزة الغرور. نظن أننا سنعرفها ذات يوم ٍقبل غيرنا.

خَلَقنا الله بشراً كي يفهم بعضنا بعضاً، فلا أحد يفهم نفسه.

لم أكن أرغب في العودة إلى شقتي. ما زالت أمامي ساعاتٌ قبل أن يزورني النوم، وقبل أن أتناول حبة دوائي كما فعلت مس تنغل، وآوي إلى فراشي. بقيتُ أمشي على ضفة المضيق الذي نقيم عليه أنا ومس تنغل. كان الشارع خالياً وأنا وحدي أدسُّ يديّ في جيوبي، وأمشي.

ضبابٌ كثيفٌ يكتنف دهاليزي الداخلية. كل وريدٍ عندي محشوٌ قلقاً، ويطرد دمه خارجاً.

أتوجَّسُ خوفاً من صمتِ المياه التي تُصغي إلى حفيفِ أفكاري، تلك التي تتحرَّكُ معي من أول الطريق، وتسقُطُ خلفي، فأمضي وأتركها. بعضُ الأفكارِ لا تستحقُّ إلا السقوط.

لو كتبت لكِ رسالة، وصلتكِ صباحاً، هل ستأبهين بها ؟

الرسائلُ التي لا تعرفُ كيف تدافع عن كبريائها أولى بها أن تبقى أوراقاً بيضاء، لأن في عالمنا الصغير هذا، مثل العالم الكبير، أزمة ورق.

يقولون: «تجاهل حاجتكَ إلى ما تفقد»، وأنا لا أعتقد أني أحتاج إلى الكتابة، ما دام الحزن راكداً، فشأنه ألا يُعكِّرَهُ ارتعاشُ الذاكرة.

***

تمرُّ الأيام على دهشةِ ابتدائنا، ونحن نبحثُ عن لقاءٍ تلو آخر. صار الشوق أكثر شقاوة، والحنين أكثر صخباً، ولذَّةُ مغافلةِ الجميع من أجلِ الحب كانت تسعدنا معاً. وكلما تركتكِ بعد أن نلتقي في مكانٍ عام، ضاعت في ذاكرتي ملامحكِ الجميلة، وصرتُ عاجزاً عن تذكُّرها متى أَجنّني الليل، وصَهَلَ الشوق، ورحلتُ مع هاتفكِ إلى فردوسِ الحب الأعلى.

أعجبُ كثيراً لبرود الذاكرة تلك الأيام. كنتُ أسحبُ غطائي ليلاً، أغطي وجهي من الأشباح المترائية، وأجتهدُ لأرسم وجهكِ مرةً أخرى في جفني فلا أستطيع. أنظرُ إليكِ كصورةٍ مغبّشةٍ بنقاط المطر، أما التفاصيل الطازجة فشيءٌ يرهقني ولا يأتي.

صباح الأول من يونيو منحتنِي باسم هذا الحب الوليد، أول قُبلةٍ في علاقتنا.

بكل حيائكِ المتمادي طبعتِها بسرعة على النُدبة التي خلَّفَتها شفرة الحلاقة في ذقني، لأشعر أن نَفَساً من أنفاسكِ تسرَّب إلى رئتي، ليورثني سُكْرَ هذا الصباح وعربدته.

شهران مرَّا بين اللقاء الأول والقبلة الأولى. لم أكن أعلم إذا كان هناك معدّلٌ ثابتٌ تأتي بعده القُبل الأولى في قصص العشاق، أو أنها لا تأتي أصلاً، ولكني شعرتُ أنَّ قُبلتنا تلك جاءت في وقتها.

لأول مرةٍ نلتقي في مكانٍ لا يرانا فيه أحد. اخترنا فندقنا هذا بعناية في قلب المدينة التي تحاصر عشقنا. وفكَّرتُ في ألف خدعة، وألفِ

طريقةٍ ألتوي بها على عيونهم. وأخيراً جلسنا معاً في غرفةٍ جميلة وحدنا بعد أن أرهقتنا اللقاءات المتوتّرة في الأماكن العامة.

جلستُ في انتظاركِ داخل الغرفة، وكل ثلاث ثوانٍ كنتُ أقفز أمام المرآة. أيتها الفضيَّة اللامعة التي تمنحنا كل يومٍ غرورنا أو إحباطنا، لا تخذليني أمام مها. ثم أعود لأتأمل الشارع الصاخب من الطابق السادس. تأخرتِ قليلاً على ميعادنا هذا. فهمتُ بعد أشهرٍ أنها عادةٌ شهيرةٌ من عاداتك، لا تكسرها إلا هواتف سالم إذا خفتِ استياءه.

تناهت إليَّ طرقاتكِ خافتةً وخائفة. فتحتُ لكِ بيدٍ ترتجف سعادةً ونشوة. جاءني وجهكِ الجميل، ابتسامتكِ الشقيَّة، تحيّتكِ الخجولة، شفتكِ البارزة، وجان بول بنفسه اعتصر من دمه عطركِ ذلك الصباح.

جلستُ معكِ مأخوذاً باقترابكِ مني إلى هذا الحد. اختلطت أصابعنا العشرون ببعضها واختلط ريقنا في الملعقة الوحيدة التي نتناولُ بها الآيسكريم معاً ونحن نتحدَّثُ عن كل شيء، كل شيء، بحماس طفلين يلتقيان بعد إجازةِ الصيف، في أول يومٍ دراسي.

أخيراً، توقفنا عن الكلام وبقينا في تأمُّلٍ عميقٍ لمساحتي الوجهين.

لماذا حاولتُ أن أكون أنا صاحب القبلة الأولى؟ لماذا يجبُ أن يتمادى الرجل أولاً؟ لماذا دائماً أنتنّ اللاتي تغرين، ونحن الذين نعصي؟

رفعتُ يدكِ بارتباك وأنا أهمُّ بتقبيلها. لم أكن أعرف كيف تُمسَكُ أيدي الإناث. قاومتني أنتِ بضعفٍ حييّ، وزادتكِ المقاومة الضعيفة إغراءً. انحنيتُ أخيراً لأول مرة، وزرعتُ قبلتي الأولى على ظهرِ كفكِ، مؤذناً ببداية لم أفكر في نهايتها.

بعد أن منحتكِ أنا ما يكفيكِ حرج الابتداء، قبَّلتِ بدوركِ جُرحَ ذقني.

لماذا كانت أولى قبلاتكِ لي فوق جرح؟

هل لأنكِ كنتِ تعرفين من قبل كم من الجراح سوف تتركين في جسدي؟ أم لأنكِ كنتِ تعرفين أنَّ هذا الجرح في ذقني كان بسببكِ أيضاً حتى لا أتأخر عليكِ؟ أم لأنكِ اشتهيت أن تطبعي شفتيكِ فوق دمي مباشرة، بعيداً عن حاجز الجلد؟

قبلةٌ فوق يدك، قبلةٌ فوق ذقني، بدايتان خجولتان لتمرّدٍ بلشفيٍّ ضخم. تاريخُ القبلاتِ هذا لن أنساه.

كم كانت شهيَّةً وهي تنزلُ عليَّ مثل طائرٍ مسحور، وتتركني معلّقاً بين الخرافات، متأرجحاً بين الأساطير.

لأول مرةٍ أفهمُ معنى أن أكون واحداً، فتبعثرني امرأةٌ حتى الفوضى..

ولأول مرةٍ أجرِّبُ الإحساسَ بالرضاء المطلق من الحياة..

ولأول مرةٍ أعرفُ كيف يمكن أن أشتعلَ، ولا أحترق..

وأتشقَّق، ولا أنكسر..

وأدخلَ في غيبوبةٍ، ولا أموت..

كنتِ مندفعةً وجريئة. وكنتُ هادئاً خجولاً. بيننا صباحٌ يُطِلُّ من شباكِ خلوة، وأريكةٌ تحملنا ولا تشعر بنا، ثم جاءت هذه القبلة، وتبدَّلت الأدوار، سكنتِ أنتِ مثل البحيرة، واندفعتُ أنا مثل الإعصار.

كم هو معقدٌ هذا الحب.

نحن لا ندركُ أيّ أوراقه تحملُ الشفرة السرّية التي تفتح الأبواب، ولا نعرفُ صفحة البدايةِ في كتابه الخالي من الترقيم، ولا ندري من أين يبدأ، وأين ينتهي.

تقبيلكِ مدهشٌ لدرجة أني كنتُ أبقي عينيَّ مفتوحتين حتى تحتضر القبلة، وبين موتٍ ما وميلادٍ جديد، كانت خصلاتُ شعركِ مترامية على ضفافِ الوجه، وكنتِ تقولين لي:

- قرأتُ يوماً: لا تثقي بمن يقبِّلكِ مفتوح العينين.

- لا تثقي بي إذن.

تأخذنا وهلةٌ من صمتٍ حنون، ثم تهمسين:

- ولكني أثق بك، ألست حبيبي؟

فكرتُ فيما بعد، إننا لا نثق بمن نحبهم دائماً، في الواقع نحن نتجاهل مسألة الثقة معهم تماماً.

كنتُ أؤمنُ أنه لا يوجد رجلٌ في الدنيا يمكن أن يشتهيكِ أكثر مني.

قررتُ لحظتها أن أقبّلكِ حتى نهاية هاتين الشفتين.

عقدتُ معهما حواراً طويلاً، لم أكن أجيده بادئ الأمر، ولكني تعلمتُ، وقررتُ بعد دقائق فقط أن أفتح مدرسةً أشرح فيها أن مجموع شفتيّ مع شفتيكِ ينتج أربع شفاهٍ، ودوخة..

وأن عناقنا المحموم يفرز أربع أذرعٍ، وظمأ..

وأن احتضان الأكفّ يترك عشرين إصبعاً، وحيرة..

وقلبين، ورئتين، وصدرين، ولسانين، وشهوة..

وانتحرنا حباً ذلك الصباح. تجرَّعنا كأس الرغبة حتى الثمالة. وأكلنا وشربنا وركضنا، ركضنا، ركضنا، ولم نتعب..

وبقي لنا العناق الطويل، الطويل..

لغةٌ غامضة يتكلمها كل ما يتماسُّ من جسدينا، وكل الأنفاس المفقودة من رئتينا، وكل النظراتِ التي أخفيتها عني حياءً، ونقشتُها أنا بالإزميل في قلبك.

الدهشة هي قطرةُ الحليب الأولى في فم أيِّ حبٍ وليد. وأنتِ أدهشتني هذا الصباح. كل انفعالاتكِ كانت حكاياتٍ قصيرة، وكل كلماتكِ كانت مواسم خصْب، ولمساتكِ كانت محاولاتِ طفلٍ على كرّاسته الأولى، وعيناكِ كانتا ثورةً فرنسيةً صغرى.

انسحقتُ تماماً تحت عجلاتِ روعتكِ ذلك الصباح. دختُ كثيراً مع أصابعكِ المتجاوزة، وشفتيكِ المرتجفتين، وكتفيكِ اللتين عادتا إليَّ مكشوفتين تماماً، عاريتين أمامي، بعد أن ظننتُهما بعيدتين كل البعد عن أن أراهما مرة أخرى.

سكَّنتِ كل شيء، وحرَّكتِ كل شيء، في طقسنا المتقلب تحت سقف الغرفة.

كم كنتِ تجيدين العزف على أعصابي حتى يصيبني الدوار. كم كنتِ تجيدين الرقص في المساحات الخالية، والأزقة المغلقة، والمناطق التي يُحظر فيها التجوال، ويمنع منها الاقتراب.

كم كنتِ رائعة في سكونٍ بعد ثورة، وهدوءٍ بعد انفعال، وحنانٍ بعد وحشية أنثوية عارمة.

أيُّ امرأةٍ تشعِلُ كل هذه الحرائق، وتبعَثُ كل هذه الثلوج، وتغيِّرُ الأوقات في مفكرة الليل والنهار، والروتين في حركاتِ المد والجزر، ثم ترتدي ملابسها ببساطة، وترحل!

حالما ركبتِ في السيارة عند الظهيرة، قلتِ لي عبر الهاتف وأنا ما أزال ألملم نفسي في الغرفة:

- ناصر.
- لبّيكِ يا حبيبتي.
- أشعر أني سعيدةٌ بك.
- وأنا أيضاً.
- وأحبك.
- ....!

أنا أيضاً أحبكِ أيتها الملاك الراحل.

لبستُ نظّارتي الشمسية استعداداً للخروج، كانت ياقتي البيضاء

تفضحُ بعض آثار حُمرتك، طويتها للداخل، وخرجت.

كنتُ أعلم أننا سنفعل هذا.

عندما تلتقي أرواحنا بهذا الجنون، فلن تقف أجسادنا بعيداً عن حفلة الحب هذه. يوماً ما لا بد لها أن تلتقي هي الأخرى لأن ذلك الميلان العنيف الذي نروي به جهة الروح الظمأى، لا بد أن تقابله أيضاً أجسادٌ تظمأ هي أيضاً من أول الطريق.

كم هي محيّرةٌ فعلاً سلالم الحب. دورانها يثير الدوخة. بدءاً كنتُ أتمنى أن أهاتفكِ، وهاتفتكِ. ثم تمنيتُ أن أراك، ورأيتك. ثم تمنيتُ أن أصافحكِ، وصافحتكِ. ثم تمنيتُ أن أقبِّلكِ، وقبَّلتكِ. ولم يتوقَّف هديرُ الأمنيات، هناك دائماً من يرفَعُ السقوف.

بكل مهارة، كُنَّا نُدخِلُ أيدينا في جيوبِ الزمن، لنسرِقَ منه ساعةً للحب، في مكانٍ آمن أو غير آمن، يحتضِنُ شوقنا المبعثر، ويُخفي خلفَ جُدرانه وسقوفه انفجاراً مكتوماً من الرغبة، لا يشعر به أحد.

التقينا غداً وبعد غد في الغرفة نفسِها من فندقنا الحنون. تسرقين ساعةً من ناديكِ الرياضي القريب، وتنزلين عندي هنا. لم نرحم ستارةً تبكي، ولا مصباحاً يشهق، فلم تكن ترحمنا هذه الأشياء عندما كنا نقف أمامها بائسين، ينحتُ الشوق عظامنا، ويصيِّرنا تماثيل باردة.

الآن، جاءت لحظةٌ أحتضنكِ فيها حتى يفقدَ السريرُ عقله، ويفغرَ الشبّاكُ فاه، وتندُبَ المرآة حظها، لأني قررتُ أن أنتقم من الأشياء، بقوة جسدك.

كل ما يدور في ذهني الآن هو أن أراكِ بقدرِ ما تسمَحُ به ظروفنا المغلقة، وقبل أن يأزف رحيلكِ القريب، هذا السقفُ الزمنيُّ المؤلم الذي أجبرني على الانحناء أوجع حبي كثيراً، لأنه كان آيلاً للسقوط، والأيام من أمامه تتلاشى بسرعة، وأنا تحته أنتظرُ لحظة الانهيار الموعودة.

ربما كنتُ أسعى تلك الأيام إلى أن أملَّ منكِ بالإصرار على رؤيتكِ كل يوم. ربما تصورتُ أن هذا هو البرُّ الآمن الوحيدُ الذي يمكن أن ألجأ إليه حين يعصِفُ بي فراقكِ ذات ليل. لم أعرف إذا ما كنتُ بهذا الشعور أحاول الانسحاب من حبكِ بجبنٍ وهو في أيامه الأولى، ولكنَّ كل الأشياء أثبتت لي يوماً بعد يوم كم كنت سخيفاً، وكم أكون دائماً سخيفاً عندما أحاولُ أن أرسم حدوداً لعلاقتي معكِ.

كنتُ من شدِّة الحب بحيث تغيَّرَ في قاموسي معنى الملل، وكنتِ أنتِ من شدَّةِ الروعة بحيث أبقيتِ عيوني معلّقةً في سقف انبهاري بكِ دائماً. لا تنزلين إلى مستوى الرتابة، فضلاً عن أن تصِلي إلى حدِّ الملل.

كم كنتُ أحتاج من ثلوج الدنيا حتى أطفئ شمعتكِ الساحرة؟ أنتِ المرأة التي تُطيلُ عليَّ النهار، حتى يبكي الليل، وتُطيلُ عليَّ الليل، حتى أُصبِح والشمسُ عاتبةٌ عليَّ كثيراً.

كل يومٍ كنتُ أعشقُ امرأةً جديدة، وأقبِّل امرأةً جديدة، وأغسِلُ نفسي على جسدِ امرأةٍ جديدة، لم تكن إلا أنتِ، وكأنما كانت تنزلُ

على جبينكِ كل ليلةٍ ألف نجمة، لا تعود في الليل التالي، وتنزلُ نجماتٌ جديدة.

ولكن أين أراكِ؟ مكاننا الآمن يتمرَّدُ علينا. أنتِ لا تستطيعين الخروج كل يوم، ولا كل يومين، ولا كل ثلاثة أيام، وأنا أشعرُ أنَّ العيون في الفندق توجَّسَت قليلاً من مرآنا معاً، فلم أغامر بكِ. مللنا اشتهاءنا الصامت في الأماكنِ العامةِ المحفوفةِ بالفضائح. أين يمكن أن أجلس مع حبيبتي في مدينةٍ كلها تخنقُ الحب وتحبسه في عروقنا؟

صرتُ ألتقطكِ وجلة من عند باب منزلكِ، وأهرُبُ معكِ خارج المدينة. نبقى وحيدين في متاهة الرمل والتراب. أترجَّلُ من السيارة، وآخذُ مكانكِ، وأتركك خلف مقودها في جذلكِ الطفولي. أتأملُ انبهاركِ البريء بحركةِ السيارة البطيئة، ويديكِ الجميلتين على المقود، وعينيكِ المعلقتين على الطريق المهجورة.

هل ستنسين يوماً أنني أول من علّمكِ القيادة في حياتك؟

كان وجهكِ فائقَ الجمال فعلاً، وأنا تذبحني خُصلة شعرٍ كانت تنام على كتفيكِ بهدوء. نترك الليل يتسلَّلُ فوقنا. توقفين السيارة بعيداً عن الطريق وأديرُ بيدي وجهكِ إلى ناحيتي. ألتقطُ شفتيكِ تحت الظلام المُسدَل، وأتركُ أنفاسكِ الدافئة تتشعَّبُ في رئتي، وأحتضنكِ بقوة خلف المدينة التي تبدو أنوارها على بعد أميال.

تنامُ يدكِ اليسرى على رجلي في طريق العودة، ويأخذنا

السكوت، ونتبادل النظرات كلما سمحت لي قيادتي بذلك، ونظلُّ هائمين طوال الطريق الذي نتمنى ألا ينتهي ما دام في عينيكِ هذا الشعاعُ القَمَريُّ الحنون، وما دام صديقنا، لوينلي ريتشي، يهمس عبر المسجّل بروعة في غنائه الحزين.

Hello

Is it me you're looking for..

I can see it in your eyes..

I can see it in your smile..

You're all I've ever wanted,

And my arms are open wide..

أقفُ عند باب منزلكِ. تنزلقين من جواري بحذر. تمشين خطواتٍ خائفة. تختفين خلف الباب، وأرحل.

سمعتُ من أخي عُمر ذات يوم أن جاراً لأحد أصدقائه ما زالت دماء عاشق ابنته قانيةً على عتبة المنزل منذ أن أوصلها إلى بيتها للمرة الأخيرة. أرتعشُ من تصور المشهد وأنا ألقي نظرةً على المرآة الخلفية لأتأكد أن أحداً لا يراني. لم تكن ردَّة فعل أهلكِ لتصل إلى هذا الحد طبعاً، ولكني كنتُ أخشى أن يقتلونا حرماناً.

بين شتاءين، أبحثُ عن فصلٍ آخر ألقاكِ فيه. أنتِ التي صار لقاؤكِ من ضروراتِ شعوري بالأمان والسكينة. أعجبُ كيف تكون لقاءاتنا التي تغصُّ بالترقُّبِ والقلق بواعثَ طمأنينة في قلبي

الهائم، وكيف تصيرُ عيناكِ اللتان تجسَّان الطريقَ ألفَ مرةٍ في كل ميلٍ تقطعه بنا السيارة واحتَي هدوءٍ ألجأ إليهما دون خوفٍ من الآخرين.

***

تفهم مس تنغل بصعوبة كيف يمكن أن يعيش الحب محاصراً في مدينةٍ ما، رغم أنها قالت لي ذات مرة: «بعض أنواع الطيور لا تتناسل في الأقفاص المغلقة». كنت أفكِّرُ في قولها هذه دائماً، تُرى لو تسنَّى للزوجين أن يطيرا قليلاً خارج القفص، هل ينسلان؟ فكرتُ في ذلك لأني شعرتُ أن حريةً كهذه، قياساً على ما أنا فيه، قد تبدو ترفاً مبالغاً في تخيّله. لشدَّ ما أتمنى لو يجمعني وإياك قفصٌ ما فحسب!

كانت تسألني بليل: «هل كنت تراها كل يوم؟»، وكنتُ أجيبُ بحرجٍ أجِدُه في نفسي: «ربما»، لكنني لا أتمادى في الكذب، لأن هذه العجوز كانت تعرِفُ حقاً كيف تحنو على إجاباتي الحائرة، فتسكُتُ عنها بعض الوقت، حتى تنهمر بين يديها كل الأمطار السرّية في ليلةٍ ما.

كنتُ أعلم أنَّ لقاءاتنا أكثر بكثير من المعدّل الذي يمكن أن يلتقي به شابٌ فتاته في مدينةٍ مثل الرياض، ولكن ظروفنا كانت سخيَّةً جداً، وتمنحنا دائماً المكان والزمان بكل طيبةٍ وتواطؤ.

أحاول أن أرسم صورةً مفهومةً لشكل الحب في بلادنا أضعها أمام مس تنغل . .

كم هو الحب في الرياض عنيف، لأنه مدفوعٌ بالثورة على كبتٍ متوارث، وكم هو خائف أيضاً، لأن مصير الثورات التي لا تنجح هو الإعدام.

بين عنفه وخوفه، ثمة فتيةٌ وفتيات يحاولون فرض لغة جيلهم. يتقدمون كلما آذاهم الكبار، ويتراجعون كلما أحسوا أنهم ساروا خطوات طويلة وحدهم وشعروا بالقلق.

ويُزَيَّفُ الحب كثيراً هناك. كل شعورٍ مبهمٍ يؤوَّلُ حباً. الشوق حب، والرغبة حب، والشهوة حب، والتمرد حب، وكلها مشاعر منفصلة عن بعضها، تأتي وحدها وتختفي وحدها أيضاً، ولكن ثوب التبرير الداخلي الأكثر اتساعاً أمام الضمير، هو الحب.

الدونجوانية هاجس الكثيرين، وبعضهم يزحفُ نحو رومانسية وحيدة ولا يعود بشيء. تتصارع النظريتان في مدينة الأسرار. امرأة واحدة لا تكفي، وأخيراً، رجلٌ واحدٌ لا يكفي. ولكن دائماً، هناك امرأةٌ ورجلٌ يكفي أحدهما الآخر لو سمح لهما الآخرون بذلك.

هل قلتُ دون جوان؟

يا لانزلاقات الذاكرة المؤلمة.

إنه اسم حسن في موقع الإنترنت الذي التقيتما فيه...

أرأيتِ كيف يتركُ بعض الرجال حُفرهم العميقة في طريق

الآخرين؟ وكيف تدهن بعض النساء طريقنا بالحزن حتى ننزلق فيها بدون رحمة؟

فكرتُ أن أبحثَ عنه بهذا الاسم يوماً ما. لا بد أن أجد سلفي. لا بد أن أجلس معه على مقعد الحرمان المشترك الذي صنعته لنا معاً.

أريدُ أن أعلم فقط هل شُفي منك؟ أريدُ أن أعلم إذا ما كان من الممكن الشفاء من امرأةٍ مثلك. فما دمنا مصابيَنِ بالمرض نفسه، فمن المفيد لي حتماً أن أطَّلع على ملفّه الصحي معك.

ولكن حتى لو تماثل هو للشفاء فعلاً، فهذا لا يعني أن أشفى أنا بالضرورة.

إن بُنية حبِّه أقوى، وأنا الذي هدَّ حبُّكِ عظامي.

وخبرتُه في الحب أعمق، هو الذي استطاع أن يقي نفسه منكِ بالانسحاب.

كما أنه لم يلبث معكِ إلا ساعاتٍ، وأنا احترقتُ بكِ أربعة عشر شهراً كاملة، حتى تمكَّنت عدواكِ مني تماماً.

هل سيعلّمني حسن إذا التقيته كيف ألقي امرأةً وراء ظهري قبل أن تفعل هي؟ هل سيعلّمني كيف أبقي جراثيم الحب بعيداً عن جسد كبريائي؟ هل سيفلحُ ذلك معي أم أنّي تأخرتُ كثيراً؟

هل فكرتِ يوماً ما أن لعبكِ مع الرجال كان خطيراً جداً؟

المرأة كوكبٌ رشيق، له القدرة على تغيير مداره بسهولة، أما

الرجل فأصعبُ الحوادث الكونية لا تستطيع زحزحته من مداره أحياناً.

لهذا كان تغيير أقدار الرجال صعباً، وعواقبه وخيمة أحياناً.

ليتكِ غيَّرتِ أقداري فحسب، أشعر أنَّكِ تصرفتِ بي مثل يويو، فتأرجحت حياتي كلها على إصبعٍ واحدٍ من أصابع أنوثتك.

يأبى انفعالكِ المتمرد أن تبقي بعيدةً عن صفحات الرجولة الممنوعة. لم تقفي أمام الكتاب صامتةً حتى يفتحه لكِ زوجٌ ما. لم تجعلكِ النظرات الصارمة والوجوه العابسة تحجمين عن التطفل عليه. رحتِ تختلسين أزماناً من الحياة وتتسرّبين في أوراقه قصةً بعد قصة، وتمرّين على الصفحاتِ رجلاً بعد رجل.

وكان أسهل شيء عندكِ.. تقليبُ الصفحات!

لأن فضول الصفحة الجديدة، كان مغرياً حتى ينسيكِ دائماً صرخات الصفحة التي قبلها.

لم تعترض حتى الآن أي صفحةٍ على ما سرقته من سطورها. لم تكن لتشكوكِ أمام الملأ. لم يكن رجلٌ ليفضح نفسه فيعلم الجميع أن امرأةً تخلت عنه.

وعندما تملّين لعبة التقليب تفتحين صفحةً جديدة عنوانها سالم، وهو يظنُّ أنه صفحتكِ الأولى فيتباهى في استعراض رجولته، لا يدري أنكِ قديمةٌ جداً في هذا الكتاب.

أتساءل إذا ما كانت كل الصفحات التي مضت ستلتزم الصمت، وتتركك ِتمرّين عليها مرور الكرام أو..

مرور الإناث.

***

تتحوَّلُ مس تنغل إلى ملاذٍ لي من العيش وحيداً في فانكوفر. صرتُ أوافيها كل مساء بعد أن اكتشفتُ أنني إن لم آت، فلن يأتي أحد. وحيدةٌ هي منذ أن مات زوجها، ولستُ أدري كيف اخترقت وحدتها كل هذه السنوات وظلّت حية.

خَرَفَتُ نخيلَ انطوائي سريعاً. وبعد أسابيعَ من الألفة، اكتشفتُ أنَّ انزعاجي الذي كان في ليلتي الأولى عندها لم يكن إلا غرور رجلٍ حزين. كانت تفهمني بينما كنتُ أنا الذي لم أفهم أنها تمارِسُ عليَّ طبّاً أثناء تشخيصها. بدأتُ أرتاحُ للمكوث معها طويلاً. قد لا نتكلم. يكفي أن أتابع معها برامج التلفاز قليلاً لأشعر بدفء الأسرة التي أفقد. كانت تحذِّرني من البقاء وحيداً إذا كانت هي موجودة. تقصُّ أجنحة حيائي بلطفٍ وذكاء حتى صرتُ أجيء بيتها وكأنه بيتي.

بيتها الصغير لم يفقد قطّ طابعه الكلاسيكي الأنيق. نصفُ الجدار نافذةٌ تُطلُّ على المضيقِ الصغير، تدقُّها السناجب كل صباح. رأيتُ ذلك بنفسي وأدهشني. كان السنجابُ يحمِلُ معه حبة جوز أو حصاة صغيرة أو يكتفي بأسنانه، فيطرُقُ بها زُجاج النافذة طرقاً خفيفاً حتى

تخرج إليهم مس تنغل بكرسيّها المتحرّك، وفي يديها غذاؤه من الخبز وبقايا الطعام.

ألا تكفي كل هذه السنوات الطويلة من الجيرة لتغيِّر مس تنغل سلوك السناجب مثلما غيَّرت مسارات رزقها؟ كأنها كانت تشتري إطلالة هذه المخلوقات الصغيرة ببعض الغذاء، كما تشتري مني دموعي وحكاياتي الصغيرة، ببعض الدفء.

منذ أن بدأتُ أبكي أمامها دون خجل، أنا الذي لم أتعوَّد البكاء أصلاً منذ طفولتي، كانت تعتني حقاً بكل دمعة. أحياناً لم تكن تواسيني بقدر ما كانت تمنَحُ دموعي مكاناً يناسِبُ حضورها ومناخاً يجعلها تنزِلُ دون مواربة. ربما كانت لا تُشعِرُني أني أتجاوزُ كثيراً حدودَ علاقتي بها عندما أبكي، وتجعله يبدو انفعالاً طبيعياً، بعيداً عن الغرابة.

نصفُ الجدار الآخر كان مدفأة تصْطَفُّ إلى جوارها حواملُ معدنيةٌ مطلية تحمِلُ أكوامَ الخشب الذي تشتريه مس تنغل من بعض الباعة الجوّالين أو تطلبهُ أحياناً بالهاتف. وأمامها كانت أريكتان لم تجلس عليهما قط، لأن الكرسي المتحرك كان كافياً لجسدها الضئيل منذ ثلاثة عقود. هاتان الأريكتان هما لطالبي الدفء من أمثالي. أولئك الذين يزحفُ البرد في أوصالهم ويحتلُّ أنسجتهم وعظامهم، وتهبُّ العواصف في صدورهم، ويتمادى ربوهم في رئاتهم كل ليلةٍ يقضونها بعيداً عن الوطن، أو بعيداً عن الحب، فلا يوجد فرق.

كانت لي أنا وديار.

لن أكابر. كانت مس تنغل قد بَلَغَت من صدري ما لم يبلغه صديقٌ أو قلم، ولم تكن خبيرةً في ذلك الشأن بقدر ما رأيتها حنونةً فيه. تفهمُ كيف تجعلُ من عينيها اللتين تحيطُ بهما التجاعيد منتجعي احتواءٍ وأمان. لها بساطتها في فهم الأمور، وأحياناً عمقها في فهم ما وراءها. وهذا كثيراً ما يجعلني أستسلمُ لها سريعاً، وأستنكفُ من تحدّيها دون طائل، أنا الذي أجتازُ فعلاً أضعف أيام حياتي، في مدينةٍ باردةٍ مثل فانكوفر.

لم تبدُ لي مس تنغل من صنف العجائز اللواتي يبحثن عن الحكايات فحسب. بل بدت من أولئك اللواتي يزرعن الدنيا خيراً، قبل أن يرحلن عنها.

أتذكَّرُ كيف كنتِ أنتِ وحدكِ تملكين المفاتيح السرّية لهذا القلب، وهذا أمرٌ لا يتضمَّنه الحب دائماً. كثيراً ما نحب أشخاصاً نخفي عنهم الكثير، ولكني كنتُ إذا أخفيتُ عنكِ أشياء لا ألبث أن أذبحها بقسوة، ثم أحملها بين يديَّ إليك، وهي غارقةٌ في دمائها وإثمها. ذلك لأني قررتُ منذ يوم الحب الأول أن لا أخفي عنكِ شيئاً. فكل ما نخفيه في آخر المطاف سيتحوَّلُ إلى ندباتٍ في وجه الحب، ولم أكن أريدُ له أن يتشوَّه بها. الآن أنتِ بعيدةٌ جداً. رحلتِ عني وفي ذاكرتكِ كتابٌ كبير، أمليتُه عليكِ بأمانة عاشق.

مس تنغل تريد أن تفهم قليلاً كيف يُمكن أن يُحاصر الحب أحياناً.

معنى أن أعشق امرأةً لا أراها إلا لماماً بين الأسابيع . لم أكن أخجَلُ من وطني ولكني كنتُ أدركُ ما وراء سؤالها. ربما ظنَّت أن ما أعانيه هو حالةٌ من الظمأ ليس إلا ، والكثيرُ من العشاق لا يكون عشقهم أكثر من حالةِ ظمأ فقط ، وينطفئ عشقهم هذا حالما يرتوون من عيون حبيباتهم طويلاً. كأنَّ حرمانهم منهنَّ يؤجِّجُ العشقَ وينفَخُ فيه ليس أكثر ، فلمَّا نزل القَطْر ، خمدت النار .

هل هو الجنسُ إذن محرِّكُ الحب ، كما هو محرِّك الحياة؟

سيؤذيني فرويد كثيراً لو حَشَرَ نفسه في حبي هذا. سيزرعُ التناقضاتِ في عمقِ اليقين حتى ينصدع . وأنا لستُ بحاجةٍ إلى جدلٍ يخرجني من كهف الحب .

عبر أشهر ، جرَّبتُ الجنس معكِ وما جفَّ من حبي قطرةٌ واحدةٌ. وحتى قبل أيامٍ معدودةٍ من زواجكِ كان يرتوي أحدنا من الآخر ، وكان فرويد معلّقاً على قوائم سريركِ بحبلين ، مصلوباً على فقر نظريته.

سألتكِ يوماً هذا السؤال ، في بداياتِ اكتشاف أحدنا للآخر:

هل تظنين أن حبنا يتأثرُ بالجنس؟

أخذكِ الحياء قليلاً ، أجبتِ وفي كلماتكِ التواءُ الحروف في فم طفلةٍ خجولة:

-لستُ أدري ، ولكن ..

-لكن ماذا؟

- أشعرُ أنه يُحدث فرقاً.

أنا كنتُ أؤمن بذلك أيضاً، أو أني آمنتُ به أثناء حبنا. لأن الجنس الذي يحفُّه الحب ليس جوعاً، إنما هو نداءٌ جسديٌ يحاول أن يشاركَ في حديث الأرواح.

ولكن ماذا عن ذنوبنا؟

هذه الصفحة الغائبة في كتاب الضمير. لماذا لا يحرقني الذنب وأنا أشرب منكِ إلى هذا الحد؟ لماذا يبدو ما نقوم به طبيعياً جداً كلقاء الأزواج؟

صدّقيني فكرتُ طويلاً في هذه النكسة التي سبَّبَها حبكِ في مبادئي، حتى شعور الذنب لم يكن يعتريني.

كنتُ أستغفر الله خِفيةً منكِ كلما انتهى التحامنا. لم يكن يؤرِّقني إلا أن يعاقبني على عدم تعففي عنكِ، بحرماني منكِ.

حتى معاييرُ العقوبات اختلفت.

أبقى في مرافعة الضمير الذي ربَّتهُ فيَّ أمي منذ الطفولة بحذرٍ ديني واع، وأتعلَّلُ بأنكِ راحلةٌ يوماً ما، فليس عندي الإصرار على المعصية، وأتعلَّل بأني لم آل جهداً في الزواج منكِ ولكنها الأقدار، وأتعلَّل أن مقامي فيكِ يقف قبل الحدود الأخيرة للمعصية بحكم عذريتكِ. أتعلّل وأتعلَّل بالكثير مما ألقيه أخيراً خلف ظهري، وأسجد لله سجداتٍ حائرة كلما خرجتُ منكِ، لعله يغفر لي.

سأتجاوز بعينيّ الآيات الأولى من سورة النور. ستجرحني يوماً ما

في دفاتر القوانين التي أمليتها على نفسي قديماً والاستقامة التي اعوجَّت فيَّ وأخشى ألا يقيمها الاستغفار، والحسُّ الدقيق بين جنبيّ الذي يتمزَّقُ بين سحر حبكِ وآياتِ موسى.

لن تفهمني مس تنغل في هذا. هي أنجبت طفلها الوحيد قبل أن تتزوج من أبيه، فإذا بإرادة الله تحرمها منهما معاً، فيقضي زوجها تحت أنقاض مبناه، وتمنعها الإعاقة من حقِّ حضانة ابنها فيُودَعُ داراً عامة لرعاية الأطفال، حتى كبر.

الفصل الرابع

قال:

- دعْ عنك الجلوس على البحر. منذ سبع سنوات وهو لا يظنُّني إلا جزءاً ناتئاً له سِمة ما يبرز من الشاطئ الذي يقيئُ عليه منذ القدم.

ستدركُ بعد حين أن آخر ما يمكن أن تحترمه الأشياءُ الأخرى على الكوكب، هم البشر.

كان مساءً ينتظِرُ وخزةَ الليلِ الأولى. ذوت الشمسُ قليلاً وانزوت دافئةً في آخر الأفق. كنا في ذلك الوقت من المساء الذي نشعُرُ فيه برغبةٍ في البكاء لا نعرف لها سبباً، عندما تأخذ الشمسُ طريقَها ذليلةً نحو مغربها.

تلك التي تحقِنُ فينا الحياةَ منذ الصباح، هاهي تحمِلُ حقائبها لتَشْرُدَ في الكون.

دائماً أكرهُ الغروب لأني أراه تآمراً على النور. يقف البشر أمامه

عاجزين كل احتضارِ يوم. إحباطٌ كونيٌ متكرِّر يبعَثُ في أجسادنا الضعف مثلما يبعَثُ في الأفق الظلام.

كان دِيار يتكلمُ بصوتٍ خفيض، وسيجارته تتأرجحُ في فمه، وعيناه منتصبتان على الأفق، منغلقتان تقريباً إلا من شِقٍّ صغير ينظُرُ من خلاله. يمرُّ بنا كيسٌ ورقيٌّ صغير تتقاذفه الريح. ينتبه ديار، ويسحبُ نفساً من سيجارته، ثم يتكلم من بين الدخان المندفع مع هواء البحر.

- تأمّل هذا الكيس يا صديقي. اتبعه ببصركَ لدقائق تره ينسحِبُ على تراب الأرض، يرتفع أمتاراً، ثم يهوي. ينتفخ بالهواء، ثم تُفرِغه الريح من كل شيء، فتلتصقُ أطرافه ببعضها ويطيرُ إلى مكانٍ آخر. منذ الصباح وهو يجاهِدُ عذابه هذا. صباحه الأسوأ منذ أخرجته آلته. تخيَّل ضعفه وهوانه وهو لا يملك حتى القدرة على السكون. تخيَّل أنتَ أن تفقد يوماً ما كل شيء، حتى قدرتك على الموت.

أتأمَّلُ الكيس معه بدهشة. أتذكَّر فيلماً فيه شيءٌ كهذا ربما رأيتُه معكِ. ولو كنتُ أعلمُ أنَّ ذاكرةَ الأفلام التي رأيتُها في غرفتكِ طوال سنة ستؤلمني فيما بعد ما رأيتُ معكِ أيَّ فيلم.

ينفض دِيار دخان سيجارته، ويهمس في ذهولي ببطءٍ مخيف:

- ذات يوم ستكون مثله، فاترك البحر.

يرحل الكيسُ بعيداً، وتنطفئ الشمس وسيجارةُ ديار معها في منفضة البحر الضخمة. تدهمني غربةٌ شديدة، فأطوي قدميَّ،

وأضمُّهما إلى صدري بقوة، وأسند ذقني إلى ركبتيَّ، ويخرج من عينيَّ نورسٌ قَلِق.

تركتُ ديار يتكلم وقررتُ أن أتكئ على كلامه أياً كان. ما دمتُ لا أملكُ في داخلي كلمةً يمكنها أن تنتصِبَ واقفةً في وجه الريحِ التي تتربص بي بعد أن أوجعتِ الكيس. سأصمتُ قليلاً، وسيقول:

- قضيتُ خمس سنواتٍ منذ أتيت وأنا أسلِّمُ نفسي لأشياءَ أخرى، وكل ما كنتُ أؤمن به أنني في آخر المطاف شيء مثلها، ولا بد أن ينفعل أحدنا مع الآخر لنشكِّل لنا حياة. ولما كنتُ أشعُرُ أنها أقدمُ مني في المكان فقد تركتُ لها كل شيء، وبقيتُ تحت رحمتها. تحرِّكني وتتحرَّك داخلي، وأنا أعيدُ لها زمامي كلما انفَلَتَ من عِقاله في لحظةِ تمرُّد.

فهمتُ، بعد سنوات، أنها لم تكن تشعُرُ بي في مداراتها اليومية؛ أشياءُ لصيقةٌ جداً بي. البحر هنا، والثلج هناك. الأرصفةُ التي تمشي ونحن واقفون، مقود السيارة الذي يُشكِّلُ الطريق، شرفةُ المنزل التي تغرُبُ عن الشمس، ملابسي التي تبتلُّ فوقها السماء، وأنا أيضاً لم أكن أشعُرُ بنفسي.

وأنا أيضاً لم أكن أشعر بنفسي مع ديار، كانت أعصابي ترتجفُ في داخلي. أشعلنا سيجارتين معاً هذه المرة، وانسَحَبَ الدخانُ إلى رئتيه بقوة، وظلَّت لفافتي تأكلها النار على مهل. لم أكن أستعجِلُ موتها. ربما كرهتُ أن أسلِّم للريح ضحيةً أخرى.

قلتُ له بهدوءٍ قَلِق:

- لن تتركَ الأشياءُ واجباتها الكونية من أجلنا يا ديار.

- أدركتُ هذا متأخراً للأسف، وبقيتُ لسنتين أهربُ من وجهٍ لا أراه، ولكني أظنه يطاردني منذ لفظني العراق، حاولتُ أن أستعيد نفسي من هذه الأشياء، ولكنَّها كانت تجهلُ أين تَرَكتني آخر مرة.

وقفنا لنمشي. سبقني هو بخطوات، ووقفتُ أنا لأتأمل قامته من الخلف.

هذا الصاري الملقى هنا منذ انتفض الجوع. كم من الأعاصير تقاذفته موجةً بعد موجة حتى وصل إلى هذا الشاطئ؟ وكم من صهواتِ الحزن كان عليه أن يمتطي حتى يقف هنا يوماً ما؟

مشيتُ معه. ربما كنتُ أحتاج إلى ذاكرة أخرى وبلد آخر، أنا الذي التحفتُ بالغربة قبل أن يفقد قلبي حزنه، وقبل أن أجفَّ في صحراء بلادي. قررتُ أن أركُمُ كلماتي على بعضها قبل أن يستفحِلَ الصمتُ في جسدي.

يقول:

- صار حزنكم أيضاً ترفاً تستمتعون به، كأنك لم تفارِقْ وطنك يوماً وأنت تعلم أنك لا تقدر أن تعود إليه. ستحملك الريحُ بعيداً قبل أن تجرِّب حدَّاً من الألم، وقَدْراً من البرد، يُعلِّمك كيف تنسى هجرتك المترفة هذه وتعود إلى وطنك.

في عينيه ثمَّة عطف، ولكنَّ كلماته قاسية. تعوَّدتُ عليها قليلاً لأن

هذا ليس هجومه الأول. التقينا عدة مرات في مقهى كبير في شارع روبسون في فانكوفر، وفي كل مرةٍ كانت تهاجمني عيناه، حتى تعارفنا، فاتخذ لهجومه أسلحةً أخرى.

كان عربياً بنظراته. يتوجَّسُ الحذر ويغلِّفه بحفاوةٍ تشبه التحدي، وكان لا يحتاجُ إلى أكثر من نظراتي ليفهم أني وحيد، أجلسُ في هذا المقهى لأكتب درساً أو أنجز عملاً، هارباً من شقتي التي تُلبِسُني ثوب الوحدة، لاجئاً إلى من لا أعرفهم، ولا يعرفونني، ولكني أرى فيهم مجتمعاً بشرياً يبعثُ حدّاً أدنى من الأمان على الأقل.

كنتُ أتأمله وهو يفرغ أكياس السكّر في قهوته، ثم يحرِّكها ببرود، ويحمِلُ الكوب بين يديه، وتنقبض ملامحه وهو يرشِفُ رشفةً كبيرة، ثم يترك الفنجان المنهك، ويشعل سيجارته ويعتدل، ليكسر نظرتي البلهاء.

يبدو صلباً. وأنا فقدتُ هذه الحالة الفيزيائية منذ أتيت. عينه اليسرى تنكسر قليلاً لتترك في نظرته ازدواجاً ما يظهر أكثر وضوحاً إذا نظر إلى ما هو أدنى، مثلي مثلاً. وسامته مُرْهَقَةٌ جداً، بذقنه التي لم تحُلَق منذ أيام، وخُصلاتِ شعره الكثيف المتناثرة على جبينه، وشفتيه السمراوين من أثر التبغ.

ذلك اليوم، شعرتُ أنَّ معركةَ النظراتِ ليست في صالحي. هربتُ من تحدِّيه وتركتُ مكاني ذاك، وعُدْتُ في المساء التالي لأجده في المكان نفسه، والهيئة نفسها التي تركتُهُ فيها البارحة، كأنه

نام هنا. شعرتُ تلك اللحظة أني بهيئتي الجديدة التي أتيتُ بها، والطاولة الأخرى التي اخترتها أبعد من طاولة الأمس قليلاً، أبدو نشازاً في ثبات اللوحة.

مساءاتٌ التقينا فيها دون أن نعرف بعضنا. ألفتُ ملامحه ودخانَ سجائره ونظراتِه القاطعة، ولهجته العراقية التي يرحِّبُ بها بصديقٍ عربيٍّ عابر.

وعربُ فانكوفر قليلون. بخلاف المدن الشرقية من كندا التي تغصُّ باللبنانيين المهاجرين، والسوريين، والفلسطينيين، حتى صار لحضورهم أثرٌ شاميٌّ وجبليٌّ بارزٌ في مونتريال وتورنتو و أتوا وغيرها من مدن الشرق.

لم أعد أدري في هذا الزمان من الذي ضُربت عليه الذّلة والمسكنة فعلاً. لا نريد أن يكون لنا أثرٌ بارزٌ في بلادٍ غريبة، نريد أوطاناً لا يطردنا منها أحد فحسب.

كل إنسان عربي يطأ لأول مرة هذه الأرض مهاجراً من وطنه إنما يؤرّخ لظلمٍ ما.

كم من المحاكم نحتاج حتى نعيد كل مهاجرٍ إلى وطنه؟ وكم من العمر سيكفيهم انتظاراً لهذه القضايا الأبدية؟

هو ديار، متظلِّمٌ آخر في المنفى.

ذلك اليوم، تجاهلتُ وجوده أمامي في المقهى، وأسندتُ رأسي إلى يديَّ الملتقيتين بزاويةٍ حادّة عند طرفَي جبيني، ضاغطاً على

أعصابِ العين، وغارقاً في فوضى الطاولة.

بعد أن رفعت رأسي كان لا بد أن أنتظر قليلاً حتى تستردَّ عيناي القدرة على الإبصار. أثناء ذلك، سحب هو الكرسيَّ المقابل وجلس أمامي قبل أن أفيق من إغماءتي الصغيرة.

- دِيار، من بغداد.

- ناصر، من الرياض.

إنه مثلي، يشعر أن انتماءه إلى مدينة أشملُ من انتمائه إلى وطن.

***

تحدَّثنا طويلاً، وشتمنا كثيراً، كثيراً..

الشيء الوحيد الذي عجزت عن قمعِه كلُّ الأنظمة العربية تقريباً هو ألسِنة مواطنيها، ولو زرعوا المقاهي رجالاً، ولو جعلوا الكراسي والطاولات نفسها جواسيس على روّادها، لبقيت سخريتهم أكثر المسكّناتِ الشعبية تداولاً.

عندما يلتقي الغرباء قلّما يتحدثون عن غير الوطن. إنهم يتبادلون الجراح خفيةً، ويستعيدونها عند التفرق، حتى يلتقوا مرةً أخرى.

المدهش أن جراحاتِ الغربة حجمُها ثابت. ربما كان أفضل ما تفعله الغربة بنا أنها توقف تمدد الجرح. أما الشفاء، فمعضلةٌ مستحيلة.

والمدهش أيضاً أن جراحاتِ الغربة هي الجراح الوحيدة في

الحياة التي يمكن أن يرثها الأبناء من آبائهم دون أن تندرج تحت قوانين الوراثة. لن ينسوا أبداً أنهم منفيون، مهاجرون، هم الذين لم يروا سماء بلادهم أصلاً، ولا وطئوا ترابها.

كيف ورثوا المأساة؟ إنها حتماً قوانين الحزن الوراثية التي لم يضعها مندل.

رغم هذا لم أكن متأكداً إذا ما كان ديار يستطيعُ أن يفهَمَ حزني، غير أني اجتهدت منذ البداية أن أجعل هذا الفهم معقداً قدر استطاعتي، لأنه كان قاسياً جداً في انتقاد مشاعري، متسرِّعاً في أيِّ حكمٍ يُطلقه، وقاطعاً فيه لا يتراجع، ولم أكن أجد في نفسي الرغبة في جداله، وتحدِّي قناعاته.

كان ثورياً بعض الشيء، بل كل الشيء، من أولئك الذين نفكِّر أحياناً قبل أن ندخل معهم في معارك صغيرة.

قال لي مرةً قبل أن يقوم:

- لا تكن يائساً كرجل، كُن طموحاً كامرأة.

لم أفهم لماذا يصرّ على أن تكون كلماته قاطعةً إلى هذا الحد؟ لماذا يملأ الجُمل بأفعال الأمر، وحروف النهي، ويتحاشى حروف العلّة ما استطاع، ثم يطلِقُها ساخرة بعض الشيء؟ لو أن رجلاً غيري هو الذي تكلّم معه لجادله طويلاً، ولو أني صادفته قبل هذا الزمن لكنتُ معه على غير ما أنا عليه الآن من ركونٍ وهدوء.

جبروتُ لسانه يُعجزني كثيراً، وأنا لساني فقد العديد من مهاراته

الحوارية لطول ما احترف الصمت، ولم يكن لي بدٌّ من ذلك.

ربما نسيتُ الجدال العربي في جملةِ ما ضيَّعتِ الغربة من مآثري العربية الأصيلة، ولكن غربته هو كانت أولى بذلك وقد طالت سبع سنوات. كان رجلاً يُعجِزني ببساطة في تكلّمه. أطلبُ أنا كوبَ ماء في عشر كلمات لشدة توتّري، بينما يختصِرُ هو حياته كلها بجملةٍ واحدة..

- في الشرق وطنٌ يحترق، وأنا بعض هشيمه المتطاير.

يدي تحملُ له كوبَ شاي وترتعشُ في زلزال نبرته، ويلجمني السؤال: كم من الجمر خلَّفه هذا الرجل وراءه في وطنه ذاك؟

رُبع قرنٍ والعراقُ يحترق.. ولا تفنيه النيران! هذا المارد السومريُّ القديم. إنها تأكل طُغاته لتُنْبِتَ الأرضُ غيرهم، ويموتُ الناسُ ثورةً بعد ثورة، وحاكماً بعد حاكم، ويدفعُ الشعبُ ثمنَ شاطئٍ مليوناً من أبنائه، ليتنازل عنه الكبير بعد سنوات قربان سلام، ثم يبدأ موتٌ آخر.

قال ديار..

- صارت بغداد مدينةً تعبُدُ الموت وتقدِّم إليه كل يوم قرابينها من الأطفال والثائرين. في الشوارع كلابٌ كثيرة. ودجلة ما زال صامتاً حتى الآن، والفراتُ الذي عرفناه ثائراً أصبح جاسوساً للنظام.

ديار يتنهَّدُ لأول مرةٍ منذ عرفته ثم يكمل حديثه:

- دكَّتنا ثلاثون دولة. لم يجتمع في تاريخ البشرية هذا العدد من

الأمم على أمّةٍ واحدة. حتى الحروب الصليبية كانت أكثر اعتدالاً من هذا الإسرافِ الحربي. مات في نيرانهم من مات. أما من نجا فلم يَنْجُ من وطأة الجوع والمرض.

أعادني ديار إلى الوراء.

كانت حربُ الخليج حربَ طفولتي. استيقظتُ صباح الخميس وأنا أحاول أن أفهم بمنطق الثانية عشرة أنَّ دولة أكلت دولة، وهي الآن في طور المضغ. كنتُ أراوحُ النظرات في وجوه الكبار المستنكرة المندهشة، وأحاول أن أختلس منهم ملامح أستطيع أن أكسو بها وجهي معهم حتى لا أبدو صغيراً على الفهم.

ولم تستمر حالة الحيرة هذه طويلاً. صحف الغد كفتنا عناء البحث عن الشعور المناسب تجاه الأزمة، ووزَّعت علينا أقنعة الموقف كما وزعت أقنعة الغاز فيما بعد. كان علينا جميعاً أن نستنكر ونغضب ونلعن كل ما هو عراقيّ قبل أن ننتبه بعد سنوات، أو نتظاهر بالانتباه، أن شعب العراق كان الضحية الأولى لحماقة رجلٍ مغرور.

اندفع الآلاف من الشعب الهارب. تدفَّق سيل الكويتيين علينا عَرِماً ومع كل دفقٍ منهم مأساة ما. ارتسمت على وجوه الجميع علامات ذهولٍ حفر نفسه في ملامحهم. لم يفهموا لماذا جاء القدر محورياً إلى هذا الحد؟ لماذا لم تسودّ السماء قبلها؟ لماذا لم تعصف الريح سبع ليال؟ لماذا لم يأتهم نذير؟

هل ابتلى الله مؤمنيهم، أم عذَّب عُصاتهم؟ أم أنها مجرّد حكايةٍ سوداء في سياق القدر كان هامشها مؤلماً؟

كان السؤال الذي يخشون جميعاً إجابته: هل سيعودون؟

لأنهم خرجوا جميعاً مثل فلسطينيي ٤٨ الذين كانوا يرددون: غداً نعود.

أربعة وخمسون عاماً مضت ولم يعد الفلسطينيون حتى الآن. رغم الحروب التي خاضها العرب مع إسرائيل، ورغم الجهود التي بذلها العالم أثناء ذلك، ورغم المجازر التي شاهدها الجميع في الأراضي الفلسطينية، لم يعودوا.

فلماذا كان يمكن أن يعود الكويتيون تلك الأيام؟ ليس في أرضهم حرمٌ يهفو إليه المسلمون مثل القدس، وليس من يواجههم عدوٌّ أزليٌّ مثل اليهود، بينما يتفجَّر تحت أقدامهم نفطٌ يجعل الخيانة السياسية من الدول الصديقة مبرَّرَةً جداً إذا اقتضى الأمر.

في ظرف أسابيع ، امتلأت الإسكانات العامة، والمدارس المعطَّلة، والمباني الحكومية الخالية، بأسرٍ كويتية لم يعد لديها وطن إلا صدور الناس. صهرت النار التي أشعلتها المأساة القلوب معاً، وتلوَّنت عيوننا بلونٍ عربيٍ واحد. هبَّ الجميع لمدّ يد العون لهذا اللجوء الكبير. وبعد أيام، كانت دولةٌ ما، تستضيف دولةً أخرى، بأكملها!

مشاهدُ ما كان أروعها لولا الخلفية السوداء للحدث. ما زلتُ

أتذكَّر الرجل الذي وقف بأسرته أمام متجرٍ صغير يحاول أن يشتري لهم شيئاً وليس في جيبه إلا دنانير كويتية لم تعد ذات قيمة، فطفرت من عينه دمعةٌ لم يكد يمسحها حتى وجد أمامه رزمةً من المال، ألقى بها عابرٌ أمامه، وتوارى وهو يخفي وجهه.

العشراتُ الذين كانوا يقفون أمام أبواب الفنادق ليعرضوا على القادمين بيوتهم وقلوبهم بدلاً من الفندق، والآخرون الذين تجمعوا شيباً وشباباً ليسهموا في تنظيم الجموع، وتوزيع المأوى، والإعاشة بأسرع وقتٍ قبل أن يتسلل الشعور بالهوان في نفس أي منهم، وكانت أياماً كل ما فيها يُبكي من التأثر والحزن.

ارتفعت أسعار أجهزة الراديو بجنون ليبرهن ارتفاعها على شكوكٍ متأصلةٍ في نفوس الجميع حول مصداقية الإذاعات الحكومية. هنا جيلٌ بأكمله من البشر لم يسمع بالحرب من قبل. سنواتٌ مرّت عليه من الأمن والسلام ورغد العيش. ولأول مرةٍ يقف عدوٌّ ما على حدوده بجيوشه الجرّارة.

وانقلب الشارع على بكرة أبيه إلى أفواهٍ لا يخرج منها إلا السياسة. حتى الأطفال بدأوا يتشدَّقون بما يسمعونه من آبائهم. عُطِّلت المدارس وتمددت إجازة الصيف شهراً آخر والجميع ينتظر إشارة البدء بالحرب.

وانتشرت موضة الملابس العسكرية المموّهة بالخاكي في أوساط المراهقين انتشار النار في الهشيم. وتأججت في النفوس حميّةٌ

مجهولة. وتدافع الآلاف من الشباب إلى مراكز التطوّع. وتحوّل الوطن بأسره إلى خيمة تردِّدُ بصوتٍ واحد أغنية الحرب التي اشتهرت بشدة تلك الأيام:

هبَّت هبوب الجنّة   وين انت يا باغيها

عدوّنا خاب ظنّه   والروح .. نفديها

هل سيستخدم صدّام سلاحه الكيماوي؟ وانتفض السؤال بقوةٍ في عروقنا ونحن نسمع الحكومة المتحفظة دائماً في تصريحاتها تؤكد إمكانية ذلك. وخلال أيام، كانت الملايين من الأقنعة الواقية قد وزِّعت على المواطنين، وبدأ الجميع بإعداد ملاجئ في بيوتهم متبعين الإرشادات التي ظل التلفاز يبثها ليل نهار، وارتسم على جميع الشبابيك خطان متقاطعان من الشريط اللاصق تحسباً لتهشمه في غارة محتملة، وتغيَّرت العادات، وتلملمت الأشتات، وجلس الجميع يترقَّب صفّارة الإنذار الأولى.

ولأول مرة ينفجر في الرياض صاروخٌ ما في تاريخها منذ أن كانت قريةً منسيةً تدعى حجر اليمامة قبل آلاف السنين. وجاء الثاني ثم الثالث، وفي الصباح التالي كان العشراتُ من أهل المدينة ينزحون عنها غرباً وجنوباً مخلّفين وراءهم الملاجئ التي أعدوّها، وأقنعة الغاز التي اشتروها، وثياب الشجاعة التي تسربلوا بها.

وطنٌ اعتاد الأمن، حتى أصبح الأمن مرضاً.

تتابع القصفُ الناري على العراق. دكّوا مئات المواقع وهو يردّ

على استحياء صواريخ قليلة، على الرياض، والمنطقة الشرقية، وتل أبيب. ولم يكن ليدور في حسباننا أننا سنكون يوماً ما مع إسرائيل عدوّين لدولة واحدة.

ستة أشهر وانتهت الحرب. وانهزم صدّام بجيشه مشعلاً النيران في آبار النفط كالأطفال، وساعياً إلى كسب معركته الإعلامية مع شعبه الذي غُلب على حزنه، وأُجبر على أن يرقص باكياً، ابتهاجاً بالنصر المؤزّر في أمّ المعارك.

وخرج العرب من ذلك كلّه بآب الأسود، لينضمّ إلى أخويه الكبيرين، حزيران الأسود، وأيلول الأسود.

لأننا عندما لا نستطيع أن نضمّد الجراح نسوِّدُ الشهور.

بقي عندنا تسعة أشهرٍ تنتظر سوادها ما دامت فرشاة العرب لا تلد إلا السواد. ربما اخترعنا هذه التسميات حتى نوهم أنفسنا أن ما تلطَّخ بالأسود بضعة أشهر فقط، وأننا لسنا متسربلين بالسواد منذ عشرات السنين.

ستمرُّ قرونٌ قبل أن يصدر قرارٌ عربي بتغيير أسلوبنا في الرسم، وقبل أن يتوقف الزعماء عن توريث اللون الأسود مع صولجان الحكم إلى من يخلفهم. لأن مآسينا العربية متشابهة دائماً. لا أدري لماذا لا يغيّرون شكل طغيانهم حتى يصبح تاريخنا أكثر تنوّعاً على الأقل. ربما نمنح أحفادنا كتب تاريخ غير مملّة.

يقول التاريخ: «القعر دائماً هو المكان الذي يتساوى فيه الضحك

والبكاء». ربما هي نهاية العهد إذن. ها هي حبة تفاؤل صعبة تلقي بنفسها في طريقنا.

لم أكن في حاجةٍ لأن يخبرني ديار بما حدث في حدود بلده بعد حرب الخليج. لم يكن هو في حاجةٍ لأن يخبر أحداً أيضاً.

بعد هذه السنوات، بدأ صدّام يبتزُّ بأفواه الأطفال عواطف العالم. يشتري بجوعهم وأمراضهم أنابيب تنقل نفطه وتغرس قدميه في الكرسي حتى صار كرسي سلطته ذا ست قوائم، ونحنُ نجوع ونعرى ألماً مع الجوعى العراة، وكل شيء ملتبسٌ في دهاليز السياسة، وما زال التحقيق جارياً، وما زال المجلس منعقداً، وما زال العراق باكياً، وما زال الأطفال جوعى.

ديار فقد ابناً، قال لي ذلك.

- كان رضيعاً في مهده. عيناه غائرتان بشدة، ورأسه الكبيرة تثقُل، وتُثقِلُ رقبته. يفتِكُ الداءُ بأمعائِه ليقيء دماً في وجه الحصار، ودماً في وجه النظام. كنتُ أتمنى لو يكبر. مات قبل أن أخبره أنه كان ضحية، ولم يكن معي أحدٌ يوم دفنته. وحدي أنا وجسده الصغير وقبره.

- وأمّه؟

- كانت قد ماتت بعد ولادته بأيام.

يا لهذا السيناريو السخيف الذي رميتُ به سؤالي، أتُراني سألته بكل هذه العفوية، لأسمع منه هذه الإجابة تحديداً؟ بدا لي سؤالي

وكأنه محشورٌ في الحديث فقط ليبرر الإجابة التي بعدها. أطرقتُ، مؤنّباً فشلي في أن أكون بمستوى بوحه.

سألته محاولاً الإقالة من عثرتي سريعاً:

- أمن أجل هذا رحلت؟

خرج سؤالي مرةً أخرى قبيحاً أمامه. تمنيتُ لو أني تركته منذ البداية يواصل بهدوء دون أن أقاطعه. أعلم أن مثله لا تستفزُّه الأسئلة للمزيد، بل ربما تحمله على التراجع.

كانت أسئلتي أصغر بكثير من حزنه. مهما فلسفْتُها له قليلاً لتبدو أكبر. كنتُ أصغي لديار كطفل، وكانت حكايته مخيفة، فولدت الأسئلة مرتجفة.

ما حييت، لن أنسى نظرته تلك الليلة.

رفع إليَّ عينين ذابلتين تنسدلُ من خلفهما مرارةٌ عميقة، وكأن دموعاً جافةً كانت تملأ عينيه. بقيتُ أياماً أقلِّبُ نظرته تلك في ذاكرتي، وكلمتَه التي أخرجها من الجحيم، وألقى بها في وجهي مثل شيطانٍ يتلوّى.

- عندما يعجز الوطن أن يمنحنا أكثر من صدوعٍ ضيّقة لدفن أبنائنا، هل نبقى؟

صمتنا معاً دقائق قبل أن يتنهَّد ديار، وينفض جرحه، وهو يقول:

- مقابرُ جديدة تفتحُ أبوابها ويتدفَّق سيل الموتى. في الرصافة، في الكرخ، في الكاظمية، في البصرة، في الرستمية، في كل مكان.

ذات يوم، دَفَنَت أمٌّ أمام عينيّ طفلَها الرابع في شهرين، وبقيت وحيدة. صدِّقني،لم تبق قامةٌ عاليةٌ في وطن الخوف إلا قامة الموت وقامة المهيب.

أتذكَّرُ السيّابَ مرةً أخرى في فانكوفر. ما زال وطنه جائعاً، خائفاً، ومريضاً أضعاف ما رآه هو. أتذكَّرُ بكاءه القديم:

حيثُ التفتَّ، رأيتَ شعباً جائعاً
عُريانَ، يملأ جوفَهُ بالماءِ
يسقي الزروعَ دماً.. لتثرى طُغمةٌ
تبني سعادتها على الإشقاءِ
وإذا تضجَّرَ أطعمته رصاصةً
وكسَتَهُ بالأكفانِ.. والبوغاءِ

ربما كان خيراً للسيّاب أن يموت، هو الذي اختار الموت بنفسه وهو يصرخ في فراشه: «أريدُ أن أموت يا إله». كان الموت خيراً له من أن يبقى بعد موته ليرى أنَّ من حملوا جنازته إلى بيته اكتشفوا أن البيت خالٍ، طُرد منه أهله.

هل يعيش الشعراء في العراق؟

لماذا الشعراء، منذ سنين، هم أكثرُ صادرات العراق إلى المنفى؟ ماذا يبقى من شعب بدون شعراء؟ ولماذا يدفع الشعراء دائماً فاتورة الألم؟

لماذا يموتُ الجواهري، والحيدري، والسيّاب، والبيّاتي، وغيرهم، في منافيهم خارج الوطن، بعيداً عن هضباتِ العراق وشطَّيه، والجرفِ، والمنحنى؟ من تُراه سيغني لجيكور إذن، وينشِدُ للمطر؟ ولماذا يموت رجلٌ مثل البيّاتي، وهو يبكي:

لماذا نحن يا ربّي..

بلا وطنٍ، بلا حبٍّ

نموتُ.. نموتُ في رعبٍ..

لماذا نحن في المنفى..

لماذا نحن.. يا ربّي.

مبتورةٌ دائماً أسئلة المنافي، وقليلٌ أولئك الذين وصلوا إجاباتها بحزنهم، وفهموا لماذا يستأثر طغمةٌ بالوطن ويطردونهم منه. أسئلةٌ تقطعهم عفويتها. تجرحُ الأطفال الذين ولدوا حيث لا ينتمون، وأرادوا أن يتسلَّقوا ذاكرة آبائهم ليعرفوا من أين أتوا.

***

لدهشتي، كان ديار يعرف مس تنغل.

التقاها في جمعية الأيل، وإن كنتُ أفهم أن مس تنغل يمكن أن تشارك في مثل هذه الاجتماعات أحياناً بدافع الوحدة، فإني بالطبع

لم أكن أفهم ما الذي يمكن أن يربط بين ديار والأيل، عدا أن مزاج ديار أحياناً يشبه قرنَي الأيل المتشعِّبين.

علمتُ فيما بعد أنه كان سائق الشاحنة ليس إلا، وأنهما تعارفا في الصفِّ الأخير، حيث يجلس المقعدون، وحيثُ يحتسي ديار كوب قهوةٍ ريثما ينتهي الخطاب، فيعودُ بآلات العرضِ والتصوير إلى حيث أتى بها. تعارفا على هامش خطابٍ مملّ، وكانت بينهما زيارات انقطعت بعدما غادر ديار إلى مدينة قريبة، ثم عاد ليجدها قد تركت منزلها، فلم يحاول البحث عنها طويلاً.

ولكني أعدته إليها. أخذته معي ذلك المساء البحريّ بعيداً عن جرحه. خفتُ عليه من جرثومة ما تحطِّم قوّته أمامي، أنا الذي بدأت أتكئ عليها بدون شعور، وأحاول أن أتماسك من خلال أعصابه هو، وأتعلم اللامبالاة المتوازنة التي لا تجعلنا نبدو بلهاء ولا حزانى.

أخذته إلى منزلها دون أن أخبره من تكون. ولما التقيا، جثا ديار على ركبتيه واعتنقها طويلاً وهو يضحك بسرورٍ بالغ. كانت سعيدةً به أيضاً وإن كانت أخبرتني من قبل أنها تعرف بعض العرب القلَّة في فانكوفر، ولكني لم أكن أظنُّ ديار من بينهم.

صرنا اثنين على أريكة مس تنغل الحانية. أمام مدفأتها التي ترسم ظلالنا على الجدار المقابل. أصبح لجلساتنا طابعٌ آخر وأنا أتماسك أمام مس تنغل حياءً من ديار، وأتماسك أمامه حياءً منها.

البوح ليس دائماً أذناً أخرى بقدر ما هو مكان وزمان، ولذة

اعتراف. وأنا أفضِّل الآن أن أتوقف عن هذا البَثِّ السخيفِ الذي زادني عياءً أمامها، حتى اقتنعا تماماً بأنني لست سوى رجل ضعيف يثير الشفقة.

عندما أصطدم بأقوياء لا تختلف ردة فعلي عن اثنتين، الانطواء، أو الارتماء. طالما كنتُ ضعيفاً وطالما عالجت ذلك بفكرة أنني كلما كبرت صرت قوياً، وأنهم لم يولدوا أقوياء، والذي ولد قوياً هو حصيلة انتفاخ فارغ.

طالما كتبت في حالة ضعف، ولا أدري كيف شكل الكتابة في حالات القوة.

لأن ضعفي شيء صعب. إنه طبقات متغاشية، طبَّقتها الأقدار والظروف والمجتمع في خزانة الروح مثل الملابس التي تُبلينا ولا تبلى. سئمتُ من تكرار محاولة استيلاد القوة من ضعفي، وتربية العضلات في الجسد الواهن. من الصعب أن نعيد تشكيل الأشياء التي جفَّت.

أشعر بالدفء فقط في غرفتي. تنتابني شجاعة العزلة. حتى إذا خرجتُ في أول اصطدام مباشرٍ بالريح أشعرُ أن البرد لا يغمرني فحسب، بل يمزِّق أوراقاً شاسعة في دفاتري الداخلية.

لا أعرفُ لساناً يخون صاحبه كما يفعل لساني. إنه يتآمر على الأشياء التي يضعها عقلي على طرفه فيطوّحُ بها بعيداً. ترتفعُ يدي في محاولةٍ يائسة لالتقاطها، تفلتُ مني، تعروني الرجفة. صار ارتباكي واضحاً، في المرة الثانية، سيصير ضعفي واضحاً.

الأماكن الكبيرة لا تشعرني بالفخامة، بل بالضآلة. الأشخاص المهمّون لا أدري كيف أتخيَّلُ سحناتهم دائماً وهي تزدريني، كمن يعيّر الأعمى بعماه، والعليل بعلّته، والفقير بفقره.

المواسم الخصبة تشعرني بالتخاذل، كثرة السنابل تستهلك جهد الطواحين. لن يبقى لي شيء.

الليل، ثوبي العاري الذي أواري به عورتي. فيه أجلسُ مثل حائطٍ هرم، أحوكُ أقنعتي النهارية، لأنني أخجل من شكل وجهي.

آمنتُ بعد سنواتٍ من المعايشة أنَّ سموم ضعفي من النوع الذي لا تستمدُّ أمصالها من نفسها. لا شيء في داخلي يكفي لرقع كل هذا الفتق الذي خلَّفه الزمن.

كنتُ أتمنى أن تفهمي شكل حاجتي إليكِ دون أن أضطر إلى هذا الكلام. كنتُ أتمنى أن تنجحي في تشخيص علّتي قبل أن أتعرى إلى هذا الحد.

أحتاج إليك لأنني شعرتُ أنكِ الشيء الوحيد الذي يمكن أن أكمل به حياتي بسعادة. المرأة الوحيدة التي يجب أن تقف ورائي لأكون عظيماً.

عندما أحببتكِ، ذقتُ لأول مرة طعم النوم تحت غطاء.

لأنكِ جئت تماماً لتكملي كل جوانب النقص في حياتي. تمسَّكتُ بكِ بجنون الذي يكره أن يعود إلى سيبيريا، ولكنكِ تركتني وحدي وسط الثلوج.

هل تدركين ماذا يمكن أن يفعله بي زواجي منك؟ هل تتصورين كيف سيلمعُ اسمي إذا ارتبط باسمك، وتمتلئ فراغاتي الناقصة بحياتكِ المتكاملة؟ هل سمعتِ كيف عمَّر اليابانيون مُدنَهم بعد الحرب؟ هل رأيتِ يوماً مخاض السماء وهي تلد الشمس؟ هل شعرتِ مرةً بشعور الرضيع إذا دارت كفّه على إبهام أمّه للمرة الأولى؟ هل تدركين مساحة الغاباتِ التي ستُخلق داخلي إذا ظلَّت أمطاركِ منهمرةً طول العمر؟ هل تعلمين أيَّ إنسانٍ سأكون عندما تصيرين أنتِ عيني التي أبصر بها، وأذني التي أسمع بها، وفمي الذي أتكلم به، ويدي التي أمدها إلى الحياة؟ هل تعلمين أيَّ رجلٍ سيعيش بكِ على هذا الكوكب، وأيَّ رجلٍ سيموتُ بدونكِ عليه؟

هل تدرين عدد المعجزاتِ التي يمكن أن تزرعها امرأةٌ مثلكِ في طريقي؟

إن حبكِ كافٍ جداً لترميمي. علاقتي بكِ منحتني نسخةً تجريبية من الاعتداد بالنفس، ومرور أصابعكِ فوق وجهي يلغي من ذاكرتي كل تاريخ الدموع القديمة.

امنحيني ضوءكِ أيتها الشمس..

امنحيني الغذاء، والماء، والهواء..

امنحيني السعادة، والخصب، والخير، والنمو، والحب..

أيتها الوريثة الوحيدة لعرش الأنوثة،

امنحيني مجدكِ..

يا امرأةً تمنح الأمجاد.

***

لا أستطيع الآن أن أُحصي عدد الليلات التي قضيتها في غرفتك، ونحن ملتصقان كشقَّيْ صَدَفَة، ومتحديان الزمان والمكان، تحفُّ بنا دهشة مدينةٍ بأسرها.

في غرفتكِ!

هل انتهى جنون الدنيا حتى نخترع لأنفسنا جنوناً كهذا؟ هل انتهت أشكال التمرّد حتى نشكِّل تمرّدنا من خامة الشوق، فيجيء بهذه الحرارة؟

رمينا الكثير من الخوف وراءنا وقرَّرنا أن نُصرِّفَ فِعلَ الحب حيث لا تحدُّنا قوانين اللغة. تخلَّصنا من هاجس الوقت والأعين، ورمينا خارجَ سُور الحب كل ما اكتنَفَ لقاءاتنا السابقة من ترقّبٍ وتوتّر.

جناحٌ فسيحٌ من غرفتين كان خاصاً بك في القصر. أليس من السهل على عاشقٍ مثلي، ملَّ كثيراً من تردُّدِهِ وحياتِهِ الرتيبة، أن يتسللَّ بعدما ينام الجميع، مُنقِّلاً خطاه على الرصيفِ الشارد، ليجد باباً موارباً تفوحُ قربه رائحة عطركِ فتفضح الفاعل، ويعبر الفناء الفسيح وهو يعرفُ طريقه جيداً إلى البابِ الذي تغطِّيه الأغصانُ الوارفة الكثيفة، والدَرَجِ الذي ينتهي به إلى صالةٍ واسعة، في آخرها يجدُ غرفة حبيبته، وعينيها، ودقاتِ قلبها الخائفة؟

أتذكر كيف مكثتُ أسبوعاً كاملاً أحاولُ إقناعكِ بالفكرة، كان مجرد تفكيركِ فيها يكاد يُبكيكِ خوفاً ورهبة، ولكني بقيتُ حتى آخر أنفاس الأمل أسعى لإقناعكِ بإمكانيتها، بينما كانت لقمةً صعبة البلع في حلقكِ الخائف.

وبعد أسبوع كانت دقات قلبكِ تهدأ تدريجياً، ورعبكِ الهائل ينكمشُ ويتراجع، والشوق المحموم يشفعُ ويتوسَّط، حتى كان الأول من يوليو هو يوم مجيئي، الثالثة بعد منتصف الليل.

ألتقيكِ في أبريل، وأقبلكِ في يونيو، تلك صفحاتٌ صامتة في الحب. أما أن أكون داخل غرفة نومكِ في يوليو، فهذه هي السامبا الصاخبة التي لم أتوقعها قطّ.

وأنا لم أرقص بهذا العنف من قبل في حياتي. هل فعلاً بدأ يتحول حبنا إلى شكلٍ مختلف؟ هل أصبحت لنا ملامحنا المميزة في وجوه العشاق؟ هل استقلّت شخصيتنا عن تقليد أساليبهم وحدودهم الضيقة؟ هل صار لنا أسلوبنا الذي يخوّلنا أن نحفر اسمينا في جذع الحب العتيد دون أن نخشى تشابه الأحرف؟

هكذا الحب، قرأتُ شاعراً ما يقول: «إذا أردت لحبك أن ينجح، أترك الدفّة للأنثى. إذا أردت لزواجك أن ينجح، أمسك الدفّة أنت».

كم كانت تلك الليلة ساحرة. تسللتُ وبي نشوةٌ لا أصدق بها أني على مرمى خطواتٍ فقط من غرفة حبيبتي. عندها سأمكثُ يومين

كاملين لا ينقصان ساعةً واحدة. عندها سأبدأ تأليف كتاب الحب الحقيقي دون أن أخشى مقصّ الرقيب.

لم أكن أصدّق أني سألتقيكِ لقاءً لا تقطعه نظراتك الدائبة إلى ساعتك أو إلى من حولكِ؟ لم أكن أصدّق أني حقاً سأنام بين يديكِ، وفي سريركِ، وفوق صدركِ، وبين ذراعيكِ.

كم يكفيني من الغرور حتى أتوازن مع الحقيقة؟

يأخذني الحلم وأنا أسعى إليكِ. فتحتُ باب الصالة، وصارت غرفتكِ حسب وصفكِ لها أمامي تماماً. ومنها يطلُّ وجهكِ المبتسم وأنتِ تحثّينني على الإسراع وقد اختلط في ملامحكِ حذرٌ، وحياءٌ، وابتسامةُ خفر.

قطعتُ الخطواتِ العشرَ الأخيرة ثم انغلق علينا بابكِ، وضمَّتنا جدرانٌ أربعة لم تُبْصِرْ قبلي رجلاً قط. ونزل الحب معنا، وبارك هذا التمرد المجنون، وضمَّ إلى صدره ابنيه البارّين، ولوَّن عيوننا باللهفة، وأخرج من جيبه القُبلة الأولى، وقلَّدنا إياها، وبكى، من شدة التأثر.

فعلناها يا حبيبتي. كم عاشقٍ ينام هذه الليلة محروماً من شفتي حبيبته، بينما نخلقُ نحن كل دقيقةٍ قُبلةً لا تشبه التي قبلها، ولا تشبهها التي بعدها؟ نغتال عقربي الساعة، ونطفئ الليل والنهار في منفَضةٍ واحدة، ونزرع في جَدْبِ أجسادنا أقماراً وغيوماً، ونُذيبُ في الأعين الظامئة كل ما تنجبه السماء من نجوم.

قطعتُ الممرَّ الصغير حتى وصلتُ إلى منتصف غرفة النوم تماماً،

وقلبي يكادُ يقفزُ خارج أضلاعي من شدَّةِ الحماسِ والسعادة. وبعد لحظات لحقتِ بي أنتِ حالما أوصدتِ الباب، وتأكدتِ أن أحداً لم يرني وأنا أدخل، وجئتني في الغِلالة البنفسجية التي تكشفُ من الأعلى نصفَ صدركِ، ومن الأدنى كل ساقيكِ، وأنا ضائعٌ بين البياض الأعلى والبياض الأدنى، حائرٌ من أين أبدأ بكِ وفي رأسي دُوارٌ حيٌّ له شكلُ اللحظة الأولى في الجنة. وكان العناقُ الأول، وقلبانا ما زالا يركضانِ في جسدينا في جنون النشوة.

لم أفهم في الدقائق الأولى شكل نظراتك، ولكنّ عينيكِ كانتا تبتلعانني، بكل قسوة.

أُكلّمكِ وتنظرين إليَّ، أهزُّكِ، وتزداد عيناكِ عمقاً، وابتسامتكِ اتساعاً.

أتُراكِ كنتِ مدهوشةً مني أم من نفسكِ؟ أم أن واقعنا كله كان حفل دهشة؟

تمتمتِ بعد دقائق:

- حلو الشعور.

- أي شعور؟

- أن تكون بغرفتي.

هكذا تفسّر الأنثى هذا الاقتحام العنيف الذي يمارسه رجلٌ في غرفتها.

أنتِ لم تكوني سوى غرفتكِ، وغرفتكِ لم تكن إلا أنتِ. لم يكن

أحدٌ من أهل البيت يجرؤ على دخول الغرفة الموصدة دائماً على فتاةٍ مختلفة، تحترفُ العزلة، وتملأ الدنيا، في آنٍ واحد.

لونها الوردي هو نفسه اللون الذي يغلّف جدران قلبكِ. قضبانها الحديدية هي نفسها الحواجز التي تحبس داخلكِ لبوءة التمرد. فوضاها العارمة هي نفسها جنونكِ المخبوء منذ سنوات والذي بدأ يفصح عن نفسه بإدخالي هنا.

أنا الآن داخلكِ، ونظراتكِ الآن نظراتُ امرأةٍ أصبح حبيبها بين يديها، وكل شعرةٍ في جسده ملكٌ لها، لا ينازعها أحدٌ فيها أبداً، ليومين كاملين.

يبدأ اليوم وينتهي ولم يبتعد أحدنا عن الآخر أكثر من مترين. نتحدث، نلهو، نضحك ونبكي، أو نبقى على الصمت في عناقٍ ما. نأكلُ بملعقةٍ واحدة، نشربُ من كأس واحدة. نتابع الفيلم في شغف، نقرأ الأشعار، ونسمع الموسيقى، ونتقلَّب على السرير، وأعيننا دافئةٌ بالحب، حتى يغلبنا النوم.

وإذا أفقتُ وأنتِ نائمة، أجلسُ متأملاً خلودكِ الطاهر. هادئةٌ أنتِ مثل السَّحَر. وادعةٌ مثل ملاكٍ صغير، وجميلةٌ مثل أيام الوصال. أسافرُ في بياضِ وجهكِ المنير كالحقيقة، وأرحلُ في خُصلاتِ شعركِ التائهة بين نهارين، وألثُمُ أصابعكِ النائمة مثل خمسة أطفالٍ على صدري العاري.

هل رأيتِ الأفق حين ينزلُ ذات غروبٍ ليحكي للبحر حكاية؟

هكذا كانت شفتاكِ تنفرجان بلطفٍ وأنتِ نائمة. كانتا فتنةً صغيرةً في وجهٍ سحابيٍ هادئ، العليا تبرز قليلاً للأعلى، ويذبحني هذا البروزُ الجميل شرياناً شرياناً حتى آخر قطرة من الدماء، يهزُّها كل هذا الجمال الذي تفرزه شفة، يغريني هذا القوسُ الصغير الذي يميِّز شفتيكِ حتى لا يبقى في غريزتي حدٌّ تقف عنده الرغبة.

لو قبَّلتكِ على هذه الشفة العليا وأنتِ نائمة، هل تستيقظين؟ ولو أنكِ استيقظت إثر القبلة هل أشعرُ بالذنب؟ إنها أفكارُ الرجلِ الذي يتأمَّلُ الفتنة النائمة بين يديه، ويقيسُ المعصية والمغفرة في ميزان اشتهائه، وأخيراً ينزلُ عليهما ولا يبالي، ويعود إلى نومه، مذنباً.

وعندما تستيقظين أنتِ أثناء نومي، يكون ذنبكِ أكبر، أنتِ لا تُقَبّلين فمي فحسب، بل تُلقين برأسكِ كله على صدري، وتلفّين ذراعي حتى تحيطَ بكِ، وتتركين أنفاسكِ الطاهرة تصهَرُ جلد عنقي برفق، أنا الغارقُ في ألفِ حلمٍ جميل، وعلى صدري يغفو أجمل حلمٍ في حياتي، منذ تعلمتُ الأحلام.

كل دقيقة أقضيها معكِ هنا، أشعُرُ أني في وهمٍ متقنٍ، أتحرَّكُ فيها، أقلِّبُ معكِ العمر والذكريات. أستعرضُ ماضيكِ بكل ما فيه، وأرمي بين يديكِ ماضيَّ وحاضري ومستقبلي، ثلاثَ قلائدَ لا أُغلي أياً منها على عنقكِ الجميل.

أتأمَّلُ كل زاويةٍ في غرفتكِ الوردية الفسيحة. أذرَعُها بدهشةٍ وسعادة. أقلِّبُ بين يديَّ أشياءكِ الأنثوية الصغيرة، تلك المباحة منها

والمحرّمة. يُدهشني هذا الاقتحامُ العنيف للعالم الآخر. كل شيء هنا متعلقٌ بكِ، لذا فهو يستحقُّ أن أحبه، من ستائر النافذة حتى مناشف الحمام، مروراً بالسرير، والوسائد، والمرآة، والدمى المتراكمة في ركنٍ هناك، وأدوات الزينة، وقوارير العطر، والشمعتين الخافتتين على جانبي السرير. أوراقكِ، صوركِ، كتبكِ، وحتى فوضاكِ المحببة. كل الأشياء هنا تتناسَقُ بطريقتها لتخلق جمالاً ما، محوره أنتِ.

أَقِفُ عند النافذة. هل تُصدِّق الرياضُ أني مقيمٌ في غرفة حبيبتي منذ يومين؟ أتأمَّلُ من فُرجةٍ ضيّقةٍ فِناء القصر والأشجار والأغصان والخادماتِ اللواتي يجزنه بلا توقُّفٍ، وأختيكِ الجميلتين في مشيهِما المتئد، وأمامهما يركض ابن الكبرى الغارق في العذوبة ويعثر. ذلك الطفل الشفّاف الذي حملته إليَّ يوماً، لأقبِّله وأضعه في حجري، ليكون بطفولته البريئة، الشاهد الوحيد الذي رآني في غرفة خالته العاشقة.

يأتينا عبر الهاتف صوتُ والدتكِ الحنون ليوقظكِ من نوم، أو يوقظنا معاً. كنتُ أقبِّل في الهواء رقّتها وجمالها الذي تأخَّر كثيراً في ملامحها الطيبة، وظلَّ معلّقاً في وجهها وجسدها رغم الخمسين، ورغم الحمل والولادة. وكنتِ تجيبينها بكسل، وتقبّلينني همساً، ويضحكُ بيننا طفلُ الحب الشقي، ويرحَلُ صوتها دون أن تعلم أن شخصاً آخر، يقبع في تلك الغرفة، مع ابنتها.

كان ترفاً عاطفياً لا حدود له.

استهلكنا أطناناً من الحب فعلاً. شبعت، شبعت، شبعت، وازددتُ نهماً. كنا نَسْخَرُ من الأسوار والقيود، والأعين الغاضبة، والوجوه العابسة، لأن حبنا ما زال على السطح، يتنفَّسُ من هواء الدنيا، بعدما تآمرت على قتله الأسماك وأعشاب البحر. ها نحن والحب غبوقنا وصبوحنا. ننام عناقاً، ونفيق اشتياقاً، ونستحمُّ معاً، ونلتقطُ حبوب الحلوى شفةً بشفة. ننفق من خزائن العشق في ساعات ما ينفقه غيرنا في سنوات. كأننا زوجان آمنان في بيتٍ هادئ. لا يعلم أحدٌ من ساكني هذا القصر معنا أنَّ خلف بابكِ أسراباً من العصافير ستندفع إذا انفتح، وملايين من النجمات بدأت تتسرَّبُ من إطارِ النافذة وعقبِ الباب.

مساءاتٌ تحرقني فيها أنوثتكِ.

منذ دخولي إلى خروجي ولقائي بكِ دوخةٌ كبرى تختلطُ فيها معالم الحقيقة. هل ما أفعله أمرٌ اعتاده آخرون؟ هل في الرياض الآن رجلٌ آخر ينام في غرفة حبيبته غيري؟ هل هناك من لديه جنونٌ كجنوني، وغرفةٌ آمنةٌ كغرفة حبيبتي؟

ربما فعل غيرنا هذا ولكننا لن نعرف. إن قصصهم دائماً أسرارٌ يتوقَّفُ عليها حبهم، مثلما هي قصتي معكِ سرٌ دفين، خبّأته في عينيَّ، كما خبّأتُ معه ماهيّة شخصيتكِ، وعنوان بيتكِ، وألوان غرفتكِ، وتفاصيل جسدكِ.

***

صارت السيجارة إصبعاً متمرداً بين أصابعي، أشعلها في الغربة المظلمة لأبصر وجهَي خيبتي وفشلي. يتكوَّم طموحي أمامي وأنا عاجزٌ عن فعل أيِّ شيء، إلا التدخين. صِرتُ أدخِّن أكثر مما آكلُ وأشرب.

على الطاولة الصغيرة في شقّتي منفضةٌ تحتفلُ بثلاثين عقبٍ كل ليلة. كان تدخينها صعباً جداً، وأنا أسحَبُ منها دُخانها بعمق، وأتركُهُ ينعجن بهمومي وغثياني، ثم أنفثه في الهواء، لعلَّ شيئاً منها يجد ممراً للخروج معه. حتى إذا فَشِلْتْ، سحقتُها في قعر المنفضة، ثم أشعلتُ أخرى.

بعد رحيلكِ، شعرتُ أن حالة الوهم التي تنخر قلبي تشبهُ خيوط الدخان التي تتصاعدُ نحو الهباء. جذبني هذا التشابه.

كنتُ أشعل سيجارةً ثم ألبثُ أتأملُ احتراقها البطيء حتى ينفد تبغها، فألقيها جانباً دون أن أسحب منها نفساً واحداً. وبعد أيام بدأت أرثي لحزنها، وصرت أقرِّبها من شفتي وأسحب الأنفاس بهدوء، وأتحوَّلُ معها إلى رماد.

ثمّة ارتباط قديم بين اليأس والعاداتِ السيّئة. لا يوجدُ ما هو أشدُّ خطراً على مبادئ إنسان من حالةِ يأس، كل المخالفاتِ نمارسها عندما نشعر أنه لم يعد أمامنا ما نحتفظ بمبادئنا لأجله. دائماً يعصف الحزن بالمُثُل، فيصمُدُ القليل، ويهوي الكثير، وتنكشِفُ عوراتٌ في أجساد كان يسترها الاستقرار، ويبقى إنسانها عارياً في فصولِ الحياة، يبحثُ

عما يدفئ جلدَه، ويغطي عُرْيَه. يدخِّن أو يشرب، وربما يتعهَّرُ، أو يتعاطى مخدّراً ما. كل هذه الأشياء هي كبسولاتُ النسيان الموقتة التي يخدِّر بها الحزانى جراحاتهم التي أزمنت.

أيُّ يأسٍ تركتني فيه أنتِ.

منذ تزوجتِ، شعرتُ أنكِ صرتِ مثل زكونغايس التي صهرت نفسها مع المعادن، وتحوَّلت إلى جزءٍ من الناقوس الكبير. أو أنكِ تحوَّلتِ مثل زدفنيس إلى شجرةٍ أسطورية تثمر أكاليل، أو أنَّ شبحكِ اختفى في فراغ الدنيا، مثل هيلين.

من يعيدكِ إلى الحقيقة؟ ومن يعيدكِ إليَّ بعد ذلك؟

أيُّ امرأةٍ تلك التي تتحوَّل إلى أسطورة عندما تغيب، ومعجزة عندما تنزل.

بين هذه الأساطير والمعجزات، جلستُ أدخن يأسي.

سجائري وجعٌ أحمر. أحقنه في رئتي وأشمُّ رائحة اللحم الذي يحترق، والعمر الذي ينقضي، والأمل الذي يموت.

الأيام حكايةٌ طويلة، لستُ أدري متى تنتهي. ولكن شيئاً ما في داخلي بدأ يسأمُ من رتمها الدرامي الحزين، من المنحدرِ الطويلِ الذي يقودُ إلى مقبرة الحياة، وإلى الموتِ الحقير الذي لا يحرِّك غصن شجرة.

أنا لن أموت هكذا.

قصائدي مثلومة الزناد، وذاكرتي تملأها الأمراضُ والعِلل،

وحياتي كلها أصبحت متوقفةً عليكِ، متى تعودين، وهل ستفعلينها ذات يوم قبل أن أستمرئ الضياع، وأضيِّع نفسي؟

كم أتمنى لو أراكِ قبل أن أفقِدَ تماماً شعوري بلذائذ الدنيا، ولو افتديتُ ذلك بما تبقَّى من عمري مما لم تمرّ عليه عجلاتُ الغمِّ بعد وتملأه ثقوباً. أتمنى لو أجدكِ خارج مدار الأشياء، عائدةً إليَّ في غِلالةٍ بنفسجية، تشبِهُ تلك التي استقبلتني بها أول يومٍ في غرفتكِ. أنهمرُ بين يديكِ مثل المطرِ الصامت، وألقي عليكِ معطف سنواتٍ من الحرمان والخوف الذي نما في صدري مثل الحشائشِ البرية. ففي المرافئ الأولى يكون الأمان، وتهبط الطيور التي هاجرت خطأً قبل الموسم، وتصحو السماء من غيبوبة الليل، ويهدأ البحرُ الذي أرهَقَ أقدارنا، وأتأكدُ يا حبيبتي إذا ما زال بيننا شعور يدعى الحب.

أتذكرين يوم سألتكِ:

- هل تنسينني؟

وجاءني صوتكِ بعد صمت:

- وهل أستطيع؟

كان جوابكِ، أو سؤالكِ، يشبه الأفق الشارد، مغلّفاً بتنهيدةٍ تكاد تحرِقُ أسلاك الهاتف. وبكيتِ ليلتها بحرارة، لأنكِ ظننتني أتهمكِ باللامبالاة. لم أكن كذلك. كل ما في الأمر أني كنتُ أحذركِ بطرفٍ خفيّ أنَّ الزمن إذا سَلَك طريقاً سرّياً في داخلنا يكون أكبر ممحاةٍ في الدنيا.

«عندما يسكتُ الوفاء، أموت»، على كتابٍ ما كتبتُ لكِ هذه الجملة، وأهديته إليكِ، وفي داخلي أملٌ قديمٌ لم يعد يرضيني. كنتُ أتمنى أن تظلي في عقد الحب حبيبتي رسمياً كما أنتِ في عقد الزواج زوجته رسمياً. كنتُ آنذاك في أيام الحب الأولى أُقنِعُ نفسي بهذه الأوهام الصغيرة الجبانة المتخاذلة، أما الآن فلا شيء يعوِّضني دقاتِ قلبي التي تضيع سدىً، إلا أنتِ، بكل العقود الرسمية وغير الرسمية.

عاداتي تغيَّرت، ملامحي تشوَّهت، أقلامي تكسَّرت. أصبحَ مزاجي مثل ضفدعٍ نهريٍ في مستنقع آسِن، لا يلبث على طُحلبةٍ حتى يقفز فوق أخرى. كلماتي صارت حادّة. ولغتي تحوَّلت إلى مزيجٍ من الغمغمات والهمهمات التي أخاطب بها نفسي آخر الليل حتى اعتدتها واعتدتُ الآذان التي تنكِرُ مني كلمةً لم تكتمل، وحرفاً ظلَّ معلّقاً في سقف حلقي، وكأني أضنُّ على كل من سواكِ بالكلام والصوت.

حالتان من أحوالي لا أكون فيهما عادلاً أبداً. تعرفينهما جيداً يا حبيبتي. وأنا أعترف بأني عانيتُ الكثير منهما. الحزن والغضب. أفكر أثناءهما بطريقةٍ مقلوبة. أعكِسُ الأمور. أخلطُ الأشياء. وأحبسُ كل ما تتمخَّضُ عنه ليلةٌ كهذه بين جدران غرفتي ما استطعت، لعلّي لا أرتكِبُ حماقة.

حتى الآخرون لم تعد ردود أفعالهم رفيقةً بي. هم الذين لا يدرون

ماذا طرأ عليَّ صاروا غاضبين من كل ما آل إليه حالي، وكأني أختلس دموعي من مآقيهم، أو كأن رائحة أرقي تتسرَّبُ إلى ليلاتهم الهادئة فتعكِّرُ صفوها.

وألومكِ، وعلى جانبي ذاكرتي، تطرُقُ الأغنية القديمة التي تحبينها، بابَ العتاب «يا حبيبي، شرهة العاشق كبيرة».

لماذا ظلَّ حبنا دائماً في حياتكِ ضمن الأشياء القابلة للسلوى؟ ولماذا بقيتِ طوال الأشهر التي نعلم أن من خلفها الفراق مؤمنةً بقدرتكِ على النسيان أو التحمُّل؟

دائماً كنتُ أستجديكِ، أقولُ لكِ إني لا أملك وطناً سواكِ، وإن وجودكِ صار هويتي، وتاريخي وميلادي وانتمائي، وإنكِ صرتِ أعراق الأرض واحتواء القبيلة. وإنكِ أماني عندما يحاصرني الخوف، وجبيني عندما تضيع الأفكار، وزفيري عندما يدخل صدري شهيقٌ لا طريق له.

لماذا لم تصدّقيني؟ لماذا ظننتني أبالغ في هذا؟

تعالي الآن وانظري ما أنا فيه، ربما منحتكِ عيناكِ نسخةً أكثر مصداقيةً مما سمعته أُذناكِ من قبل.

ربما صَدَقت معكِ نبوءة السلوى والنسيان هذه، أما أنا فلم تصدق معي بتاتاً. ما زلت حتى الآن ينتابني شعور الليلة الأولى من فراقكِ. لم تزل لأدمعي الملوحة نفسها، ولم يتغيَّر في حياتي أيُّ شيء. لا السواد، ولا الصمت، ولا الغثيان، ولا القيء الفكري الذي

يُرهِقُ دماغي أوهاماً وتخيلاتٍ و رؤىً ساذجة، ثم يرميني على عتبة الفجر، مخلوقاً بشرياً بالياً.

ربما كان مريء الإيمان عندي أضيق مما يسمح بابتلاع صدمة فراقكِ وهضمِها. ككل الفواجع التي تكوِّرها يد الأقدار لتلقي بها في أفواه البشر. ضعفي الأزلي منذ الطفولة تعامد تماماً مع فقدي لكِ ليشيد في المنطقة المغلقة داخلي حاجزاً عاطفياً يمنعني من أن أكون طبيعياً في ردود الأفعال، ويمنعني حتى من النسيان أو محاولة النسيان.

منذ صغري وأنا أمارسُ عادتي السيئة في حبس دموعي. كان البكاء يندفع بقوة قادماً من قلبي الجريح ليصطدم بحلقي وأكتمه بصعوبة، حتى يعود مرةً أخرى لينتشر في صدري، ويملأه أشلاءً وملحاً. كبرتُ بهذا الصدر الضعيف، واستقبلتُ رجولتي بدَيْنٍ ضخمٍ من الدموع، ما زلتُ أسعى في سداده، وما زلتُ أمنح الحياة كل ليلةٍ قسطاً طويلاً من البكاء.

أنا مريضٌ يا مها. لستُ رجلاً سوياً حتماً. لا أحد يحب مثلي إلا المرضى. سينكرون عليَّ كل حرف، وكل ضعف، وكل حماقة. سيقيسون الحكاية بميزان الأسوياء فيجدون أني مجحِفٌ في حقِّ نفسي، ولو شئتُ لعدَّلتُ ميزانهم، حتى يبدو عادلاً عندما تنام في إحدى كفّتيه امرأةٌ مثلكِ، وفي الأخرى أحزانُ رجلٍ مثلي.

قسوة الليل والنهار لا تساعدان على التماسك. حالةُ انهيارٍ شاملة تتفقُ عليها كل أفكاري. همّتي خارت بعنف ولم تعد قادرةً على منحي

ما أعالج به نفسي من العزيمة. لم أكن أؤمن بعلاجٍ إلاّكِ، وأن سقمي هذا لا ينتهي إلا باثنين، أنتِ أو الموت.

لو كان وهماً، لاستسلمتُ لوهنه في انتظارِ حلمٍ جميلٍ يأتيني بكِ، عائدةً إلى حبكِ الباقي، قبل أن لا يبقى.

كل شيء قاسٍ يا حبيبتي. البرودة تسكن كل الأشياء. ولا شيء يبعث الدفء في داخلي إلا نبرة صوتكِ، وحرارة جسمكِ، وأنفاسكِ التي أصبحت تعطِّرُ صدر سالم. ولم يبق لي أنا إلا دفءٌ أستجديه، له صفة الحرارة، وليس فيه احتواؤكِ ولا أمانكِ، إنها سجائري وحبوب النوم.

***

كنتُ أحايدُ دائماً عندما تتكلمين عن حسن. لأنَّ هذا الرجل لم يكن وجوده يتيح لي حتى فرصةً للكلام. حضوره الطاغي على دقاتِ قلبكِ تركني أهيم على وجهي بعيداً عنكما، وأنسحبُ إلى الظل، وأبكيكِ عن بُعْد كما يبكي الغرباء.

ما زلتُ أتذكَّرُ حتى الآن. الليلة التي سألتكِ فيها، بعد مرور قُرابة الشهرين على غيابه، إن كان قلبكِ ما زال ينبض بحبه.

قلبُ امرأةٍ مثلكِ لم أكن قادراً على ملئه وحدي، ولكن حسن كان قادراً على شغله حتى آخر ركنٍ تأتيه الدماء. إنه رجل الغياب الثقيل، الذي يخيِّمُ على الذكرى مثل الليل، وكأني أنا لم أشْغَلْ

قلبكِ إلا من بعد أن بدأ هو الانسحاب، وبقدر المساحاتِ التي تركها فحسب.

لم أكن أرغَبُ أن أناقشكِ في أمره. ماذا بوسعي أن أقول؟ حقيقة الأمر لم أكن أجرؤ على ذلك، وكأنني كنتُ أظنكِ لن تتكلمي عني يوماً من الأيام كما تكلمتِ عنه، وإن كنتُ لا أتمنى أن أكون ذلك الغائب الذي تتحدثين عنه لأحدهم.

هذا الرجلُ الذي يبكيكِ على كتفِ رجلٍ آخر هو رجلٌ يحمِلُ معه حضوراً من العشق يجعل الاقتراب من حُرمته أمراً يدعو لمعاودة التفكير. فلو كنت طالبتكِ بنسيانه تماماً، وتشفَّعتُ إليكِ بما لي من حظوةِ عاشقٍ، في أيامه الأولى فكم سيلزمني من الوقت لألملم غيرتي التي أفصحتُ عنها بهذه الحماقة المتكبرة؟ وكأن قلبكِ لم يكن سوى لوحٍ في مدرسة يمسَحُ فيها كل معلّمٍ خربشاتِ الذي سبقه، ليضع خربشاته هو، في انتظار من يمسحها.

ليس المهم ما يكتبه في سبّورته، المهم ما يكتبه في رؤوس تلاميذه، وليس المهم ما نكتبه على الذاكرة، المهم ما نتركه في القلوب.

وحسن كتب على قلبكِ مباشرة.

سأنكمشُ مثل الأرنب، وكل ما فيّ يقطر حيرةً وخوفاً وحزناً.

كان هذا السؤال جرادةً قبيحة أفلتت من قلبٍ يقطر غيرة. ولم تكن هذه الجرادة التي طارت في حماقةِ الهزيعِ الأخير من الليل

تستحق أكثر من الموتِ تحت أقدام صراحتكِ وصدقكِ وجوابكِ الذي أوجعني.

تنفَّستِ بعمق، ثم أطلقتِ تنهيدةً متوتِّرة، ونطقتِ بصوتٍ ضعيف:

- نعم، ما زلتُ أحبه.

وسكتُّ أنا، وابتلعتُ جرادتي الميتة، لعل أخرياتٍ غيرها في قلبي يعتبرن بها.

حارّاً كان بكائي تلك الليلة. على أنفاسِ الفجر جلستُ وكبريائي وقلبي، نلملمُ بعضنا بعضاً، ونبكي بعضنا بعضاً، ونعزِّي بعضنا بعضاً، في مأتم تلك الجرادة.

رحتُ أتساءلُ تلك الليلة: كم من الجراد يا ترى يستطيعُ رجلٌ مثل حسن أن ينثره في مزارع صدري، لتقضُمَ فيه بنهم، وتُهلِكِ محصولَه من الكبرياء؟

وكم من الجرادِ تستطيع امرأةٌ، تحبُّ بمثل أسلوبكِ، أن تقتلَ في مواسم الغيرة؟

وكم من الوهم يلزمني إذن لأتجاهلَ حبكِ له؟

ربما كنتِ تطيِّبين قلبي برحيلِ حسن. سمحتِ لي ذلك اليوم أن أسمع رسالته الأخيرة التي تركها لكِ من مرسيليا. كان يخبركِ فيها برحيله، وأنه لن يعود، ويبثكِ حزنه واشتياقه إليكِ، ولكنه عاجزٌ عن البقاء معكِ ما دمتِ مخطوبةً لرجل آخَر، وفي آخِر رسالته، استعبر، وترك قبلةً، ومضى.

شعرتُ بإهانةٍ خفيةٍ وهو ينفُضُ كبرياءه أمامي، ويترككِ لخاطبك. كم يلزمني من الثقة بالنفس حتى أفعل مثله؟ أليس يجمعني به في النهاية المصير نفسه؟

لماذا نقدِّم أنا وحسن الأكثر ونظفر بالعدم، ولا يقدِّم سالم شيئاً يُذكر ويظفر بكِ كلّكِ؟

أين ميزان العدل الذي تبنَّى قراركِ بالرحيل عني؟

لم يعد يكفي أن نقدِّم حباً لكي نتزوّج، صار يكفي أن نقدِّم مالاً، ونأتي أولاً، فنسرق حبيباتِ الآخرين.

كنتُ بحاجةٍ إلى من يقف معي أمام زحف الأسئلة التترية هذا. شخصٌ يفهم لغة جرحي تماماً لأنه استقاها من المورد نفسه. مشاعرُ متشابهة على صفحة مرآة واحدة، وكان حسن هو الوحيد الأقرب إلى حيرةٍ كهذه.

هل أبحث عنه؟

هل تكلّم التاريخ أنَّ عاشقين متعاقبين جلسا ذات يوم على كرسيِّ خيبة واحد، يتقاسمان رغيف الخذلان؟

لا يهمني التاريخ. القرار الصائب لا يكون له سوابق في الماضي. الماضي جملة أخطاء بشرية ندفع ثمنها اليوم. جلستُ أمام جهاز الكمبيوتر أفتِّشُ في الإنترنت عن اسمه، دون جوان، الملايين ينتحلون هذا الاسم، الآلافُ منهم في فرنسا، المئاتُ في مرسيليا، والبعض منهم فقط عرب.

هذا هو حسن أخيراً، أحياناً تسهِّلُ علينا التكنولوجيا عملية اصطيادِ الأوجاع.

تجمّدتُ أمام جهازي وأنا لا أدري بماذا أبدأ معه. ألقى عليّ جملة ترحيبية قصيرة، بدت حروفي مرتعشة وأنا أردها له، ثم أصمت.

كيف أفسِّر له علِّة بحثي عنه؟ كيف أحاول إثارة اهتمامه قبل ريبته؟

بدأ حديثنا بالياً قبل أن نبليه. رميتُ أسئلةً عتيقةً على سطحه البارد. كنتُ أبحثُ في إجاباتها عن فُرجةٍ أمرِّرُ منها قصتي الطويلة، ولكنّ عباراته ظلَّت قصيرة، ومعانيها غائبة.

قررتُ أن أكتفي بالتعرف عليه اليوم، وأخبئ قصتي حتى تتوثق علاقتي به.

نجحتُ في كسب ودّه وصداقته. أدهشتني ثقافته الواسعة، واتزانه الواثق، وقدرته الواضحة على العطاء والاحتفاء.

بعد أيام، صار لقاؤنا أكثر صراحة.

سألته:

- هل أحببت من قبل؟

- مطلقاً.

كاذب.

لماذا تحوَّل العشق عنده إلى إثمٍ يتبرأ منه؟ هل إلى هذا الحد غيَّرتِ عقائد الحب عنده؟

سيلقي بي بعيداً عندما يصرّ على كذبه. ستضيع كل جهودي في

البحث عنه سُدى. ستسقط من يدي علبة الدواء الأخيرة في الوادي السحيق.

قلتُ له:

- أنا أحببت.

- وما زلت؟

- أجل، وأنت تعرفها، إنها مها..

صمت طويلاً قبل أن تعود حروفه على الشاشة مرةً أخرى. ربما كان مصدوماً بعض الشيء، أو ربما بدأت تترابط أمامه الأفكار، بعد أن عرف عِلّة بحثي عنه.

سألني بكلمة واحدة.

- متى؟

- بعدك. في الخامس من أبريل الفائت، إني أتذكَّر رحيلك عنها.

- وماذا تريد مني الآن؟

لم أدرِ بماذا أجيبه. لماذا بدأ يخاطبني بهذا الجفاف وكأنه يستعد لطردي؟ هل ظن أني أشمتُ به؟ سارعتُ لأن أنفي ذلك قبل أن يرحل.

- أريد أن أتوكّأ على عَضُدٍ يفهم شكل عرجي.

- أي عرج؟

- مها تزوجت، ورحلت.

- إذن لم تكن أنت زوجها ذاك.

- لا.

صمت حسن قليلاً، قبل أن يعود للكتابة.

- لم أكن يوماً ما عُكّازاً لأحد. عليك أن تتعلم كيف تمشي وحدك عندما تتخلى عنك امرأة، أو تتعلم القفز على رجلٍ واحدة.

- أنت تقول هذا لأنها أبقت لك رِجلاً يا عزيزي، أو أنك نجوت برجلك. أما أنا فعليَّ أن أزحف على بطني بقية العمر.

صمت طويلاً هذه المرة، قبل أن يعود.

- خذ رجلاً خشبية. إنها أكثر وفاءً من أرجلنا أحياناً.

ورحل عني تلك الليلة، وبقيتُ في دوّامة غيابه.

***

- أتعلمُ يا بُنيَّ لماذا يموتُ المسنّون أخيراً؟ ليس لأنهم استنفدوا سنواتهم، وما تبقى لهم من العمر، ولكن لأنهم من خلال سنواتهم وعُمرهم فهموا الحياة، ويا للأسف. وعندما يفهمونها تطردهم هي بدورها، ليظلَّ ما فهموه سرًّا تحاصره قبورهم وأوراقُ ذكرياتهم.

كان الخريفُ يُعرِّي آخر الأشجارِ في ويسلر. المدينة القريبة من فانكوفر، ليتركَ الطرقاتِ حائرةً بالأوراق الصفراء التي تحرِّكها الريحُ بملل.

شيء من مشهد الأوراق التي تخلَّت عنها أغصانها في خيانة

الخريف تلك يشتركُ مع كلماتِ مس تنغل. إنها تتكلم عن الأوراقِ اليابسة، والسنواتِ الصفراء، والعمرِ الميِّت، وخطٌ طويلٌ من الكآبة يمرُّ بكل شيء.

تبدأ كلامها دائماً بدهشة.

وأجترُّ أنا غُصص أحزاني، وأعيد بلعها.

أقول لها:

– لو كنتُ فهمتُ بعض الأشياء لكان خيراً لي.

– لا تفهم. قف عند السطر الأخير دائماً ولا تقرأه. السطر الأخير مسمومٌ يا بني. حاذر أن تلقي بعينيك عليه. إنَّ اليوم الذي رَحَلَت فيه فتاتك ولم تعد كان هو السطر الأخير من حبكما. ليتك لم تنقشه في ذاكرتك يوماً لتوفِّر على نفسك هذه التعاسة. كان أجدر بك أن تشتقَّه من الصفحاتِ السابقة فقد كنتَ بالنسبة إليها أسطورةً صغيرة تسبِقُها الدهشة فحسب، ولكنَّك صرتَ في السطر الأخير يا عزيزي حكايةً صدئة.

تلفظُ مس تنغل كل عبارتها السابقة، ويبقى فمها مفتوحاً وكأنها تريدُ أن تقول شيئاً آخر ولكنها تغلقه أخيراً. وتعودُ بظهرها لتستند إلى الكرسي.

لماذا هذا الاستنتاجُ المؤلمُ للحقيقة في الزمن الذي أحتاجُ فيه إلى وهمٍ رحيمٍ أغلق به جرحي؟ هذه العجوز التي شذَّت من بين الأشياء الملتحفة بالغربة هنا أصبَحَتْ، على غير عادتها، تفتحُ آلامي

بجرأة. صارت كثيراً ما تكشط سطح الصمت الذي أتدثر به وتتركني مرةً أخرى في مواجهة البرد وحدي.

أحصُرُ نفسي بين دائرتين في فنجان القهوة. تقلِبُ مس تنغل جريدتها بلا مبالاة، وتقرأ بجفنين منغلقين تقريباً عبر زجاجِ نظارتها الموشكة على السقوط، وتتجاهلُ وجودي تماماً.

أين كان السطر الأخير معكِ؟ هل لمثلكِ سطرٌ أخير؟

كلّما نظرتُ إلى بطنكِ تخيَّلتُ شكل أطفالنا.

كلّما بكيتِ في وجل الخوف من الفراق، وحشرتِ وجهكِ في صدري، وعدتكِ أن أنتظركِ فلا تقلقي. أمارس القوة وأنا لا أدري أن كل صولجانات الحكم في يديكِ.

كلّما أخذتني بعنف عناق، تهذين: «أنت لي، وحدي»، وأهمسُ في هذيانكِ «وأنتِ؟»، تجيبين دون تردد: «لكَ أنت». تُرى أين هو السطر الأخير في كل هذه الانفعالات الممدودة إلى آخر حقول الدنيا؟

هل من الممكن أن أنسى امرأةً قالت لي كل هذه الكلمات، وأبدعت معي كل هذه الأشياء، وصبَّت في دمي كل هذا الحب؟

كنتِ تعدين بالعودة ولا تنطقين بها، فهل أضحّي بهذا الأمل الذي يتأرجح بين الحقيقة والخيال؟

وقوفاً على رصيفٍ طويل أعلمُ أنه لن يقود إليك، ولكنَّ مسافة العجز أخذتني إليه، أسألكِ عبر يأسي، إذا كان ما تقوله هذه المرأة حقيقة؟

لستُ أدري ما يمكنُ أن يُغيِّره هذا الفهم المتأخر، ولكني أشعرُ بحاجةٍ إلى الفهم أكثر مما أحتاج إلى النسيان.

كنتُ أخشى أن يبقى كلامها مبتوراً هكذا قبل أن تلقف الجريدة، حتى لا يظلَّ مِبضعها في صدري طويلاً، فلست أدري متى أجري معها جراحةً أخرى.

أعود بهاجس:

- مس تنغل، حبّنا شيء آخر. لم تكن قصتنا من المعدن حتى تصدأ. لم نكن مراهقين نقبض على طرفي علاقةٍ عابرة. لم تكن الأشياء تستقرُّ في قلبينا بهذه السهولة. حبنا جاء صعباً. كان يتسرب أحدنا في الآخر حتى يخرُج منا الليل. ما زال في جسدي شيء منها. نما وكبر وبدأ ينهمر على غصنه الغائب مثل الصيف. لستُ أحتاج في ساحل الحزن إلى موجةٍ كهذه، أنا أعرف كيف أنسى، عندما لا يبقى لي إلا النسيان.

ألقيتُ الجملة الأخيرة مُشيحاً بيدي، والتقطتُ فنجاني لأرشف منه.

كم من الرشفاتِ ليست إلا مقابرَ ارتباكٍ عابر؟

بدا لي أن كلماتي لم تحرِّكها قيد شعرة، ولكنَّ صوتها الذي جاء من وراء الجريدة كانت له نبرةٌ أخرى.

- ما دمت قادراً على النسيان فلتنس إذن.

- لا أريد لنا نهايةً كهذه.

- ولماذا يجب أن تكتب النهاية وحدك؟

- . . . .

من قال إني أحبُّ الجُمَلَ القصيرة؟

عندما يختزلنا حوارٌ ما إلى هذا الحد، فمن المؤكد أن كلماتنا ستكون حادّةً فعلاً، أبعد ما تكون عما نريد.

ماذا يجبرني على تحدِّيها. ما جئتُ هنا لأقاتل وأنافح عن حب امرأة لا أريد أن أنساها. لا أريد أن أتخلى عنها. لا أريد أن أطويها في سجلٍّ حياتي.

أنتِ امرأةٌ محرَّمةٌ على النسيان.

أنتِ امرأةٌ لا تجيء فاعلاً لفعلٍ ماض أبداً ولو انقلبت كل قواعد اللغة.

إن للحب قوانينه عندي. وهي أولى عندي من كل لغاتِ البشر وقوانينهم.

ولكني جئتُ هنا لأجرّب الاستسلام، حقناً للأوجاع.

أقول:

- لا أريد أن أنسى مها. شيء في داخلي يرفض أن أطوي حبي لها هذا الطيَّ الجاحد. أيُّ مغفرةٍ تلك التي تكفي ذنبي عندما تعودُ ذات يوم لتجدني قد نسيتُها. مها امرأةٌ مختلفة ولكنها ما تزال مثلهن. إنها تحبُّ حتى ما قبل الجنون بقليل، ليس لأنها تبخلُ بالحب، ولكن لأنها تخافُ الجنون ليس إلا، فالنساءُ هناك لا يملِكنَ الكثير حتى

يضحين به في بلدٍ يعتقِلُ حتى نبضاتِ قلوبهن. الحب في بلادنا لا يحمل إقامةً شرعية لذلك لا يُفْصِح عن نفسه، بل يمشي متخفياً عن العيون. وأنا أعذرها قليلاً في ما فعلته، لم يكن بوسعها أن تلتفَّ على وطنٍ بأكمله.

كانت مس تنغل تبدو وكأنها تعرِفُ مُسبقاً ما سأقوله، عاد بي صوتها هذه المرّة إلى دفئِها الذي خشيتُ أنه انتهى.

- هل تُجدي المرافعاتُ بعد صدورِ الأحكام يا ولدي؟

- إنهم يحكمون بالعقوبة وليس بالذنوب. مرافعاتنا المتأخرة تلك هي التي تضع الحدود الأخيرة وتطلق حكمها الإنساني على أفعالنا.

- وهل أطلقتَ هذا الحكم بعد، أم ما زلت تنتظر شيئاً ما لن يأتي؟

يُفسِدُ عليَّ كلامي مع مس تنغل أني كنت أخفي عنها أنكِ ربما تعودين. كنتُ أخشى أن تظنَّ بكِ سوءاً، أنا الذي صرتُ أحميكِ حتى في أذهان الناس. لأن الأمر سيبدو لها وكأنه حكاية الحب الأزلية التي تكرِّر نفسها كل جيل، وأنا ما زلتُ أشتري كلماتها بأحزاني، وأخشى أن تُطْلِق عليَّ حكمها الأخير قبل أن يكتمل البوح. يكفي الآن أن تعلم أن ظرفاً ما وقف بيننا وكفى.

كيف أخبرها عن دمعتكِ؟ هذه الساخنة الطافرة من جفنكِ مثل الجمرة، تقطر على صدري وذراعي، وأنا أمسح بيدي جبينكِ، وأقبِّلُ الخدَّ المبتلَّ المالح.

ما أوفى أن يقبِّل رجل دمعةً نزلت من أجله.

وجهكِ طفلٌ عندما تبكين. وأنا أتنفَّسُ في بكائكِ رائحة أمل. كنتُ أقول دائماً في نفسي إن امرأةً تبكي بهذه الحرارة لن تبقى جبانةً إلى الأبد. يوماً ما ستعرفُ من أين تأتي قيدَها، ولسوف تعودُ للرجل الذي أحبته.

ولكنَّ دموعكِ هذه لم يرها إلا أنا. سأظلُّ عاجزاً أن أحكيها لمس تنغل. وستظلُّ هي تظنني مريضاً يحتاج إلى العلاج. لم أكن بحاجةٍ إلى تبرير موقفي أمامها. أنا الذي ما زلتُ أقتاتُ ببعض إيمانها في غربةٍ لا ترحم. ولكني كنتُ أريد أن أحتفظ بمكاني في دائرةِ الأمان الصغيرة تلك دون أن تظنني هي مجرد عليل يتظاهر بالصحة.

سأبدو، لو قلتُ لها إني في انتظاركِ، كمن أفقدته الصدمة قدرة التفريق بين وهمٍ وحقيقة. وأنا دائماً أرفض أن أبدو مشتتاً أمام نظرات الآخرين، وأحاول أن أحتفظ بقدرٍ من الثبات، أتوازن به حين أرتطم بواقعٍ ما، حتى لا يعلم أحدهم كم أنا تائه.

ودائماً أفقد هذا الهامش أمام العيون التي تقرأني قبل أن أتكلم. ودائماً أشعر بالرغبة في البوح أمام هذه الأعين بالذات، لأنها تختصِرُ عليَّ الكثير من التعليل خارج مطر الاعتراف، وكأني لا أبحثُ عن عينٍ تسأل، ولكني أريدُها أن تقرأ معي في داخلي، لأعترف أنا بشيء وتقرأ هي البقية.

ومنذ يومي الأول معها وهي تقرأني حتى آخر ذنب. حتى أنتِ لم تقرأي بعضي كما تفعل هي. كثيراً ما وقفتُ معكِ أمام طُرُقٍ مسدودة

أسكتُ بعدها. بل إن فراقنا هذا نفسه لم يكن إلا آخر الطرق المسدودة، طال بعدها السكوت، وجاء وقتُ الكلام.

إنَّ هذا يليقُ بها، هي التي جَلَسَت لتأخذ من الحياة ثلاثين سنة، على كرسيٍّ متحرك.

هل هو المشي الذي يمنعنا من الفهم إذن؟ لقد أعطاها حبٌّ ما ثلاثَ سنوات، وأخذ منها ثلاثين أخرى، وتركها على حدِّ الستين، قاب قوسين أو أدنى من الفهم، والموت.

عندما يُطلُّ صباحٌ مُشمِسٌ نادرٌ على فانكوفر تمكُثُ مس تنغل صامتةً أمام المضيق البحري الهادئ، وكلما تأملتُها من نافذة شقتي أشعرُ أن الدنيا اتخذتها محوراً بشرياً هذا الصباح، وأنَّ أشياء كثيرةً راحت تدورُ حولها قبل أن تأخذ طريقها نحو البشر.

ولكنَّ جلوسَها الطويل أرهقها كثيراً. ماتت أعصابُ قدميها تماماً وتخلخلت دورتها الدموية، فأورثتها الستون ضغطَ دمٍ مرتفعاً، ونوباتِ قلبٍ قاسية. كانت تلك النوبات تأخذها فجأةً دون أن تشعر بدنوها، فاعتادت أن تترك باب منزلها مفتوحاً طوال النهار، وتتخذ لها خادمةً تقيم معها تحسّباً لنوبةٍ ما، ولكنَّ النوبةَ جاءت ماكرة ذلك اليوم.

عند الصباح، أدركتُها أنا بنفسي وهي منكفئةٌ في شرفة منزلها وقد أنهكها الألم تماماً. كانت عيناها متعبتين بعد أن فاوضت قلبها طويلاً، وكان أنينها خافتاً، ووجهها يعلوه اصفرار الموتى، وأنفاسها هامدةٌ تقريباً، ويداها، ويدايَ، ترتعشان.

مرَّت نوبتُها تلك بسلام وعادت إلى بيتها وسناجبها. صرتُ أقضي معها ساعات طويلة. نخرجُ فيها إلى مقاهٍ، وضواحٍ قريبة، ومزارع، وغابات تحيطُ بالمدينة من الجهاتِ الأخرى التي لا يحدُّها البحر. وكنتُ أرفعُ عنها نوبةَ القلب، وتمنعُ هي عني نوبةَ الكآبة. فليس في شقتي إلا الوحدة والصمت وصورتكِ التي أجاهر بها ألمي وأبتزُّه بها.

هل قلتُ صورتكِ؟

أجل، صورتكِ التي ورثتُها أنا في جملةِ القليل مما ورثته منكِ، قبل أن يسرِقَ سالم كلَّ شيء، ويُبقي لي فُتات الأشياء.

أخذ سالم ما يبقيه سعيداً، وأخذتُ أنا ما يبقيني تعيساً.

كم أنتِ عادلة!

تركتِ لي أمصال البكاء التي أستدرُّه بها من ثدي الذكرى، وأعطيته هو سعادة العمر التي لا تنتهي، وبين ذراعيه أروع امرأةٍ يمكن أن يحلم بها رجلٌ مثله.

لأني دائماً أفرغ حقدي عليكِ بكاءً، أنا الذي لم أكن أبكي حتى في أضعف لحظاتِ طفولتي، لأني كنت أراه عاراً لا يجدُرُ برجل. بقيتُ محتفظاً بهذا المبدأ، متمسكاً بهذه العقيدة، حتى عرفتكِ، لأنكِ امرأةٌ أسهل ما تفعله تغيير العقائد، فجاء بكائي كبكاءِ الشمعة، يأكلُ من عمرها، واكتشفتُ أن البكاء لم يكن يجهل عنواني بل كان ينتظرني في أول الشارع، وأن دموعي لم تكن خاليةً من الملح

البتة، وأن غُدَدَ الدمع ثرَّةٌ ومدرارةٌ كثدي الذكرى الخصب.

حتى الآن في فانكوفر ما زلتُ أبكي.

كان عندي بيتٌ وسريرٌ وحبوب صُداع، ولكني أبكي عند مس تنغل، بعد أن تأكدتُ أنها ترمقني بعيني أمّ، وأنّ شيئاً من دموعي لن يَعْرَى، ولن يجفَّ دون ثمن. كانت تمنح دموعي انثيالها الطويل، وتجرُّ كرسيّها، وتربّتُ كتفي، وربما أخذت تبكي معي.

دائماً يبكين معي. أمي تبكي إذا بكيت، وأنتِ تبكين، ومس تنغل. ليس من السهل اللجوء إلى ذراعي امرأة. أنتنّ لم تُخلقنَ لكي نلجأ إليكنّ، ولكنَّا خُلقنا نحن لنتجاهل كل شيء، ونزحف نحوكنّ على قلوبنا بكاءً.

ولكن مس تنغل كانت أكثركنَّ خبرة. كانت تواسيني قبل الشكوى، وتمسحُ خدي وهو جافّ، وتعزّيني قبل المصيبة، وتضمُّني كأمّ، في آخر لحظة، قبل أن أنهار.

كانت عيناها وقلبها دقيقة جداً في قياس أوجاعي، وكانت تعرفُ جيداً متى تتدخل لتنقذني، لا لتزيد الصداع صداعاً. كانت تعرِفُ حدودي الأخيرة التي لا أتماسك بعدها، وكلماتي الأخيرة التي أبكي من خلفها، ولكنها تَغفلُ عني أحياناً، فتأتي وقد سبقتها الدموع.

***

يا لهذا الحبِّ الذي يجعلني متصوّفاً ويحوِّل أوراقي التي أريدها أن تبدو رواية إلى تهويمات عاشق يهذي، وانهمارٍ على دائرة مغلقة، وانحباسٍ دورانيٍ على محورِ امرأة، وترتيلٍ طويلٍ بما وجدتُهُ فيكِ، ووصفٍ ربما كرَّره قبلي آلاف العشاق. ولكن من جرَّب العشق يعرِفُ أنَّه يشبهُ التنفُّس، لا بدّ أن يتكرَّر لنظلَّ أحياء.

إما أن أكتب لآخرين أو أكتبُ لكِ. لا أفهم كيف انطحنتُ تماماً في رحى روايتي هذه. التفاصيل الصغيرة قد تعنينا معاً. أما هم فتعنيهم الأحداث الكبيرة فقط. شَجَني عندهم غزلٌ مكرَّر، أحزاني دموعٌ قديمة، غنائي اسطوانةٌ مشروخة، كلماتي إرثٌ مشتركٌ لكل صبٍّ مولّه. يبحثون عن أسطورة، عن قصة، عن تسليةٍ ينامون عليها. صوت أنيني مزعج. ليس عندي ما يشتهون. أنا عاشق رحلت حبيبته فحسب، وتركت له قلماً وذاكرة.

ليس هذا ما يحدُّ من صناعة كاتب، ولكنّ ما يقيّدني فعلاً، هو أني أحببتُ امرأةً مثلكِ، لا يسعني أن أتجاوز تفاصيلها بسهولة.

التفاصيل التي يرونها مملّة، وأراها أنا غير ذلك، لأنها كانت تدور حولي أنا وحدي.

كم كنتُ أشعر بالغرور كلما تذكَّرتُ أن عندي حبيبةً مثلكِ لها كل هذا الاعتبار.

كم كنتُ جامداً إزاء أيِّ فتاة أخرى تحاول الدخول في حياتي.

كنتِ امرأةً تصنع وفائي لها بنفسها، لأني كنتُ أفي لكِ ليس من

أجلكِ فحسب، بل من أجلي أنا أيضاً، حتى تكتمل في داخلي روعة هذا الحب.

قديماً قال لي يوسف: «لم يعد الحب سلعة هذا الزمن. العشاق الآن مثل هُواة جمع العملات القديمة، قليلون، فارغون، ومتهمون بغرابة الأطوار».

يبدو أني ألاحقُ الآن عُملةً هي الوحيدة من نوعها في العالم.

صار حبي لكِ مُعقَّداً كشفرة، فلسفةً عميقةً أطبِّقها بكل حذافيرها ولا أفهم منها حرفاً، لأن فهمها كفرٌ، بينما ترديدها صلاة، وإيماني بها يزداد كل لحظة. كأنَّ حبكِ نظامٌ دقيقٌ من النبضاتِ والأنفاس، تختلجُ في قلبٍ وحيد، بتناسقٍ، لا يعرف الخطأ، ولا التحوير، ولا الهمود. أشعر أنه كتابٌ كبيرٌ ما زال كما كتبناه معاً أول مرة. لم يؤوَّل، ولم يُحرَّف، نقشٌ أزلي متواتر، لا ينقص قُبلة، ولا يزيد دمعة.

حبٌّ نزل على حياتي مثل الغزاة. احتلَّني فعلاً. احتلَّ جسدي البكر الذي لم تطأه امرأةٌ قبلكِ،احتلّ الشفتين اللتين قبَّلتِهما وحدكِ؛ والعينين اللتين سكنتِ فيهما وحدكِ؛ الجسد الذي كنتِ أول من فصَّله ورسمه وكتب عليه عضواً عضواً؛ المناطق التي لم تكتشفها امرأة، والأوراق التي لم تقرأها أنثى؛ أصابعي التي ما مسَّت قبلكِ عشيقة، ولا مرَّت على شعر حبيبة؛ فمي الذي لم ينطِقْ كلمة الحب منذ تعلَّم الكلام لغيركِ، وظلَّ بعدكِ صامتاً؛ الرجل الذي فَقَدَ معكِ

عذريَّته، ثم ترهَّب، واحتملكِ في قلبه فخوراً بأنكِ المرأة الوحيدة التي اكتشفته واحتلته وامتلكته.

لماذا تتركين هذا الرجل وترحلين؟ هل حبٌ كهذا يستحقُّ يوماً أن يغورَ في التراب؟

ربما حَمَلَكِ كثرٌ في مآقيهم، ولكنكِ لن تجدي من يحمل مقلتيه إليك إلا أنا.

أيُّ رجلٍ في الدنيا يحلُمُ بامرأةٍ كما أحلم بكِ أنا؟ ينام ويصحو على أمل ويأس. ويظمأ ويروى بذات الكأس. يعيش لأجلكِ ويموتُ بكِ كل يوم. إذا لفَّ الليل غرفته بكى لكِ. وإذا فتح الصباح نافذته شكا إليكِ. إذا أشرَقَتِ الشمسُ قال مساءً تعود، وإذا غَرَبت قال غداً تعود. وأنتِ أبعد من شروقها وغروبها. وما زلتِ زوجة من لا يراكِ إلا زوجة، وضَجِيعَةَ من لا يراكِ إلا أنثى، ولو تركته لاختار غيركِ ولم يطرف له جفن، وأنا يحترق جفناي هنا كأنَّ على كل جفنٍ جمرة، وأنتِ صبحي وممساي، أفلا تدركين أيهما يستحقُّ وفاءك؟

جفَّتْ في صدري أوراقُ الغدِ قبل أن أبلغه. أحاولُ أن أفهمكِ. أحاولُ أن أفهم متى تدركين أن الحب يستحقُّ أن نتعب قليلاً من أجله، لنحيا طويلاً في جنَّته، وأنَّ القليل من الغبار الذي قد يثور، يغسلُ عيوننا، لتعودَ الرؤيةُ بعده أصفى، والأفقُ أوسع.

أتذكَّرُ مقولة كاتبٍ ما «فعلٌ ما قد لا يقودنا إلى السعادة، ولكن لا سعادة بدون فعلٍ ما».

ربما كان يدرك هذا الكاتب أن امرأة مثلكِ كغيرها قد يحبسها الخوف أو الإرهاق من أن تقطف سعادتها القريبة، أو أنَّ بعض الحب نتخذُ مع قرارنا بابتدائه قراراً بإنهائه، في يوم محدد.

أخيراً فعلتِ ما تريدين، ولم يُثر في حياتكِ شكٌ ولا غبار، وتزوجتِ سالماً كما أردتِ وأراد الجميع. فماذا بعد ذلك؟

لن ينتهي الحب يا حبيبتي. سيظلُّ هاجساً يحوم فوق رؤوسنا حتى نَرُدَّ له دينه، ونوفي له الكيل كما يستحق وكما أوفاه لنا كاملاً طوال سنة. لن يرضى أن نعلِّقه هكذا على مشجبِ الذكرى مثل قبعةٍ قديمة. إنه متطرفٌ أحياناً. إما أن يمنحنا سعادتنا كاملة متى سعينا لها أو يفسد علينا كل شيء.

ها هو بدأ بي وراح يَصُبُّ في فمي الحرمان، أنا الذي تَرَكَتْهُ حبيبته ضعيفاً هشَّاً، أبكي بمزحة، وأرضى بلحظة، وكأنَّ قلبي صار إناءً من الزجاج، لا فرق بين من يكسره جاداً أو مازحاً. هكذا أنا عندما كنتِ تشاكسينني مازحةً عبر الهاتف مراتٍ عديدة، فلا أشعر إلا بحرارةِ دمعةٍ سَقَطَت. ولو رأيتها لظننتني جننت، لأنها دُعابة، ولكن هذا ما فعله بي الحب.

أو أنني رجلٌ مريضٌ حقاً.

أيُّ امرأةٍ هذه التي تطوي رجلاً بين يديها مثل لولَبٍ معدني، ثم تطلقه ليرتدّ بعيداً، ويسقط على الأرض ملويّاً، فائضاً عن الحاجة، غير قابلٍ لإعادة الاستخدام؟

أي امرأةٍ تغيِّر أقداري، وتسرق حواسِّي الخمس، وكل ما يمكن أن ألمس به الحياة وأستطعمها، ثم تتركني وترحل؟

هل تركتِ لي فجوةً صغيرة أمرِّر منها امرأةً أخرى تضَمِّدُ جُرْحَكِ؟

هل تركتِ لي صفحةً خاليةً من جواز السفر، ليس فيها اسمكِ، أعلِّق فيها تأشيرةً ما، إلى وطنٍ جديد؟

هل تركتِ لي حتى مساحةً للحلم، أحلُم فيها بغيركِ، وأنجح في تحقيقه، لعلّي أنجو من هاجس الأحلام التي لا تتحقَّق، وتجعلني قاب قوسين من الجنون؟

لماذا تحرمينني من كل ما أطلب به السعادة، ثم تلتفتين إلى رجلٍ آخر، لتمنحيه كل ما تستطيعين من سعادة؟

ليس عندي إيمانٌ بغيركِ، فكل المسافاتِ التي أهرُبُ فيها تقود إلى عينيكِ في النهاية.

لأن الأوطان يا حبيبتي لا تُستبدل في مصرف العُملة، ولأن جوازاتِ السفر لا تمحو الهويّة، ولأنَّ الحب لا يمكن تركيبه متى نشاء، مع من نشاء، بل هو الذي يختار العشاق، ويأخذ من أنفاسهم، ونبضاتِ قلوبهم، ويعجِنُها ببعض، ثم يتركهم لبعضهم إما أن يؤمنوا أو يكفروا.

كان لا بد أن نقف من أجله ضِدَّ كل ما يعترضه. لا حُبَّ يأتي مع التيار يا حبيبتي. الحبُّ يبشِّرُ بالسعادة، وينذِرُ من الشقاء، ويحمِلُ بين يديه قنديل الهدى السنيّ، ويمشي وحدَهُ في الطريق المظلم، ولا يتبعه إلا قلة.

ماذا فعلنا من أجل حبّنا؟ رُبَّ رجلٍ هام على وجهه سنواتٍ حتى استعاد حبّه، ورُبَّ فتاةٍ تدلَّت من شرفتها حتى صارت قاب قوسين أو أدنى من السقوط، ليخلو سبيلها مع حبيبها، وكلّهم يظنونهم مجانين، ويرجمون سيرهم ومبدأهم.

كانت حلولنا أسهل بكثيرٍ مما وصل إليه غيرنا، ومع هذا تخاذلنا. أوهمنا أنفسنا أننا سنذنب عندما نمارس أبسط حقوقنا الإنسانية، حق تقرير المصير، وَقَفْنا في منتصفِ الطريق.

لماذا ظننتِ أن تركك لسالم، أنتِ التي بكيتِ طويلاً ليلة فراقنا، سيورثكِ شعوراً بالذنب لا يفارقكِ طوال حياتكِ، بينما الذنب الحقيقي هو أن تتزوجي من لا تحبّين، وبين يديكِ من تحبّين، وأن يبقى قلبكِ ينبض بحب رجل، بينما تعاشرين آخر، وأن ترحلي عني، وأنتِ تعلمين أنكِ تطفئين سراج حياتي وراءكِ، لأبقى طوال العمر أتخبط في الظلماء بلا أمل.

حاولي أن تعيدي وزن معادلة الذنوب يا حبيبتي، ربما تتغيَّرُ أشياء. ربما يأخذ الحبّ بيديكِ هذه المرّة إلى القرار الذي كان يجب أن يُتَّخذ، بعد أن كلّفني إهماله الكثير من العمر والدموع.

كم ينقُصُنا من الفهمِ الصحيح حتى نفهم أن بعض ما نظنه مثالية لم يكن إلا وأداً في الزمن الأخير، وأنَّ ما يفصِّله لنا المجتمع من مبادئ قد لا يناسب أجسادنا، فلماذا لا نفصِّل مبادئنا بأنفسنا، مادام الهدف الأخير هو ستر العورة؟

وكم تنقصنا من الشجاعة حتى نكفّ عن محق ابتساماتنا لتبقى ابتساماتهم، وقتل اختياراتنا لتحيا اختياراتهم، ونتوقَّف عن تقديم القرابين لإرضائهم، وإطعام حرياتنا لنار سُلْطَتهم المقدسة. سيموتون أخيراً، ونبقى بعدهم في الحياة وحدنا، مكبَّلين حتى الموت بقيودهم الخاطئة.

وكم من الثائرين الذين سبقونا بالإيمان يجب أن يُعلنوا عن أنفسهم، ويحكوا لنا قصة تمرّدهم ونجاحهم، وسعادتهم التي انتزعوها بأيديهم، فكان هناؤهم بها أعمق، واستمتاعهم بها أبلغ، وقد تعبوا قليلاً في سبيلها، فنالوا الكثير من بهجتها، وكانت ذكرياتُ حصارِهم أجمل، وكان لقاؤهم بعد كل هذا يشبه التقاء الشمس بأول جزيرةٍ إلى الشرق من الأرض.

كم منهم يجب أن يجلس معنا، ويكشِفَ سرَّه، ويخبرنا بما فعلوا من أجل حبّهم، حتى لا نشعر أننا وحدنا على الطريق.

وكم من الأنبياء يجب أن يَبَعث الله في الأرض حتى نعلم أن بعض ما يقيِّدُنا به المجتمع ليس حقاً، وإنما هي عاداتٌ تحوَّرت لتأخذ شكل العقيدة، فصار كل من يخرُجُ عنه وهو على حق، كأنما خرج من مِلَّته التي يستعصم بها.

وكم من السنواتِ يجبُ أن تمرَّ حتى يولد في داخلنا القرار، قبل أن يولد في زمنٍ لا يجد من يحتضنه فيه، فيشنُقُ نفسه بحبله السرّي، لأن تاريخ ميلاده لم يعد له معنى للأسف.

وكم من الوفاء نحتاج لكي نفعل شيئاً من أجل حبنا الذي عرفناه مختلفاً، وتعاهدنا على إبقائه كذلك، فإذا هو يموت حقيراً، ذليلاً، في عرصاتِ الوحدة.

وكم من الدهشة تلزمني لأفهم كيف صارت حبيبتي التي أحببت فيها أول ما أحببت اعتدادها بنفسها كأنثى، فكان تمرُّدها جميلاً، وصوتها بالغاً كل مدى، كيف صارت خائفة، مقيدةً بذُلٍّ مقيم، وملقاةً تحت جسد رجلٍ لا تستطيع أن تتخلص منه.

سيقول بعضهم إنني أكتبُ منشوراً محرّضاً، سأقول إني أكتبُ حيرة رجل لا يدري كيف تكأكأت عليه الأقدار بهذا الحقد، إنه لا يدري أيواجه مجتمعاً لا يعترف بنبضات القلب إلا في غُرف العمليات، أم ظروفاً تتحدى بعضها أمام مرآته أيّها يبدو أقبح.

الأسوأ من ذلك أنه يواجه قناعاتِ حبيبته نفسها. تراوغه كل يومٍ بمبدأ ضحل، بدمعةٍ غريبة، بذنبٍ مفتعل، بقرارٍ مختلف، بفكرةٍ ظالمة، بعذرٍ مُختلق. الهدف أن تقنعه أنها يجب أن تتخلى عنه، وتتركه نهب الأحزان، دون أن يطرأ له أن يلوم قرارها الذي حطم حياته.

لماذا لم أكن أواجهكِ بهذا عندما كنتِ بين يديّ؟

هل تصبحُ حجّتكِ أقوى عندما تشترك عيناكِ في صياغتها؟ هل لأنَّ خوفي يُطْمَرُ موقتاً في لحظة عناقك؟ هل لأن وجودكِ أمامي لا يجعلني أفكر في ذاتي كما لا تفكِّرُ الأجسام الدورانية إلا في محاورها؟

لهذا السبب ربما لم أكن أناقشكِ في أمر بقائكِ إلا عبر الهاتف.

الآن أناقشكِ عبر رواية.

فكم من العمر يا تُرى يجبُ أن أقامر به في انتظار ما يسفر عنه نقاشنا.

الفصل الخامس

«.. أفتقدُ كثيراً هدوء ملامحكَ في وحدتي الصاخبة. مأساةٌ هي الوحدة عندما تأخذنا وسط الأشياء. أشعر أن الذي يبقيك بعيداً عنا إلى هذا الحد هو أمرٌ حزين.

بيننا مسافة الأرض، كيف لي أن أقول لكَ لا تحزن بشكلٍ لا يجعلها تبدو لا مبالية؟ كيف لا يضيع توحُّدي مع أحزانكَ في لطف رسالة؟ كيف أحتضنك يا ضوء عيني حتى لا تنام حزيناً، ولا وحيداً، ولا خائفاً؟

صورتكَ مرآة وحشتي هنا. علَّقتها أمام أريكتي لتظلَّ ماثلاً أمامي طوال اليوم والليلة. أتأمل ملامحك المرسومة بيدٍ جميلة فأستعيدُ دفء طفولتنا وحنانها القديم. كم أشتاق إلى دفاتر أشعارك. ابعث لي قاموس عشقٍ ما فأنا لا أرتوي من أخي.

إن لك أختاً لم تقتسم رغيف حياتها مع إنسانٍ أكثر منك. زرني أيها الغالي إذا استطعت. فأنا أشتاق إليك.

أروى».

يحرمني البريد الإلكتروني من البكاء على ورقة بخط أروى الجميل، لكنها نجحت في المثول أمامي كتابةً كما تعوَّدَت. الرسائل ليست شيئاً جديداً على يديها. منذ أن كنَّا أطفالاً كانت أروى تكتبُ لنا جميعاً وتدسُّ رسائلها في أغراضنا. أفتحُ دفتري في قاعة الدرس لأجد رسالةً منها أو بطاقة. يأوي عُمر إلى فراشه ليجد ورقاتِ أروى تحت وسادته. تخرجُ أمي صباحاً من باب غرفتها لتفاجأ بمشاعرِ أروى محشورةً في الباب. ويوسف وخالد وسارة وندى، كلّنا تعوَّدنا رسائلها الغارقة في عذوبة فتاة تملكُ فائضاً من الحنان.

اكتشفتُ أن أروى تكتبُ لأبينا مثلي.

كنتُ أشعر أحياناً أنني نسخةٌ منها، ولكن بجودة أقل. لها عاداتي الجميلة نفسها، ولا شيء من عاداتي السيئة. أجمل لحظاتي عندما نجلسُ في حديقة المنزل آخر الليل لأقرأ لها قصيدة. عيناها والسَّحَر، كلاهما يلاحقان الكلماتِ الشاردة، وأنا عندما أنتهي من قراءة قصيدة، أدوخ.

وكانت أجمل لحظاتها هي عندما تتطفل بنفسها على دفتري، وتقرأ القصائد الناقصة، والخربشات الأولى. تحملُ أشعاري وخواطري إلى صديقاتها. تعلِّقها على جدران غرفتها. تحرِّضني على ديوانٍ انشر فيه قصائدي. تفاجئني بها أحياناً منشورةً على صفحاتِ جريدة تولَّت هي إرسالها بنفسها.

رسالتها أقصر من رسالة عُمر. كان يوصيني فيها كأب. يمدُّني

بمال، ويذكِّرني بأرقام هواتفه. جاءني أيضاً اتصالٌ عابرٌ من خالد لم يحمل لي سوى صوته العميق، وكلماته المنتقاة بحيائه المعتاد. هذا الأخ الذي لا أكاد أعرف عن حياته أكثر مما يعرفه أي شخصٍ عابرٍ فيها، إما أنه شديد الغموض، أو شديد البساطة.

حملت لي أمي تحيات سارة وندى، وما تفعله صغيراتهن اللواتي تذكِّرهنَّ أمي دائماً بخالهنّ البعيد.

كل هذه المشاعر العابرة للأميال، ويبقى حنين صدري متجمداً مثل جثةٍ قديمة، يبتلع البريد والهاتف كلماتي إليهم مختزلةً، قصيرة: أنا بخير، ولكن لم يحن وقت العودة.

كتبتُ لأروى التي تتهمني بالكتمان: «لا تقلقي. كل ما في الأمر أنَّ كلامكِ القديم كان في محلّه. حقاً ما أسهلنا».

كنتُ أتمنى لو أزورها في لوس أنجلوس، ولكن عملي لا يسمح لي. اشتقتُ إليها كثيراً، إلى عينيها الحالمتين، وشعرها الناعم القصير، وجمالها الياسميني البارع. تُرى كيف تبدو الآن في حملها؟

عمّا قريب سيثمر حبهما الجميل طفلاً ما، يوقِّعُ بيده الصغيرة قصة أبويه التي حرستها الأقدار حتى النهاية. كيف التقطتهما من الأرض بهدوء، وعرّجت بهما إلى السماء، وتركتهما في عُهدة غيمة.

أما أنا فلم أعرف نشوة الصعود، ولم أسلم من ألم السقوط.

كم أغبطهما.

كتبتُ لها أيضاً: «سيجيء طفلكما جميلاً يا أروى. لا أجمل من

طفلٍ يُولد فوق الغيوم، بعيداً عن أكدار الأرض، ولن يعرف البرد ما دام في مدفأة أبويه كل هذا الحب».

منذ أن كانت أروى طفلة وهي أمّ، كانت تمارسُ أمومتها الصغيرة مع كل الأشياء. تتجاوزُ العرائس الميتة إلى أخٍ يصغرها بسنة لا أكثر لتكون أمّه. تدرِّبُ حنانها على انطوائه المعتاد. تغطيه بيديها الصغيرتين إذا نام. تنقشُ اسمه بخطها الجميل على دفاتر المدرسة. تواري معه أخطاء الطفولة وعثراتِ المراهقة عن عيون الأهل. تحارب عاداته السيئة بعناد حتى تُجهضها.

أين هي من كل العادات السيئة التي بعثها فيَّ حبّكِ من جديد.

هاهي عادةٌ جديدة تبني نفسها ببطء في داخلي، العزلة.

هاجس اللاعودة يساورني كثيراً. يتطفَّلُ في عروقي انعزال العشاق والبقاءُ بعيداً عن ضجَّة الوطن وصخبه. لا يؤرّقني إلا عينا أُمّي يوم تعلم أن سفري صار هجرة. ففي فانكوفر تحرقني الذاكرة وحدها، أما في الوطن فكل الأشياء سوف تغرز كسيخٍ حُمِّيَ في جهنم، ونزل في جسدي.

كنتِ هويّتي في الوطن، وسأعتقل فيه إذا سرت بدونكِ.

فانكوفر لا بأس بها، تشبه الممرّضة الطيبة. سأبقى فيها مثل ديار.

***

أشعر بغرورٍ طيّب هذا الصباح. ينحشر في حنجرتي ألفُ لحنٍ

عاطفيٍ ينتظر دوره في الغناء، وأنا أترنّم بها واحداً تلو الآخر منذ نزلت من سيارتي، ومشيت في ممر الجامعة الطويل، ودخلتُ قاعة المحاضرات بكبرياء عاشق بعد وِصال، وجلستُ في الكرسي الأخير، ولم أُلقِ التحية على أحد.

أخذتُ أقيس بذاكرتي الساعاتِ الخمس التي تفصلُ بين الثالثة فجراً، عندما نزلتُ من غرفتكِ، والثامنة صباحاً كما تشيرُ الساعة المعلَّقة فوق السبّورة.

كنتِ كريمةً في الحب كعادتك، سخيةً في الوصل كعادة إلحاحي. كرهتِ أن يقضي عاشقكِ الصغير ليلته على فراشٍ وحيد وينام قبل أن تصبِّي مئة قبلةٍ في كيس غروره ليباهي بها أقرانه في الصباح.

قالت أروى: «عُدٍ قبل أن تستيقظ أمّي لصلاة الفجر»، ابتسمتُ خفيةً لتواطئها الذكي، وتركتُ لها إيماءةً صامتة، ومن خلفي خيطٌ طويلٌ من العطر يفضح مشوار منتصف الليل هذا.

أربعون طالباً في دائرة تأمّلي الآن. المحملقون، المناقشون، المتأخرون، المتمطُّون، النائمون. أما في الخلف الأخير، فيجلسُ بطل البارحة. يدخِّنُ لُفافة عِشقه ويمشي بمحاذاة قلمه، وعلى كُرَّاسته الضخمة تعيشُ أممٌ وحضارات، فراعنةٌ ورومان، إغريقٌ وهكسوس، صينيون قدامى، وعربٌ جاهليون، وفي الوسط سبئيون كثر يحفُّون بعرش ملكتهم النائمة على قلبي.

هل يعلم المارقون جوار سيارتي أني كنتُ ماضياً إلى غرفة فتاة؟

هل يعلم الشرطيُّ الذي تدلّى على الرصيف تعباً وإرهاقاً في الثانية بعد منتصف الليل أنكِ تنتظرينني خلف شارعين؟ هل سمع أحدهم حفيف حنيني، وخشخشة أفكاري، وضوضاء قلبي؟

سؤالٌ قديم سألته كثيراً: هل اللّذة في النُّدرة أم في الدوام؟ كل النساء اخترن دوامَها، أنتِ وأروى ومس تنغل ولارا، صديقة ديار، وحتى أمي. وكل الرجال اختاروا نُدرتها بلا استثناء. كان منهم ديار وعمر وزوج ندى. حتى يوسف، وجدتُ في أحد دفاتره إجابةً عن سؤالي هذا.

أما أنا فكنتُ حائراً بين الإجابتين، وكان هذا دليلاً واضحاً على انقسامي الفكريِّ القديم بين الذكر والأنثى. عندي حذرها ولامبالاته. ولكن مواعيدي معكِ كانت تزيدني حيرة، لأنها كانت تتأرجح بين الندرة والدوام. كانت نادرة لأنها ستنتهي ذات يوم، وكانت دائمة لأني كنتُ ما أزال قادراً على الوصول إليكِ مثل هذه الليلة، بهاتفٍ قصير.

العشاق الجدد في قاعات الدراسة تنمو لهم أجنحة، وتُفتح لهم الشبابيك في تواطؤٍ جميل، ويحلِّقون خلف المدى. يبتعدون، يبتعدون، وينزلون على أهدابِ حبيباتهم. يحاولون عِناقاً ما، يقبِّلون اليدين والشفتين، ويلبثون في تأملٍ سرابيٍّ حنون، ثم يعودون إلى دَرْسِهِم المنتهي، فيلملمون أوراقهم، وأنصافَ القصائد، وأشتاتَ الكلمات، ويرحلون.

بالقرب من الشُّباك الخلفي غرَّد عصفوران. أحدهما حكى للآخر لقاءنا بالأمس، ولا أحد يفهم كلام العصافير، كما لا أحد يستطيعُ أن يوقظ القمر النائم الآن، ليسمع منه سر العاشقين اللذين طرقاه قبل ساعات، واستقبلهما في حُجراته العُلوية.

زيارتي لغرفتكِ تجعلني أجرِّب الانتماء والتشرد في ساعتين فقط. أدلفُ من بابها المغطَّى بالستائر البيضاء الشفّافة فأفهم معنى أن يكون لي وطنٌ واحتواء وغرفةُ حبيبة. وأخرج بعد ساعتين فأفهمُ أيضاً معنى أن يكون عندي شوقٌ ورغبة.. وتذكرة عودة.

منذ أن أجتاز الممر الصغير وينغلق علينا الباب برفق، تنهمرُ بين ذراعينا أوركسترا صغيرة. عناقنا سحبات كمان، قبلاتنا نقرات بيانو، آهاتنا أوجاع ناي. إنه انتفاضٌ موسيقيٌ مجنون. أضمُّكِ فيه بلهفة عائد، بحنين لاجئ، وبرغبة عاشق، وتضمِّين أنتِ عاشقكِ الوفي بدفءِ أم، ورقّةِ أنثى، وعذوبةِ امرأةٍ تُتقن الحنان.

تأخذني شفتاكِ إلى أبعد من مجرّد قُبلة..

إنها حكاية..

تمرِّين بهدوء..

تكتشفين شكل شفتي هذه الليلة..

فجأة..

تلتقطين السفلى بأنانية..

تعتصرينها بين شفتيكِ برفق..

تعضّينها بخفة شديدة..

ثم تسحبين فوقها لسانكِ العذب..

....

تسرقين فمي، وأنا أغمضُ عينيَّ وأرحلُ في قبلتكِ السارقة في الطريق الذي يسحبُ ورائي دهشة مدينة، في الفن الذي يعلّقني لوحةً على جدارٍ حائر، في الطقوس التي تزرعني غصناً بنفسجياً في حقلٍ سماويٍّ بعيد، بعيد..

تعسُّفٌ عادلٌ في طلب الحب، رياحٌ أنثويةٌ عاتية في مناخ الليل، انفتاح عينيكِ البطيء، الاضطهاد العنيف الذي يستجديني، الرغبة التي تتمدَّدُ شوارعَ وشوارع، وتنقلبُ معادلةُ الجسدِ والروح، وتأخُذُ عينايَ شكلَ قارب، وعيناكِ شكل مرفأ، وأتأمَّلُ كأول مرّةٍ قوس الرَّصَدِ الذي ترسمُهُ شفتكِ العليا البارزة، والشفة السفلى.

تنفلتُ أعصابي، وأقتربُ منهما. أقترب. أكادُ ألمسهما بفمي، فتتراجعين فجأة. أقتربُ أكثر وتتراجعين. أشعر أني أنزف شوقاً. دلالُكِ ساديٌ لذيذ. نقطةٌ راضيةٌ في سجّل اعتدادكِ الأنثوي بنجاح سياسة الجزرة مع الرجل، ولا تهمّني حروبكِ الداخلية الموروثة معه. رحتُ أضمُّكِ في غمرةِ انتقام، وأحترقُ في شفتيكِ عشرَ دقائق كاملة، قبل أن أُشعل قبلةً أخرى.

من أين تعلمتِ هذا التراجع؟ أصبحت القبلة مثل قضية. يتذمَّر تحتها العشق، ثم يتمرَّد، ثم يثور، وبعدها يزداد الإيمان، وتتحقق

النبوءة، ويأتي النصر، فتتحرك في داخلي نزعة استعمار ما، وأتجاوز الحدود إلى مدنٍ أخرى، كل هذا من أجل قُبلةٍ تتأخر قليلاً.

- من علّمكِ هذا يا بنت؟

- شارون ستون.

وأضحكُ طويلاً من هذا. لم أكن أتوقَّعُ إجابةً بهذه العفوية. يا لهذه السرقة الأدبية لحقوق الشقراوات. كيف أحرقتِ أوراقها وأحرقتِني أنا حتى الفجر الآتي؟ إلى أين أيتها الفاتنة سيأخذني إغراؤكِ هذه الليلة؟

عندما أفقتُ صباح اليوم التالي كانت أروى نائمةً قربي. أيقظتها لتعود إلى غرفتها قبل أن تفيق أمي. سألتها وهي تتمطَّى بوجهها الصباحي الجميل عن حركة شارون ستون هذه. ضحكت طويلاً من اعترافي الساذج بشكل ليلتي البارحة. قالت لي بعد ضحكتها:

- ما أسهلكم!

ومضت إلى غرفتها وأنا أتذكَّرُ التفاصيل القصيرة الأخرى.

التفاصيل التي تُبدعينها لتقلب الأشياء رأساً على عقب، وتستهلك نبضاتِ قلبي بشدة.

تفاصيل الليل الذي يخفت، والشموع التي تتأرجح، والحبُّ الذي يتكوّم فوق سرير، والجسدان اللذان لا يتحركان إلا ليقترب أحدهما من الآخر أكثر.

عندما تسافر راحة يدكِ في صدري، وتغمُرُ البرودة نصف جسدي، ويحترقُ النصفُ الآخر.

عندما تتهاوى خُصلاتُ شعركِ على وجهي وفمي، وأشمُّ رائحة شعركِ، وتضمُّكِ ذراعي بلهفةٍ كبرى، أشعرُ أن احتواءكِ هذا يكفي ألف مشرّدٍ في أشتات العالم.

عندما تجلسين عند قدميَّ وتكتشفين الجرح الذي عُمره يومان، فتخرجُ من جسمكِ رائحة أمّ، وتنزلين مثل نورسٍ مسحور، تقبِّلين أثر الجرح على قدمي بحنان، أشعر أنَّ آخر فتيل من رجولتي اشتعل أخيراً.

كل وريدٍ في جسدي بدأ ينزف لغةً مختلفة.

ينزف حباً، وفاءً، امتناناً، لا أدري. ولكني بحثتُ في قدميكِ، هذين الجدولين الصغيرين، بحثتُ فيهما عن فتيل أنوثتكِ أنتِ أيضاً، احتَضنتُ السبيكتين وقبَّلتهما، قبَّلتهما حتى يحتجَّ جميع الرجال، ويُقمع في داخلي تمرّد الخارجين عن الحب، الذين يجهلون أسرار غُرَفِ الحبيبات، وألوان ستائرها، وفتنة حريرها، وضوء شموعها.

أقبِّلُ قدميكِ مرتين، وأشعر أنَّ كبريائي ما زالت صافية نقية لم تُخْدَش قط.

أتذكَّرُ ديار في لندن. كنا نجلس متقابلين وقد استغرق رجلٌ وامرأةٌ أمامنا في تقبيلٍ عميق. طفا على ذهني سؤال:

- هؤلاء أمامنا، أتظنه يحبها؟

- لماذا سألت عنه هو ولم تسأل عنها هي؟ لماذا دائماً يؤخذ الرجل على محمل الشك؟ لماذا نجعل قبلة الرجل مجرد شهوة بينما قبلة المرأة دائماً عاطفةٌ صادقة؟

- كلها شهوة يا صديقي، بعضها يتكئ على حب، وبعضها يتكئ على ذنب.

ابتسم ديار لمبدأ التعميم.

- ديار، انظر، إنه يقبِّلُ ركبتها.

رفع عينيه إليَّ حتى بدا ميل اليسرى واضحاً جداً وهو يقول:

- أكذبُ الحب عندما يرى العاشق في جسد معشوقه مكاناً وضيعاً، يستنكف أن يضع قبلته عليه.

لم أندهش من رأيه، لقد بدأت أفهمه جيداً.

لو يدري ديار تفاصيل لقاءاتنا، اختراعاتنا الصغيرة، ألواننا المتقلبة، رغبة الأنثى التي لا تنتظر حتى أن أكمل طعامي، أخشى أن أفسد الكثير من العشاق على بعضهم لو ألَّفتُ كتاباً جمعتُ فيه كل ما فعلناه.

جلستُ أحصيها في مقعدي الأخير ذاك لأنكِ امرأةٌ تسرق ليلي وصباحي على السواء.

كم نحن مبدعان.

ذلك الصباح العريق الذي دقَّت ساعته التاسعة، حمل الجميع أوراقهم وبدأوا يرحلون. وبقيت أنا في الكرسيِّ الأخير معلّقاً فوق

غيمة. أنقش حروف اسمكِ على كرّاستي بعناية، وأحتفل بقصيدتي التي بدأت، لعلّي أكتب لكِ ما يجعلكِ سعيدة، كما جعلتِني سعيداً هذا اليوم.

***

هذا شتاء. عليَّ أن أقوم الآن بإصلاح مدخنةِ مس تنغل العلوية التي تشقَّقت وصارت تتسرب منها الأمطار كما وعدتها. أمارس دور الجار الطيب الذي يشذّب حديقة جارته مثل الأفلام. دائماً تنفق مس تنغل الكثير من المال إذا أرادت أن تُصلح شيئاً ما في منزلها. لم يبق من مدَّخراتها إلا ما أعطيها إياه أنا إيجاراً لشقتي، وإيجارٌ آخر لمستودع أخشابٍ قديم كان يملكه زوجها.

سعيتُ بنفسي للإشراف على شقوقٍ صغيرة في جدران المدخنة لا أبسط من ردمها، ولكن يديّ لا تجيدان عملاً غير التسكع على ورقة. كيف تُردم هذه الشقوق اللعينة؟ بالطوب، بالتراب، بالإسمنت؟ التساؤلات التي تركت ديار يجلس من شدة الضحك عندما سددتها بالقش. ألقى بما جمعته منه في وجهي وقال: اتبعني.

علَّمني كيف أخلط بضع مواد رائبة ثم أتسلَّق سقف المنزل المغطّى ببقايا الثلج إلى المدخنة، وأحشو الشقوقَ بها، فأحكِمُ سدَّها تماماً حتى لا تنطفئ مدفأتها فيأكلها البرد، هي التي لا يشعرها بالدفء

إلا النار، لأن واجهتيْ شقتينا كانتا إلى الشمال، من حيث تأتي الثلوج.

لم يمدَّ يده لمساعدتي. كانت ذراعه اليمنى بأكملها تنام في جبيرةٍ ضخمة بعد عراكٍ مع شخص في محطة وقود. ديار الذي يكره أن يتكئ أحدٌ على شاحنته بلا مبالاة، والرجل البذيء الذي أجاب أمر ديار له بالابتعاد بسخريةٍ لاذعة، لم يلبث بعدها أن ابتعد عن الشاحنة وهو يقلّد عين ديار المائلة، ويكوِّر ذراعه بحركةٍ نابية.

بعد ثوان، كانت عين الرجل مائلةً أيضاً، ومتورّمة، والدماء تسيل من حاجبه. وبعد ثوان أخرى أفاق من الضربة الأولى، وعاد ليضرب ديار بهراوة غليظة كانت محشورةً في حزامه ليتقيها ديار بساعده وهو يسمع قرقعة العظم الذي يتهشَّم.

كانت هذه إصابة ديار الوحيدة، انقضّ بعدها على خصمه بضراوة ذئبٍ جريح. أعمل يسراه في وجهه وأنفه حتى تكوَّر الرجل على الأرض وهو يتلوَّى ألماً، وديار يركل معدته وظهره وصدره حتى غُشي عليه. فتركه على الأرض واستقلَّ شاحنته إلى المستشفى.

قال ديار:

- لو لم يكن مهاجراً لربما قتلته. إني أحملُ للمهاجرين تعاطفاً ما منذ مجيئي.

يا له من تعاطف. ثلاث غرزٍ على الأقل في شفة خصمه، عظمٌ مهشّمٌ في أنفه وقطعٌ سطحي في حاجبه، وعشراتُ الرضوض في

أضلاعه وقدميه وظهره. من حسن حظ ديار أنه لم يفكر في مقاضاته. كان مهاجراً غير شرعي أصلاً. حمله رفاقه بعيداً ثم عادوا ليتوسّلوا إلى ديار ألا يحاول هو مقاضاة رفيقهم حتى لا يُكتشف أمره، ويطرد من البلاد.

قلت له مازحاً:

- ستحذِّرني دائماً قبل أن تغضب، أليس كذلك؟

- لا تتكئ على شاحنتي فحسب.

قالها، وجرع بقية الكولا، ثم اعتدل، ورمى بعينيه آخر الشارع وهو يقول:

- إننا ذئابٌ ضالّة يا أخي. لم يبق لنا إلا ضراوتنا. لا وطن ولا أهل.

- وطنك أخضر يا ديار. سينبت من جديد.

- عراق اليوم يلقى مصير سامراء. هل تراها عادت إلى الحياة بعد دمارها؟ العراق كله أطلالٌ مثلها الآن تعيش فيها أشباحٌ من البشر.

- ذئبٌ أم شبح. ما زلت إنساناً في اعتبار الحياة.

- هل سمعت بالشنفرى؟ تركتُ الوطن مثله وتصعلكتُ في كندا. في الأرض منأى للكريم عن الأذى، في الأرض متسعٌ لأمثالي إذا لم يبق لهم في أوطانهم إلا مساحة قبر.

زممتُ شفتيّ في أسف. ليس عندي ما أقوله لرجلٍ أبصر وعاش

ما لم أبصر ولم أعش. ربما هي فعلاً صفحات العراق الأخيرة. ربما لن يعود هناك عراق. ربما يطوي التاريخ أخيراً صفحة الرافدين التي ملأت رأسه صُداعاً وأوراقه دماءً. ربما يستقل الأكراد بالشمال، وإيران بشطِّ العرب، وتأخذُ تركيا نصيبها من الشمال الغربي، ويُصَادر الجنوب بما فيه لمصلحة أمريكا وبريطانيا، ويقتسم الظماءُ مياه النهرين إذا احتدَّت أزمة المياه في المنطقة، وتنهار بغداد في الوسط، وتموتُ كمداً وقهراً.

سيناريو حزين فعلاً ولكن من الممكن أن يكون.

تؤلمنا منطقية الأفكار أحياناً.

هل سيموت العراق فعلاً لو بتروا أعضاءه؟ هل يمكن أن يتشرَّد الوطن نفسه؟ هل يمكن أن تضيع الهوية والحضارة واللغة إذا تغيرت كراسي الزعامة، وتمزقت شوارع البلد؟ هل ينكر التراب الجذور التي تحته إذا تغيرت الحدود التي فوقه؟

كم هي القرون متخمةٌ بالعِبر والعبرات بين حمورابي وصدّام. كم هي حكيمةٌ حبات الرمال وصخور الجبال التي رأت وسمعت وعاشت كل اختلاف وائتلاف، وصعود ونزول، ورغد وجدب، وملايين النقائض المتراكمة عبر السنين في بلد النقائض هذا.

ديار نسخةٌ من تلك الأرض. يحمل في جبينه سهمين متعاكسين منذ وُلِد. يتناقض في كل الأشياء، وكل الأهواء، وكل العادات، ويقتلني حين يبدو نسيجه متماسكاً من الداخل، لا أثر لتمزّق أو

تهتّك. أيُّ إنسانٍ يسكنه؟ يشبه وطنه بحذافير هذا الوطن، عراقيٌ من العين إلى القاف، و بغداديٌ منذ وضع المنصور الحجر الأول، ونجفيٌ منذ أن رقد الحسين الرقدة الأخيرة.

معجونٌ بجنونه العربي العريق، أباً عن جدٍّ عن حجّاج. جامحٌ مثل خيول التتار التي بدأت مسلسل الموت في تلك الأرض، ومندفعٌ مثل العِرقين النافرين الممتدين في جبهته، هذين اللذين يحلو له أن يسميهما أحياناً: دجلة والفرات.

وأنا يروقني أن أرى رجلاً يحمل وطنه في جبهته.

وليس النهران فقط، بل إنَّ جغرافيةَ وطنه كلّها تجتمعُ في شخصيته. هو الذي يشقُّ الأشياء من المنتصف كما يفعل دجلة، ويفيضُ ويتراجعُ كما يفعلُ الفرات، ويتوعَّرُ مثل جبال الشمال، ويموت واقفاً كنخيل البصرة، ويركد أحياناً كالأهوار، وينبسط كحقول جيكور، ويحزن مثل كربلاء.

قلتُ له وأنا أجهّز المادّة الرائبة إني أسعى للاستقرار في فانكوفر.

هو الذي يعيش وحيداً هنا منذ سنوات لم يكن يريدني أن أصبح مثله. ما دام في جيبي وطنٌ وبيتٌ وأسرة، فلماذا فانكوفر؟ هكذا كان يصرخ بي دائماً، ليس لأني أزهد في ما أملك، ولكن لأني أسمح لكِ بتغيير حياتي إلى الطرف الآخر تماماً.

قال ديار:

- ستدرك أنكَ فارغ عندما تتحقق أحلامك الصغيرة هذه، وتتزوج هذه البنت.

- لماذا تظنُّ ذلك؟

- لأنك باردٌ مثل دَكَّةَ غسلِ الموتى، لا يمكن أن تكون ثورياً.

- ماذا تريدني أن أفعل يا ديار؟ أخطفها؟

- ربما احترمتُ قضيتك أكثر لو أنك فعلت، أمّا هيام المجانين هذا فلا أظنه يستحقُّ إلا الصحارى.

- أنا لا أهيم، ولكنني عاجز.

يقوم ديار، وهو يقول:

- انقلب على عجزك إذن. غيِّر امرأتك. تزوَّج أخرى وابعث إليها بدعوة للزفاف. حوِّل حزنك إلى انتقام. قد لا تجد ما تطفئ به أحزانك، ولكن لديك الكثير مما تمارسُ به انتقامك. الهدف أخيراً أن تُخمِدَ النار.

- يبدو كلامك منطقياً لو افترضنا أن كل النساء سواء.

أطلّت مس تنغل علينا في فنائها الصغير بامتنان. حيّاها ديار، وقالت:

- كأنك تصرخ يا عزيزي ديار، ما الأمر؟

يضحك ديار، ويردُّ عليها قائلاً:

- لا شيء. إنه ساذجٌ جداً هذا اليوم.

تلتفتُ مس تنغل إلى مدخنتها بعفوية، وتسأل:

- ماذا فعل؟

- يريد أن ينفي نفسه. ينسى وطنه ويهاجر إلى هنا ليقيم إلى الأبد، لأن النساء لسن سواء!

ابتلعت سخرية ديار بخجل، وقمت لأغسل يديَّ قبل أن يتجمَّد الماء في صنبور الحديقة مع اقتراب الليل.

قالت مس تنغل:

- كل عاشقين يظنَّان أنهما لم يخلقا إلا لكليهما فقط.

وأجيبُها بسرعة:

- لو لم يكونا كذلك حقاً لما كانا عاشقين.

يرحلُ ديار بعد أن ودَّعنا وأدفعُ أنا كرسيّ مس تنغل إلى الداخل، ثم أحاول إشعال النار في مدفأتِها. تكلمتُ معها طويلاً تلك الليلة. قالت لي أثناء حديثنا:

- كيف تفسّر وفاقها مع زوجها يا بني؟

- إنها تلعب دور الزوجة التي غُلِبَت على أقدارها فحسب لتستمرَّ الحياة. تحاول أن تُهمِّشَ دور عاطفتها في تقرير مصيرها. تملأ الفراغاتِ الحزينة بمشاغل حياتية محدودة، نجاحاتٍ بسيطة، ووهمٍ عاطفي مصطنع، يوماً ما ستضعها الأيام حيثُ لا أغشية مثل هذه، وسترى حقيقة وحدتها.

لا أدري لماذا كنتُ أتحدث بثقة.

قالت:

- الحبيبة تحت أثوابِ الزوجة. دع عنك تهيّؤاتك التي تفسدها غيرتك. لا أظنُّها إلا سعيدةً به، وهو كذلك سعيدٌ بها، وإلا ما بَقِيَت لديه حتى الآن. النساء يا بُنيّ لا يُجِدْن التظاهر بالحب. لا يملكنَ القدرة على تحمُّل هذا الابتزاز العاطفيِّ المؤلم. في نهاية الأمر إما أن تقع في حبه أو تتركه.

لماذا تلقي بي مس تنغل في أعماق هذه الحيرة الحادة؟

هل تُراكِ وقعتِ في حبه فعلاً وأنتِ تلتصقين به جسداً لجسد؟

كيف لم أفكر في هذا؟ لن يَعَدَم هذا الثعلب درباً إلى قلبكِ الحنون.

هل ستكفي حُبيبات منعِ العثّة التي نثرتُها في قلبكِ لتقاوم حبه؟

هل ستقِفُ ذكرايَ مع وفائكِ في وجهِ رجولته الحاضرة معكِ بكل معانيها؟

من أين ستنتقل إليكِ عدواه؟ من السريرِ الواحد، من الأنفاسِ القريبة، من اللمساتِ الحميمة، من الشفتين والجسدِ الدافئ، أيُّ مناعةٍ ستقيكِ هذا الدفقَ الجرثوميَّ الهائل للحب؟ أي مصل كان يجدر بي أن أحقنكِ به حتى لا تتأثري بهذا الرجل؟

قالت مس تنغل:

- ستضعف هي يا بُنيّ. النساء يزددن ضعفاً بعد الزواج.

- لماذا؟

- لأنهنّ فقدنَ الكثير مما تعتَدُّ به الفتيات. لأنهنّ لمسنَ عن قُرب

شديد قوة الرجولة، وحاجتهنّ الأزلية إليها.

- زواجٌ كزواجها ليس أكثر من تَنَاسلٍ عمليٍّ لحفظ جنس البشر، حتى ذلك الوفاق الذي تقولين ليس إلا بيئةً ضروريةً للإخصاب.

- يا بنيّ لا تتعنت في فهم الحياة.

- لا أفعل. ولكنَّ الحبَّ بريء منهما. مهما ادّعياه واستحضراه ولويا عنقه لن يأتي. نحن لا نحرث الأرض ونرمي البذور ثم ننتظر المطر لينزل، ولكننا نحمل محراثنا وبذورنا ونسوق أحلامنا إلى حيث علمنا مسبقاً أن المطر ينزل.

- ألا تظن أن امرأةً قد تنجح مع زوجها دون أن تعشقه قبلاً؟

- ربما، ولكن امرأةً عاشقةً سلفاً لن تنجح.

ودائماً، تقفين أنتِ صامتةً بيننا. أكاد أراكِ على الكرسيِّ الثالث، مُطرِقةً في ألم السكوت. لا تتكلمين. مثل الأشباحِ التي تأتينا في الأحلام، ونريدُها أن تتكلم، فلا تتكلم.

أتمنى لو أومأتِ إليَّ إيماءةً تطرد شبح الشك عني. تخبرينني فيها أنكِ تحبينني. وأنكِ عائدةٌ لا ريب.

لا تظنُّكِ مس تنغل إلا مرضاً لا بد أن أشفى منه، وأنتِ لستِ كذلك، ولكنَّ ما تفعلينه بي هو المرض. مس تنغل لا تفهم ذلك. إنها تحبني كثيراً وترفض أن تراني عليلاً بين يديها مثل خِرقة بالية. وربما كانت تكرهكِ مقابل ذلك، أنتِ التي أورثتِ الفتى التي تبصِرُ فيه ابنها كل هذا الحزن واليأس والضياع.

ابنُها رَحَلَ منذ سنوات ولم تره. يعمل في الولايات المتحدة، ويهاتفها عيداً بعد عيد، وتحزنُ هي من ذلك ولا تلومه، لأنه قضى طفولته في تلك الدار العامة، ومنها إلى مدرسةٍ داخلية، لأنها لم تكن قادرة بعاهتها على الاعتناء به.

وحالما شبَّ عن الطوق، لوَّح لها من الفِناء، وسافر إلى حيث فرص العمل، وكأن آخر ما كان يربطه بأمه، هو حبله السّري.

تفتَّحت أمومةُ هذه المرأة فلم تجد ابناً رغم أنها أنجبت واحداً. كنتُ أصغر من سنِّ ابنها ولكني كنتُ أعاملها ببنوّةٍ لم تعرفها هي، لأني كنتُ أفتقد أمي وجدتي وأروى وأنتِ. نشرت عليَّ لحافَ أمومتها قبل أن يبليه الزمن في طيِّه، ومنحتني ما تبقَّى من مشاعر أم في خريف العمر.

كنتُ أخشى عليها تبنِّيها هذا. لا أريد لها ابناً منصدع القلب مثلي، ولا أريد لها ابناً قد يرحل ذات يوم ولا تراه. فتتألم لذلك لا أريد أن أكون سبباً في ألمها الجديد. لقد لاقت من آلامها حقاً ما يشبع سادية الحياة.

رحت أحكي لها لعلها تتفهَّم:

- لم يكن هناك ما يدعو لليأس. كان في الأمر بعض الصعوبة تتطلب بعض الوقت، ولكن كل شيء كان ممكناً.

- ما شأنها؟

تأخذني غصّة، فأسكت لحظات قبل أن أجيب.

- للأسف يا سيدتي أني لم أسألها هذا السؤال بعد.

- أفهم هذا يا بنيّ. أفهمه جيداً.

وتبتسم ابتسامةً لم أنبس بعدها. كنتُ أثق تماماً بفهمها إذا أكدته بابتسامةٍ كهذه.

هل حقاً أنكِ تخلّيتِ عني فقط لأنكِ ستظلمين سالم بهذا الانسحاب المتأخر من حياته، أم أن هناك أيضاً بعض الأشياء اللامعة في الطرف الآخر جعلتكِ تميلين إليه؟

صمتت مس تنغل قليلاً وتشاغَلَت بأوراق أمامي لا أذكرها. ربما شَعَرَت أن حديثنا بدأ يحرقني فآثرتِ الصمت. اتّكأتُ أنا على لوحِ الصمتِ أيضاً، ورسمتُ ذاكرتي على السقف، ولي عينان دامعتان، وقلبٌ يخفِقُ بشدة، وعُدتُ تلك الأيام..

كان الضباب كثيفاً. رؤيتي مشوّشة في غبش الليل الأخير. سيل من الدموع المحبطة يتمدد في وجنتيَّ ويتشعّب في اتجاهاتٍ كثيرة مثل خطوط البرق في وَجنةِ السماء، ثم يسقط في دوّامةِ القهر.

وقفت أنفض من حِجْري رمادَ الذاكرة، وتركتُ عينيَّ تنزلقان في مجرى العدم. حدَّقتُ في ذلك الفراغ القابع قبل الأشياء، ورحتُ أستحضر شبح البوح من صدري لعل سنوات من الوحدة أعشت بصره.

عباءة الكتمان تخنقني.. لأن بعض الذكرى ثقيلة.

العجوز الطيبة تتسلل إلى مكامن البرودة، تمسح على وجعي

برفق، وتنسج معي غطاء لعورة جرحي، أتدفأ به عندما تنفض الحُمّى عظامي، وتحكّ عصا الذكرى صخرةَ الماضي، فتنتشر من تحتها العقارب والحشرات، تأكل مني.

***

كلما التقيتُ ديار سحبتُ منديل الصمت، ومسحتُ به دموعي، واتخذت وشاح كِتمانٍ أغطي به نفسي، وجلستُ إليه، جرحاً كبيراً في هيئة رجل. لم أكن أحتمل نقاشه، هو الذي يحتقر الحب كما يحتقر شيوعيّ متزمّت مدينةَ نيويورك، وأنا الذي لم يعد لديّ ما أدور حوله في الدنيا غير الحب. هل هذا توافق؟

الحب هو حب الله والوطن والحياة، قالها أكثر من مرة، أما حبٌ كهذا الذي أتجرع غُصصه فحماقة بشرية تتكرر على مر القرون، لتؤكد أن الإنسان مخلوق ناقص، لن يفهم أبداً إلا إذا أتاه خبر السماء، وسيظل يمد يده في كل جُحر من الحياة حتى يموت وليس في جسده شبر لا تسكنه ندبة أو لدغة.

ليس لأني أخشاه، ولكن لأني أحبكِ أتجنب الكلام معه، كما نتجنب الكلام مع الذين يحرّضوننا ضد عقائدنا وأوطاننا. ديار يعيش على سطح الحياة، بينما عيناه غائبتان في العمق. منذ نعومة أحزانه وهو يلعق أوجاع اليتم والشتات. بعدها فكر أنه إذا لم يقدر على انتزاعها من داخله فلن يمنح أحزاناً أخرى تأشيرة دخول.

أنا منحت كل الأحزان المشرّدة حق العيش والمواطنة. هذا ما يجعل ديار يعاملني كطفل عمره ثلاث سنين، لا يتعلم أبداً. وليس عُثاري الأول هذا ما يثيره بل غبائي الفطري في مواجهة الحياة.

قال لي مرّة:

- إنك تُغري الأحزان بالتناسل في قلبك. الحزنُ آتٍ ولو خبَّأت نفسك في محارة. إنه جزء من الطين الذي خُلقت منه، وسيكبر مع جسدك، وينمو معه كعضو خفيّ لا تراه. وستبلغ منه حدَّ الاكتفاء، لأنه لن يأتي ناقصاً، وإلا انفجرت عيناك من الدمع الذي لا ينسرب، فلماذا لا تكتفي بنصيبك البشري منه؟ لماذا تزرع أعضاءً أخرى؟

كنا في شقتي بعد أن عدنا تواً من صخب الشوارع الهازجة برأس السنة، وغناء السكارى على قوارع الطرق. اشتعلت سماء المدينة بالألعاب النارية وبقي الآلاف يصرخون في جنون النشوة، ويرقصون على هدير الشرب، ولا شيء يحركني أنا وديار من بينهم. حتى أنَّ ديار لم يشرب الليلة.

قال، بعد أن اغتسل وفتح المدفأة:

- أتمنى أنه شتاؤك الأخير هنا. لا أريدك أن تبقى.

حملتُ إليه قطعتَي خشبٍ جافّتين. قلتُ له وهو يحشرهما بين الأخشاب الأكبر حجماً:

- ستقتلني الرياض يا ديار كما ستقتلك بغداد لو عدت إليها الآن.

– هناك من ينتظر عودتك على الأقل. لا أحد ينتظر ديار مهدي في العراق كله.

– ليس المهم من ينتظرنا المهم من ننتظره.

– لا تتوحَّد هكذا مع أحد أبداً. إن الله لم يخلط أقدار عباده حتى تعقدها أنت بهذه الطريقة.

أخذني دُوار بعيد. اتكأتُ على جدار المدفأة بكتفي:

– ذات يوم خرجتُ من بيتي بلا وجهة. قدت سيارتي حتى وقفت عند وادٍ صغيرٍ غرب الرياض. كنتُ وحيداً أعالج هموم الفراق الأولى، ولم يكن فراق مها قد أكل من عمري أكثر من شهرين، وعلى يدي خمسة ثقوبٍ أو أكثر، ما زال أحدها، الطريق الوحيدة التي يتغذى منها جسدي بعد أن تمرَّدت معدتي على الطعام. كنتُ أتأمل مساءً واجماً مثلي. لم يكن يسمعني أحد. عندها أقسمتُ أن أول الدنيا وآخرها لن يزهّدني في هذه الفتاة.

نفض كفّيه بهدوء شديد، وتكلم وكأنه يعلّق بينه وبين نفسه على نشرة أخبار:

– يا تعيس، لو نطق واديك هذا يوم سمع قسمك لأخبرك أن النسور لا تنزل إلى السفح إلا عندما توشك أن تحتضر. لا تتبجَّح كثيراً بقدرتك على الوفاء. فتاتك تستحق إيمانك هذا لو أنها ظلَّت معك. ماذا تعنيها بضع مشكلات تخوضها من أجلك لو كانت تحبُّك إزاء هذا الحطام البشري الذي تركتك فيه؟ أما وقد استبدلت بك

رجلاً آخر، بكل رضا، فإن كل ما تزاوله معها مجرد هيام أحمق.

- دع لي أحلامي يا ديار حتى لو قُدَّت من وهم. إنها تمنحني نصيبي من الأنفاس كل يو م على الأقل.

يمطُّ شفتيه في ازدراء ويعود إلى مداعبة النار وهو يتمتم:

- يا لك من مريض.

قلتُ في صوتٍ خفيض وكأني لم أسمع تعليقه الساخر:

- ستعود يا ديار. أشعر أنها ستعود من حيث لا أحتسب.

يزفر ديار. أعلم أنه بدأ يتحسر. وحسرته تشبه الغضب. لم أكن أناكفه بحزني ولكني لا أملك لبوحي ما يحميه منه. لذلك ألقي كلماتي عليه، صراحةً، كما لا أفعل مع مس تنغل التي أشفق عليها من أن أحمِّلها وجعي إلى وجعها.

تجدَّد عندي إيماني بأن حبكِ بدأ يتحول إلى مرضٍ نفسيّ.

حديثه بعد زفرةٍ كهذه سيكون حادًّا كما تعوَّدتُ منه. قمتُ لأفتح فُرجةً صغيرةً من النافذة، والتقطتُ جريدتي ومنفضتي الصغيرة وجلستُ جوارها ونظرتُ إليه، حتى جاءني هديره:

- إني أحترم هذه المرأة التي أبكتك تقريباً بعدد المراتِ التي استمتعت هي بزوجها. هل تُراها ما زالت تمِّيز جسدك من جسده؟ هل تُراها ما زالت تستشعرُ الفرق بين رجولتين؟

جاءت كلماتُ ديار حادّةً كما توقعت. ولكني تسلَّيتُ بألمها

الحارق، وابتسمتُ في قرارةِ نفسي. جميلٌ أن يجعلنا الحزن نبتسم أحياناً هو الذي يقتلنا بكاءً. شرُّ البلية ربما ما يجعلني أبتسم ابتسامةً خلفيةً كهذه.

هل انتهى؟

بدأتُ أدخِّن. وواصل ديار حديثه، كأنه يحاول أن يحرك حجراً رابضاً في قرار البحيرة. يغوصُ بجرأة في أعماق الجرح، ويتناول مبضعه ويعبث في اللحم. يصول يميناً ويساراً وفي عينيه رغبةٌ في شفائي، وأنا أجلس معه كمريضٍ غير متعاون، لا يدركُ مصلحته.

- أفق أرجوك يا ناصر. لماذا رَحَلَت هي إلى حاضرها السعيد، وبقيت أنت تمضغ ورقات الماضي وتبصقه حولك؟ لقد أخذت هي من الحب أجمل ما فيه، لذَّته المعتصرة، وتركت لك القشور الجافة، تلوكها بأسنانك وتمسح بها خيبتك؟

كانت عيناي الجامدتان تحثَّان ديار على مزيد من القسوة، وهو يتابع:

- لقد استطاعت أن تنتزع من رجلين أجمل ما فيهما، فاستمتَعَتْ بحبك، واستمتَعَتْ بمستقبله. لا تضخّم أحزانك هكذا. تستطيع أن تنساها يا صديقي. لا توهم نفسك بغير هذا. تذكَّر أن الليل الذي تبكي عليها فيه هو نفسه الليل الذي تمنحه هي فيه قبلاتها وجسدها بكل ابتهاج، فكيف لا تتمرَّدُ عليك دموعك في ليلٍ كهذا بعد أن أخرجتها من عزّة الجفن إلى هوان امرأة لا تستحق دمعة واحدة.

ألم تسأل نفسك يوماً كيف يمكن لها أن تبقى معه كل هذه المدة، طواعيةً وليس إجباراً، ما دامت تحبُّك أكثر من كل ما يُحَبُّ ويُقتنى، وليس بينكما حاجزٌ يستحيل تجاوزه؟

عجباً لديار.

ألا يخشى أن أغضب؟

ألا يخجل أن يتكلم عن امرأتي المقدَّسة بكل هذا التجريح؟

ألا يرفق أن تصيبني إحدى أفكاره في مقتل؟

لو لم أكن أفهم طبعه وطيبته التي تختفي خلف ستار فوضاه الكلامية لربما تركتُ مجالسته، ولكنه لم يكن يمتهنني، بل كان يهتَمُّ بي كثيراً. وكنتُ أسمع منه وأحزن، ولا أغضب. وكان هو يختار كلماته بحيث تبقى دائرةً في أفكاري أياماً.

بدأت أنفعلُ كثيراً، ولكن ديار لا يتوقف. لم يكن أكثر عنفاً معي من هذه الليلة. لماذا كل هذا الغضب؟ ما الذي دهاه في ليلة رأس السنة هذه؟

يتابع:

– أيُّ شيء تراها احتفظت به لك أيها العائش على أوهامك الصدئة؟ لقد منحته اسمها وحياتها وجسدها، وإياك أن تستثني قلبها، فقد صار إليه أيضاً، فلو أنها أبقته لك لما كان بوسعها أن تمكث معه كل هذا الوقت بعد أن أودعتك قُمامة الماضي.

تأمَّل نفسك يا صديقي. التفت إلى حياتك. أنتَ لم تلمسِ امرأةً منذ تركْتك. جسدك يذبل وعيناك تنطفئان، بينما جسدها هي يزداد ارتواءً ورضا وسعادةً ونشوةً. جوعُها يشبع ، وأنت تتضوَّر جوعاً على فراش الترهُّب هذا.

سكت ديار ليشعل سيجارة، ثم ألقى كلماته الأخيرة دون أن ينظر إليَّ، وهو يستعد للخروج:

- إنني في انتظار ثورتك على نفسك، ولا أظنُّ ذلك بعيداً، فالميزان هذه المرة جائرٌ تماماً.

أوجعني ديار كثيراً. هو هكذا دائماً. يُشعل النار في مدفأتي وقلبي ويرحل.

سَرَت في صدري برودة الألم، وانتَفَخ في داخلي شيء من البكاء، وأنا ألوذ بالنافذة والشارع والمارة المتجمهرين. ترتجفُ شفتاي، وتتأرجحُ بين جفني دمعة ودمعتان، وتسيل على وجهي.

ربما عَكَسَ له زجاجُ النافذة دمعتي تلك. ولكني لن أجعله يراها عياناً. أكره هذا الرجل الذي هزمني. أكرهك يا ديار. فابتعد عني أيها الحاقد.

بأي صوتٍ مخنوقٍ أنتقم منه؟ لم يقترب أحد من جرحي إلى هذا الحد، ولكن ديار يخوض فيه بحذائه الضخم بلا مبالاة، وكأنه يقرأ جريدة، لا يذبح رجلاً.

حاصرني هذا الساديُّ بين جدارين. أحدهما أني لا أملك هروباً لا

أثبت له فيه أن دفاعاتي عمَّا يقول ليست إلا محض خيالاتٍ وأوهام، والآخر هو ما يقوله ويظنه حقيقة.

قبعتُ أمام النافذة وأطرقتُ في ألمٍ وانهزام. هذا الذي لم يكسر المنفى شوكته، ولم يُنسه الشتاتُ قسوتَه. لو تكلم من خلفي بكلمةٍ واحدة لطلبتُ منه أن يتركني ويرحل.

استوقفته فجأةً قبل أن يفتح الباب ليخرج:

- كلّكم أجلافٌ أيها العراقيون.

صَمَتَ ديار ولم يتكلم، وكأنه قرأ أفكاري، أو ربما دموعي.

ولكنه عاد ليجلس جواري، ويربّت كتفي، وأنا أرتعش في مقدِّمات البكاء، وأُشيح بوجهي عنه. تركني ألتقط رائحة تدخينه، قبل أن يودِّعني، ويخرج.

لقد اعتذر لي بطريقته.

اعتذر صمتاً.

***

عندما يبزغ الفجر على خليج بيرارد الذي يفصل وسط المدينة عن شقَّيها الغربي والشمالي، كغيره من الخلجان الصغيرة والأنهار التي تحوِّل المدينة إلى مجموعةٍ متجاورة من الجزر، تربطها الجسورُ العديدة التي شُيِّدت عبرها، عندما يبزغ الفجر هنا، فإن كل شيء يصمت للحظات حداداً على الليل.

بعد قليلٍ تشرق الشمس وتستيقظ الطيور ويُصبح كل شيء جميلاً. يغزوني الصباح. يواسي فيَّ فقدان الليل الذي قتلته قراءةً على الضفّة، ملتحفاً شالاً ثقيلاً أعطتني إياه مس تنغل، بعد أن بدأت تخفُتُ حدَّة البرد مع رحيل الشتاء، وبين يديَّ كتابٌ ثقيل، أرهَقَ يديَّ وعقلي.

بعض الكتب يدير عقولنا أسرع مما تقدر عليه.. فتعطبها، وبعضها يغيِّر معدّل نبضات قلوبنا فيرهقها، وبعض الكتب يبدأ من حيث تنتهي الذاكرة، وتقف حيث يبدأ الوجع. الكاتبُ الذي يوحِّدُ بين أقداره وأقدار قرّائه هو كاتب يجيد الكتابة بصدق.

أتذكر يوم أهديت إليك رواية أحلام مستغانمي «فوضى الحواسّ»، بعد أن رسمتُ خطوطاً ودوائرَ حول مقاطعَ كنت أريدكِ أن تقرئيها بعين عناية، لعلها تحرك في خوفكِ شيئاً، وتغير قراركِ المرتجف الجائر. ظننت أن أنثى مثلها قد تكون أقرب إلى إقناعك، فرحتُ أستعين بالمرأة على المرأة، من أجل رجل.

تلك الأيام، عندما كنتُ أقرأ في روايتها، وجدتُ في الصفحاتِ الأولى منها عبارةً أرهقتني. وضعتُ إصبعي على العبارة تماماً، وطويتُ عليها الكتاب، وقمتُ مدهوشاً أفتِّش عن قلم رصاص أميُّز به هذه الفكرة الأنثوية الهادرة.

تعجبتُ بعد ذلك من اختياري اللاإرادي لقلم رصاص ليقوم بهذه المهمة، وكأني كنت أشعر أنني بعد أشهر سأحمل الرواية نفسها بين

يدي، وأقلِّب الصفحات التي سبق وميّزتها لأمحو الخطوط والدوائر كأنها لم تكن.

كانت العبارة تقول:

«.. أما هي، فكانت تعتقد دائماً أنّ على المرأة أن تكون قادرةً على التخلّي عن أيّ شيء لتحتفظ بالرّجل الّذي تحبّه».

شكراً أحلام. عيناي الآن معلَّقتان على الرواية حتى أنهيها سريعاً ثم أحملها إلى حبيبتي حتى تعلم أني لا أهذي عندما أقول لها إنها يجبُ أن تتخلَّى عن أيٍّ شيء من أجل الحب.

إنها شهادة امرأةٍ مثلكِ، وكاتبة تحبينها كثيراً. ترى هل سيتغيَّر شيء؟

واصلتُ القراءة وأنا أشعر أنكِ ستقرئينها من بعدي.

وجدتُ عبارةً أخرى. شعرت أن أحلام تقترب من قصتنا أكثر. وضعتُ حولها دائرة وعلامة استفهام قبيحة.

كانت العبارة حواراً بين العاشقين، كأنه دار بيننا:

«..............

.... - سأنتظركِ في الحياة . . وفي الكتب. إن لحظة حب تبرّر عمراً كاملاً من الانتظار، هل تعين هذا؟

- أحاول ذلك، ولكن كل شيء ضدّنا.

- الحب ككل القضايا الكبرى في الحياة، يجب أن تؤمني به بعمق، بصدق، بإصرار، وعندها فقط تحدث المعجزة.

...........».

اعتقدتُ أن هدايا أحلام قد انتهت بعد هذا المقطع الأخير، ولكني كنتُ مخطئاً. ففي آخر الصفحات تركتْ لي هديَّتها الأجمل. كدتُ أنزعُ تلك الصفحة لأحملها إليكِ وحدها، ولكني كنتُ دائماً أحترمُ بداياتِ الحب أكثر من نهاياته.

مشى قلمي الرصاص هذه المرة على صفحةٍ بكاملها وليس عبارة فحسب. كدتُ أتصل بكِ وأقرأ عليكِ نصَّها لفرط عجلتي وترقُّبي، ولكني اعتقدتُ أن قراءة الرواية كاملةً ستجعلكِ أكثر اقتناعاً بما يمكن أن تغيّره بضع كلماتٍ كتبتها أحلام من أقدارنا.

كانت الصفحة تقول:

«أتأذنين لي بأن أسألكِ إن كنتِ تحبين زوجكِ؟

أجبت:

- حدث أن أحببته.

- وهل أنتِ سعيدة معه؟

- لا أدري، أحياناً أكتشف تعاستي، ثم أعود فأنسى.

- ولماذا بقيتِ معه إذن؟

- لأنه زوجي، لأنني وحيدة. ولأنني متعبة ولا قدرة لي على اتخاذ أي قرار.

- ولكنّكِ حرة في تغيير مجرى حياتك والانفصال عنه.

..................».

أعطيتكِ الرواية، وفي صفحاتها تختفي مؤامرتي الصغيرة أنا وأحلام، ضد قناعاتكِ الخائفة. كنتُ أترقَّب ردة فعلكِ كطفل، حتى أني لم أنتظر حتى تريها بنفسكِ، بل أخبرتكِ قبل أن تقرئيها أن تنتبهي للعباراتِ المميزة بقلم الرصاص.

قضيتُ يومي وليلتي عندكِ وخرجتُ في الفجر الثاني تاركاً لكِ رواية أحلام جوار سريرك، وعدتُ إلى بيتي لأصلّي صلاة التوبة، وأنام حالماً بأحلام مستغانمي. لو أن هذه المرأة قدَّمت لي شيئاً، لاتصلت بها وشكرتها.

سألتكِ بعد أيام:

- هل قرأتِ الرواية؟

- نعم، في يومين فقط، كانت جميلة جداً.

سكتُّ. كنت أنتظر المزيد. أتراكِ لم تنتبهي لخطوطي ودوائري؟ أين تعليقكِ إذن؟ بقيتُ واقفاً أمامكِ أنتظر إشارةً أخرى. هل تتهرَّبين مني؟ أم أن شيئاً استطاعت العبارات أن تحفره في أفكاركِ لم يكتمل بعد؟

كنتِ على وشكِ الخوض في حديثٍ آخر. لم أتحمَّل، سألتكِ:

- هل قرأتِ العبارات المميّزة؟

- نعم.

- ما رأيكِ؟

- تبدو بعيدةً عن المنطق.

صُدمت، ولم أحاول أن أبدو أمامكِ مصدوماً بمجردِ رأيٍ عارضٍ كما يبدو لكِ. رسمتُ على فمي ابتسامةَ حسرة، ومشيتُ بأصابعي على غلافِ الرواية المحبطة مثلي.

يبدو أنكِ كنتِ تهربين منا أنا وأحلام.

ربما ظننتِها أنتِ مجرد إشارةٍ عابرة، أو مزحةٍ ثقافيةٍ صغيرة، ألفتُ بها انتباهكِ إلى ما هو جادّ وحقيقي. لذلك تعاملتِ مع الأمر بهذا الاستهتار، بينما كنتُ أنا أعوِّل على عبارات كتلك أملاً بولادة فكرة صغيرة في رأسكِ، نربِّيها معاً حتى تكبر وتنمو، فتكسر الأغلال وتحقق الغاية.

بعد أشهر كنت أستأذنكِ وأستعيدُ الرواية، وقد غطَّاها غبار رقيق. أخذتُها معي إلى البيت. كنتُ أشعر أن أحلام حزينة وأنا حزين. جلستُ على طرفِ السرير وأخذتُ أمحو الخطوط والدوائر، وأنفُضُ عن أوراق الرواية رفات الحلم العظيم الذي حلمتُ به يوماً وأنا أقرأ فيها.

أدمنتُ هذه الضفَّة الوادعة ليلاً. كنت أمشي بمحاذاتها كل ليلةٍ حتى يأمرني الفجر بالعودة. أتركُ الرصيفَ يأخذني. أجرِّب المشي بحذاء أفكاري كي تهترئ الأفكار، حتى إذا عدتُ إلى البيت، لا

تخرج مرةً أخرى من فراش الأرق.

ليست كل إجازة يغيب فيها ديار تصلح للتأمل دون ألم. غداً يعود هذا العاصف من غيبته القصيرة، وأعود معه إلى لُجّة الغربة التي تنسينا بعض الأوجاع وتضخِّم بعضها. تعوَّدتُ عليه. كل يومٍ أخرجُ من الجامعة لألتقيه وأعود من مقهانا المسائي قبل الغروب مملوءاً بالندبات التي يخلِّفها ارتطامُهُ الفوضويُّ بالأفكار والأشياء. أعرفُ أنه يستغل لذة الفوضى وشهوة الجموح والتكسير في حروبه الكلامية، ولكنَّ أفكاره دائماً تخرجُ محصّنة ضد الدحض، ومحقونةً بحزنه السرّي، ومتجمِّدةً كأنها ظلَّت سنواتٍ في داخله.

أشي به إلى مس تنغل، فتقول لي:

– لا أراكما إلا معاً. أي حزنٍ تمارسانه أيها الشقيان.

– عربيان يتكئ كلانا على الآخر. هكذا نعيش.

– هل تشرب؟

– لا. هو يشرب.

– أمرٌ عجيب. أشعر أنه أعقل منك أحياناً.

لمثل هذا الرجل كان الاستعدادُ لنقاشٍ ما بلا جدوى. لا أعرفُ كيف سيبدأ ولا أين سينتهي، ومتى سينهزم ومتى سيهجم. أعترف أن حواراتي معه أصبحت تغذيني بتماسكٍ أفتقده كثيراً، أنا الذي صرت أزحف على رصيف الحياة زحفاً. نيرانه التي لا تهدأ أشعلت في داخلي فتيل التمرد على نفسي. صرت أواجههما معاً، فتارة أقف

معها ضدَّه، وتارةً أخرى أحاصرها بكلماته حتى تضعف.

ومنذ تعلمت الإصغاء وفهمتُ الكلمات لا أتذكر أن كلاماً ما دار في ذهني كما كان يفعل كلامه. كان يجيد الكتابة على النفوس المتوترة والقلقة والخائفة ويعلم من أين يأتي جرحي مرةً بالكيِّ ومرةً بالضماد.

ربما كنتُ في فترة تخاذل عاطفي غير مسبوقة، فبدا لي كلامه مهيبَ القامة، أو لأنه صوته الذي لا يقنعني دائماً كان يجعل سهامه حادّةً حين يطلقها، لتصيب قلب المأساة، لأنه يهاجم المقدسات المعنوية كثيراً.. بضراوة ملحد.

ولكنه كان شهماً عندما أسقط أمامه. يرفعني حتى أقف مرةً أخرى، ثم يعودُ إلى جدله. يلتزمُ الصمتَ عندما يشعر أن جرعةً أخرى قد تقتلني، فيتركني على حد الموت حتى أستردَّ عافيتي مرةً أخرى. كان يحاول أن يقوِّي عضلاتي الواهية من إجهاد الحياة، ويخطئ أحياناً، فيبدو كصاحب تجربةٍ أعمق، أو أحمق، لا فرق. ولكنها لم تتسنَّ لي بعد. مما يجعلني أغتاظُ أحياناً. عندها فقط ينتقل ديار من حزني إلى حزنه.

وحزنه كبيرٌ جداً. هذا الرجل الذي خرج من وطنه بعد أن أفقده الموتُ كل ما فيه وتركه معلقاً على خشبةِ المنفى، يفهمُ لماذا يمكنه أن يخرج من وطنه، ولكنه لا يفهم لماذا لا يمكنه أن يعود؟

لا يوجد ما يعود من أجله، هو اليتيم المعدم الذي نفض أقاربه أيديهم منه، وضيَّقوا عليه حتى أجبروه على فراقهم. توكَّأ على عصا

بعد عصا، ثم تعلَّم المشي وحيداً في الحياة. حاول أن يبني أسرةً يحتويها ما دام لم يجد أسرةً تحتويه. تزوَّج لتموتَ زوجته في مضاعفاتِ مخاضها بعد أيام، وابنه بعدها بأسابيع ، وترمي به الأقدارُ مرةً أخرى إلى قارعة الطريق.

***

وجهُ فانكوفر الصاخب لم تزحف عليه آثار المدن القديمة بعد. ما زالت تركض فيه الحياة باندفاع الأطفال الذين لا يؤمنون بعجلة الزمن الثقيلة التي تدوسهم ليلاً ولا يشعرون. الجميع هنا مملوء بأحلام المستقبل حتى التخمة في هذه المدينة البكر، مدينةِ الأعراق التي أخذت تتداخل مع بعضها لتفتح وطناً جديداً يعلن عن فرص العيش والثراء والأمان.

في حدود هذه الجزر التي تظن نفسها مختبئة خلف حدود الأرض تتجمع العيون التي هاجرت من بلاد بعيدة. يلمع في أحداقها أمل بعد أن ولدوا في بلادهم على اللابقاء، فكان أن انزرعت الفاجعة في أنسجتهم فلم تأخذ شكل الصدمة، وأورثوها من بعدهم جيلاً لم يبصر إلا سماء فانكوفر الواسعة، وجبالها المغطَّاة بالثلوج الدافئة.

هنا تختبئ أشعة الشمس الناجية من قرصها الضخم الذي يتفجر كل يوم ألف مرة، وتغوص في السحب الباردة، ساحبةً وراءها ذيلاً من العراء الموحش الذي مزقها في دقائق العدم والشتات واليأس.

كل الذين يأتون إلى فانكوفر يبحثون عن شمس تمنحهم الحياة، وهي تبحث عن بشر يريدون الحياة.

على جادَّاتِ المدينة لا أعرِفُ الفرقَ بين المقهى والرصيف. حين يختلطُ عليَّ أمرُ السعي والكلل، أنظُرُ في مجرى الضوءِ إلى مدينةٍ تُدمِنُ الغرباء، وتحتضنِهُم بلهفةِ البلدانِ المهجورة التي استمدَّت من مشاعرِ الناس شرعيةً لبقائِها. وراء كل غريبٍ هنا حكايةٌ ما، ومهمةُ هذه الشوارع المتقاطعةِ بطولِ المدينةِ وعرضِها هي جمعُ حكاياتهم هذه لتنقُشَهَا على خُطَى الآخرين.

الأحزان هنا اشتراكية. تُجبى أولاً ثم توزَّع بالتساوي على الجميع، ليحمل الأرملُ المفجوعُ هماً يساوي هم التعس الذي داس رباط حذائه في الطريق، ويشرَبَ العاشقُ المدلَّهُ من دموع الأم الثكلى، ويتكئ الوحيد المشرّد على جدار كتب عليه أحدهم حكاية المنفى، وعند منتصف الليل، تنزل النجوم مع ندف الثلج، لتأخذ همومهم إلى السماء.

عندما تصبح الغربة سيجارة ندخنها على تل بعيد، كم من الحزن يكفينا حتى نشعر أننا نحتاج إليها؟ وكم بقي لنا من الدمع حتى نعود؟ وإلى متى سيظل أفق هذه المدينة دافئاً حنوناً يغرينا بالبقاء، ويحرمنا من الوطن؟

بعض الأشياء هنا تعوّدت الحدوث بعفوية تمنعني من التأمل، وعندما أجد من الضرورة تأمُّلَ شيء ما، أجد المدينة قد وضعت كل

ما أحتاج إلى تأمّله في عُلب صغيرة تشبه عُلب النشوق. إنها لا تريدني أن أسترسل في الحزن إلا تحت عينيها، حتى لا أؤذي نفسي.

تعلم السماء والأرض في هذه المدينة أن الحزن قَدَر بشري قديم قِدم التكوين، معجونٌ بطين الإنسانية الأول، فتتركنا نحزن لأنه لا يأتيها إلا الحزانى، وتمنحنا جميعاً مناطق للبكاء، وحزناً بقدر جراحنا المجهولة، ثم تجلس بعد ذلك لتسمع منا.

سنوات قليلة هي كل ما تحتاج إليه هذه المدينة لتصبح وطناً. إنها ترشو غرباءها بما يفقدون. توزّع ولاءنا على أرصفتها الباردة، وتغرس فلسفتها الدافئة خنجراً في صميم قومياتنا وإيماننا بالوطن.

إنها تفهم جراحنا، وتدرك مناطق البرودة في عظامنا، وتغطِّينا بالحنين، بالجمال، ثم ماذا؟ كل ما في الأمر أن بعض البلاد لا تنتج الحنين، وبعض البلاد تنتج فائضاً منه. الحنين لا ينمو في الجوع والكبت والعزلة، إنه يحتاجُ إلى تفهُّم الشمس قبل ضوئها وحرارتها.

الوطن الذي لا يفهمنا يشبه الوطن الذي يطردنا. كلاهما وحش. وتظل أسطورة الوطن الحلم تُرهق أعصابنا وأحداقنا السرابية. إنه الهاجس الذي يؤرّق الغرباء، والدخان المتصاعد من احتراق القمر.

هؤلاء هم الغرباء. نصفهم بُكاة ونصفهم ثائرون.

وعندما يشتعل فتيل الثورة في صدر الإنسان ينمو عنده الهدف الواحد. وهذا هو الأساس كما يقول ديار. عندما يتوحد في النفس الهدف تسقط إزاءه الأشياء الأخرى التي تثني العزم وتعيق

الانطلاق، وتبعث التردُّد والشبهة والالتباس.

أتخيّل رجلاً يعيش بعدّة أهداف. إنه يريد مالاً وأماناً وسعادةً وأسرةً ووطناً، ثم تتكاثر أهدافه. فإذا سعى إلى أحدها ثناه الآخر، وإذا جاهد في سبيل واحد، استنكف أن يُضحِّي بغيره، فيرضى بأنصاف الأهداف التي تجيء وحدها، ولا يحرّك ساكناً. هذا ليس ثورياً.

الثوري ليس من يتمرّد ويعارض. إنه صاحب الهدف الوحيد الذي يجاهد من أجله. أتخيَّل رجلاً آخر يريد مالاً فقط. إنه يضحِّي بالأسرة، بالوطن، بالراحة، بالمتعة، لأن هذه الأشياء تُشتِّتُ تركيزه، وتُضعِفُ جهوده. ولكنه يضفِرُ كلَّ شيء من أجل هدفه الوحيد، حتى يظفر به، وغالباً ما ينجح.

لهذا نجد سجناء الرأي أسعد من سجناء الجُرم، ولهذا نجد وجوه الشهداء بيضاء، ويموتون سعداء، رغم أنهم خسروا كل حياتهم، ولكنَّ حياتهم كلَّها في الأصل لم تكن هي هدفهم.

«لا تحزن إلا على شيئين: فواتِ هدفكِ، أو انثنائك عنه»، هكذا قالها ديار تماماً.

أما الذين يبكون فتعساء، يطفون على بكائهم.

أحياناً يصبح البكاء صخباً لا معنى له.

لو نعلمُ متى نبكي ومتى نسمحُ لدمعةٍ ما أن تفِرَّ من أعيننا؟ إنها لحظاتٌ دقيقةٌ حاسمة تلك التي نتخذ فيها قراراً بالبكاء. إنه يشبه مِبضع الجرَّاح الذي يقطع هنا فيشفي، وهناك فيميت.

بوصلة البكاء هذه مفقودة عند الغرباء. يبكون متى لا يجدي البكاء شيئاً، ويحبسون دموعهم متى تكون الدمعة الواحدة أشفى لوجعهم من أعشاب الدنيا بأسرها.

بعض الجراح نتألم لوجودها وليس لإيلامها. وعندما نفقد الإحساس بالألم نلتفت إلى مواجهة الأقدار مرّةً أخرى.

الإحساس بالذلِّ مؤلم بينما الذُّل نفسه قد يُنسى.

فلسفاتٌ فلسفات. أوجاع المنفيين الذين شرَّدتهم حقيبة سفر ينتقلون بها من مطارٍ يكرههم، إلى مطارٍ يكرهونه.

أتعلمين ماذا تشبه الغربة؟ تشبه المبنى الآيل للسقوط، نعيشُ تحت سقوفه القديمة ولا ندري متى يسقط فوق رؤوسنا. ولكن من يأبه لذلك.

***

- إن أحداً لم يبلغ السعادة طوال سنة هو يمشي في الطريق الخطأ حتماً. السعادة على بُعد أيام منا. ولكننا نجهل الاتجاه.

قالت مس تنغل عبارتها وهي تشير إليَّ بالسبّابة أثناء الكلام، وكأنها توصي ابنها أن يحترس من الطريق.

مفهومها يسير على الذين يملكون في ذواتهم قدرة التغيير. نحتاج إلى ظروف خارجية أحياناً لتساعدنا على الانقلاب، مثل السلحفاة التي انقلبت على ظهرها، لا يمكن أن تعود إلا بمساعدةٍ خارجية.

كانت خادمة مس تنغل تكوي قمصاني على مقربةٍ منا، وأنا أجلس مع سيّدتها في الشرفة التي تطلُّ على المضيق.

هذا الصباح، اتصلت بي أمّي باكراً كعادتها. هذا الوقت الذي يدهمها فيه نومها وحنينها. أيقظتني من نومي وراحت تلمّح إلى اقتراب الإجازة. قلت لها إن عودتي غير ممكنة لأني ما زلتُ مرتبطاً بعمل حتى لو توقفت دراستي. راحت تدعو لي وفي صوتها خيبة أمل.

هل أعود إلى الرياض قبل أن تعودي إلي؟ أي مدينة موحشة استحالت الرياض بعدكِ؟ هناك ذكرياتي معكِ. المطاعم التي دعوتكِ إليها في الأيام التي سبقت جرأتنا، الفندق الذي التقينا فيه للمرة الأولى، وغرفتكِ التي تعرف وحدها حجم هذا الحب وشكله، وأطراف المدينة التي كنتُ أتركُكِ تقودين سيارتي فيها، والشوارع التي مشينا عليها، والأماكن التي التقينا فيها، وحيُّكِ الهادئ وبيتُكِ الأكبر بين بيوت الحي.

أتدرين كيف تآمَرت الأشياء عليَّ في الرياض بعد رحيلكِ؟ مِشوارٌ عابرٌ أقضيه وحدي، ولا أدري لماذا أقف في طريق عودتي دون سيارات الرياض جميعاً جوار سيارة أختكِ أنتِ، شعاع.

من على بُعد ظللتُ أتبعُها. هزَّتني العادة القديمة للسير فوق الجراح. تماماً مثلما كنتُ أشتري العصير والحلوى وأقصد بيتكِ فجراً كما تعوَّدت، وأنا أعلم أني لن أدخله، ولكني أتحسّس طعم الماضي بلساني وأبتلع الشوك.

كانت شعاع مشغولةً بهاتفها وعلى وجهها ابتسامةٌ مضيئة. قَصَدَت متجراً ثم مقهىً نسائياً عادت بعده إلى البيت، وعدتُ أنا إلى أرق تلك الليلة أيضاً. أجَّلت شعاع مشروع نومي دون أن تدري.

تفترسني عبارةُ مس تنغل مرّةً أخرى بعد طيف الذكرى هذا. السعادةُ قريبة ولكنّا نتنكب الطرق الخاطئة. نمشي بلا وعي. تقودنا العادات والأعراف والمبادئ المضلّلة التي لا أصل لها ولا حقيقة. نتخبَّطُ في ظلمات المجتمع ولا نبصر ضوء الإنسان في داخلنا، وما بلغنا هذه السعادة. ماذا أورثنا خوفنا إلا خوفاً أكبر؟ وماذا أصارنا إليه التريُّث الجبان إلا ما نحن فيه من الفراق والأسى؟

أكمل ما أفكّر فيه مع مس تنغل:

- كانت سعادتنا أقرب إلينا من خطوات فعلاً. ولكنّ مها محشوَّةٌ بالخوف الرجاليِّ منذ المراهقة. هي التي رأت من قسوة إخوتها الذكور ما رأت، فظنت نفسها نجت من ظلال تلك المشكلة، فإذا هم قد زرعوا الخوف في عظامها، فأفسدت حياتها بنفسها.

- ماذا فعلوا بها؟

- تنصّتوا على هاتفها أثناء مراهقتها الأولى. سمعوها تهاتف شاباً لم تعرف إلا صوته. أخذوها بالشكِّ قبل اليقين، والظنِّ قبل الثبات، ومارسوا معها غضباتهم الرجولية حتى يتأكدوا من اختمار القبيلة في عروقهم، فكان الظلم، وكان الحُطامُ النفسي الذي أصارتها إليه بذاءة اتهاماتهم.

- أليست أختهم؟

- نعم، ولكن رُبَّ غريبٍ أحنُّ من قريب.

- كنتَ أحنَّ عليها منهم إذن. ربما من أجل هذا وقعت في حبك. كنتَ تعويضَها المناسب عن قسوةِ الرجال.

- لا. مها لا تبحَثُ عمّا أفقدوها إيّاه من الحنان معي. مها أكبر مني سنّاً ولن تستقي الحماية ممّن يصغرها. ولكنني جهدتُ لأكون كما أنا. وكما نجوتُ بجلدي من أن يزرعوا فيَّ هوس اعتقال النساء وحبسَ حرّياتهنّ وعدَّ نبضاتِ قلوبهنّ.

اعتدلت مس تنغل في جِلستها لتصغي إلى ما أقوله بتركيزٍ أكبر.

- كنت أجاهد حتى لا أبدو باحترامي لأنوثتها وحرّيتها التي هي مبدأي أصلاً وكأني أصطاد في ماء عكر، أو أحاول أن أستغل آثار القيود التي تركها الإخوة في يديها لأفوز بقلبها.

تكلمت الخادمة فانحشرت الكلمات في حلقها. تنحنحت بارتباك ثم أعادت عبارتها مرةً أخرى:

- انتهت قمصانك سيدي.

أومأتُ لها بامتنان، فهربت إلى غرفةٍ أخرى. حملتُ قمصاني وهممتُ بالخروج فاستوقفتني مس تنغل وهي تقول:

- إنك تتحدَّثُ دائماً وكأنك شاعر.

لم أكن قد أخبرتها من قبل بهذا العيب العاطفي، ولكنها ربما أدركت ذلك من أسلوبي في تجسيد أحزاني. لم تكن تفهم إلا أني

أملك تحت أضلاعي مُضَخِّماً للحزن، يمرُّ عبر أنبوبٍ طويلٍ من اليأس، ثم يندفع من فوهةِ غربتي، وهكذا أسردُ لها أوجاعي الصغيرة.

كان حزني أمامها يبدو آنيةً من الآجُرِّ، أشكِّلها بيدي كما يريد الحزن، ثم أحشر مشاعري داخلها، أو أتركها إلى آنيةٍ أخرى، ريثما تنمو لي مشاعر جديدة.

لأن الشعراء دائماً يحزنون هكذا، قالت لي هذا، كلّما كبروا صغُرت الحياة في أعينهم.

قرأت لي مرّةً دفتر مذكراتها. وقفتُ على يومٍ قديم قبل مولدي كتَبتْ فيه: «الحياة ليست إلا محطاتٍ حزينة وأخرى مشوبةً بالحزن نسمّيها مجازاً سعيدة. وما يبقى في ذاكرتك من الماضي يكون بقدر ما كانت آلامك فيه».

***

«هذه الليلة، ولِد القرار. طوال الليل وأنا أتنفس أفكاري، وأناقشُ نفسي».

لم تستيقظ مس تنغل بعد. أترك الشرفة التي امتلأت بنور الشمس وأدخل المطبخ لأجهّز إفطاري ببطءٍ في يوم إجازة. أسخّن الشاي، وأقطع خبزي وأحشوهُ برويّة، ثم أمضغ بكسلٍ وأنا أتابع الأخبار بنصف اهتمام.

تُرى ماذا تفعلين الآن يا مها؟

مرَّ عام على اندثاري تحت صقيع فانكوفر وكأني فقدت إحساسي بتعاقب الأيام ومرور الزمن. ما زلت أدرس، ولولا هذا الالتزام الجامعي من أجل رسالتي لشعرت حقاً أني أمشي على هامش الوقت. فمن خلاله وضعت حدّاً لشتاتي، ووجدتُ إجابةً لسؤالِ فانكوفر العريق، ماذا أفعل هنا؟

«ربّما أرتِّبُ أوراق حزني. ربّما أتأكَّدُ أني فعلاً أحبكِ».

أنهيتُ إفطاري ثم بدَّلتُ ثيابي بسرعة وأخذتُ مِظلّتي المعلَّقة أمام الباب وخرجتُ من الشقة. تركتُ سيارتي حيث هي ومشيتُ على ضفاف المضيق في صباحٍ تكاد الشمس أن تغافله فتخرج. كانت الأشياء من حولي جميلة. كل ما في هذا المكان من فانكوفر جميلٌ كالعادة. بدأت أتجه إلى شارع جورجيا.

لو عدتُ ماذا سأفعل؟ لو بقيتُ ماذا سأفعل؟ ما دمتِ قد أخذتِ معكِ طموحي ورغبتي في الحياة فسأظلّ أدبُّ على ظهر الأرض حتى أعود إلى بطنها، وسيموت رجل كان أحرى به أن يمسَّ السحاب، ولكنه تعثّر في أول مشواره بفتاة عجيبة، أحرقته تماماً وتخلَّت عنه.

«لا بد من حلٍّ ما لأني مريض».

عندما يشرق صباحٌ لا أجد فيه ما يحتويني أشعر بالوهن. كأنما كان عليّ أن أموت قبله. لماذا يزداد عمري يوماً لا أستحقُّه؟ أنا الذي أتقلَّب في شقَّتي مثل النوارس المريضة. كل شيء في مكانه. لا

حاجة إلى الترتيب، لا حاجة إلى التنظيف. حتى ذاكرتي التعيسة، خيرٌ لها أن لا تفيق من نومها اليوم.

«إذن لا بدّ أن أغيِّر أنا شكل صباحاتي، فوحدها لن تأتي بجديد».

يبدو أني اشتقتُ إليكِ كثيراً.

أنا الشارق حتى الآن بنغمةِ صوتكِ، الذابِلُ بين يدي حبِّكِ، المعلَّق منذ سنواتٍ بين عينيكِ الجميلتين.. ماذا أفعل؟

«أوقفي شوقي إليكِ إن استطعتِ».

أخيراً أنا في جورجيا، أكبر الشوارع في وسط المدينة. بدأت بناياته الكبيرة تظلُّ المكانَ فوقي. ليس عندي وجهةٌ الآن. سأمرُّ في طريقي على المراكز التجارية الكبرى، وسأقف لأتأمل حشود السائحين التي تنتظر أن تفتح أبوابُ متحف الفن. يبدو الشارع صاخباً أكثر من أفكاري. ربما عليَّ أن أمشي في الروبسون على محاذاته.

هل ما زلتِ حتى الآن تؤمنين أن فتاكِ الأول كان يستحقُّ الحب؟ ربما لأنكِ صرتِ أعلم الآن بأصناف الرجال يحقُّ لي أن أسألكِ كيف ترينني الآن؟ شاعراً ضعيفاً يقتاتُ وهماً، ويعيشُ على جراثيم خياله؟ رجلٌ يظنُّ، لفرط سذاجته، أنكِ ربما تجشَّمتِ عناء الطلاق لتعودي إليه؟

«سيجشِّمكِ الساذجُ هذا العناءَ رغماً عنكِ، عندما يُشفى».

منذ بداياتِ حبّنا تمنّيتُ أن تكوني لي. أنا الغارقُ في حشيشِ

أحلامٍ صعبة. أتخيَّل آخرها قبل أولها. فكَّرتُ فيكِ حتى أتلفتُ نصفَ دماغي. وخلقتُ تسعين مشهداً، وتسعين حواراً، وتسعين قصةً، كان يمكن أن تدور بيني وبينكِ في هباء المستقبل. تخيلتُ منزلنا، غرفة نومنا، حديقتنا، سيارتنا، وأسماء أطفالنا.

هذه الأخيرة حلمنا بها دائماً معاً. أسماؤهم وطباعهم وأشكالهم. وأيُّهم يُشبهني وأيُّهم يُشبهكِ. كتبنا شهاداتِ ميلادهم بالفعلِ، فكيف تخلّينا عنهم؟

هل من الممكن حقاً أن يوجد طفل في الدنيا تجتمع فيه دمائي ودماؤكِ؟ تكونين أمّه وأكون أباه؟

كم أنا مرهق من عينيْ طفلٍ لم يُخلق بعد. طفلٌ لن يكون، لن يوجد. جزءٌ من اللاشيء، جزءٌ من العدم، من الفراغ.

الروبسون أكثر هدوءاً وجمالاً. المحالُّ التجارية تحفُّه من الجانبين. قال لي ديار مرّة: «الناس في الروبسون أكثر ودّاً من الشوارع الأخرى في وسط المدينة». فكرتُ في سببٍ منطقي يجعل عادات الناس تختلف في شارعين متحاذيين. كفاني ديار تفسير فلسفته: الروبسون مليء بالأسواق والمقاهي. ستجدُّ الكثير من الزخم الأنثوي على الطريق.

فكَّرتُ كثيراً قبل أن ترحلي أن أفتعل ضجةً ما تبقيكِ معي مُرغمةً، وتتحقَّقُ الغاية المرجوّة أياً كانت الوسيلة. كنتُ أعلمُ أن هذا سيؤذيك حتماً، وأنَّ بقاءكِ معي عندها لن يكون حباً، بل قسراً.

وعَدَلتُ على أملٍ أن تعودي طوعاً.

«حان وقتُ الضجّة الآن. لن أعدل عنها هذه المرة».

كنتُ أقول، لأخفِّفَ عن نفسي وطأةَ الحُمّى فقط، إنّكِ مسؤولةٌ عن اختياركِ، وحرّةٌ في إكمالِ حياتكِ كما تريدين، فلا داعي لكل هذه اللهفة على امرأةٍ لا ترغب في العيش معي. وكنتُ أظنُّ أنني لن أحتاج إلى من لا تحتاج إليّ، ولا أريد من لا تريدني، وأنَّ الأمر لن يعدو صدمة الفراق، ثم أعودُ إلى سابق عهدي بعد أيام. وحاولتُ أن أتسلَّى عنكِ بذلك، ولكني شعرتُ بالغبن، وتعجبتُ ألف مرّة، فما دمتِ تحبينني حباً لم أعرف مثله، كيف تستطيعين أن تعيشي بدوني. إما أنكِ خائفة، فسأقف جواركِ حتى نتزوج، وإما أن حبكِ كان مبالِغاً، وأغرقتُ أنا نفسي في بحرٍ لم يكن يتعامل مع الشاطئ بجدّية. وفي هذه الحالة لن أعيش في دائرة القهر المميتة وحدي، لا بدَّ لأحدنا أن يضحِّي لكيلا يموت الآخر.

«يبدو أني لن أضحّي أكثر من ذلك. دوركِ هذه المرّة».

بدأت قدماي تتعبان من كثرة المشي. لم أتوقَّف منذ تركتُ شقتي إلا عند خطوط المشاة في تقاطعات الشوارع. المسافة طويلةٌ فعلاً. تُرى هل استيقظت مس تنغل؟ أين ديار ولارا؟

أُفاجأ أمامي بصديقٍ أرجنتيني على مقاعد الدراسة. كان يجلسُ على عتبة أحدِ المحالّ. له شعرٌ يكاد يرحل عن رأسه وذقنٌ مقصوصٌ بعناية دون عارضين. حيّيته بهدوء. جلستُ معه قليلاً نتحدَّثُ عن

همومنا المشتركة. ستبدأ دراستنا بعد أيام. يبدو فصلاً مختلفاً.

كان يبحث عن شقة ألديردو. أخبرته عن عنوان شقتي القديمة التي سكنتها قبل أن أنتقل إلى شقة مس تنغل. نقش العنوان في ذاكرة هاتفه المتنقل. ألقى عليّ نظرة امتنان. صافحته وعدتُ أمشي وأفكر.

طردتُ هلوساتي المفيدة تلك عن نسيانكِ، وفكَّرتُ في فكرةٍ أخرى، جعلتني أكثر رضاءً وأملاً وثباتاً.

«هل أتى القرار؟».

وضعتُ أمامي هدفاً أعتقِدُ به، وأسعى إليه بما أستطيع، وأكرِّس حياتي كلها في سبيل تحقيقه، أو أموت دونه. يشبه الهدف الواحد الذي يعلِّقه الثوريُّون في حدقات عيونهم، وهو أن أستعيدكِ يوماً ما.

«هذه هي العقيدة، والآن يبدأ الجهاد».

سأتدرَّجُ في استبسالي. أبدأُ بمفاوضةٍ أولى على طاولةِ الحب، ولكنَّ جهادي هذا لن يبقى طويلاً في الوسط. خوفكِ الذي سبَّبَ لي كل ما أنا فيه لا بد أنه صار أكبر الآن بعد أن تضاعفت الأغلال. أخشى أن أؤذي معصمكِ عندما أحاول خلعها عنكِ.

«كيف أبدأ؟».

سأكتبُ لكِ حتى تبرأ مني الكتابة، لكي لا ينطفئ حبي في قلبكِ ولكي لا تفكري فيَّ ذات يومٍ أنني رجلٌ ملأه الهم، ويريد أن يحصل على امرأته بأيِّ شكلٍ كان. إنه الحب الذي يحرِّك كل شيء،

ويمنعني من التسليم يا حبيبتي مثل أيٍّ ضعيف.

«أريد أن أوفِّر بكتابتي نقاشَ يو مٍ ما».

ولكن ماذا سأكتب؟ سأفكِّرُ في هذا فيما بعد.

مررتُ على مقهى ستاربكس. المكان الذي رأيتُ فيه دياراً أول مرّة. تأمّلتُ كرسيّه الذي يشغله رجلٌ نائم. أخذتُ أراوح النظرات في التقاطع النشط. جلستُ على أحدِ الكراسي بعد أن طلبت شاياً أخضر ووقفتُ أنتظره وأنا أراقبُ عيو ن البائعة ونظراتها المشتتة بين الزبائن. قام الرجل النائم على كرسي ديار وليس في وجهه أثر نعاس. هل كان يتظاهر بالنو م؟ تناول معطفه وتأبط جريدةً صفراء ورحل.

هل هو قدرُ هذا الكرسي ألا يشغله إلا الغرباء؟

أخذت جريدةً معلّقةً أمامي. على الصفحة الأولى إعلانٌ عن مبنى يؤجَّر شققاً في شارع ونستون. سأتصل لاحقاً بألديردو لأخبره عنها.

أيُّ كتابةٍ هذه التي سأكتبها لكِ؟ ما هذه الفكرة؟ لا أدري ولكني أستطيع أن أكتب ما يليق. لن تخونني أصابعي أبداً. وبعد أن أكتب ما سأكتبه سأسعى جاهداً لئلا تسقط حياتي الماديَّة في دوّامة شتاتي. سأسعى إلى حياةٍ أفضل. لا أملاً، ولا طموحاً، ولكن لأجعل قرار عودتكِ أسهل عندما تفكرين في العودة. وهذا ما فعلته، وأظنُّ أنني ما زلتُ ماضياً فيه.

«ربّما كانت هذه الفكرة هي التي أبقتني بعيداً عن الهاوية حتى الآن».

ماذا بعد؟ سأصبرُ بعض الزمن حتى يتسنّى لكِ اتخاذ قرار الانفصال عن سالم وتنفيذه بكل يُسر، بعد أن تخفّت في صدرك هالته المقدَّسة التي كنت تحيطينه بها، والتي كانت تمنعكِ من التعامل معه بهذه الجرأة.

«أليس الزمن الذي انتظرته كافياً؟ أخشى أن تحبلي».

جاءني الشاي، وما زالت نظرات النادلة ذاهلة. تبدو صغيرةً. لا أظنّ عُمرَها يمكّنها من أن تعمل في مكان آخر. هذه الأماكن تفضِّلُ الصغيراتِ اللواتي يعملن لفتراتٍ قصيرة لمتابعة دراستهن. يضمن المقهى تنوّع وجوه الحسناوات وانخفاض أجورهن وعدم الالتزام بالتدريب والضرائب.

«ماذا سيبقى بعد الكتابة؟».

سيأتي يومٌ تكونُ مهلتكِ الزمنية قد انتهت بمقياس ألمي ووجعي لأني لا أطيقُ أكثر مما طِقْت، ولن أتحمَّل أقسى مما تحمَّلت، لن أقوى على مزيدٍ من هذا الحُطام المعنوي الذي يتفاقمُ كل يوم. وعندها سأنتفض.

انتهى زمن الحسرات واللوعات. وآن لنا أن نفعل شيئاً إزاء هذه الغُمَّةِ التي أرهقتنا طويلاً، وأبكتنا كثيراً، وأنستنا كيف هي الحياة بدون حزن.

«أفترضُ أنكِ ما زلتِ حزينةً حتى الآن كما كنتِ ليلة فراقنا. ربما استطعتِ أن تكبحي أحزانكِ. أنتِ دائماً أفضل مني».

آن لنا أن نستقرَّ أخيراً، فحياتكِ هذه ليست مستقرة كما تظنين، لأني أنا ما زلتُ أتعذَّب، ولن يطفئ عذابي إلا أنتِ. إما أن أستعيدكِ أو أموت دونكِ. ليس عندي ما أخسره، وأنتِ تدركين حتماً أن الشخص الذي ليس لديه ما يخسره يكون أكثرَ اندفاعاً، وأشدَّ تدميراً.

ما أكثر ما كنسته في دماغي من أفكار، وما أكثر ما تلقي به الريح عليه من أوراق الشجر الجافَّة، ولا أتوقَّفُ عن التفكيرِ فيكِ بكل الدروب. وربما مشيتُ في دربٍ ما أكثرَ من مرّة.

«هل ما زلتُ مريضاً؟».

سيأتي يوم يدفعني فيه اليأس إلى طرق أبوابكِ بعنفٍ شديد لا أتقي معه أسماع الآخرين. وسأصرخ بكِ للعودة إلى فارسكِ القديم، هذا الذي قطَّرتِ في عينيه حبكِ، وزرعتِ في قلبه عشقاً لا ينتهي ونسيتِ أن تجعلي له حداً. ولذلك ما زال ينمو ويؤلم أضلاعي، ويخرِّبُ أفكاري وقراراتي.

«اتخاذ قرارٍ خاطئ خيرٌ من عدم اتخاذ أيِّ قرار. سمعتُ طبيباً يقول ذلك».

ذلك لن يكون رغبةً في انتقام، فما زلتُ أحبكِ، ولكني أحرّركِ من المسؤولية بالإجبار، وأعيدكِ فيها إلى الحياة التي كان يجب أن نحياها من قبل، وأقيلكِ من العثرة السخيفة التي أعثرتكِ إياها الحياة،

فجعلتكِ تتزوجين من لا تحبين، وتورثين من تحبين كل هذا القهر والمرارة.

«لو كنتُ أريده انتقاماً يا فتاتي لما أبقيتُ للطوفانِ من بعدي شيئاً يمرُّ عليه، ولكنها جهادٌ مقدَّس، ليس إلا».

ظهيرةٌ غائمة. أنا الشخص الوحيد في المدينة الذي يحبُّ غيومها ويرفض شمسها. في جسدي عطشٌ إلى الغيوم الباردة لا ترويه سنواتٌ من السُّحب الركامية في سماواتٍ بيضاء. في عروقي مللٌ عريقٌ من خيوط الشمس.

هل أمشي على نحو ستانلي بارك وبحيرة اللوست لاقون؟ إن هذه الغيوم تُنذر بمطر أو رياح باردة، وأنا لا يغطيني إلا هذا القميص الثقيل وقد لا يكفي. المشي وحيداً بردٌ بحدّ ذاته.

أعلمُ أنكِ كنتِ مجبرةً على ما فعلتِ، وكانت دموعكِ أغزر، وكان الأمر عليكِ أصعب، والفراق عليكِ أجزع، وكنتُ في الليلاتِ الأخيرة أواسيكِ في فقدي، وأطمئنكِ إلى أنَّ الله لن يتركنا وحيدين. وكنتِ تصمتين، وكأنك تخشين من جواب يأخذ شكل الوعد، والتزام في متاهة الزمن، ألومكِ عليه إن لم يتحقق.

«نسيتِ، ربّما، أنّ التزامنا نشأ فعلاً، بالحب وليس بالكلمات».

ربما يجب أن تعودي. لأنكِ آمنتِ بي، عاشقاً وزوجاً ورجلاً تتكئين عليه في ميل الحياة، وستعرفين عندما تجرِّبين غيري كيف

يتباينُ الرجال عن بعضهم، ويتميَّز الأشخاص فيما بينهم، وكيف تختلفُ كلمةُ الغزل التي يلفظها عاشق عن تلك التي يلفظها متأنّق، وتختلفُ الابتسامة الدافئة التي تحملكِ في الضرّاء كما تحملكِ في السرّاء، عن تلك التي تأتيكِ واجباً زوجياً لإضفاءِ الاستقرار المتصنَّع على جنباتِ الزواج.

«أنتِ قلتِ لي بنفسكِ، وأنتِ تبكين، بعد لقائكِ بسالم: إنه لا يقولها مثلك».

ستدركين الفرق بين من يعينكِ على الحياة، ومن يعينُ الحياةَ عليكِ. والفرق بين من يعيش مع امرأة لأنها حبيبته التي لا يستطيع العيش بدونها، ومن يعيشُ مع امرأةٍ لأنهم اختاروها له فقط.

أعرف أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً قبل أن أعود من فانكوفر، ولكني أحتاجُ إلى أكثر من سنة لتنتهي دراستي. إنه امتدادٌ أطول من أن يظلَّ عودُ قراري مستقيماً. ستميله الريح حتماً أو تكسره. سأتقلَّبُ عليه أكثر من مرة، ولكن حسبي أنه وُلد وأنَّ جذوره سافَرَت في الأرض. يوماً آخر سيجدُ ظروفاً ملائمة للاستطالة من جديد.

قمتُ من كرسيّ المقهى وقد أمطرتِ السماء. استوقفتُ سيارة أجرة. كانت مس تنغل تكلمني عبر الهاتف.

«لتزدادي غروراً يا مها. هناك رجلٌ سيقاتل من أجلكِ».

الفصل السادس

أمام دهشة اللحن، وفي أجمل مقاطع النوتة، نَشَز سعد فجأة.

دخل هذا المتطفّل القبيح إلى المكان، وحشر أصابعه في حلقي حتى جعلني أقيء سعادتي بكِ وبإخلاصكِ.

لم يقف طويلاً أمام تساؤلاتٍ مُرَّةٍ تطرح نفسها بعياء.

مَن سرَّبه إلى حبّنا؟ من أدخله إلى ضيعتنا النائمة فوق ضباب الوفاء الجبليِّ الأبيض منذ ثلاثة أشهر؟

الخامس من يوليو. هذه الليلة، يجبُ أن تخرجي. بقاؤكِ طول النهار في الغرفة يهرشُ رؤوسهم بشدة.

تقومين من بين أحضاني بكسل. تلتقطين منشفةً متوسطة الحجم، وقُبلةً عابرة، قبل أن تذهبي إلى الحمّام، لتستحمّي قبل الخروج. وألحق بكِ.

أجلسُ أمامكِ تلميذاً في مدرسة الفن وأنتِ تستحمين مثل تمثالٍ رومانيٍ باهر.

منذ أن يبدأ حمّامكِ وحتى ينتهي لا تخرج عيناي من حلقة الدهشة بعد. أناولكِ عبوّة الشامبو وقطعة الصابون ومنعِّم الشعر وذراع الدش وأجلس لأراقب خطوات استحمامكِ البطيئة، وأجمع التفاصيل الصغيرة قبل أن يضيعها الزمن. الليل الذي يسقط من أثناء شعركِ، ونُحاتة النور التي تسقط من سطح جلدك، وقطرات الماء التي تتخاذلُ بين نهدٍ وآخر، ورغوة الصابون الذي تنتفخ فُقّاعاته دهشةً ورغبة. تخرجين من البانيو برشاقة. تلفّين الشمع البلّوري في منشفة، وتقفين أمام المغسلة لثوان تغسلين فيها أسنانكِ، وترشين على جسمكِ من أكثر من عبوّةٍ وعطرٍ وكريم وبودرة، وأنا أحشر نفسي بينكِ وبين المرآة حتى لا تخلو بكِ.

من يلملمني أنا؟ من يجمع الحنان الذي يتسرَّبُ من جلدي، ويقطر مع الماء قطرةً قطرةً. كم من البشر حتى الآن يعرفون كيف تستحمّ العذارى؟

عندما يصبحُ البياض أكثر من مجرد لون، عندما يصبح فتنة، عندما يصبح نداءً نورانياً لعناقٍ، لقبلة، لرغبة، في حمّام.

أمام مرآتكِ الضخمة في الغرفة تجلسين على الأرض، تقرِّبين مجفّف الشعر الكبير، ومشطيكِ الضخمين، وتصفّفين شعركِ في سرعةٍ وأنا أتربّعُ أمامكِ في فضول، وألاحق يديكِ المعلّقتين بخُصلةٍ تخشين هروبها، ولم يزل ظهركِ عارياً يقطر منه الماء.

أنام على فخذكِ. أغمضُ عينيَّ وأرحل في بيداء لم يعرفها

كوكب. يهدهدني صوت مجفف الشعر وهو ينطفئ ويشتغل، وصوتكِ الذي يغني ببطء أيَّ لحنٍ شارد، وأفتحُ عينيّ لأتأملكِ.

ذلك الخال النائم تحت نهدكِ الأيسر مثل لاجئٍ سياسي. والوحمة الطفيفة في فخذكِ الأيمن. تنتبهين لي فجأة. تولد قبلة.

ينتهي شعركِ وتنتقلين إلى مرآةٍ أخرى، وتسريحةٍ كبيرة جداً. المئاتُ من أقلام الزينة وفرشها وأصباغها ومعاجينها وألوانها مصفوفةٌ بأناقةٍ بالغة. لا أدري كيف لا تضيعين بين كل هذه الأشياء، وكيف تلتقطين ما تريدين منها بدقة. أتأمل عملكِ البارع وأنتِ تذيبين بالقدّاحة الصغيرة رأس الكحل المتجمد، ثم تمرّين به على جفنيكِ واحداً بعد الآخر وأنتِ تتابعين الخط الأسود في المرآة حتى لا تبتلعه عيناكِ، ويضيع سواده في سوادهما.

هل أنتِ إلا سماء؟

وهل أنا إلا طائرٌ شماليٌ لا يدري متى تنتهي هجرته؟

دعيني أكمل معكِ هذا الموسم الخصب. موسم الزينة. إنَّ نداءاتهم تعلو. الجميع هناك في انتظارك.

تخرجُ الريشاتُ من جحورها. تصفّين الألوان المنتقاة لتناسب ما ستلبسينه بعد قليل. يبدأ هزجكِ الأنثوي فوق لوحة الإنسان. ظلالٌ خفيفةٌ فوق الجفن المرتجف. تدرُّجٌ لوني بارع في أنحاء الوجه. ألوانٌ تتعاقبُ لوناً بعد آخر لُتفني نفسها من أجل جمالك. كل شيء يتناغم بروعةٍ بين أصابعكِ وأجزاء بشرتكِ حتى تنتهي.

بقي أحمر الشفاه. يتأخر دائماً لأن بعده لا يعود هناك مجال لقبلةٍ أخرى.

ولذلك آخذ كفايتي من شفتيكِ قبل أن يخرج إصبعُ الحمرة من قُمقمه كماردٍ مخلص، ويفرشَ نفسه عليهما، ويقطِّرَ دماءه فوقهما، مبعثراً أيام عمره ولا يبالي.

قلتِ لي: إن أكثرَ المهارات تطلّباً للدقة وضعُ أحمر الشفاه. خطأٌ متوتّر قد يفسد الزينة بأكملها. احترمتُ ذلك، وصرتُ التزم الهدوء تماماً، وأكتم غيرتي من القلم المشدوه وهو يمرُّ على الشفة البارزة وكأنه يراها لأول مرّة.

تطرقُ الخادمة الباب فأتوارى في غرفة الملابس ريثما تفتحين لها. تعودين بقميصكِ مكويّاً. أسبقكِ إلى غرفة النوم لأوقد المدخنة الكهربائية الصغيرة ريثما تحمى. تلبسين قميصاً أبيض وبنطالاً فضفاضاً وتختارين حذاءً بين العشراتِ التي تتمنى أن تقضي معكِ هذه الليلة. ترشين فوق المدخنة بخوركِ المحبب من علبتها ذات القطيفة الحمراء. تدورين حولها ثم يطرق بابنا جان بول حاملاً قارورة عطره الطاهرة.

ها قد انتهيتِ الآن. وداعاً يا حبيبتي. لا تتأخري. سأقرأ في مجلاتكِ ريثما تعودين.

تمنحينني قبلةً هوائية شديدة السطحية من شفتيكِ. وتقرّبين مني صحون الحلوى وعُلب العصير. تتأكدين أن شيئاً لن ينقصني إلا

وجودكِ. يخرجُ من عينيكِ طائر شوقٍ صادق ليحطَّ عليَّ قبل أن تتواري خلف الباب.

كرجل، لم أشعر يوماً أن زينتكِ تُحدث فرقاً مهما اجتهدتِ فيها. تظلّين عندي قطعةً شهية من الأنوثة، لا أنتبه إلى تفاصيلها، بل آخذها جميعاً كما هي.

قلتُ لكِ أكثر من مرّة إنَّ الدور الحقيقي لهذه الزينة هو التخفيف من حِدّة جمالكِ وليس إبرازه. ولكنكِ تأبين إلا أن تزيدي البريق بريقاً، والعطر عطراً، والحب دوخة. ظننتني أغازلكِ ولم تدركي أني أؤمن بهذه الكلمات كما لم أؤمن بجمال مجرّد قط.

مشيتُ في غرفتكِ متململاً. رحتُ أتأمَّلُ الصور المعلَّقة في أطراف التسريحة، وتلك المعلّقة فوق رفوف دولابٍ صغير في الزاوية. هنا بعض أفراد الأسرة، صديقتان حميمتان، وطفلٌ ناعم، وأمٌ جميلة تقف في صورتها القديمة مثل الملائكة.

هنا ركنٌ ترامت فيه العشرات من الدُّمى. كلّها تعيشُ معكِ وتسكن هذه الغرفة، وتشهَدُ أنها رأتنا معاً نتعاطى الحب في كل زواياها، وأننا أثرنا في جمودها الحياة، وفجَّرنا بين أقطانها الرغبة، لفرط ما رأته من تكاملنا تحت هذا السقف على مدى سنة كاملة لم يمضِ أسبوعٌ منها إلا ومكثتُ هنا في هذه الغرفة يوماً أو يومين أو ثلاثة.

تنامُ على سريركِ أشياء كثيرة تزاحمنا فيه، ولا نشعر بالضيق.

نحن اللذين لا نحتاج من السرير إلا إلى ما يكفي جسداً واحداً، يبتلع فيه أحدنا الآخر، ونلوّن فيه جسدينا، وننام على عناقٍ حبيب، كأنَّ الدنيا وما فيها خارج السرير لا تعنينا.

وعندما يؤلمكِ ظهركِ كانت يداي تجسَّانه برفق. تبحثان عن موضع الألم وتدلّكانه حتى يخفت في جسدكِ وأنتِ نائمةٌ بوداعة الحمائم، وظهركِ عارٍ كسيفٍ مجيدي، أقارنُ فيه سُمرة يدي ببياضه الطاهر، ونحن نتحدَّثُ عن كل ما رأيناه وسمعناه. ونحكي حكايات، ونضحك ضحكات، ونغني أغنيات. أطفالٌ فوق العشرين، سكارى ولم نشرب قطرة، سعداء ونحن بين يدي فراقٍ قريب.

ينتهي ما في غرفة النوم وما زلتِ غائبة. أستوقِفُ غيمةً عابرة لتحملني إلى غرفة الملابس. ربما وجدتُ كتاباً أقرأ فيه أو مجلةً أتسلّى بها ريثما تعودين.

نصفُ الغرفة خزائن للملابس ومكتبٌ أنيق.

وأدراج.

أتأمل الوردة الذابلة في الكأس الزجاجية.

الكتب، والشموع.

والأدراج.

ألتفتُ إلى الأحذية المصفوفة، والشالِ الملقى بلا اهتمام.

وأعود، إليها مرة أخرى.

الأدراج..

الأدراج..

الأدراج..

....

لأني لا أتحمّل درجاً صامتاً.

لا أتحمّل.

أتمنى لو أتعلم يوماً كيف أحترم صمت الأدراج المغلقة، تلك التي تبارزني بغموضها، وتخلطُ في داخلي الأمورَ والأفكار، وتتركني مبعثراً أمام مبدأٍ ما، أو أدبٍ ما.

حتى لو كنتِ حبيبتي، هل لي أن أغتال سكوت أدراجكِ؟

لا، ربما نعم، أخيراً، سأتركه صامتاً.

وتركته.

وبعد ربع ساعة فقط، كنتُ أدير حواراً طويلاً مع كل درجٍ من الأدراج، وهي داميةٌ بين يديَّ كعذراى مُغتصبات. بقيتُ معها طوال الساعات التي غبتِ فيها عني وأنا أفتِّشُ فيها بغباء.

جلستُ على مبادئي، وأسندتُ ظهري إلى كل ما علّمتني إيّاه أمّي في سِنِّ السابعة، وفي داخلي تتراقَصُ صورة حسن الذي مضى منذ أشهر.

فتَّشتُ في الأدراج حتى آخر رسالة.

حتى هذه الرسالة.

قلبتها بين يديَّ كالملدوغ..

كالهاوي من قمّة حبه..

كالمصلوب على خشبتَي فجيعته..

كالمقسوم نصفين بسيف الصدمة..

وسَقَطَتْ صورته..

تأمّلتها دقائق بأكملها..

تأمّلتها.. طويلاً..

أحياناً تتعلَّقُ عيوننا، بمصائبنا، فلا تخرج عنها.

هذا العاقدُ كفّيه أمامه، من يكون؟

ليت سِرَّه ظلَّ غامضاً هكذا فحسب، لكنّ رسالته المؤرّخة قبل شهر، تقول إن مكالمتكما الأخيرة كانت جميلة، وإنه يكاد أن يحبّكِ، هو الآن أمامي في الصورة، يبتسمُ لكِ ولا يدري أي عينين تنظران إليه الآن.

كانتا عينين..

صارتا حفرتين من الدموع الآسِنة.

هذا هو سعد إذن. الأرنب الذي تجاوز حقله، من أين أتى؟ لا أدري ولكنه يبدو واثقاً بنفسه كثيراً.

أما أنا فأبدو وكأنَّ زلازل التاريخ كلها تسكن أطرافي هذه اللحظة.

وأنتِ هناك خلف ثلاثة جدران، بعيداً عن رائحة الحريق.

بعيداً عن رجلٍ ينهار في غرفتكِ.

تاريخ رسالته يشير تحديداً إلى خمسة عشر يوماً من بعد أن سمعتُ منكِ كلمة الحب الأولى.

هكذا إذاً لا تحتوي كلمة الحب الأولى ضمنياً عهداً بالإخلاص.

جثوتُ على ركبتيّ وحاولتُ أن أزِن الأمور. حاولتُ أن أنظر إليها من زاويةٍ أخرى. حاولت، حاولت، ولكنّ الأمر بدا مُصْمَتاً مثل كرة حديدية. غير قابل للتحوير والتدوير.

أعدتُ كل شيء إلى مكانه وعدتُ إلى غرفة النوم لأستلقي على سريرها الكبير وأغالبَ دموعي المندفعة.

من التلفاز تخرجُ أغنيةٌ:

«يفكرون، يتساءلون، في جنون، حبيبتي أنا من تكون؟». بالفعل تساءلتُ بحيرة بكائي: من تكونين؟ أيُّ امرأةٍ هذه التي سلمتها حياتي كلَّها، وسلَّمتني جزءاً فقط من حياتها، لأن الأجزاء الأخرى مشغولة؟

أيتها الغائبة: من أنتِ؟

هل أنتِ عاشقةٌ حقيقية، أم فتاةٌ تُتقن هذا الدور فحسب؟

هل أنتِ ساحرة عجوز يخيّل إليّ أنها أميرة؟

تذكَّرتُ لحظتها أسطورة عرائس البحر القديمة. نصفُها امرأة جميلة ونصفُها السفلي سمكة. يخرجن من البحر للّهو على الشاطئ، فيغرين الرجال بالاقتراب بجمالهنّ وفتنتهنّ وغنائهنّ العذب، فإذا وقع بين أيديهنَّ رجلٌ افترسنه بوحشية.

أيُّ الأجزاء أشهى في جسد عاشق؟ قلبه؟

أيُّ علاقةٍ هذه التي بدأت في الشوارع الخلفية لقصة حبنا؟

وكيف تُراني لم أشعر بضجّتها وصخبها ونباح كلابها وعِراكِ قططها؟

وكيف استطعتِ أنتِ أن تكوني صامتةً إلى هذا الحد؟ بريئةً إلى هذا الحد؟ وطبيعيةً إلى هذا الحد؟

أحاطت بي هذه الكيفيات الحائرة سريعاً لتلقي بي في دائرة وسطها ثم تدور عليّ راقصةً في جنون، تأبيناً لهذا الذي تدور به الدنيا، ويسقط في دوامةٍ كبيرة، ويحترق بقلبه وعقله معاً.

هل كان استلطافاً؟ فلماذا تختبئ الصورة والرسالة هنا بكل هذه العناية.

هل يوجد ما يفسِّرُ وجود رسالة وصورة لرجل في درج أنثى إلا ما يدور بخلدي؟

هل كانت صداقة إذن؟ فلماذا أخفيتِها عني إذا كانت الأمور تقف عند هذا الحد؟

هل يوجد ما يجب أن يُخفى عن العاشق إلا ما يدور بخلدي؟

هل كانت علاقةً إذن؟ فلماذا تبقينني معكِ بكل هذه الحفاوة الكاذبة ما دام هناك غيري يستطيع ملء قلبكِ؟

تقاطعت في داخلي ألف هل، وألف لماذا، واجتمعت مع الكيفيات الأولى، واكتملت حلقة الأسئلة المميتة.

قبعتُ في انتظاركِ منطوياً على نفسي كسادن معبدٍ عجوز وعيناي ترتجفان في قلق الأفكار المحبطة.

وأتيتِ أخيراً وقد جفَّت دموعي، وتوارت خلف ستار الحكمة والتأني.

قبّلتكِ بشفةٍ باردة، وغازلتكِ بلسانٍ أبكم، ونظرتُ إليكِ بمِحجرين أجوفين خاويين من كل التعابير، وانتهت ليلتنا سريعاً، وحان وقتُ رحيلي فرحلت.

وكان عليَّ أن أقضي أسبوعاً مرعباً قبل أن أعود إليكِ في لقائنا التالي. كنتُ جريحاً جداً. أراوح بين الغضب والحزن والتعب واليأس. شعرتُ أنّ ثمّة شيئاً تهشّم بعنفٍ على أرضيّة قلبي وأنّ شظاياه راحت تسافر في عروقي وتنغرس في لحمي.

كنتُ أحمل أطناناً من البؤس العاطفي على ظهري. أنا الذي أحببتكِ بكل الصدق، بكل الحقيقة، وبكل الإيمان. كنتُ واضحاً معكِ ككتابٍ أبيض لأني كنتُ أرى لكِ قداسةً تلجم لساني عن الكذب، وعقلي عن التزوير، وكنا من الحب بحيث لم أكن أجد ما يدعوني إلى إخفاء أمرٍ عنكِ، فلماذا أنتِ؟

لم تبقَ فكرةٌ بائسة، ولا شعورٌ قانط، إلا ومرَّا على جفنين لم يعرفا غمضة نومٍ إلا لماماً طوال أسبوع، ولم يكن في جدار جفني حين أُسبله إلا صورته وأنتِ.

أيُّ شيء تُراه يدور بينكما؟

مضى الأسبوع الأسود وعدتُ إليكِ. فجراً دخلتُ غرفتكِ، ومكثت فيها دون أن أخبركِ بما يعتمل في صدري حتى أتى المساء. عنده لم أستطع أن أتحمل وجع الأسئلة التي كانت تشغل دماغي، فأطلقتها أمامكِ.

- مها.

- نعمْ يا حبيبي؟

- فتشتُ أدراجكِ الصغيرة.

- ....

- ووجدتُ..

قاطعتِني فجأة، وأنتِ تُهلكين عصبيتكِ في خيوط حذائكِ الملتفّة.

- علمتُ ذلك.

وساد صمت.

أخذتِ تخلعين ملابسكِ، وترتدين قميصاً بيتياً، وأنا أراقبكِ وأجلس على طرف السرير.

سألتكِ:

- لماذا لم تخبريني بأمره من قبل؟

- ولماذا لم تخبرني أنتَ فور اكتشافك الأمر، ماذا كنتَ تنتظر؟

- كنتُ أنتظر أن تبادري أنتِ لعلّ هذا يخفف من مصيبتي.

كنتُ كاذباً في تعليلي هذا، الحقيقة أني جَبُنت.

رفعتِ إليّ عيناً غاضبة، قلتِ لي:

- هل ترغب في تفتيش أدراجٍ أخرى؟

- أرغب فقط بعض الصدق.

- ....

- أرجوكِ يا مها لماذا؟

- كان صديقاً وحسب.

- ولماذا تهاتفينه؟ ولماذا تراسلينه؟ ولماذا تحتفظين بصورته؟

- لا تنتظر مني تفسيراً.

- تعاهدنا على الصراحة.

- لم أكن أرغب في إيذاء مشاعرك.

- ليتكِ آذيتِ مشاعري ربما كانت أفضل مما هي عليه الآن.

كرجل، لم أكن لأقبل تلاعباً كهذا.

وكامرأة، لم تكوني لتقبلي انحشاراً وتدخّلاً كهذين.

لذلك ألقينا بكل القنابل، ثم ساد الهدوء والغبار.

أنتِ تدخّنين بعصبيةٍ في ركن السرير الأيسر وأنا أفتّشُ في داخلي عن معنى.

لأول مرّة أراكِ غاضبة.

وارتبكتُ كثيراً وشعرتُ بالخوف من غضبكِ الهادر هذا.

كنتُ أتوقع منكِ انكساراً بحجم ذنبك، أو ربما بحجم اهتمامكِ بي، ولكن الانكسار الذي أردته كان بعيداً كل البعد عن دخانكِ

المتصاعد في جو الغرفة.

يجبُ أن لا نلتقي بهذه الحدّة، لأن تصادماً ما قد يكلّفنا الكثير من حبنا.

أنتِ لن تقبلي مزيداً من تأنيبي، وأنا لن أقدر على مزيدٍ من غضبك.

أنتِ تمنعينني من إطفاء حيرتي، لماذا تسكتين؟

نظرتُ إليكِ بأسى الرجل الذي فشلت خطته في تجميع كرامته.

أطرقتُ مثل مشنوق، وجلستُ أفكر في ذكائي الهارب مني بعيداً هذه المرّة، وهذه الفتاة الغاضبة على السرير ورائي، وهذا الرجل الجريح بداخلي، ماذا سيقول؟

ما أسوأ أن تتداخل الذنوب.

لم أكن لأكتشف ذنبكِ دون أن أرتكب ذنباً آخر يحرمني من التداوي باعتذارٍ منكِ، وانكسارٍ يعوِّضُ ألم الصدمة.

كم بقينا صامتين قبل أن تُبعث الكلمات من جديد. عيناكِ تخفيان دموعاً. جلستُ أمامكِ ومسحتُ وجهكِ الجميل بيدي. أشحتِ عني. أدرتُ وجهكِ ناحيتي بيدي فمددتِ يدكِ وأزحتِ يدي عنكِ. أمسكتُ يديكِ. قبّلتهما. حاولتِ أن تنتزعيهما ولكني تمسكتُ بهما ثم اقتربتُ من وجنتكِ لأترك قبلة فوق دمعة.

عندما يعتذر الرجال فإن نصف اعتذارهم عادةً تضحية.

ونصف كرامتهم قرابين تقدّم للحب.

خصوصاً أولئك المعلَّقين من قلوبهم بحبٍّ يائس. الذين يعرفون

مسبقاً متى تغرب الشمس ومتى ترحل الحبيبة إلى رجلٍ آخر.

الذين يدركون أن قطيعة غضب قد تكلّفهم وقتاً ثميناً في حبٍّ موقّت.

لذلك هم يعتذرون، ويعتذرون. لأن عِناد أنثى قد يمنعها أحياناً من إدراك حجم الأجزاء التي احترقت في قلب حبيبها.

ولذلك تعتقد الأنثى أن ذنب ابتدائها لخيانةٍ مع رجلٍ آخر توازي ذنبَ تفتيش درج.

هكذا اعتذرتُ أنا.

لأن رجلاً مثل سعد كان يريد أن يستمتع بصوتكِ، كان عليَّ أنا أن أتألم بشدة، وأبكي بحُرقة، وأعتذر.

كان عليكِ، ما دمتِ لا تراقبين قلبي في غيابي، وما دمتِ قرّرتِ أن تمنحيه متعةً كهذه، وما دمتِ لن تمنحيني الاعتذار الذي ينهض بكبريائي مرةً أخرى، كان عليكِ أن تفكري في طريقةٍ تجعلين بها رسائله وصورته بعيدة عن عيني.

شعرتُ لحظتها أن رجلاً مثلي لم يكن كافياً لملء قلبكِ.

ونطقتُ ذلك من بين دموعي، واتسعت عيناكِ بفزع، وصرختِ:

- ماذا قلت؟

- قلتُ: كنتُ أعلم أني لستُ كافياً لملء قلبكِ.

ازدادت عيناكِ اتساعاً وتأملتِني لثوان قبل أن تبتعدي عني وتدفني وجهكِ في وسادة، وتنفجري بكاءً بحرقةٍ أوجَعَتني كثيراً، ونحيبٍ كاد

أن يتسرَّب من جدران الغرفة.

وأنهينا حوارنا معاً تلك الليلة بهذا البكاء.

على غير الجمر المختبئ تحت الرماد لم ينغلق هذا الباب المتواطئ مع الريح.

ظلَّ شهوراً يطلُّ علينا بين حزنٍ وآخر ليتركنا، أكثر من مرةٍ، باكيين على الجراح التي أبت أن تنطفئ. ظلّ في جبيني أرقُ تلك الصورة المختبئة بين الأدراج، وهذا الرجل الذي يستمتع بصوت حبيبتي، مكالمةً بعد أخرى، وأنا لا أكاد أتنفس صوتها الرقيق، وأذيب فيه الشوق الكبير في صدري، دون أن أدري أن رجلاً ما يشترك معي في هذا الصوت الأنثوي المختلف، وأنه يتمتع به مثلي حتى آخر ساعةٍ من ساعاتِ الليل.

غير هذه المكالمات الخائنة لم تحمل اعترافاتكِ لي خيبةً أخرى تلك الأيام إلا كونه قد لَمَحَكِ خُلسةً، أو قصداً، في متجر حلوى، وأنه صار يعرف من أنتِ تماماً، إلى جوار كذبتكِ المتوتّرة التي انتهت سريعاً. فلم يكن مثلي من يصدّق أن الهدف من مكالماتكما كان السعي لخطبة أختكِ مرام لصديقٍ له.

يا لهوان الرجل المضطرّ إلى السكوت، وأنتِ تغتالين عقله بأعذاركِ هذه، كما اغتلتِ قلبه من قبل.

كيف بدوتُ أمامكِ حتى تخترعي عذراً ملفّقاً كهذا؟

أيهما أغراكِ أكثر بهذا العذر: سذاجتي، أم استسلامي؟

ظل في عينيكِ دمعٌ مهزوم خائف، يكره استجوابي الصفيق ورجولتي القاسية التي ظهرت في صوتي وأسئلتي فجأة، وكأنما صُدمتِ في حناني القديم.

وأنا أكلني الشك كثيراً.

وضعتُ المصحف بين يديكِ وسألتكِ إن كنتِ التقيتِه أو رآكِ قط أو تجاوزت علاقتكما حدود المكالمة الهاتفية؟ أو إنْ كان هناك ما تخفينه عني ولم أعرفه بعد. كان لا بد من تصرّفٍ كهذا يجعلني أقضي بقية أيامي معكِ خارج جهنم الشك التي ألقتني فيها تصرفاتكِ المريبة. وأقسمتِ أخيراً، ونحن نفترش بساطاً صغيراً خارج المدينة، أنه لم يبق في صدركِ ما تُخفين. وصدّقتكِ واطمأن قلبي قليلاً.

لم تكن تلك قسوة مني ولكنها كانت انتفاضةَ جرحٍ ينزُّ كبرياءً ووهماً. كنتُ أبحث في عينيكِ عن انكسارٍ يجبر انكساري أنا ويعيد مشاعري التي سقطت إلى مكانها الأول.

كنتُ أريدكِ أن تكفّري عن ذنبكِ بأكثر من مجرّد اعتذارٍ متبرّم.

كنتُ أريد منكِ خضوعاً موقّتاً لقوانين صغيرة أضعها أنا لأتأكد فقط أن حبّكِ لي سيجعلكِ تحتملين هذا التعسّف وترضخين للرجولة الجريحة، ولو بعض الوقت، حتى تهدأ كرامتي الثائرة.

أنا أكره الاستغفال ولو كان منكِ.

من أجل هذا بدوتُ قاسياً بعض الشيء معكِ، ولكنكِ تمسكتِ بأنوثتكِ المتمرّدة، وانتفضتِ عليّ بكاءً، وثرتِ عليّ انكفاءً

وانحساراً.

قلتِ لي حينها: «لستَ إلا مثلهم»، وتغيّرتِ عليّ كثيراً، ليتركني تغيُّركِ هذا رجلاً بلا زمن، معلّقاً على طرف كلمة لا أسمعها وكلمة أخرى لم أعهدها.

كان عقاباً أنثوياً حادّاً ولكنه لم يكن واضحاً. كنتِ تقطِّرين مرارته عليّ بين شلاّل حنانكِ فلا أملك دليلاً عليه. كنتُ أحاول أن أناور أنثى تدرك جيداً كم أحبها.

هذا تحدٍّ أستسلم أمامه فوراً.

أنا لن أؤذيكِ ولن أتحمّل إيذاءكِ لي.

ولذلك اتفقنا أن نترك الجمر تحت الرماد حتى ينطفئ وحده، مجازفين بتعريض قلبينا لخطر الحروق إن نحن مررنا بكلمة أو حدثٍ يذكّرنا بالقصة، حتى يأتي اليوم الذي تبرد فيه حروقنا، وتختنق الجمرة الأخيرة.

أقنعتُ نفسي بذلك مجبراً.

ربما كان رجلٌ عابرٌ في حياتكِ لا يستحق كل هذا الاعتبار.

لا يهمني الآن إلى متى ستبقى صورة سعد عندكِ، بجوار صورة حسن، في دُرج ما، تعتليه صورة سالم في البرواز الصاخب. لا يهمني هذا الزحام الرجالي حولكِ الآن، بقدر ما يهمني أن أجد لنفسي مكاناً بينهم.

شيء في ملكوت أنوثتكِ يرفض الانحباس الحياتي مع رجلٍ واحد فقط. أنوثتكِ تتسع لأكثر من رجل، وما أريده فقط هو أن أبقى واحداً منهم.

لأن الاندفاع الأعمى في وجه ثلاثة رجال وامرأةٍ ترفض كبريائي أمرٌ لا يشجّع على بقائي، في ظل ظروفٍ متوتّرة أصلاً، وحبٍّ يمشي خطأ منذ البداية، لأنه يجمع بين نصف رجل، وامرأةٍ ونصف.

لأنه حب القلب البكر عندي، والقلب المرتبط بأكثر من رجل عندكِ.

بحدٍّ أدنى من الاعتبار انسحبتُ من هذه الدوّامة وقررتُ أن أكمل أيامي معكِ بعيداً عن كل ما يجعلني رجلاً ما عدا جسدي.

يكفيكِ جسدي الآن ما دامت أي رجولة أخرى تجلب المشاكل.

ورغم هذه الفكرة التي تبعث على تمردي إلا أني كنتُ عوناً لكِ على نفسي. أقنعتها بأن ترضخ لأنها تحبكِ.

لو جاء الحب كما نريد تماماً لتغيّر شكل الأرض. لا بد من أن نتنازل أحياناً من أجل اكتماله، فما دمتُ لا أستطيع أن أغيّر شكله، فعليّ أن أعشقكِ ملء البصر والسمع والفؤاد، وأترك تقدير أمور حبكِ لضميركِ أنتِ، فأنا أعشق ضميركِ أيضاً في جملتكِ.

صدّقيني اندهشتُ من نفسي كثيراً. كنتُ أستسلم برضا وأنقاد إليكِ بسكينة المؤمنين. كأنّ الحب تمثل لي تلك اللحظة شيئاً نمزّق

مبادئنا وأعضاءنا وأفكارنا وكل ما في الدنيا من أجله.

ما زلتُ بعيداً عن تمزُّقٍ كهذا. حسبي من رضا نفسي رضاكِ مني، ومن سعادة قلبي سعادتكِ بي.

آمنتُ بهذا الحب الصوفي، وامتلأتُ طمأنينةً وقناعة.

بعد تراجعي ذاك، شعرتُ أنكِ أنتِ أيضاً أصبحتِ أكثر اهتماماً بي.

فتورٌ لا بد منه في علاقتنا المحمومة، لأن درجة حرارة حبنا كانت عاليةً جداً، كان لا بد أن تندفع بعض الجمرات خارج الأتون.

أحببتكِ أكثر، وشعرتُ أنكِ أحببتني أكثر.

أحببتِ هذا الرجل الذي يحبكِ حتى على حساب نفسه، وصرتِ تُغدقين عليّ الرعاية والاهتمام والحنان والحب. صارت عيناكِ تضمّانني باحتواء الدنيا، ووجهكِ أقرب، وجسمكِ أشهى، وعشقكِ أكثر جنوناً وظمأً.

كانت تنازلاتنا موفقةً جداً.

أنا توقفتُ عن فتح الأبواب وأنتِ أحكمتِ إغلاق النوافذ، حتى لا يتكرر علينا ما يكدّرنا. أبقينا المكان خالياً من الغبار والعوالق. لا شيء إلا الحب، حتى ينتهي الزمن.

أخبرتُ مس تنغل بأمر سعد في ليلةٍ ما ولكنها لم تكن لتفهم أبعاد ذلك أبداً. معنى حدثٍ كهذا وأثره على قصتنا كانا بعيدين عن إدراكها الغربيّ للأمور. بدت لها القصة سخيفة. لم تفهم كيف تكون مكالمةٌ

هاتفية سبباً لجرحٍ كبيرٍ كهذا. لأول مرة تقف مس تنغل في صفِّك.

قالت لي الآن:

- لا تبنِ أفكارك على فوضى مشاعرها آنذاك. حاول أن تقرأ الكتاب كاملاً بنظرةٍ واحدة ولا تختلس النظر إلى صفحاتٍ متفرقة فحسب. هل توجدُ امرأةٌ معلَّقةٌ برجلين، أحدهما بالخطبة والآخر بالحب، وفي ماضيها رجالٌ أحياء، ثم تبدأ علاقةً صغيرةً مع رجل جديدٍ تماماً؟ هل تظنُّها فعلاً تحبك يا صغيري.

بدا سؤالها جارحاً فرحت أدافع عن نفسي:

- ولكنها جمَّدت علاقتها معه من أجلي، وليس من أجل زوجها.

- جمَّدتها ولم تُنهها، وإذا كانت أنهتها الآن فقط، فلماذا كان زوجها يستحقُّ أن تترك سعداً من أجله، بينما لم يكن بكاؤك ودموعك يستحقَّانِ ذلك؟

- كانت معجبةً بسعد لا أكثر. سعد نفسه كان مرتبطاً بفتاة أخرى ويكلّم مها عن حبه لها، وسعيه للزواج بها.

- تماماً مثلما كانت مها تكلّمكَ عن حسن في أول العلاقة، ثم وقعت في حبك أخيراً.

....

تابعت مس تنغل حديثها وقد أثارها صمتي:

- حتى حنانها الزائد الذي لاحظته أنت حالما انغلق الباب على

قضية سعد لم تقدّمه لك إلا بعد أن استشعرت كيف استطاعت أن تنقض كرامتك نقضاً. لقد احتلّتك، ثم دمّرتك، ثم تركتك خاوياً مثل مدينةٍ منكوبة.

- الطريقة التي كانت مها تحبني بها لا يمكن أن يكون وراءها سعيٌ إلى النيل من كرامتي. لقد كانت تبدو أحياناً مثل عصفورٍ صغيرٍ ينام في كفي مطمئناً.

- ربما بعد أن رأت كرامتك تسقط تماماً إلى درجة أنك رضيتَ أن تستمر هي مع سعد رغم كل هذا، وكأنك نصف رجل فعلاً. ربما أحسَّت بحجم حبك لها، فاطمأنت إليك.

- لم تكن تحتاج إلى ما يؤكد لها هذا.

- بل كانت تحتاج، ليس للتأكد، بل للاستمتاع. مها أنانية. بل أكثرُ امرأةٍ سمعتُ عنها أنانيةً وتمحوراً حول الذات في حياتي. يؤسفني أن ولداً طيباً مثلك قد سقط في شركها.

كنتُ أشعر بالضيق من النقاش، قلتُ متبرّماً:

- لماذا كانت تصرِفُ لي كل هذا الحب طوال سنةٍ إذن؟

- يا بنيّ، ما دامت تحبُّ حبَّك لها، فلعلها كانت تمارسُ أيَّ دورٍ يجعلك تزداد حبّاً لها، لتستمتعَ بك أكثر.

- لست أدري كيف أُقنعكِ بما رأيت ولم تريه أنتِ. ولكني لا أشك أن حبها لي كان نابعاً من القلب. هي لا تتوهم ولا تتظاهر، فجبينها دائماً صحيفة صدق، لا أقرأ فيها إلا الحب العميق.

- ....

كنتُ أشعر بالضيق من كلامها، تركتها تغزل صوفها، وأويتُ إلى بيتي.

لستُ أدري إذا ما كان سعد قد تزوَّج من فتاته تلك أم لا. ما أفهمه جيداً الآن أنك مهما انحرفتِ عن مسار الحب تظلين حبيبتي الأولى والأثيرة، وأظلُّ أنا حبيباً أثيراً أياً جاء ترتيبي بينهم.

لن أناقش لا مبالاتك ما دامت الأقدار نفسها لم تكن تبالي بنا آنذاك، ولكن عندما تستقيم الأمور، ونتزوج أخيراً، ستكونين امرأةً أخرى بالتأكيد.

***

تقاسمنا السجائر ومشينا معاً عكس زحام الطرقات إلى وحدة الفراغ.

جلستُ معه عند مدخلِ محطةِ المواصلات التي تربِط قطاراتها العُلويَّة أجزاء المدينة. كان مطعماً صغيراً في باحةٍ خضراء يندفع أمامها العشرات من البشر الذين يستقلُّون القطار أو ينزلون منه. وكان ديار يبحث عن رجلٍ بين المارّة ويرجو أن يجده حيث اعتاد الرجل أن يتنقَّل أثناء عمله من تلك المحطة إلى هذه.

لم أفارق ديار منذ البارحة. قضى ليلته عندي في هذه الإجازة المملّة. تكلّمنا طويلاً في الشُّرفة الصغيرة ونحن نتلقَّى أول الصباح

ثم نمنا، لنستيقظ مساءً وعلى كواهلنا تعبُ النوم المتقطع، وفُواق الغرباء المرهق، وصلاة الظهر الضائعة.

أطرق ديار قليلاً ثم رفع رأسه إليَّ وهو يقول:

- لا أحبُّ أن أتدخَّل في شؤونك يا أخي، ولكني أحمل سؤالاً مرهقاً منذ البارحة.

ديار لا يتدخل في شؤوني، إنه فقط يفضُّها فضّاً مثل بابٍ من الورق!

أجبتُ:

- يدهشني أنك استطعت تحمُّله طوال هذا الوقت منذ البارحة.

تجاهل ديار سخريتي تماماً. اقترب أكثر، وتكلم وإصبعاه يفرَّان خيطاً صغيراً يلهو به:

- أشعر أني أتطاول عليك يا صديقي. سامحني إذا آذاك لساني الأحمق. يبدو أني لفرط انعزالي نسيت كيف أقترب من الأصدقاء. تلك الليلة التي اتهمتني فيها بالجلافة جعلتني أفكر فعلاً كم جمَّدت الغربة من مشاعري.

- دع عنك هذا يا رجل، أيُّ سؤالٍ يرهقك الآن؟

اعتدل في كرسيّه مرّةً أخرى، ومسح شيئاً وهمياً تحت أنفه، ثم قال:

- في شقّتك خمس عُلب دواء.

- والسادسة في الدرج الصغير قرب سريري.

ارتسمت في عينيه نظرة اهتمام فضحت توتّره وقلقه. اندفع في

سؤاله:

- مِمَّ تشكو يا أخي؟

أطرقتُ قليلاً. حتى ديار، الرجل الحجري، بدأ يشفق عليَّ. كم أكره هذا الشعور الناقص المهين.

- كُليتاي مريضتان منذ سنتين.

رسم سؤاله التالي في عينيه ولم ينطق به. كان يستزيدني كلاماً دون أن يسأل. إنه لا يحبُّ الأسئلة، سواء وجَّهها أم كانت موجَّهةً إليه. لذلك هو لا يعرف عن أمر مرضي بعد أكثر من سنةٍ وتسعة أشهرٍ معه، وأنا لا أعرف عن أمر ماضيه وما فيه كذلك. ولهذا أيضاً سبق سؤاله بهذه الاعتذارية المرتبكة.

عاداته هي نفسها مبادئه.

منحته الزيادة التي يريد:

- أشكو من قصور في وظائف الكلية وأتناول أدويةً تنشّط وظائفها حتى لا تبدأ في الفشل تدريجياً.

- كيف حصل لك هذا؟

- الصوم يا ديار، الصوم اليائس.

بدأ طامعاً في المزيد. التفت حوله كأنما يبحث عن شيء. بدا متضايقاً كأنما يمارس كلاماً لم يتعوّده، ثم عاد إليَّ بسؤال:

- هل ترغب في الكلام؟

- وهل بوسعي ألا أفعل معك؟

نقدني ثمن بوحي. أشعلنا سيجارتين وأسند ذقنه التي نبت شعرها منذ يومين إلى كفّه، وراح يحدِّقُ في عينيّ مباشرة، وينفثُ دخانه بيننا دوائر، دوائر..

بدأ الشارع الضيّق يتخلَّى عن بعض المارّة في ليلة السبتِ هذه. أتى النادل. طلبتُ شاياً وطلب ديار بيرةً رخيصة. بدا لي أننا نستمتع بلذة البوح اليائس أحياناً. المشي على شوك الماضي بأقدام مخدّرة. نتأمل الدماء ولا نشعر بالألم في غيبوبة الكلمات.

قلتُ:

- تقيّأتُ ذلك الصباح أشياء لا أتذكر أني أكلتها. ولم آكل بعد ذلك شيئاً مدة يومين متصلين.

- أي صباح؟

- صباحها الأول في فراش سالم.

تخيَّلتُ أن ديار يتأملني ساخراً. كنتُ أتكلم وأنا مطرق. لم أجرؤ، وأنا أتكلم عن أضعف أيامي، أن أرفع إليه عيني. لم أكن أسمع إلا جرعات البيرة، وزناد قدَّاحته وهو يشعل سجائره.

- يوم الخميس، بعد يوم واحدٍ من زفافها، التقيتُ والدها صدفةً في مناسبةٍ ما. أحسست أن نبضات قلبي تخرج بصعوبةٍ عندما وقعت عيناي عليه. جلستُ بعيداً عنه وعلى وجهي شحوب يومين من الجوع، ورحتُ أتأمله طويلاً بذهنٍ شارد، ونفسي تكاد تنسلُّ من جسدي همّاً وكمداً.

كان يحادثُ جليسه باهتمام وأنا أُعلِّقُ ناظريَّ بوجهه، وكأنما خلا الكون إلا منا. أتأمل هذا الشيخ الذي أخرج إلى الحياة من تكاد تخرجني منها، وأسرّب نظراتي في ملامحه، تجاعيد وجهه، صرامة عينيه، شعراتِ لحيته، وهو منشغلٌ في حديث طويل، لا يشمُّ من حوله رائحة رجل يحترق.

وفجأة، لم أشعر إلا بسيلٍ من الدموع يطفر من جفنيّ فجأة، ويغرق خديَّ أمام العشرات. تظاهرتُ بالعُطاس، ودفنتُ وجهي في منديل، وهربتُ بعيداً. تركتُ المكان. هِمتُ قليلاً على بكائي حتى التقيتُ صديقاً. وبعد ساعة، كان هذا الصديق يحملني إلى المستشفى بعد أن سقطتُ بين يديه مغشياً عليّ لأول مرّة في حياتي.

رفعتُ عينين دائختين في مِحجريهما إلى ديار. كان يستند بذقنه إلى كفّيه وينظر إليَّ بتركيزٍ شديد، وفي عينيه تعاطفه القاسي الذي أعرفه. كان يبدو وسيماً بالخُصلاتِ المتساقطة على جبينه، وشعر وجهه النامي ببطء. بدا لي لحظتها أشبه ما يكون بغيفارا.

كنتُ أحتاج إلى رجلٍ أبوح له بهذه الصراحة بقدر ما أرهقني حنان مس تنغل وهشاشتها الأنثوية التي أخشى عليها من بوحي. هذا الرجل، بنظراته المتسرِّبة، وأسلوبه الجامح، وحتى ألفاظه النابية أحياناً، كان يستثيرُ في داخلي شهوة التكسير والانبعاث والتطاول على الجراح القديمة. لا يوجد شيء لا نستطيع أن نخوض فيه بأقدامنا. فعندما تطول الغربة، يصبح الماضي مجرّد وحل.

صمتُه العميق، تركيزه في كل كلمة تسقط من فمي، ودوائر الدخان التي ينفثها، كلّها أشياء تستفزني للكلام. فوضاه تروقُني هذه المرّة، هو الذي يمتصُّ الحياة امتصاصاً من أي كأسٍ شاردة ثم يبصقها بعنف في الوجوه والأشياء والأماكن. رجلٌ يخلق تناقضاته بنفسه، دون أن يتدخل في ذلك أحد.

أحياناً أشعر أنه يخترع تصرّفاته ليثير إعجابي ودهشتي فحسب. إما أنه يتقن دوره معي أو يتقن دوره مع الحياة. في الحالتين يستحقُّ التصفيق. هو من نوع البشر الذي نستعدُّ أحياناً أن نلقي بأنفسنا معهم في أيٍّ متاهة دون تردد.

يبدو لي قوياً. أعجبني أن أستند إليه بكل هذا الميل. رفعتُ إليه ناظرين خائبين والتقت نظراتنا طويلاً ونحن صامتان. شعرتُ بامتنان عميق وارتياحٍ لا أدرك مغزاه إلى جلوسي هذه الليلة معه. كنتُ أشعر أني أجلس مع أخٍ أنجبته لي أمُّ الغربة. ابتسم لسكوتي ابتسامةً قصيرة ذات جانبٍ واحد، من تلك الابتسامات التي نمطُّ شفاهنا بها إما إلى اليمين أو إلى اليسار، كأننا نقاوم ضعف أفواهنا أمام الابتسام. ربّت كتفي برفق وقال:

- حماقاتك تغريني. أكمل.

- ربما كانت حماقةً يا ديار ولكنك استعجلت الحكم، وأهدرت كلمةً ثمينة، وإلا فماذا ستسمّي ما فعلته بعد ذلك؟

- سأجد له اسماً. قل فحسب.

ابتسمتُ مثل الموتى، وأكملت:

- هذه المرّة في المستشفى ضاقت عليَّ جدران الدنيا. كرهت الحياة بكل ما فيها. قضيت المساء أجادل الممرضة في كل ما تفعله. كان مزاجي في أسوأ حالاته منذ خُلقت. أصرخ بصوتٍ عال ثم أضحك ساخراً منها بهستيرية عصبية.

جاء الليل وتركني صديقي، وتركتني الممرضة المستاءة بعد أن تركت في وريدي أنبوب التغذية الذي يسكب في دمي قطراتٍ من ذلك الكيس المعلَّق حولي. رنَّ هاتفي. تخيّلت من شدّة الوهن أنها ربما تكون مها. زحفت متأرجحاً بقدمٍ واحدةٍ على الأرض وأخرى على الفراش حتى تناولته من جيبِ ثوبي، وكانت أُمّي.

استويت مرّة أخرى على سريري يائساً. كانت في حلقي غُصّة عظيمة جداً، وسط إضاءة الغرفة الخافتة، والوحدة البكماء، والأصوات التي اختفت تدريجياً بعد أن انتصف الليل. لم يبق إلا أصوات خافتة لعمّال النظافة وهم يجرّون عرباتهم في ممرّات المستشفى الخاوية. رائحة المستشفيات وبرودة حجراتها أورثتاني شعور الطفل الذي يفيق ليلاً من النوم فيجِد نفسه في مكانٍ غريب، محاطاً بوجوه غريبة. انقبض صدري بقوة. تضاعفت دقّاتُ قلبي وبقيتُ أفكر في مها. أين هي مني؟ أين حبيبتي التي أرجّيها لهذه اللحظات؟ كيف تتخلى عني وأنا منطرحٌ في آخر سرير، في آخر مستشفى، وحيداً، ذليلاً، حقيراً، تافهاً، بينما تقضي هي شهر عسل

في بلدٍ ما، لا أدري أين؟

شعرتُ بالضآلة. أنا الزيادة البشرية الفائضة. تراكمت عليّ الظلمات، وغشيني موجٌ من فوقه موج من السواد والوحشة والقلق والكآبة. مددت يديَّ إلى الأنبوب المغروس في ظهر يدي ونزعته، وسقطت قطراتٌ من الدماء لوَّثت بياض السرير. انكفأت على وجهي أبكي بحُرقةٍ هائلة كما لم يبكِ شقيٌّ قبلي ولا مفجوع.

قاطعني ديار وهو يلوّح بيده بعفوية:

- هذه ليست حماقة. إنه انهيارك الحتمي الذي انتظرته طوال سنة وأكثر. إنها ليلة خارج الحياة. تشبه يومنا الأول في القبر عندما يرحلون، ونبقى وحدنا بين أضلاع لحد وتراب ومقيّدين في كفن.

- كانت ليلة قبور بالفعل كيف فكّرت في ذلك؟

- لأنك أردت أن تموت. ألم تكن تحاول الانتحار عندما نزعت الأنبوب؟

- لا أعتقد. لم أكن أفكِّر في الانتحار. كان إحباطاً عنيفاً لم ينقذني منه أحد. كل من حولي تآمر عليّ. ربما لو كانت الإضاءة أقل خفوتاً ربما لو كلمتني مها، ربما لو ظلَّ صديقي معي لما فعلت ذلك.

- أحياناً نشتهي الموت ونظنه أرحم بنا من هذه الحياة.

- كنتُ محبطاً فحسب. أقوى حالة إحباطٍ تعرّضت لها في حياتي، ولم أكن أحتمل أن يتصل بجسدي أي شيء، حتى ذلك

الأنبوب الغبي.

- كنت تستعذب الموت وحيداً.

- ربما يا ديار. لست أفهم تلك الليلة أبداً.

- أنا أفهم. أكمل.

- اشتهيت ألماً كهذا الذي تبعثه الأطلال بدلاً من الألم الذي يبعثه اليأس. خرجت من المستشفى دون أن يشعر بي أحد. ترنّحت في الممرّات حتى خرجت إلى الشارع لأستقلَّ سيارة أجرة وأعود إلى البيت، ولكني لم أدخل. ركبتُ سيارتي التي كانت مركونةً أمامه وذهبت إلى مها.

الباب الذي كان يفتح لي عند السحر، والفتاة التي كانت تقبّلني خلفه عندما أحمل إليها بعض الأكل الذي تشتهيه ليلاً، والنافذة الصامتة مثل شواهد القبور، والعصافير الميتة خلفها، والحياة التي رحلت عن هذا المكان، والهدوء القاتل الذي يغشى حارات الرياض في مثل هذا الوقت من السحر. وأنا وحدي. أتأمل البيت بدموعٍ ساخنة.

راح ديار يكرع بيرته الثانية. عيناه تعربدان في ذاكرتي المريضة وأنا أشعر دائماً أن عينيه تبدوان أكثر عمقاً كلما تزايدت الكؤوس الخالية أمامه.

متعاونٌ جداً ديار مع بوحي المجنون هذه المرّة. يبدو أن الأحزان التي تأخذ طابع الموت تستثيره أكثر من تلك التي تأخذ شكل البكاء فحسب.

قال ديار:

- قل كيف مرضت كُليتاك؟

- قال الطبيب إنهما لم تعملا منذ أكثر من أسبوع؟ أتعلم ماذا يعني هذا؟ يعني أني كنت معرّضاً لفشل الكُليتين بعد أن اضطربت وظائفهما لسوء الغذاء. قال الطبيب إن ذلك كان متوقعاً وإنني أحتاج إلى نظامٍ دوائيٍ صارم يعيد تنشيط الأجزاء التي تحجّرت من الكليتين.

تشابهت عينا الطبيب اللتان تطلاّن من ذاكرتي مع عينَي ديار. بدا لي وكأن دياراً فخورٌ بازدرائي للحياة. كان بوحي ينزف بشدة ويندفع على الطاولة.

أكملتُ حديثي:

- خرجتُ من المستشفى بعد ساعات طويلة وفي يدي كيس أدويةٍ كبير، حملته كما هو وآويته قعرَ أول حاوية قُمامة واجهتني.

ضحك ديار بصوتٍ عالٍ من عبارتي الأخيرة، وصفّق بكفّه وهو يقول:

- برافو، ولكن كان هناك طريقٌ أسهل للموت يا غشيم.

ضحكت معه ببؤسٍ وأطياف تلك الأيام السوداء تدور في مِحجريّ كالأشباح، وتابعتُ حكايتي التي اقتربت من نهايتها، ولكنه لمح الرجل الذي ينتظره، وقام إليه بسرعة.

عاد إلى كرسيّه مرةً أخرى، أعاد ترتيب الطاولة بحركاتٍ سريعة، طوى الصُحُف، وأفرغ المنفضة في أخرى على طاولةٍ مجاورة، ونادى النادلة كي تحمل الزجاجاتِ والأكواب الفارغة، وطَلَب بيرةً أخرى، أما أنا فطلبتُ كوب ماء.

عادت الطاولة في عهدها الجديد. اتكأ على كرسيّه ومطَّى جسده بشدَّة وقال بلهجته العراقية وهو يتثاءب:

- اللي يبيعك بيعه يا عمي.

- ....

يعود ديار من تثاؤبه، ويقترب من وجهي كثيراً، ويقول في صوت يشبه الهمس:

- يا عيني، يابه، خلّيك عاقل، وانتبه لنفسك، وسيبك من هالمره، صدّقني ما تنطيك أكثر من اللي انطتك إياه، لْعَنْةَ الله على هالحريم. هيه مو سعيدة وياك، هاي شبيك انته ما تفتهم؟ ما تقدر تملِّي عينها هالحربابة، لو تبيك، ما تركتك، المره تلحق الواحد، ما تتركه وتولي، والله والله لو تبيك صدّق ما تعوفك هيج تفلت من يدينها.

ديار ينحرف خارج المسار. زجاجات البيرة أخبرتني، وتثاؤبُه العميق كذلك، والليل الذي حاصر مقهانا وطاولتنا، وأنا ذاكرتي يقظةٌ جداً. سيتركني ديار الآن ويرحل، ولا بد أن مس تنغل نامت الآن. تبدو لي ليلة أسى وطول سُهاد وحيداً في الشقة الكئيبة.

هل سأتصل بأمّي وإخوتي أم أمكث في المقهى وحيداً مع جريدة

حتى يغالبني النوم؟ أو لعلّي أقضي الليل معكِ، وصورتكِ جوار سريري، وعطركِ أمام مرآتي، وأنتِ أبعد ما تكونين عن دمعتي هذه الليلة.

قم بنا يا ديار. بعض البوح يشرع أبواب الذاكرة ويترك الريح تعصف بنا، ولا بدَّ أن ندفع الثمن.

أفترق عن ديار في محطتين. يرحل هو جنوباً حيث يقيمُ في نيو ويسمنستر على ضفاف نهر فريسر، وأتجه أنا غرباً حيث أقيم في جرانفيلا، عند ضفة بيرارد. كلانا يقيم قرب الماء. نبدو عرباً ظامئين في الغربة، وتبدو لنا المساحات المفتوحة امتداداً أوسع للرؤية، عندما ترحل نظراتنا كل صباح مع الطيور إلى من نحب وما نحب.

كم هو مؤلمٌ أن يلومني بعض جسدي. ما زلت أشعر أني لا أملك منه عضواً منذ أن قلتِ لي أول مرّة: «أنتَ لي». أنا لم أزل محتفظاً بعهدِ الملكيَّةِ هذا لكِ. أتذكر يوم أخذت ختمك الأنيق، وطبعتِ اسمكِ على جسدي في جذل، منذ ذلك اليوم وأنا لكِ رسمياً.

عدتُ إلى شقتي والليل ينتظرني. تأملت من النافذة باب مس تنغل الصامت ونافذة حُجرتها المظلمة. تمنيت لها في نفسي ليلةً سعيدة ثم أغلقت النافذة والتلفاز، وغيرت ملابسي بكسل، وجلست خلف طاولتي الصغيرة. فتحت درجين أفتِّش عن كيس الدواء وتناولت منه علبة حبوبي، والتقطتُ حبتين ضخمتين دسستهما في فمي، وشربت كوباً من الماء، وشربتُ آخر، ثم شربتُ ثالثاً قبل أن

أنام، وقبلها الأكواب الكثيرة في المقهى مع ديار. لم يكن بي ظمأ ولكني مجبرٌ على الكثير من الماء في اليوم والليلة، مع هاتين الحبتين، حتى لا تستمر كُليتاي في الفشل.

تذكرت في شبح المرض الذي يخيّم عليّ كلما ابتلعت أدويتي تلك الليلة التي قضيتها عندكِ وأنتِ محمومة. سهرت معكِ طوال الليل وأنتِ تنتفضين بألم، وعيناكِ تنزانِ بالدمع في إعياءٍ شديد، وأنا حائرٌ مشدوه. أتألم معكِ آهةً بآهة، ولا أدري ما أفعل غير غسل جبينكِ بالماء البارد.

شعرت أن حبي لكِ يفوق حبي لنفسي. كنت أدعُ المنشفة المبتلّة على جبينكِ، وأتمنى من الله أن ينقل حُمَّاكِ إلى جسدي ولا يتوجع منكِ عِرق واحد، وأعود لأبدّل المنشفة فوق جبينكِ مرة ثانية.

هكذا قضيت تلك الليلة بينكِ وبين الله. وفي آخرها قررتِ نتيجة ضغطٍ مني أن تذهبي إلى المستشفى. نزلتِ من الغرفة وتركتني فيها وحيداً. رافقتكِ مرام. تأملتُ خطواتكما في فِناء المنزل بقلق. كانت مرام ترتدي خِمارها بهدوء، وأنتِ تترنّحين في مشيٍ عييٍّ حتى واراكما الباب. عدتِ بعد ساعات وقد أَكَلَ القلق عينيّ ووجهي ونَزَفَت أطرافُ أصابعي لفرطِ ما قرضتُ منها، وكنتِ بحالٍ طيبة، فودَّعتكِ وقد اقترب وقتُ الفجر، وتسللتُ خارجاً حالما أيقنتُ أن مراماً هجعت في سريرها.

***

كم هي مملّةٌ كتابة الروايات.

كنت أعلم أنه سيأتي صباح لا تمنحني فيه ذاكرتي إلا دوائر صمّاء غبية. ها أنا أكتب تهويماتٍ لا معنى لها. بكائيات في اللوعة انقرضت منذ قرنين ما زلت أصبّها في أوراق دفتر مهذب لا يستطيع أن يتوقف عن مجاملتي بالقراءة.

أصبح جريان القلم رياضة صباحية لذاكرتي وأصابع يدي.

منذ أن قررت البدء في كتابتها وأنا أشعر بالإرهاق. لم تبرد جراحي بعد حتى أمشي عليها. ما زالت تنفث الدم وتثور وتنزف. لا يتخثر الحب يا حبيبتي، فلا تتوقعي نهايةً له كما تموت القصص السخيفة. لن أسمح له بذلك.

كتابتي حريق داخلي مكتوم. يخرج الدخان من أنفي وأذني وأصابعي. وعندما تشرب أوراقي كوب القهوة عني وتتثاءب في كسل فهذا يعني أنه لم يعد أمامي طريق في مضمار الذاكرة، وليس علي إلا أن أغلق دفتري، وأربّت يأسي، ولا أتذكر طعم القهوة.

اليوم، كما توقعنا، لا أتذكر ملامحكِ. دعي عنكِ ألبوماتِ الصور وأفلام الفيديو، كانت محاولات يائسة لتبديد ظلام العدم الكثيف الذي يحيط بي بعد رحيلكِ. سألتكِ إياها وأنتِ تقولين إنها لن تكون ذات فائدة، وأنا أقول لكِ اتركيها لي يا حبيبتي، بعض الآلام أهون من

متاهة عدم لا أعرف فيها ما حولي. اتركي لي حائطاً أتحسّسه وأمشي بمحاذاته حتى ألتقيكِ مرة أخرى. لا تختفي من حياتي فجأة. اذهبي رويداً كما جئتِ رويداً.

ولكنكِ لا تذهبين أبداً، أبداً.

لأنكِ سقف الكفاية.

هل يمكن أن يتجاهل شخصٌ وجود سقفٍ فوق رأسه؟ هل يمكن أن ينسى عاملٌ لماذا هو ساعٍ إلى مصنعه؟ هل يمكن أن ينسى مقاتلٌ لماذا هو في ساحة المعركة؟

هل يمكن أن أنسى لماذا أنا موجودٌ في الحياة؟

أنا أدبُّ على سطح الأرض لأن عندي جملة أحلام، أنتِ سقفها، ومتى تحققتِ لي نمتُ مطمئناً دون أن أخشى تقلباتِ الطقس، بعد سنوات من النوم في العراء.

الفصل السابع

أيقظني ديار هذا الصباح.

يدور برأسي صُداع النوم جزعاً، ونهارٌ جديد في فانكوفر الخصبة.

قام ليصنع إفطاراً وشاياً في مطبخي، وسحبتُ قدميَّ إلى الحمّام حاملاً منشفتي، وأخذتُ حمّاماً ساخناً.

لا أملك حرّية اختيار نوع حمامي في فانكوفر، هو إما أن يكون ساخناً أو لا يكون.

جلست بتثاقل كأنّ الدنيا كلّها نامت فوقي البارحة.

أمس اتصلت بي أروى، أو أمُّ نهى. هنّأتها بالطفلة وأنا أشعر أنه أول خبرٍ له طعم السرور ينزل عليّ منذ نزلت أنا في فانكوفر.

بعثت لي صورتها الصغيرة وهي نائمة في مهدها الأبيض.

كانت بالفعل أجمل لوحةٍ رسمتها أروى في الحياة. لا أميّز تشابهات الأطفال ولكنّ عينَي أروى تخايلتا لي في عينَي الطفلة.

ناديتُ ديار:

- هل رأيت مس تنغل أثناء قدومك؟

جاءني صوته من رأسه المحشور في الثلاجة:

- لم أنتبه.

أحكُّ رأسي بكسل وأتمطَّى على أريكتي، وأنتظرُ ما سيعدُّه ديار. يرنُّ الهاتف، وكانت أمي، توقعتُ أنها ستأتيني بخبر ولادة أروى، ولكنها جاءتني، بخبر آخر.

جدّتي التي مرضت.

قبل أن تتسع ابتسامتي يوماً آخر بولادة أروى ألقمني الزمن هماً حجرياً كهذا. قالت إن ورماً ينتشر في أمعائها. صارت تنام في المستشفى بين جلسةٍ وأخرى من العلاج. علمت من ندى التي أخذت السمّاعة بعد أن أجهشت أمّي بالبكاء أن حركتها أصبحت ثقيلة وتمشي بصعوبة.

ندى دائماً مع أمي في أزماتِ الحزن، هي التي تكاد تكون نسخةً منها لا أميّز بينهما فرقاً صغيراً. هي وسارة تزوّجتا في ليلةٍ واحدة واختفتا من البيت بينما لم أزل طفلاً. لم أنل منهما ما يكفي من الالتصاق حتى تغزوني عدوى الأخوة.

كم أنا مريضٌ بأروى ويوسف.

أواه يا جدّتي المسكينة، ماذا تفعل الثمانون بها؟ أهلكت كل ماضيها وأبقتها هي، شاحبةً في وجه الزمن، تنتظر طعنته الأخيرة.

أتذكر أني وأروى كنا نعتقد في طفولتنا أن جدتي هي أكبر مخلوق في الدنيا، حتى أن أروى سألتها ذات يوم ببراءة طفلةٍ لا تفهم الزمن: «هل رأيتِ الرسول يا جدتي؟».

كنا نجلس معها في سطح المنزل ليالي الصيف، أو عشيات سبتمبر التي تتسرّب من خلالها مقدّمات الشتاء. تتسع أحداقنا الصغيرة أمام حكاياتها التي لا تنتهي. لكل ليلةٍ حكايةٌ عن زمنها القديم تختلف بين التخويف والترغيب، بحسب رضاها عنا. فكرتُ في الثامنة عشرة أن جدتي ترتجلها ارتجالاً، وكان ذلك حقيقة لأن جدتي لم يسبق لها أن كررت علينا قصةً سبق أن حكتها من قبل، بل لا تستطيع أن تعيد لنا قصةً نلحّ أنا وأروى على إعادتها، إلا قصة الرجل الذي خطفها من مزرعتها وهي صبية، ثم قبَّلها، وتركها ترحل.

تضحك بسنَّينِ باقيتين في لثتها وهي تترنَّم بأبياته:

جزاه راعي الجديلة

جزاه ما يخاف ربَّه

سريت به في سبيله

ماريد به غير .. حبِّه

لم أكن أعرف أن جدتي «راعية الجديلة» كانت «ما تخاف ربّها»، وأنها دلَّهت عاشقها هذا حتى ارتكب حماقته. ربما لم تكن حماقةً عندها رغم أنها تدعوها كذلك، وإلا لماذا لم تخبرهم عنه وهي التي رأت ملامحه، وعرفت من هو؟

السؤال الأكبر: من أين سمعت هذه الأبيات إذا لم تكن التقته مرّةً أخرى؟ حاصرتها بأسئلتي هذه في ليلة رمضانية مقمرة. تجاهلتني تماماً وهي تقوم من مجلسها قائلة: «خلّني أروح أصلّي بس».

عجيبٌ شأن جدتي. ما زالت تخاف الرقيب وهي في هذا العمر.

آثار القيود على المعاصم توهمنا أحياناً أنها ما زالت قيوداً.

تمشّط جدّتي شعر أروى وأنا أمشّط شعرها هي. تدخل أمي في هذا المنظر المضحك لترتبك بين نهري أو نهر أروى، ولكن لم يكن سوانا يكفيان جدتهما رتابة العيش في الشيخوخة. لم تكن تعطيني جدتي غير جديلة واحدة، فهي لا تكشف رأسها إلا خالية. البقاء دون غطاء رأسٍ أمر لا تقبله سنوات عمرها الطويلة.

مضى أقرانها ولِداتها وبقراتُ الوادي الحنون الذي رعى طفولتها وأناشيدها التي حفظتها لأحفادها، وبيتهم القديم، وأمها التي ما أدرَكَت من الحضارة أكثر من سلّةِ خوصٍ وحَجَرِ رحى، وأخبارِ العثمانيين التي كانوا يلتقطونها من أفواه الحجيج.

أخشى عليها وعلى أمي. أنا أدركُ كم تعلّقت إحداهما بالأخرى، كأنّ كلاًّ منهما رُزِقت الأخرى لتكمل حياتها معها. جدتي التي احتفلت بأمي ورزئت بجدي في سنة واحدة، وأمي التي لم تعرف لها أباً ولا أخاً ولا عمّاً، إلا خالاً واحداً تربّت بين يديه حتى تزوَّجت أبي وانتقلت إلى بيته، وبعدها بسنواتٍ قليلة، مات الخال، لتأوي جدتي إلى بيت أبي، قبل أعوام قليلة من ولادتي.

سعى إليها أبي ليقسم عليها ألا تقضي حدادها إلا في بيته. كان يجلّها كثيراً هو الذي ماتت أمه قبل أن تفطمه لتتعاقب على فمه أثداء الحيّ حتى كبر.

ربما من هذا الخليط الحليبي الذي نما جسده عليه تعلّم أبي العطاء. هو الذي يخرج في آخر الليل إلى آخر وادٍ في الرياض ليكسو شيخاً هرماً تذكَّر أنه قد لا يملك ما يدفئه في ليلة قرّ، وأنا أرمقه من السيارة بعيني طفلٍ خائف، لا يدري لماذا يكلّم أبي هذا الرجل المخيف.

كم كنا أسرةً راضية، لم يبقَ منها الآن إلا أرملةٌ وحيدةٌ ترعى عجوزاً مريضة، ورجلٌ محطَّمٌ يرعى حشيش أحزانه في فانكوفر.

واسى ديار وجومي واطمأنَّ على أهلي، وملأ كوبَ الشاي، وبدأ يأكل.

ها هي جدتي مريضةٌ على فراش الدهر، لا تكاد تقيم عظامها الهزيلة حتى ينخر فيها سرطانٌ لا يرحم. أتخيلها في المستشفى الآن وأنا أسمع عن جلسات العلاج الإشعاعي التي تُسقط الشعر وتنزل مني دمعة.

من للخُصلات التي قبّلتها آلاف المرّات في مفرقها، تلك التي اختلط بياضُها بحنّائها، وكانت رائحتها طيبة، طاهرة.

جدتي التي تهتمُّ بنفسها كصبية. ما أجملها، وما أبرأها.

أتذكر في محجر الألم كل شيء كان يقع حول طيبتها وبياضها.

أتذكر عندما كانت تجوز حجراتِ البنات بحثاً عن قلم كحلٍ، أو قارورة عطر، لتستقبل جارةً أو قريبةً جاءت تطمئن عليها. كانت تهمسُ لهنَّ: «عطوني كحلة تبوني أطلع لها بدون كحل». لم يكن الكحل يبدو واضحاً في تجاعيد جفنيها، ولكنها أنثى، من قال إن الأنوثة تهرم؟

قهوتها العربية صباحاً، وصحن التمر، وقطعة الخبز المخبوزة في تنوّر البيت، ووجهها الذي أفاق فجراً، وتوضَّأ وسجد. صوتُ المذياع الذي يحيطها بالقرآن وحيدةً قبل أن تفيق أمي في السابعة تقريباً، لتجلس معها، تتحدثان أحاديث الصباح التي تشرح الصدور، وتنير ظلام الحياة.

أخرجُ من غرفتي إلى الجامعة لأجدهما متجاورتين على بساطٍ واحد، مضيئتينِ كالحقيقة، طاهرتينِ كالغمام، أسلّم عليهما في سعادة، وأقبِّل بكل رضا هذا الصباح رأسي المرأتين اللتين تجلسانِ معاً، وتتناولان إفطارهما بكل بياضٍ ودعة.

تدركني الدعوات المتتالية، و يلحق بي إطراء جدتي الذي يمنحني غروراً أبدأ به يومي، وعلامات الرضا في وجه أمي. لولا الحزن الذي تركتهِ في صدري، لكنت أسعد رجلٍ يفيق على مرأى الملاكين الأبيضين. أتأمل فيهما الجمال المورِّث، والجمال الموروث. كلتاهما فلقتا قمر. لهما بياض الصبح الأول. كلما كبرا سحبته الحياة من جسديهما، وركمته في قلبيهما.

أرملتان في وجه الحياة. لو لم تنجب أمي أولادها الأربعة، وبناتها الثلاث، لأكلتهما الوحدة حقاً.

لا أتحمل هذا، ولا يتحمل ديار صمتي على مائدة إفطاره الصغيرة التي أعدّها. إنه يكره سهومي أمامه. إذا لم أشاركه حديثاً الآن، ربما أشعل النار في الشقة، وتركني ورحل.

فتحت علبة الدواء لأتناول حبة الصباح. هذه الرمادية التي أبلعها وهي تحمل في جوفها مصير كليتيَّ المريضتين، لم تكن حبة دواء، كانت حبة وقاية، فطبيبي قال إن ما خاب من الكلية لن يعود للعمل، لذا أنا أبلع كل يوم هذه الحبوب، وأشرب كمّيات من الماء، حتى لا تفسد التفاحة الفاسدة بقية التفاح.

- ما تاكل شيء على هالحبوب لعنتالله عليك.

جاملته بلقمةٍ صغيرة.

أعلم أن لعنات ديار عراقية. أي أنها كلمة دارجة يقولها لكل ما يستحسنه أو يستهجنه على السواء. لذلك لم أحفل بها. بقيتُ أرشف الشاي الخالي من السكر بصمت.

قريباً ندرك رمضان. ديار يستعد له وهو المولع جداً بالطهو. نصف شقته مطبخ، وأنا لم أذق في نهارات الغربة ولا مساءاتها أطيب من طعامه، ولا أشهد سعادة ديار إلا إذا استضاف أحدهم، وطها له.

كتلةُ تناقضاتٍ بشرية، فهمتها واحداً واحداً، فبَدَت لي مألوفةً في آخر المطاف.

أدين لديار بأيام طويلة كان الحزن أولى بي منه فيها. ولكنه انتشلني منه بعنفه. هو الرجل الذي يملأ المكان صخباً إذا أراد ويقتله صمتاً إذا اشتهى. وأنا سعفة النخل التي طوَّحت بها الريح بعيداً عن أرضها، وهو القادم من الأرض التي تلد النخيل.

ديار يبدأ الحديث كما يشاء ولكنّ معجزته أنه ينهيه أيضاً كما يشاء. إنه ينتزع اعترافاتي مني. يتكلم على لساني ويُخرج من عمق حزني كل ما يُرضي غروره تلك الليلة. ويرحل.

لأنه رجل الرحيل العميق الذي يترك الناس من خلفه يدوّمون في دوائر الصمت، وكأن حبال صوته تفرز نبرةً مختلفة، يبقى صداها طويلاً في المكان، بما يكفي لإقناعنا بما كان يقول حتى بعد رحيله ثم تختفي.

لم يكن مغروراً. ولم أر في حياتي رجلاً طيبته الشديدة هي منشأ عنفه.

لم يَدُر في تصوري أن في شقته عوداً عراقياً أصيلاً، يعتني به عناية المحار باللؤلؤة، فإذا حرَّك عليه أصابعه، خرجت نغمةٌ كأنها خلجة قلب، أو شهقة عذراء، وإذا أخذه الليل وأطرق عازفاً، وعينه التي يميل جفنها قليلاً معلّقةٌ على الفراغ، خرج صوته وغنى، وأنا أتمنى ألا يتوقف، ولو انتهت دموعي.

سحبة الموّال عنده شديدة الخشوع. عراقيةٌ تلك المواويل التي رقرقتها القرون منذ بابل، ووسَّعت فيها لتكفي أحزانهم، وتحمل

دماءهم.

جلستُ معه وهو يغني ذات ليل موّالاً لا أنساه، ولا تفقد ذاكرتي منه حرفاً واحداً، ولا صدىً شارداً، ولا نقرة وتر، ولا نبرة آه، ولا رجع صدى.

ذكّرني ديار بلحنٍ قديم.

آخر لحنٍ سمعته معكِ في سيارتي قبل فراقنا بدقائق. ذلك اليوم الحزين عندما كانت عيناكِ ذابلتين وصوتي يتهدَّج بكاءً وأنا أقودكِ إلى منزلك.

غنَّى لي ديار دون أن يدري، وهو يستلّ ريشة العود من بين الأوتار، كأنّه استلَّ سكيناً ماضية، وراح يعبثُ بها في لحم قلبي.لم يعلم أيَّ موالٍ غنَّاه..

«أصدّ عنّك..

أحبنّك..

كذَب من قال أملّ منّك..

ولو حطّوا بدربي النار..

بدمع عيني.. لطفّيها..

وأدقّ بابك.. واشوفنّك..

وأفلش حاجز المبني..

وأحيله.. عنّك وعنّي

وأحاتْشيك.. وتحاتشيني..

واسمْعنّك..

....

اشتريد تصيرْ؟

وك طير تطيرْ؟

أنا أطير وياكْ..

وهم تتعب وألزمنّك..

اشتريد تصيرْ؟

نجم بسماي؟

يا عيني هَمْ تلمع .. واشوفنّك.

اشتريد تصير؟

سمك بالماي؟

هَمْ أغطس.. وأصيدنّك..

تريد تموت؟

أنا أموت وياك..

وقبل ما أموت..

أصيحنّ.. حيل..

أحبنّك»

ما أوقف ديار عن غنائه إلا شهقاتي. تمددتُ على أرضية شقته أبكي كطفلٍ مضروب، وألقى هو عوده جانباً وقام إليَّ جزعاً لهذا الانهيار العنيف. كان كل ما في جسدي يبكي جميعاً، وأنا أنتحب

بشدة، وأعضُّ شفتيّ مثل مدمن، ويداي ترتجفان كأنه الموت. أقرفني الدمع في أنفي. مسحته بيدي فعادت حمراء. دماءٌ غزيرة قطَّرها أنفي. لوّثت بساط ديار ويديه وثوبه البيتي، وهو يحملني من الأرض كطفل، ويقعدني على الأريكة، ويصب على أنفي الماء البارد. صرختُ في وجه ديار بهذيان لا أتذكره، وهو يحاول تهدئتي. كنتُ لا أحاولُ أن أتمالك نفسي. شعرتُ أني أدفع شيئاً ثقيلاً جداً في فتحات صدري. أحاولُ أن أخرجه من ثقوب الرئة. كان كل انتحابٍ أشدَّ من الذي قبله، وكل صرخةٍ أعلى من التي سبقتها، أحاولُ أن أفلت من يدي ديار لأرمي بنفسي على الأرض، لأضرب بقبضتي الجدار، وهو يحاصر اندفاعي وفي عينيه نظرة خوفٍ هائلة. أخيراً ثبَّت كتفيّ بيديه القويتين، وأخذ يمسح دم أنفي، ويحشر قطعةً من المنديل في فتحة النزيف، ثم يناولني كوب الماء، وأنا أشهق مثل أواخر المطر.

أفرغتُ كل ما في جوفي بقرفٍ شديد. اتكأتُ على حافة المغسلة. أغمضتُ عيني على جمرات الجفن، قبضتُ على شفتي بأسنان البؤس، لعنتُ نفسي وأنا في هذه الحالة، ليتني أنسَرِبُ مع هذا القيء إلى مجاري المدينة.

هدأتُ قليلاً. أخذت بقايا الدمع تسقط في المجرى الحزين، وتركتُ عيني ساهمتين في العود المنكفئ، ثم علَّقتهما في صمتِ الجدار. كنتُ أشعر ببقية قيء في حلقي، وأعلاقٍ سوداء عند باب

الصدر، وصوت خفقان عالٍ في أذني. أعطاني ديار كوب نعناع ساخن، وراح يكلمني وأنا لا أدري ماذا يقول. أصرَّ على أن نذهب إلى المستشفى القريب. كان قلقاً من نزيف أنفي المفاجئ هذا، وكان قلقه في محله.

كان ضغط الدم مرتفعاً. لبثنا في المستشفى ساعاتٍ حتى عاود الانخفاض، وكلّهم كان يخشى عليَّ من انهيار آخر يرفع الضغط أكثر من هذا، ثم يكوِّمني على الأرض جثةً هامدةً، فقد أحدُ شرايينها تماسكه.

قال ديار بعد أن طال صمتنا في غرفة المستشفى البيضاء الباردة:

- أتدري؟

- ماذا؟

- لو علمت مكانها، لرحلت إليها.

- ماذا تفعل؟

- أساومها على الرجوع بحياتك.

- ستتركني أموت يا ديار، ربما تأثرت قليلاً ولكنها لن تعود.

- أنت تقول هذا؟

- نعم، بعد هذا الزمن.

ضحك ديار بصوتٍ عالٍ، وقال:

- مبروك يا ملعون، شفاك الله من هالعلّة.

- بل أجَّجها فيَّ عودك يا ديار. لم أبكِ هكذا منذ عرفتك. أنت

أنقذتني من بكائي وألقيتني فيه مرّةً أخرى.

- يا سيّدي ولا يهمّك، بكره لغنيلك موّال أجيب أجلك.

يضحك ديار وهو يتكئ بذراعيه على طرف سريري، وأبتسمُ أنا بتعب.

ينخفض الضغط ويأخذني ديار إلى شقّته مرّةً أخرى لأبيت عنده، إن كان بقائي ساهراً طوال الليل يسمّى بياتاً. لم يغمض جفني طوال تلك الليلة وأنا أتخايلكِ على رنّة عوده وموّاله الرمادي ذاك.

كل ساعة كنت أشعر بديار قريباً من باب الغرفة. كان يقترب ليطمئن عليّ، وأنا أتظاهر بالنوم. أبصر نور الشرفة وهو يضاء، وتصل إليَّ رائحة تدخينٍ بعيد، وأتخيل في فراشي ظهر ديار وهو يتكئ على حاجز الشرفة، ويعلِّقُ عينيه على آخر قمّةٍ يراها من جبال بريتيش كولومبيا.

أحقاً يبرّ بقسمه ويزوركِ هذا المتطرف؟كيف سيلتقيكِ؟ كيف سيتكلم معكِ؟ كيف سيعرِّف بنفسه؟ كيف سيرى جمالكِ؟ هل سأغارُ منه عندما يعود، ولكن هل سيكون إلا أحد الذين رأوكِ وتكلمتِ معهم؟

أيُّ غيرةٍ هذه التي سأهتم بها بعد ما فعله بكِ سالم؟ أشعر أن حسَّاسات الغيرة الدقيقة في جسدي قد مرَّ فيها تيّار زواجكِ بتردّدٍ رهيب، فأحرقها تماماً، فلم تعد تشعر بشيء.

ربما أنا لا أغار الآن، لأن في قلبي مشاعر أكبر من الغيرة، مشاعرَ

القهر والحُرقة والإحساس بالغبن.

هل تدركين خطورة هذه الأشياء؟ إنها خطيرة لأنها من نوع المشاعر التي تتضخم وتتضخم حتى تنفجر يوماً ما. مثل الطاقة، لا تنشأ من العدم ولا تفنى، ولكنها تتحول من شكلٍ إلى آخر. تتحول إلى قنبلة.

أعجبُ لامرأةٍ تريد أن تعيش حياةً طبيعية بينما تجعل حياتي كلّها تسير في الاتجاه المعاكس للطبيعة تماماً.

شعرتُ بالندم على ما قلته لديار عنكِ في المستشفى. كم أنا أقدّس حبّكِ في خشوعكِ الغائب. ولكنها نوبةٌ فظيعة. أنتِ تعرفين مني دائماً حالتيَّ اللتين لا أعدل فيهما، الحزن والغضب، ولقد اجتمعتا معاً هذه الليلة. خشيتُ، وهم يتحدثون بقلقٍ عن ضغط دمي المرتفع، من علة أخرى تسكن جسدي غير ما ألمّ بكليتي. أيُّ امرأةٍ ستقبل برجل بالٍ مثلي.

أنتِ لم تقبلي بي حتى عندما كنتُ سليماً معافى.

***

«جسور مقاطعة ماديسون» كان فيلماً لا ينسى.

أول فيلم رأيته في غرفتكِ في ليلتنا الأولى، ليلة الغِلالة البنفسجية.

لا أدري لماذا تتقاطع الأشياء في ذاكرتي بعد هذه الشهور بحدّة.

كلّها تصبُّ في مجرى الألم، وتتمددّ حتى توجع شراييني.

اشتريته من محلٍّ صغير كنت أتسكع حوله في الميتروتاون، وعدتُ إلى شقتي لأشاهده، وأتذكر المرّة الأولى التي رأيته فيها معكِ قبل عشرين شهراً من ذلك اليوم.

ربّة منزل ريفية في مقاطعة ماديسون تهتم بأسرتها كثيراً، وتحبّ زوجها حُبَّ الأزواج، وأبناءها حُبَّ الأبناء، لأنها لا تملك إلا أن تحبّهم.

أنتِ تصرّين على أن يكون هذا فيلمنا الأول، في يومي الأول في غرفتكِ. كنتُ خجولاً لا أتطاول على شيء. يدور الفيلم وأنتِ نائمة على صدري، وتمتد أصابعكِ كل دقيقة إلى فمي بقطعة حلوى، أو شهوة يد أنثى تريدني أن أقبّلها. تضعين يدكِ أمام شفتي مباشرة، دون أن تحوّلي عينيكِ عن الفيلم، لترضى أنوثتكِ، ثم تعودين لتلملمي نفسكِ في حضني مثل قطة.

يسافر الزوج مع أبنائه لأيام وتبقى الأم وحدها في منزلها الصغير وعلى كاهلها العديد من الأعمال التي تنجزها في البلدة الآمنة التي تنام بالريف. ذات نهار يتوقف مصوِّر فوتوغرافي أمام المنزل، وقد تاه عن الطريق.

أثناء الفيلم كنتِ تقبّلينني كل نصف دقيقة، كأنكِ تفين بعهدكِ الذي عاهدتني عليه قبل أن أرتكب جنوني وأتسلل إلى غرفتكِ، عندما قلتُ لكِ:

- ماذا تفعلين بي إذا دخلتُ غرفتكِ؟

- لا أعتقك أبداً!

رميتُ كل المحاذير خلف هذه النبرة الأنثوية التي جمعت حياءً ورغبة معاً، وجئت وفي فمي طعم المغامرة المحلَّى بالفرح والحبور، لأمنحكِ كل جزءٍ في جسدي يومين كاملين، لا أملك خروجاً ولا هروباً من دفق الحب الذي لا أتحمله.

تماماً كالفيلم، عندما خلا المنزل للمصوّر والمرأة، وتعرّفا، ثم خرجت معه، ثم مارسا الحب، وقضيا أربعة أيام معاً، يومين في دهشة الحب، ويومين يستجديها فيهما أن ترحل معه، ولكنها لم تستطع ترك زوجها.

كان الكلام يطير في البلدة الصغيرة عن امرأةٍ تسكن حيَّهم عشقت رجلاً فأكلتها الشائعات واستهجنها الجميع، فذوت وحيدةً باكيةً خائفة. وحدها ربّة المنزل التي جرّبت الحب، وفهمت كيف يغيُّر الأقدار، استطاعت أن ترفق بها. ولكنها في آخر الأمر تخلّت عن مصوّرها الحبيب، كما تخليتِ أنتِ عني.

أليس مما يثير الجنون حقاً أن أكتشف أننا في ليلتنا الأولى كانت تعرض علينا قصتنا بكل هذا الوضوح، ونرى مستقبلنا المظلم بأعيننا، ولا ندرك ذلك؟

أفقتُ ربما قبل أن يكتمل هذا التوافق، هو الذي تركها ورحل ليس مثلي. ليس عندي زهدٌ كزهده، ولا صبرٌ كصبره، أو ربما هو ليس

عنده حبٌ كحبي.

قضى معها أربعة أيام، وقضيتُ معكِ أربعة عشر شهراً. ليس من العدل إذن أن تكتمل هذه الأُحجية السخيفة.

حتى نهاية الفيلم، عندما جاءتها بعد سنوات رسالة منه، وقد صارت أرملة، بعث بها محاميه بعد ما مات هو، كانت مجموعة الصور التي التقطها لجسور المقاطعة، مطبوعةً في كتاب أنيق، عنوانه أربعة أيام.

هل أجعل عنوان روايتي هذه أربعة عشر شهراً، وأبعثها إليكِ بعد أن أموت؟

لا يا حبيبتي لن أكون هكذا.

ستصلكِ روايتي وأنا على قيد الحياة، وقيد الحب، وقيد الوفاء.

وستقطعين جسور البلدة العتيقة، وتعودين إلى الرجل الذي أحببتِ، وقد منحناهم ما يريدون من الإجراءاتِ الشرعية التي يحتاجون إليها في بيروقراطية الحياة.

إذا مشى الجميع من حولي ووقفتُ وحيداً، أشعر أن قدميّ تغوصان في الأرض، ولا أقدر أن أتحرك خطوة واحدة. انهزامٌ نفسيٌ قديم عهدته في نفسي منذ الطفولة. الجميع يحنُّ إلى الماضي وأنا أكرهه حتى لو كان سعيداً. أكره الشعور أني قد أعود إلى الوراء سنوات، لكي أتلذذ بليلة سمر، أو منادمة صديق طفولة، أو صفو حياة. لا أدري ماذا يسمونها في علم النفس ولكني أعترف بأني لا

أملك عينين خلف رأسي.

أن يتقدم الجميع خطوةً وأبقى وحدي خلفهم، هذا لا يشجعني على اللحاق بهم، بل يجعلني أشعر بالعجز أكثر. لذلك أحب دائماً أن أسبق الآخرين. ليس رغبةً في السبق والريادة، ولكن لأني أعلم أن سبقهم لي سيؤخرني كثيراً. تحترق أوراقي. وأنا لا أعرف أن العلم اكتشف طريقةً تعيد المواد التي احترقت إلى صفتها الحقيقية. الاحتراق هو اليد التي تسلبنا بها الحياة ما تريد، وما تسلبه يد الحياة لا تستعيده أيدي البشر مهما طالت.

عندما رحلتِ أنتِ تخيّلت أنكِ تتقدمين. تبدأين حياة وتكوّنين أسرة. تسعين نحو نجاح ما مع رجل آخر. عندما يكون هذا الذي يمشي هو أنتِ، تتضاعف العُقدة عندي ألف مرّة، لأنكِ هذه المرّة لا تثيرين الغبار في وجهي فقط كما يفعلون، بل أنتِ تدوسين رمادي وركامي وحُطام إنسانيتي نحو طموحك.

أفهم كيف لا أحسدكِ لأني أحبكِ. كم كنتُ فخوراً بكل نجاحٍ تحققينه وتبشّرينني به، فخراً حقيقياً كذلك الذي لا نشعر به إلا مع أبنائنا. فالحسد ينشأ بين الأخوة والآباء أحياناً، ولكنكِ حبيبتي، ولم يخرج أحدهم حتى الآن بنظرية تفيد أن ثمّة حسداً قد ينشأ بين الأحبة.

هذا إذن ليس حسداً ولكني لا أريدكِ أن تحققي ما تفخرين به مع سالم. لا أريد أن يضاف إلى رصيده في الحياة امرأة رائعة مثلكِ.

أن يسلبني هذا الرجل نجاحكِ، وتهانيهم به، فهذا ما أحتمله مكرهاً، أما أن يسلبني حتى سعادتي بنجاحكِ، فهذا ما لا يُحتمل.

أنتِ تذكرين استذكاركِ لدروسك معي على سمّاعة الهاتف، تقرئين درسكِ، تعيدينه حتى تحفظيه، وأنا صامتٌ خلف الهاتف، لا نفع لي إلا مؤانستكِ عن بعد حتى لا يأتيكِ الملل، ولا تسمعين مني إلا أنفاسي، وتلبثين ساعاتٍ حتى تنهي استذكاركِ، وآخر صوتٍ تسمعينه قبل الامتحان صوتي، وأول صوتٍ يأتيكِ بعده هو صوتي، وأثناء ذلك أتقلب قلقاً عليكِ، حتى تأتيني البشرى بنجاحك، بينما أخفي أنا عنكِ أمر رسوبي.

نجاحكِ يكفيني آنذاك، لأنه كان معي. أما الآن فلا يكفيني نجاحٌ تنالينه معه. أريد أن يكون هذا النجاح معي حتى تكتمل سعادتي به، وافتخاري بحبيبتي التي لا مثيل لها.

حبيبتي التي تملكني ولا أملكها.

فشلتُ في كل شيء، ولكني كنتُ أسعى، رغم إحباطي وانهياري، ألا أفشل في شيء واحد، وهو تهيئة كل ما في حياتي ليكون أمر انتقالكِ إليَّ غير مؤثر في طموحكِ وإبداعكِ، بل حافزاً لهما.

كان هذا هو الأمر الوحيد الذي يجعلني أستيقظ صباحاً، وأغسل وجهي، وأتناول دوائي، وأسعى لعملي أو دراستي منذ رحلتِ.

بدونكِ، هذه الأشياء لا تساوي شيئاً. سعيتُ لها من أجلكِ، وحققتُ معظمها لكِ أنتِ، فكيف تظنينني سأقبل أن تتركيها وتبقي معه.

أن أبني كل شيء في حياتي على أنكِ أساسه، ثم تنسحبين أنتِ، فهل سيبقى ما بنيتُ قائماً أم ينهار؟

إذا أخذكِ الشعور بالذنب على سنتين ربما تضيعان من عمره بسببكِ، فكم سيكفيكِ من هذا الشعور على عمرٍ بأكمله يضيع مني بسبب تخليكِ عني؟

صدّقيني مرّةً واحدة، يا امرأةً ما زال ينتابها الشك في دموعي.

ما زالت تؤمن أني سأسلو، وسأنسى، ولن أموت بها.

ربما كان زواجكِ منه هو الحد الأخير الذي لن تجدي بعده سبباً يمنعكِ من العودة إليّ. فعلتِ ما أصررتِ عليه، وقررتِ ألا تخذليه، وتزوّجته، وأنا لم أعرف طريق النسيان الذي اعتقدنا به، ولم يبق إلا أن تعودي.

هذياني الذي يأخذني إليكِ أصبح متحكماً جداً. هكذا تأخذ الأشياء شكل التطرف، عندما يمشي الآخرون، ويخلّفونني وحيداً.

***

في هذه الغربة، لبست مس تنغل ثياب أمي، واتسعت لها هذه الثياب تماماً. منذ ارتعاشاتي الأولى في هذه المدينة وهي تقرِّبني منها

حتى استخرجتني من رحِمها أخيراً، واتخذت لي ما تتخذه الأمهات من غرائز لأجل أبنائهنّ، وأنا أراوح من مشاعري بين إغراء دفءٍ كهذا في عريي البارد، وخوفي على قلبها العجوز من أمومةٍ متأخرة وموقّتة لبائسٍ مثلي.

ولم تكن أُمومتها ساذجةً قطّ، هي التي عوَّدت يديها على مِزاج جراحي، وصارت تُتقن المرور فوق الغائر منها والبائن، وتعرف، بغريزة أمّ، أين تضغط، وأين تمرُّ برفق، ومتى يجب أن ترفع يدها تماماً، ومتى يجب أن تخوض بها في العمق. وأنا بدوري تعوّدتُ أن ألجأ إليها ليلة الألم ولا أتكلم كثيراً، واثقاً بأنها تفهمني جيداً، وأنها إنْ لم ترفع الوِزر فلن تنقض الظهر.

كل صباح أستيقظ فيه وأنا على قيد الحزن، وفي رأسي بقية إرهاق من حبة نوم متأخرة، أترك فراشي لأغتسل وأخرج إلى شقة مس تنغل التي أعفتني منذ الأشهر الأولى من إفطار كئيب على خبز الوحدة. تنتظرني كل صباح إلى مائدة صغيرة تعدُّها بنفسها، فأجلس لألتقم طيبتها قبل طعامها، وأرتاح إلى السكينة التي تخرج من عينيها وهي تمارس الدور الأمومي الذي حرمت منه بحماس، فتقرّب لي كل شيء، وتصرّ على آخر القطراتِ في كوب الحليب، وبقايا الفطيرة في خواء الصحن، ثم تترك بين يديّ لفافةً صغيرة من الطعام لأحملها معي، وتناديني من عند الباب لتعيد بيدها خُصلة نفرت من شعري، وتشيّعني بنظراتها كطفلٍ عمره خمسة أعوام.

كأنها أمي في السنوات التي خلت. أتذكر يوم أفيق من النوم على وجهها الصباحي الذي يبشر بالخير ولكنه ينذر بالمدرسة. أستيقظ بتثاقلٍ طويل حتى ينالني الانتهار الأول، فأستعجل قليلاً، ثم تضع بين يديّ صحن إفطاري فينتابني الهلع. أنا الذي أكره وجبة الإفطار، ولا تتحملها معدتي المتثائبة. أحاول الفرار والشكوى والسخط، ثم أخرج إلى المدرسة بنصف إفطار ودمعة شقية كفتني النصف الآخر.

وعندما كبرت صار الإفطار جلسة وفاء وحبة أمل صباحية نلتقطها أنا وأروى من عيني جدتي التي نتناوله معها. ننفض بين يديها غبار النوم ونتناول حبات التمر التي تنتقيها لنا بيدها المعروقة التي تراكم فيها تاريخ الحنّاء منذ الأزل، ونسرّ باهتمامها الذي يقطر رضا وطيبة. ولم نكن نشبع من إفطارنا بل من القبلة التي نتركها على رأسها قبل الخروج، وعلى رأس أمي، ونتركهما في ضجيج الدعوات، ونخرجُ معاً حيث أُوصل أروى إلى جامعتها، وأُعرِّج بعدها إلى جامعتي أنا.

لقد ضاعف انتقال جدتي إلى منزلنا من تركيز الأمومة في هذا المنزل، حتى واجهني أول ما واجهني افتقاد هذا الشعور. ولكنّ مس تنغل عوَّضت هذا النقص، أو أني تخيّلتُ أنها عوّضته. طيبة الناس في الغرب لا تصل إلى هذا الحد، ولكنها تجاوزت كل الحدود مع مس تنغل، وكسرت القاعدة، ورأت فيّ حياتها الأخيرة، وأمومتها التي تكاد تموت قبل أن تتحرك فوق ابنٍ ما.

فهمتُ أنها تحتاج إليّ أيضاً كما أحتاج إليها. وعليّ أن أكون قريباً منها كما هي دائماً قريبةٌ مني. صار يومي يبدأ معها وينتهي عندها ما لم تكن قد أوت إلى فراشها قبل أن يرمي بي ديار في شقتي. وكلما سنحت فرصة مسائية في يوم إجازة، كنت أخرج معها إلى حيث تأخذنا سيارتي، بينما يغيب ديار الذي يعمل في يوم الإجازة بلا انقطاع. نخرج إلى ستانلي بارك، وجروز ماونتن، وضفاف البحيرات، أو حتى الغابات القريبة حيث تقبع مزرعةٌ صغيرةٌ لأختها من أمها. وهي ثريةٌ تقيم في فيرجينيا وتزور مزرعتها كل بضع سنوات، ولكن مس تنغل مرحّبٌ بها بين الأغصان الوارفة بالطبع، حتى لو لم تكن أختها موجودة.

من النادر أن تنطفئ كآبة يومي إذا بدأ كئيباً. من أجل ذلك كنتُ لا أنسى أن هذه العجوز تقيني هذه الصباحات المتعكرة، والصداعات التي يبقى أثرها ولو زال ألمها. صارت تمنحني تحية الصباح قبل أن أمتصها من قطفة سيجارتي الأولى التي أدخّنها على جفاف ريقي وخواء بطني ومرارة قهوتي وغثاء أحزاني التي تنهض معي من الفراش.

لولا مس تنغل لمكثت في هذه المدينة أتضوّر حزناً، هي التي تلقتني مشوّشاً أول ما جئت، خائفاً أدّعي الصلابة، فحملت عني حقائب الهموم الثقيلة، ومسحت آثار لجوئي كأن لم تكن، وأخذت ملابسي التي لوّثها وحل اليأس في الطريق لتغسلها، وتلبسني ثوب

أمل أبيض، وتوصيني ألا أوسّخه، وكنتُ أمزّقه.

أشعر أنها طيّبةٌ حتى آخر أنفاس الفجر. إنها من أولئك اللواتي لا يُخشى على خلجات قلوبهنّ من النفاد، فكل شمسٍ جديدة تشرق على عمرها كانت تعطيها طيبة هذا اليوم، كما تعطي الشمسُ النباتَ غذاء هذا اليوم.

إذا تأخرتُ على إفطارها بعثت لي خادمتها لتطرق الباب عليَّ، أو جرّت بنفسها كرسيّها إلى شقتي، وفتحت الباب بمفتاحها الذي تحتفظ به، لأفيق على صوتها وهي تناديني من قرب، جالسةً في المسافة الضيقة ما بين وجهي النائم، وصورتكِ على المنضدة.

إيقاظها لي من النوم ذكَّرني بإيقاظ أحدنا الآخر من النوم إذا كنت في غرفتك. متى استيقظت من نومي أقبع أمام وجهكِ، وأتوضّأ في شفافيته المضاءة، وأتأمّلكِ ما شئت، قبل أن أترك على الشفتين قُبلة، ولا تتحركين، فأعود بأخرى أطول من سابقتها حتى يبدو انزعاجكِ الأول، فتتنفسين بعمق، وتزيحين وجهكِ قليلاً، وأتبعكِ، أمارس مضايقتي التي تشحنها الرغبة المبكرة حتى تستيقظي. ترفعين جفناً واحداً فقط، ثم تعيدين إغماضه، وتفترُّ شفتاكِ الورديتان عن ابتسامةٍ لا أعرف في حياتي أعذب منها، وأميّزها بين كل ما يفترّ عنه ثغركِ من بسمات، إنها ابتسامة استيقاظكِ من النوم.

أحياناً تستيقظين أنتِ قبلي، وأحياناً أنام أنا بينما تكونين أنتِ خارج الغرفة، فإذا عدتِ، أو استيقظتِ قبلي إن كنا نائمين، كنتُ

أشعر بكِ قليلاً، أنا الذي لا يأخذني النوم في غرفتكِ إلا لماماً لتغيّر المكان، فأتبع حركتكِ من حولي بأذني، تتكلمين في الهاتف، تغتسلين في الحمّام، تربطين شعركِ، تلبسين ثيابكِ، ثم أشعر بالسرير يهتز قليلاً، فأعرف أنكِ تقتربين مني حبواً عليه، تقتربين، وتأتيني أنفاسكِ، ثم تأخذني القبلة من حيث لا أدري، ولا أتوقع، على فمي، وجنتي، جبيني، أذني، صدري، دائماً تتغيّر رغبتكِ كل صباح.

وإذا أفقتُ، كنتِ تجلسين فوقي، تتأملين استيقاظي الخجول أمام نظراتكِ الضاحكة، مثل أمّ تراقب استيقاظ طفلها الرضيع، أمرُّ بيدي على وجهي، وشعري، لأصلح من شعثي فتعيدينها مكانها، وتتحسّسين وجهي، وجسدي، وكل شيء، ثم تضحكين بحبور وأنت تغنين: «يا هلا بالضيف.. هلا والله».

لا أنسى يا مها، ولن أنسى.

كانت ذاكرتي يوم عرفتكِ ورقة بيضاء نقية لم تكتب فيها امرأة قبلكِ، فجئتِ أنت بحبكِ الخُرافي المثير لتطبعي كل تفاصيل العلاقة في وجه الورقة، فتظهر واضحةً جليةً في بياضها. من أجل هذا أتذكر كل الأشياء الدقيقة، والعادات الصغيرة، والكلمات العابرة، والرغبات الجائعة، والنظرات الشبقة، والضحكات العابثة، والقصص القصيرة. وكل ما دار بيننا منذ التقيتكِ حتى فقدتكِ. كل شيء من حبنا ما زال منقوشاً فوق جلدي، معلّقاً على حيطان الروح،

ومعروضاً في متحف الذاكرة.

***

كنتُ مع ديار في شاحنته ونحن في طريقنا إلى كالجري، بعد نصف يوم تقريباً من وسط فانكوفر. لم أكن قد زرتها من قبل فذهبتُ معه على أن يسلّم شحنته هناك، ويوقف شاحنته، لنستأجر سيارةً أخرى نتجول بها في مقاطعة ألبرتا، لنمكث فيها يوماً أو يومين.

لم أكن أعلم أن ديار سيتحدث تلك الليلة وهو يقود السيارة كما لم يتحدث من قبل. بوح هذا الرجل غامضٌ مثله. أحزانه متاهاتٌ لا أعرف أولها من آخرها. هذه الليلة كان يحكي، وأنا أُصغي إليه وأخشى أن تندّ مني حركةٌ تُفسد هذا البوح كما فعلتُ من قبل. هذا البحر ساكنٌ أخيراً، سأتركه يبادل الشاطئ الكلام، والشاطئ صامت. لم أر من قبل شاطئاً يربّت كتف البحر.

طوال البوح وأنا أتأمل في صمتِ جراحه واتساع ألمه. أنظر إلى جانب وجهه المقابل لي. كم في جسده من دمامل الماضي، فكيف استطاع أن يقبض حزنه كل هذه الأعوام؟

كأن الثلوج وحدها هي التي تخدّر الجراح طويلاً.

أحسنتُ الاختيار إذن.

قال ديار:

– كان أبي ضابطاً في الجيش الجمهوري. له كتفان مثقلتان بالرتب اللامعة، وقامةٌ عسكريةٌ مديدة نستظل بها من شمس النظام

الحارقة، ونتميز بها عن البقية من المدنيين، وكان أحد المسؤولين الكبار القليلين عن سلاح الحماية الرئاسي الموكل بحماية الرئيس نفسه وضمان سلامته أينما كان، وكان هذا يخوّله الاقتراب من الرئيس كثيراً، وفي أوقاته غير الرسمية أحياناً، فلا يعود إلا ربع الليل الأخير، وربما بات في القصر الرئاسي، أو في زيارة تفقدية مع الرئيس، يسهر على بقائه حياً.

استيقظنا ذات صباح على نزوة رجل قرر أن يتفقد جيشه. كانت الترتيبات قد أُعدّت من قبل، فلم تكن هذه النزوات الرئاسية غريبةً عليهم، فلا يشبع غروره إلا طوابير الجنود المدججين بالسلاح، والدبابات التي تحفر الأرض، والطائرات التي تشق السماء. ولذلك كانوا دائماً على أُهبة الاستعداد لتفتيشه الدوري.

كنتُ في السابعة من عمري عندما أشرق ذلك الصباح على بغداد العتيقة. غسلتني أمي من آثار النوم، وابتسمت بحنان لابنها الذاهب مع أبيه لأول مرة، ليرى الرئيس المجيد.

كان أبى يُجلسني على المقعد المجاور له ويقود السيارة إلى حيث يقام العرض العسكري، ولم يكن يعلم أنه يحمل حتفه معه. حالما وصلنا أطلق أبي بضع تعليمات لعسكره، واصطفّ الجميع في انتظار الموكب الرئاسي، وحالما انتصبت الشمس فوق رؤوسنا بعد ساعتين، كنتُ أبصر الزعيم العظيم يترجل من سيارته، ويلوك سيجاره الفاخر، ويصافح مستقبليه بعظمة من لا ينظر إلى من

يصافحه.

بعد ثوانٍ جاء دور أبي، رفع إليه الرئيس نظرةً ثمينة، فوقف أمامه بخنوع، وأدّى تحيته العسكرية، ولفظ ما مكّنه إياه لسانه من تبجيل سيده، وأنا أقف جواره، وأرفع رأسي بخوفٍ شديد لأتأمَّل شموخ هذا الرجل الذي تملأ صوره وتماثيله ميادين العراق وجدرانها. كنتُ أتأمل شاربيه وذقنه وشعره المصفف وعينيه العميقتين وحاجبيه المعقودين بقسوة وأطراف أصابعه وحتى الرماد المتناثر من طرف سيجاره. وفجأة، كان أبي يحملني بين ذراعيه، ويرفعني بقوة، لأجد وجهي على بعد سنتيمترات من وجه الرئيس.

ابتسم لي صدّام وأنا أشعر أني خارج الوعي. كانت أنفاسه تصطدم بأذني وهو يقبّلني، أو يلصق خده بخدي على الأرجح. قدماي معلقتان في الهواء وإلا فهما ترتجفان بشدة، وكان صوت أبي يتهدج بانفعال: «هذا خادمكم ديار سِيدِي، الله يحفظكم لنا سِيدِي، تحت ظلكم سِيدِي»، ولم أنبس أنا بكلمة. شعرتُ بالدوخة ولم أعد أميّز أي شيء من حولي، وعندما عدتُ إلى الأرض، كان الرئيس ينحني لي هذه المرّة، ويتكلم معي بابتسامة واسعة:

- هسه شتدرس ديار؟
- في الصف الأول سِيدِي.
- وأبوك شيشتغل؟
- ضابط حماية سِيدِي.

- يعني شيسوي بشغله؟

- يروح بيت الرئيس صدّام سِيدِي.

- وشو يحجيلكم عن بيتي؟

- يحجيلنا ايش قد كبير سِيدِي، كل شيء فيه، فيه طيارة، فيه مدفع، فيه جنود..

تركني بعدها الرئيس بعد أن ربّت وجنتي برفق. رفعتُ عيني بسعادة إلى أبي، فخوراً بما حققته مع سيّده، فإذا وجهه ممتقعٌ بشدة، ولم أفهم سبب ذلك آنذاك. تركني أبي على كرسي بعيد مع جندي صغير، وغاب في الزحام، وكانت آخر مرةٍ أرى فيها الزعيم، وأرى فيها أبي.

امتقع وجه أبي لأنه كان يعرف أن آخر ما يتساهل فيه الطغاة هو أمنهم الشخصي في بلدٍ يقتحم فيه الثوار قصور الحكام ويطلقون عليهم النار بكل بساطة. ولذلك جعل الرئيس من أبي عبرةً لمن حوله من العسكر، هم الذين سمعوا ما قلته، ثم رأوا ما حلَّ بأبي، فانتهى الأمر أن لا تهاون ولا تفريط في أمن الزعيم الذي يخوض حرباً ضروساً مع إيران، والمهدد بالموت في أي لحظة، من أي تقصير.

أعادني الجندي إلى البيت ولم يعد أبي ليوم ويومين وثلاثة. استطلع أصدقاؤه الخبر ليعلموا أنه مسجونٌ، وقيد التحقيق. بعد أسبوع استدعوا أمي ثم عمي وجميع أقاربي ليحققوا معهم أيضاً، وكلهم لا يدري أين أبي وكيف هو.

خمسة أشهر قبل أن يعود إلينا جثماناً مسجى بعد أن توسط أصدقاؤه من العسكر في حمله إلى أهلي ليدفن في النجف الأشرف. كان أبي ضحية الحكايات الصغيرة التي كان يحكيها لي وأمي حين يحملنا قاربٌ صغير بين ضفتي النهر ذات مساء.

كان لا بد لي أن أعيش يتيماً كي يظلَّ القائد آمناً.

بقيتُ لسنواتٍ لا أملك ربطاً بين ما قلته ذلك اليوم وما حلّ بأبي. أخبروني أن ضربة حرب أودت بأبي على جبهة القتال، وبعد سنة أصيبت أمي بمرضٍ عقلي لا ندري كُنهه، لبثت من أجله في المستشفى العقلي عدة سنواتٍ أخرى لا أراها. أقمتُ في بيت عمي أثناء ذلك، ثم علمنا أن أمي ماتت أخيراً بعد أن ألقت بنفسها من دور عال.

كان عمي ضابطاً هو الآخر، أقلّ رتبةً من أبي. وكان ما حلّ بأبي كفيلاً بنقض طموحه العسكري من الأساس، فكان يراني طوال السنوات التي عشت فيها عنده، وبين أبنائه طالع نحسٍ وشؤم. كان سيّئ المزاج، كثير الشرب، يقضي الليل على سطح المنزل مع رفاقه يعبُّون من العرق العراقي الشائع، ويدخّنون وأصواتهم لا تتركنا ننام، وكان يسمّيني «ناحس» كلما رآني، والتقطها منه أبناؤه القذرون، ثم تسرّبت إلى الحي وأبناء الجيران، حتى صار اسمي الذي أعرف به دون سواه هو ناحس، ولم يكن الأمر ليتطلب مني في مراهقتي أكثر من نوبة غضب، بعد الشرب، تأخذ بعقل عمي حتى

يشرح لي لماذا نعتني بهذا الاسم، فعرفت حقيقة ما فعلته بأبي.

عند هذا توقف ديار عن الكلام.

وما زلتُ أسترجع كلماته بحذر. كان يلفظ حروفه وكأنه يتلذذ بنيرانها على لسانه. يضغط عليها بأسنانه ويتركها تئن بطول ما أوجعته هذه الذكرى وشوّهت وجه حياته الجميلة، ثم ها هو يلقيها أمامي، ويتركني ألملمها بحيرةٍ وقلق.

بعثرني ديار كثيراً بقصته. إنه يجرُّ أوجاعه منذ طفولته إذن. كم هو عجوزٌ حزنه، وكم هو مشوَّهٌ بالندوب تاريخه.

ليته لا يسألني كلمة.

حسبي أن أجمع هذا الشتات الزمني في ذكرياته، فأنا لا أثق بقدرتي على فهم طبيعة جرحه، وكيف تشكَّل وتحوَّر عبر السنوات. ربما ما زال ينزف، وربما صار ندبة قديمة، وربما تلوَّث وانتشر في أنحاء الجسد، وربما سافر في الاتجاه الآخر ليغوص في العمق.

هل تأخذ الجراح أشكالاً وعاداتٍ أخرى غير هذه؟ هذا الرجل لم أفهم عاداته هو حتى أفهم عادات جراحه، ولم أستجلِ ظاهره بعد حتى أغوص في عمقه. سيظل صندوقاً مغلقاً لأنه يريد أن يكون كذلك. مهما تظاهر لي أحياناً أنه بسيط وتلقائي، كلامه يفضح أغواره السحيقة. وأنا رجلٌ أجيد التقاط الكلمات.

وصلنا إلى كالجري بعد ساعات طويلة، ونمنا على الفور.

يقولُ ديار في بهو الفندق الصغير الذي قضينا فيه ليلتنا تلك:

- أن ترتبط بأنثى أمر حتمي، ولكنه ليس ضرورياً.

أغلقتُ المجلة التي كانت تتأرجح بين يديّ ورميتها على الطاولة، ثم أخذت أمزّق أكياس المبيّض الصغيرة لأفرغها في كوب القهوة، وأنا أرد على ديار:

- ابتعد عن هذا يا ديار. أكره الذين يناقشون السُّنن الكونية ويعيدون صياغتها، على طاولاتِ المقاهي.

- لا أقصد. ولكني منذ رحلت زوجتي لا أشعر بالحاجة إلى زوجة، ولكني أعلم أني سأرتبط يوماً ما.

- ماذا عن لارا؟

- لا أدري، ربما.

لارا هذه صديقة ديار. منذ عرفتهما وأنا أشعر أنها صديقة فراشه فقط. كأس البيرة الليلية التي يطفئ بها جسده آخر النهار كما يطفئ عقله. كانت تقيم في شقته معظم الأيام وترحل أحياناً إلى المدن الأخرى كجزء من عملها التسويقي. هي هندية الأصل، كندية المولد والمنشأ، كالعديد من سكان هذه المدينة التي تتداخل فيها الأعراق والثقافات.

قلت:

- ألا تحبها؟

- لا

يبتسم ديار وكأنه يخفي شيئاً. يرفع الفنجان ليلحق بآخر القهوة

المترسّبة مع البن أسفله، ثم يعيده إلى الطاولة، وهو يقول:

- والحب هذا الذي تتحدث عنه كفرٌ أحمق. لجوءٌ إلى الجحيم بلا سبب. سجودُ قلبيٌ لا معنى له.

- لماذا يحبُّ الجميع إذن يا ديار؟ كم أنت تعترض على قوانين الوجود.

يعتدل ويشيح بيديه وكأنه يريد أن يفلسف أمراً. تنحني أصابعه بنصف انغلاق ويقول:

- الحب هو الرغبة الأزلية التي تجول في فطرتنا. إلحادٌ صغير لا نعرف سبباً لنشوئه، ولكنه حين يعلن العصيان المدني في البلد يكون أول المتمردين، وأول الشهداء، وأول الخونة.

- وهل ستلحد يوماً؟

- عندما أجد امرأةً تكفيني. هذا هو التعليل الوحيد الذي سأعلل به إلحادي آنذاك. المرأة التي سأحبها يجب أن تكون هي كل شيء، وكل شيء آخر ليس مثلها.

المنطق الجميل يبرر الفكرة الخاطئة أحياناً. لذلك أعجبني منطق ديار. حاولت أن أجاريه. قلت له:

- لا يوجد في الدنيا رجلٌ يعرف لماذا أحبَّ، أو يجد في كتب الطب، والتاريخ والعرافة، والكهانة، وأخبار النجوم، وأبراج السماء، وأصوات الجن، وأبيات الشعر، ووجوه الناس، سبباً منطقياً يمكن أن يفسر به حاجته إلى هذا الحب.

- بماذا تفسره أنت برأيك؟

شعرتُ أنه فتح لي باباً كبيراً للكلام، ولكني تراجعت وبقيتُ على حذرٍ منه. سأختصر إجابتي كثيراً:

- بدايته هي الوجع اللذيذ الذي يجعلنا نغلق عيوننا عن عواقبه ونسترسل في سحب أنفاس دخانه ولو قايضناه بسنوات العمر.

- وبعد الحب؟

- لا يوجد شيء بعد الحب. الحب لا ينتهي أساساً.

- لماذا تنحاز دائماً إلى هذا الحب، ألا تنظر إلى نفسك؟

- الحب يعلمك التطرّف في كل الأحوال يا عزيزي. عندما كنتُ أقول لمها إنها أجمل ما يمكن أن تشير إليه بوصلة الجمال في الدنيا لم تكن تصدّقني. كانت تظنني أغازلها فحسب. ولكني أقسم أني لم أكن أرى شيئاً يباري جمالها في عينيّ. أما بعد أن رحلت، فقد انسحب تطرفي هذا على أشياء أخرى، ولم يعد عندي إلا حُكمانِ أصدرهما على الأشياء، كفرٌ أو إيمان.

- إذن بعد مها هناك أشياء مؤمنة وأشياء كافرة. من الذي يوزِّع الذنوب هنا؟

- هذا ما أودى بحبنا. مسألة الذنوب هذه. من يتحملها، ومن يغفرها.

ألقى ديار نظرةً عبر الزجاج إلى الشارع، وشبَّك كفّيه وهو يطبطب بقدمه على الأرض بروية، وقال دون أن ينظر إليّ:

- أتعتقد أنّ ثمّة ذنوباً يمكن أن تُغتفر؟

- بالنسبة إليّ ليس عندي ذنوبٌ تقبل المغفرة. ولكنّ عندي ذنوباً تستحق أن نتحمل عواقبها.

- هل أنت هكذا منذ نشأت؟ لا أظن. يبدو لي أنك كنت أكثر تعويماً للأشياء في طفولتك. طبعك الهادئ يحب التوازن بين الطرفين، وأراك متطرّفاً جداً الآن.

قال ديار جملته ثم علَّق عينيه، المائلة والقائمة، على ظهر فتاةٍ عبرت على الفور باب الفندق في طريقها إلى الاستعلامات. لم أكن لأجيب عن سؤاله بإسهاب وهو يصغي بنصف اهتمام، قلت:

- ربما كان وقوعي في غرام مها انقلاباً إنسانياً في تكويني.

- هيه يا معوَّد إنها امرأةٌ فحسب.

قالها وهو يعود بوجهه ويعيد عينيه إلى الطاولة. لم أفهم في البدء أيّ المرأتين كان يعني، ولكن بدت لي جملته تناسبُ الحالين.

- مها ليست امرأة، مها قدر.

- مها كأسٌ ما زالت سكرتها تسكن رأسك فقط. انفض نفسك يا أحمق.

- تروح السكرة، وتجيء الفكرة، ومها حاضرة في الحالين.

- أياً كانت كيف يمكنها أن تغيِّر ملامحك الداخلية بسهولة؟ هذا إذا أسميناه تغيراً. أنت انتكست تماماً من التوازن إلى التطرف كما تقول.

- لأن الخارجين من الانقلابات التي تشبه فراق مها يكونون معجونين بالتطرف حتى الإجحاف. يفهمون أن الحياة إما أن تكون نافورة ضياء أو بِركة دماء. يختفي من أعصاب عيونهم طيف اللون الرمادي الذي يتبرزخ بين الحدّين.

- هل انتهى انقلابك؟

- قلت لك يا ديار الحب لا ينتهي.

- وماذا ستفعل؟

- أستمر في الثورة. سأظلُّ ثائراً على كل ما يجعلني أشعر أني فقدتها في عتمة الضوء وأزقة الحياة.

- أخشى أن تؤذي نفسك أكثر.

- ليس عندي ما أخسره يا عزيزي.

- أنا لا أتهم ثورتك، ولكني أخشى ألا تكون قوياً بما يكفي لاسترجاعها. أخشى أن تتراجع عندما يكون الحدُّ عند منتصف ظهرك فيقصمه.

نقوم من مكاننا. يدفع ديار فاتورة القهوة ونخرج إلى الشارع. يستقبلنا تيارٌ هوائيٌ جميل. أخذت نفساً عميقاً مع ديار في الوقت نفسه، ثم ركبنا في سيارتنا الصغيرة، وانطلق ديار في شوارع المدينة، وأنا أفكِّر في كلامي.

ما هذه الروح الثورية التي تراودني عن نفسها كثيراً هذه الأيام؟

كيف سأبدأها بعد عودتي من فانكوفر؟ وكيف ستكون ثورتي لاسترجاعك إذا كنتِ خصمي في ذلك؟

كلّما مكثتُ مدةً أطول مع هذا الرجل أشعر أنه يتسللُ إلى داخلي ويلصق صوره الانتخابية على جدران صدري، ويجعلني أنحاز إلى أسلوبه كثيراً. ليس هذا ما يدهشني، فقد تعوّدت، أنا الذي نشأتُ ضعيفاً، التأثر السريع بالأشياء التي تفرض نفسها بقوة، وديار شيء مثل هذا. ولكن الذي يدهشني أني صرت أشعر أن دياراً بدأ يتطبع بطبعي. صار يميل إلى طباع ألمسها في الصميم من نفسي، كالخنوع والاستسلام، أنا الذي قررتُ أن أعود إلى علاقتي بمها ثائراً هذه المرّة.

هل ديار ينطفئ الآن أم أنه يروِّض نيرانه فحسب؟

أم أن هناك ما يجوس بفكره؟

من أين جاءت فكرة زواجه هذه وركونه إليها أخيراً وهو الذي يكره أن يكون محتاجاً إلى أحد ما، لاسيما المرأة؟ إنه يتجاوزها دائماً رغم أنها كانت طيّبةً معه في كل حياته، أمّه التي يقدّس ذكراها بجنون، زوجته التي رحلت لكي تمنح ابنه الحياة، لارا التي تفعل المستحيل لكي تظفر فقط برضاه، مس تنغل التي يقضي لها ديار حاجياتها، ويشتري لها أغراضها كل بضعة أيام بنفسه.

أين سقطت المرأة داخل ديار تحديداً؟

ربما هي ردة فعلٍ عكسية. ديار لم يكن يثق بامرأةٍ أخرى تأتي

أفضل منهن. ربما كان يبدو عنيفاً مع الأخريات لأنه يريد أن يحمي ذكرى نساء حياته، ولا يريد أن يشوّه مقدساته النسائية يوماً بامرأة خاطئة.

ها هو الآن يتغيّر. لا يهمّ أين يتجه، ولكنه يتغير. هذا الجبل الجليدي العائم منذ قرون، بدأت المياه الدافئة تنحت أطرافه. سأستغل تغيّره هذا، لن أكلمه فيه، بعض الصراحة المطلقة أحياناً تضرُّ أكثر مما تنفع .

***

الحادي والعشرون من يونيو.

بقي لنا بضعة أيام قبل أن نفترق.

كم من الوقت يجب أن يلتصق أحدنا بالآخر حتى نتقي لفح الفراق الأخير؟

كم من الأنهار يجب أن ننقع فيها جرحنا الذي يوشك أن ينقشع دامياً حتى تسكن الجمرة؟

كم من العناق نحتاج إليه زاداً لصحراء الحرمان التي سنقطعها مشياً على الأوجاع؟

تعلمين، لا يمكن أن أنام عندكِ إلا قبل زواجكِ بأيام. أي أني سألتقيكِ وأرحل، وتمكثين بعدها بضعة أيام ثم ترحلين، ولا نستطيع أن نلصق اللقاء الأخير بالفراق الأول ما دامت بيننا مشاغل العروس

التي امتلأت غرفتها ثياباً وملابس من جهازها الذي دأبت طوال سنة على تتبع أجمله وأفخمه، حتى تسعد بها قلب زوجها كلما رآها فيما بعد، و تحرق بها قلب حبيبها كلما زارها الآن.

أزوركِ قبل فراقنا بأربعة أيام، وأنام عندكِ يومين متصلين لعل هذا الظرف المؤلم يخجل منا فينفض عنا هذه الغُمّة المقيمة، والنازلة الصعبة، وقد رآنا نرعى بعضنا بعضاً حتى في أيامنا الأخيرة، ونواسي أحزاننا الكبرى بأنفسنا، ونلتقي، كما يشاء الحب، قبل أيام فقط من احتضاره.

في غرفتك، لم يعد الانتقال بين الملابس والقمصان والأحذية والمشاجب والمعاطف أمراً يسيراً. تراكمت على بعضها حتى بدت قمماً صغيرة على الأرض، وأنا أراقبها منذ سنة وهي تزداد تكوّماً، وأنا أزداد غُبناً وحُرقة.

أفكر في الرجل القميء الذي أعددتِ له كل هذا. حتى الملابس نفسها كنت أشعر أنها تنظر إليّ باستخفافٍ وسخرية، كأنها تعلم أني لستُ رجلها، وأن رجلاً آخر، تقع صورته على الطاولة هناك، هو الذي سيضمُّ فيها روحكِ، ويشمُّ منها عطركِ، ويقشِّرها عن جسمكِ الغضّ كما يقشِّر تفاحته الشهية.

غربةٌ موحشة تنتابني في غرفتك كلما أطلت حديثي مع ملابسكِ تلك. كانت مئات من القطع، كلها أجمل ما تكون، وأنا جالسٌ بينها مثل زانٍ في ساحة الرجم، تحمل لي كل حصاة كمّاً من المهانة

أضعاف ما تحمله من الألم.

غداً يراكِ في ذلك القميص الأزرق وهذا المعطف البني، وهذا الحذاء الأبيض.

غداً يراكِ في هذا المكشوف من كتفيه، وهذا المفتوح من ساقيه، وهذا البنطال الذي يفصل الجسد، وهذا القميص الذي يكشف خط الصدر ويفضح امتلاءه، وهذه البيجاما التي تكشف أكثر مما تستر.

غداً يملُّ ربما لكثرة ما خلع عنكِ رافعة النهد السوداء أو البيضاء أو الحمراء.

تعاقبت الأدوار، وجاء دوره الأبدي السعيد، وانتهى دوريَ الموقّت الخائف.

كيف تقبِّلينني بهذا العشق بين ملابس سوف يقبّلكِ فيها رجلٌ آخر؟

كيف ننام معاً على سريرٍ امتلأ تقريباً برِقاع الدعوة، وقوائم المدعوين، وصور الزوج القادم معكِ، في حفل الخطبة؟

كيف ظننتِ ما خلف أضلاعي صخرةً وليس قلباً؟ كيف ظننتِ ما في محجري حجراً وليس عيناً؟ كيف ظننتِني أتحمل كل هذا الغيظ العاطفي الذي يتراكم في صدري؟ كيف أتحمل كل الأشياء التي تُخرج لي لسانها في غرفتك، وتهزأ بالرجل الموقَّت الذي سيرحل بعد قليل؟

الرجل الذي لا يستطيع أن يُبقي هذه الفتاة معه، بينما يستطيع

الرجل الآخر أن ينتزعها من بيتها، ويرحل بها إلى آخر الدنيا.

كيف أنام على رجلكِ، وتمرّين على شعري وظهري، بيديكِ الفاتنتين، ثم تحملين الهاتف، لتدبّري على مسمع مني أمور زفافكِ وترتيباته، وتنظّمي أماكن الورد، وكراسي المدعوين، وأسماء الحضور، وصفوف الخدم، وخبيرة التزيين، وأوقات الدخول والخروج، وتنسرب الدموع مني ولا تشعرين.

كنتُ أراكِ في فوضى فأخشى أن أكون ضيفاً ثقيلاً كثير التذمر، وما كدتِ توافقين على منامي الليلتين عندكِ. أبتلع خيبتي وذلّي وأسكت حتى تنتهي من هذا الزوج القادم الذي صار يشاركنا الغرفة والسرير في يومي الأخير. كنتُ أخشى أن أزيد همّكِ همّاً، فحشرتُ همّي بين أسناني، وكتمتُ حُرقتي ولم أتكلم، وفي حلقي وصدري ورئتيّ وقلبي لحمٌ يحترق.

رغم كل هذا، أمكث ليومين معكِ، لم يصفُ لي منهما إلا بضع ساعاتٍ ليس فيها خاطرٌ يُكدّرني، ولا اتصالٌ يزعجني، ولا تجاهلٌ منكِ يورثني وجع الشهور الطويلة التي قضيتها معكِ في ليلةٍ واحدة. ماذا يفعل الرجال لو كانوا في مكاني؟ هل يعترضون، هل يجمحون ويغضبون ويرحلون؟ كيف أفعل هذا أنا الذي تنحبس رجولتي منذ عرفتكِ في قنّينة العشق، وتنسحب وراءكِ حيث تذهبين وتأمرين وتشائين وترغبين؟

أليس من العار على حبنا أن أقول لكِ اهتمي بي يا حبيبتي، ونحن

في آخر يوم؟ ماذا كنا نفعل إذن طوال سنة وشهرين؟

كيف أخبركِ أنه بعد ساعاتٍ لن تريني لسنوات، وأني حين أرحل الآن لن أعود بعد أسبوع كما تعوّدنا، بل لن أعود أبداً؟

كيف آخذ حق رجولتي من سلطة أنوثتك دون أن تصرخي في وجهي: «لا تحاصرني، لا تضغط عليّ». كانت رجولتي تموت تدريجياً، وأعود طفلاً صغيراً لا يعي. لا تلقين له اهتماماً، ولا تشغلين به بالاً. يلملم معكِ الأشياء في الصناديق، ويرتِّبُ الأوراق والفوضى، ويساعدكِ في حزم أمتعتكِ، وجمع أغراضكِ، لتستقرَّ بعد ذلك في بيتِ زوجكِ، حتى إذا ساعدكِ سالم في فتحها ونثرها تتذكرين أن الذي ساعدكِ في حزمها وجمعها أصلاً كان أنا.

رجلٌ يحزم الأشياء، و رجلٌ آخر يحلّها.

قتلتني تنازلاتي هذه، ولكني قدَّمتها لكِ دون انتظار. ذبحت كبريائي مثل نعجة قرباناً لرضائكِ عني وحبكِ لي. كتمت الصرخة البكماء التي تتردَّدُ في عروقي مثل الرعد، ولم أحاول أن أسمعكِ إلا غزلاً وحباً، أيَّ كلامٍ ذليل لا يجعلني مثلهم.

تنامين ذلك اليوم جواري وأنا أقسم أنه لم يغمض لي جفن.

تركتُ الوسادة التي تجمع رأسينا لكِ، وطويتُ وسادةً أخرى في حضني، وسرقتُ يدكِ الدافئة من فوق صدرك وتركتها في كفي، وبقيتُ أتأمّلكِ.

أتأمّلكِ،

أتأمّلكِ،

كل ما في هذا الوجه مشرقٌ وصبيح وملائكي.

فمكِ المنفرج قليلاً.

هل حقاً لن أراه بعد هذا اليوم؟

أغرق في الجفن والخد والشفة وخُصلاتِ الشعر.

هل حقاً سيُقبِّل هذا الوجه رجلٌ غيري؟

أتأمّلكِ.. بحسرة العاصي الذي يعرض عليه مقعده من الجنة ثم يجرُّ إلى النار.

وأبكي بصمت، مثل الشموع..

وأنتِ نائمة مثل أميراتِ البحور البعيدة..

وأنشج قليلاً، ويرتفع صوتي..

وتنقلبين منزعجة من صوت بكائي، فأتظاهر بالنوم..

ثم أعود إلى جلستي ووحدتي وتأملي العميق في رخام وجهكِ وجسمكِ..

أعلم لو أني أيقظتكِ لنهرتني متعللة بالتعب والإرهاق وما ينتظركِ من الواجبات، فأتركِكِ في خلودكِ الطاهر، وأمكثُ أنا في تبتُّلي العميق أمام ملامحكِ. أنزلق من كل جفن. أتعلق بحاجبيكِ، وأطرح نفسي على الخد الصافي الذي يبدو كسحابةٍ نزلت من السماء السابعة. أجلس بين شفتيكِ. تظلّني العليا المقوّسة قليلاً، والبارزة إلى الأعلى بفتنةٍ لا تتكرر في امرأتين من نساء الأرض.

أتصوّف حتى النخاع في يومي الأخير معكِ، وعندما يوقظكِ نداء الهاتف، تنتهي ساعات الإيمان التي جلستها معكِ، وتخرجين من أفقي إلى آفاقٍ أخرى ومشاغلَ أخرى، وأستند أنا بظهري إلى السرير، وأتشاغل بأي شيء لا يجعلكِ ترين دموعي.

***

ودقّت الساعة الثالثة فجراً.

حان وقتُ الرحيل، ولم تعد الأشياء الأخيرة تُجدي نفعاً.

لا العناق الأخير، ولا القبلة الأخيرة..

لا دفئكِ، ولا سريركِ..

ولا دموعكِ، ولا ارتجافكِ..

ولا رعشات أصابعكِ على ظهري..

ولا حركة شفاهكِ خلف أذني..

فقدتْ كل العادات الحبيبة لذّتها في ساعة الفاجعة، وانحصرت كل لذائذ الدنيا في موتٍ يبقيني معكِ الآن، أو يمنعكِ من الذهاب لغيري.

لم يبقَ إلا أن معجزةً كونيةً تحدث الآن تغيّر هذه القدر القاتل.

أسحبُ نفسي من شفتيكِ سحباً. بطني يؤلمني بشدة، وقلبي منقبضٌ كأنه ثمرة جوز قاسية، وعيناكِ تدمعان بغزارة، وفمكِ

يرتعش.

صار وجهكِ أصفر مثل الموتى، وأنا أخاف عليكِ كثيراً من هذا السَحَر الموحش الذي سأتركك فيه، فليتكِ تعودين إلى غرفتكِ، قبل أن يرانا أحدٌ معاً.

عودي لغرفتكِ قبل أن تنهاري وأنهار، وأملأ البيت الساكن صراخاً أوقظ به كل من فيه، ليشهدوا بأعينهم فجيعة الثالثة بعد منتصف الليل.

وداعاً، يا أقرب امرأة، وأبعدها..

لا تتأمّلي خروجي، ولا تلقي نظراتكِ على ظهري المبتعد. أنا لا أكاد أجرُّ خطاي حتى أجرَّ فوق ظهري عينيكِ الباكيتين.

اتركيني أجتاز الفناء الجميل الذي اعتادني واعتدته، للمرّة الأخيرة..

اتركيني أنزلق بجسدي من فُرجة الباب الكبير، وألعق من ورائه الشارع بطوله همّاً وخيبةً، وألفظ آخر الأنفاس الحيّة، وأخرج من دنياي، لأضع خطوتي الأولى في أرض الموتى..

هنا سيارتي المركونة بعيداً تنتظرني. ألقي بنفسي خلف مِقودها وأقودها بوهن، وتمشي هي ببطء عبر شوارع تتلوى كالأفاعي وتحملني إلى المجهول.

كل شارع يلتفّ، ويلتفّ، ويلتفّ، ثم أفاجأ به ينغرز مثل الخنجر في عنقي.

أهاتفكِ بعدها بيوم وفي داخلي رجلٌ آخر شكَّلته الأوجاع ولم يعد يدري ما يقول. أنهال عليكِ بالكلام والدموع. تعلّمتُ كيف أن بكاء الأطفال هو الأعلى فلسفة. بكاء الصراخ والنحيب والجزع، وبعثرة الأوراق والأقلام، والارتماء على الأرض في هستيرية منتصف الليل.

وأخرج من بيتي إليكِ، وليس في شوارع المدينة فجراً إلا الخاوون أمثالي. أقود سيارتي إلى بيتكِ دون أن أخبركِ. أزرع نفسي في الفصلِ الموجعِ المرّ. الثانية بعد منتصف الليل، وشبّاكك مضيء، والباب الكبير مغلقٌ في وجهي بقسوة، وسيارة سالم الذي عقد عليكِ فعلاً، وصار زوجاً شرعياً، أمام المنزل.

إنه معكِ الآن. لقاءات الليل ما بين العقد والزواج. تتسامران، تضحكان، تتعانقان، وألتحف أنا جدران الحيّ. أتوكّأ على عصا قهري وغيرتي، ولعنات السماء تنزل على رأسي في ليلٍ عارٍ يتحرّش بي في الطرقات.

كيف تماسكتُ تلك الليلة؟ كيف قُدت سيارتي إلى المنزل ودموعي تمنعني من الرؤية، ويداي ترتجفان بشدة، وأشعر بالحمى تضرب جبيني ووجهي، وتؤلم عظامي. إن رجلاً يفجع في قدرته على الحياة بدون امرأته التي يحب لا يستطيع أن يتماسك.

بعد زيارته تلك، علمتُ أن شفتيك لم تعودا عذراوين بعدي، وأن غيري تذوّقهما، وأن تلك الشفة العليا البارزة، صارت له.

الآن لم يعد عندكِ ما تخافين عليه. سيعلِّمكِ زوجكِ متعاً أخرى لم تكوني لتجرّبيها معي وبيننا هذا الحاجز الفطري الذي تخافين عليه. ستصبح ليلاتكم أسعد وأجمل وأشهى، وأكثر ارتواءً ولذّة. وسينطوي ليلي أنا في عتمة الحزن الحالكة، وتأكل من جلدي حشرات الليل البهيم، وأموت في الظلام.

أتخيّل أنكِ نلتِ من سالم ما لم أقدر على منحكِ إياه، فينتفخ الألم في داخلي. ماذا أفعل إذا كان سالم يكبرني بأعوام خوَّلته أن يصيب من دنياه خيراً وأنا ما زلت أتعثر في عتبات العشرين؟ أحاول أن أقدّم مالاً، وظيفةً، أي شيء يغري امرأة، أو أهلها، فلا أجد بين يدي شيئاً.

وأنتِ لا تنتظرين. ترحلين معه وتتركينني.

شيء في النساء يأخذ عيونهنّ نحو المادّة مهما أعلنَّ الحبَّ علينا.

سيقضي الله بيني وبين التي استمتعت بطيبتي وأوراقي وقصائدي ثم ألقتني مريضاً على قارعة الطريق، ومضت لماله ومستقبله.

ثم تأبى أن تعود لأنها لا تستطيع أن تؤذي مشاعره بهجرانه دون سبب.

ليت اللواتي يسرقن أقدار الرجال يُجِدْنَ على الأقل صياغة الأعذار. أيّ عذر مقنع نمسح به دموع حسرتنا عليهن، والشعور بالظلم والمهانة واحتقار الذات.

صرتُ لا أدري ماذا أسمّي نفسي في حياتك. هل أنا حبيب، عشيق، صديق قديم؟ أم تراني كنتُ نزوة؟ سالم أخيراً ألغى كل أسمائي وألقابي، وحلّ محلي وكسَّر أصنامي وتمائمي، وألقاني على حائط الوهم، حكايةً قديمة تتحول تدريجياً إلى أسطورة، ثم خيال لا حقيقة له، ثم صفحة غطّاها الغبار من كتاب أصفر.

هل تعلم النساء كيف تنتقم لنفسها الكتبُ الصفراء؟

الفصل الثامن

ماتت مس تنغل.

دون أن تدرك أنها كانت الحائط الوحيد الذي يستند إليه حزني في ليل العمر، ويغنّي في خفوت.

دون أن تدرك أن ما تبقَّى لي من الأشياء الأخرى ليس كافياً للاستمرار في الحياة والعيش والبقاء والمكث والتنفس.

دون أن تدرك أن مجرّد شعوري بفقد شيء آخر، أيّ شيء تنتزعه الحياة من يدي، ولو كان كوب قهوةٍ رخيصاً، سيجعلني اختنق بحرماني.

هكذا، دون أن يقف قليلاً أمام قدرتي على التماسك، أخذها الموت ومضى.

أفقدني الموتُ أكبرَ ما كانت تملكه يداي في فقر الروح الذي أعيشه، لأن الفقر، بالنسبة إلى العدم الذي تريدني فيه الحياة يُعدُّ ترفاً.

هذه المرّة، جاءت النوبة أقوى من قلبها العجوز، فتركتها منكفئةً على وجهها، ككتابٍ ملَّ الزمن من قراءته، فغفا وتركه يسقط.

لا شيء في الدنيا شهد سقوطها. حتى الأشياء من حولها. لأنها سقطت في الظلام. في غرفة نومها، ودون أن يُضاء مصباح نور، أو يطلَّ شعاع فجر. ماتت بهدوء وصمت، كأنها أرادت أن تقول للحياة التي هزمتها أخيراً إن انتصارها كان تافهاً، لا يعدو كونه موتاً صغيراً في ليلة صيف.

نوبة قلبية لم تتوقعها قطّ، في ظلام ليلٍ دامس، بعد أن أوت إلى فراشها، ولا شيء إلا الغريزة يجعلها تنتظر الصباح أصلاً.

عدنا وقد رقدت في صندوقها الخشبي. باب شقتها مغلق وأنا أتخيلها خلفه، وأسمع أزيز عجلات كرسيّها الخافت، وطقطقة النار في مدفأتها العتيقة، وطرق السناجب على شبّاكها المعطاء، وطيبة وجهها الأبيض، وتجاعيد عينيها الصافيتين، وخُصلات شعرها الشقراء، وأطراف أصابعها التي مسحت دموعي، وآوت بكائي، وانتصرت لي من الحياة التي أحقد عليها.

ماتت، ماتت..

أهوي على ذراع ديار. يا صديقي ديار، اجعلني أستوعب همجية هذه الحياة فهي لا تشرح نفسها. لماذا هي ما زالت تصفعنا، تصفعنا، تصفعنا، حتى نتعلم أو نتألم، سِيّان يا ديار. كلّه فجعٌ في شكل حقيقة، أو حقيقةٌ في شكل فجع.

فلسفْ لي هذا الموت إن كنت تراه كبيراً أو ابصقه على وجهي بنصف كلمة إن كنت لا تراه كذلك. ولكن قل لي أيّ شيء أسدُّ به ثقب الحيرة الذي يكاد يسرِّب دماغي خارج رأسي.

لماذا تموت هذه الطيّبة ما دامت تضيف إلى الحياة ولا تأخذ منها؟ ما دامت قادرةً على الابتسام لي صباحاً، والبكاء معي مساءً؟ ما دمتُ أنتظرها عندما تجوع أحزاني كما تنتظرها السناجب عند باب الشرفة؟

اقرأ هذياني يا ديار لتعلم ما ينقصني فهمه ثم أخبرني عنه. ربما أحتاج إلى ذاكرةٍ غير تلك البالية، وعقلٍ غير هذا الذي امتلأ نقائض وصُداعاً.

يا ديار، ماتت، فلا تمت أنت الآخر وكلّمني.

لا تخف. عندي شعورٌ بالخواء يجعلني قادراً على قراءة الحياة معك من أول السطر. لنتحاذ على الورقات أياماً إذا شئت. نمشي عليها سواداً بعد سواد، وصمتاً بعد صمت، وصبراً بعد صبر، إما أن نفهم في النهاية، وإما أن نمزِّق أوردتنا ثمن اتهامنا لها دون مبرر. لن نصنع في آخر المطاف إلا سوادين آخرين حيث توقفنا.

ديار، ديار..

سأعود الليلة إلى شقتين واجمتين، صاحباهما ميتان.

كيف سأعيش بين المقبرتين؟ وماذا سأتكلم أمام وجوم الأبواب؟

آوني عندك هذه الليلة. ربما يساعدني الصباح على التبرير أمام

البابين المغلقين عندما يتشنجان أمام المفتاح البارد.

كل ما أحتاج إليه عندك يا صديقي، فراشٌ، وسقفٌ مظلم.

سوف أبقى طوال الليل أرسم خطوطاً في الفراغ، أصلها ببعضها، أو أترك نهاياتها ضائعةً مثلي.

سوف أكتب معادلةً تكرر نفسها إلى المالانهاية، وأعلّقها في فضاء الظلام الكثيف، وأتفرّج في عذابها انتقاماً من الحياة.

لا أريد حبوب صُداع ولا حبوب نوم، هل عندك حبوب أرق؟ لن أنام قبل أن يكتمل انتقامي من الحياة. سوف أجمعها في عيني وأبكي. أريد لها أن تموت غرقاً في دمعة.

سوف أرهقها جدلاً حتى تهلك. سوف أمزّق تلابيبها وأسألها عنهم واحداً واحداً، أولئك الذين غابوا ودمّروا حياتي، موتاً أو قسوة. أين أبي ومس تنغل ومها لو كانوا يسمعون. لن أدعها حتى تُطرق في حسرة وندم وتلتوي على نفسها وتختفي.

أريد دخاناً وكأساً يا ديار. لا تنهرني. أريد إحدى كؤوسك التي تشرب. أكره أن يكون حزني تقليدياً هكذا ولكني أود لو أهذي كثيراً هذا المساء. أشياء كثيرة أود أن أحطمها وأمشي على شظاياها حافياً. لم أعد أملك كبحاً لجِماحي فامنحني جموحاً أتعلل به أمام عجزي وامنحه رجلاً سكران يتخبط في ردهات الليل بعد أن حطّم قيوده.

هاتِ عودك، واشنقني على وترٍ يا ديار.

«اوهوووه.. يا مال.. يا عيني..

محاني.. محاني..

بكيت وصارن ضلوعي محاني..

محاني.. انحنن.. انحنن..

يا دنيا وياي.. كل مشيك محاني

كتب لأهلك كذب.. واااانا.. مَحَاني

شلت بضلوعي مأتم.. ولا من شاف

يعوي ذيب قلبي.. وروحي لي تخاف..

آه..

أصيح بصوت يا بويه ويا يابه..

بعد ما ظل عجيب ولا غرابه..

آه..

وإلك عين وتسأليني يا دنيا..

شهالمغنى الحزين.. شهالكآبه».

***

كان ديار مُطرِقاً على كرسيّه وأصابعه وحدها تدخّن سيجارةً بائسة. نسي أن يأخذ الأنفاس بينما كانت عيناه تحدّقان في ذلك اللاشيء الذي يتراقص أمام عيوننا في أوقات الحزن.

قال لي ديار إن موت مس تنغل مناسبة للحزن.

وأنا لم أفهم قصده ولكني أعرف أنه استغلَّ موتها ليعتق مليون

دمعة ظلّت تتجمع تحت جفنيه منذ سنوات.

مناسبات الحزن تجعلنا نبكي على كل الأشياء التي فقدناها وأورثتنا حزناً ما في الماضي.

ماتت مس تنغل، وعدتُ وحيداً.

ديار سائقٌ متنقل. لا بد أن يغيب أياماً قبل أن يعود إليّ محملاً بأفكاره الليلية. وعندما رحلت معه فهمت أين يختمر فكره المتقلب هذا. يرحل ليلاً حيث تصبح التفافات الطريق كأفعى بين غابتين امتداداً لالتفافات عقله هو. وعيناه المعلّقتان بالطريق تصيران أكثر لمعاناً عندما تغتسلان بمياه دجلة، وعندما يُبحر القارب البغدادي العتيق ليشق النهر تحت هامات النخيل التي تتراقص على صفحة الماء ونشيد الصيادين المنهمر على المجداف العجوز.

هكذا يقطع ديار العراق، من فانكوفر إلى كالجري.

لم يبقَ لي إلا هو.

رحلت مس تنغل بكل دفء ليلاتها الشتائية الطويلة التي أقشّر فيها أحزاني وأقلّبها على لهب المدفأة هارباً من الوحدة العقيمة التي تورثني الليل همّاً وترثني عند الصباح رجلاً بالياً يتآكل بعيداً عن وطنه.

عملي لا يشبه عمله. دوامي ينتهي آخر النهار ودوامه يبدأ عند ذلك. أمنح عملي ودراستي ما أستطيعه من جهد حتى لا يبقى في رأسي مكان لهذا الصداع ولا مساحة لأمطار الذاكرة، وأشعر أن رصيد حسابي يكبر، وأعينهم تمنحني نظراتٍ أوسع، وكرسيّاً أعلى،

وأصعد نحو حلمٍ ما، وأتذكر كم من الأحلام كان عليّ أن أتناساها حتى يتحقق لي هذا الأخير.

لأن قضية الأحلام هذه تزداد تعقيداً في أول العمر.

بقدر ما تكون أحلامنا جميلةً مثل الطيور، بعضها يحلّق في الأفق، وبعضها يحطّ على أشرعة الصيد، وبعضها ينام بين دموعنا، بقدر ما تختفي كلما كبرنا، فلا نعود نراها، أو تموت في أيدينا، وتتعفن، وتؤذينا رائحتها.

أحلام كبرى، صرنا نتمنى ألا تتحقق، لأن تيار حياتنا لم يعد آمناً للسباحة.

وأحلام صغرى، لم تعد ذات قيمة، لأن تحققها صار يشبه احتفالاً صغيراً، في مدينة منكوبة.

ولأنكِ منذ دخلتِ حياتي قلبتِ موازين الأحلام ووحّدتِ بينها وجمعتِ كل الأمنيات الصغيرة التي كنت أرسمها على سحابةٍ بيضاء، أو أبنيها على شاطئ ما، أو ألقيها في جيبي مثل صدفة ملونة، وجعلتِها كلها تتجه نحوكِ رغبةً وابتهالاً. أصبحتُ أشعر أن حلمي بكِ أكبر من أن أمارس معه لعبة السعادة والحزن عندما أقتنيه أو أفقده.

حلمي بامتلاكِ عينيكِ انهيارٌ كبيرٌ لجدار حياتي. قتل تحته كلَّ العصافير الصغيرة، والأحلام الشاردة الأخرى، وقتلني معها.

عدتُ إلى حسن. كلما شعرت أنكِ بعيدة جداً بحثت عن رجلٍ يقاسمني الشعور نفسه.

ألقيتُ عليه سؤالي:

- هل ما زلت تحبُّها؟

- هل عرفت عاشقاً تراجع عن حماقاته؟

- أجل، عندما يختفي الأمل تماماً.

- بالعكس، أجمل حب هو الذي يجيء خالياً من الأطماع.

إنه يمارس وفاء اليائسين.

عرفتُ منكِ أنه أقام تجارة مع بضعة شركاء، وكتب في عقدها أنَّه في حال وفاته تُسجَّل نسبة من أرباح المشروع طوال مدّته باسمكِ، وترك فيه عنوانك ورقم هاتفك.

أشعر أنه يصرّ على حكم الحب الغيابي ما دام عاجزاً عن الحضور. ما زلتُ أحتفظ بأملٍ صغير، ولكني إذا يئستُ كان يأسي ممحاةً ضخمة تمسح من لوح أقداري كلمة عاشق.

إذا استطاع هو أن يعيش بدونك فهذا شأنه، أما أنا فليس عندي إلا مشروعٌ واحد أستطيع أن أتنازل لكِ عن كل أرباحه وأصوله هو حياتي.

سألني حسن يوماً آخر بعد أن تخلَّى عن قناع كبريائه إزاءكِ:

- قلّي بربّك أين تظنّها رحلت؟

- إنها في سيدني.

- هل ستراها؟

- لا أدري..

- إذا ألقت بك الأيام في طريقها، فلا تذكرني أمامها أرجوك.

- أفهم هذا.

- وداعاً أنت أيضاً. لا أريد أن ألتقيك مرّةً أخرى.

- وداعاً.

سيأتي رجلٌ يرفض استسلامك هذا يا حسن. ليس لأنه أقوى منك، بل على العكس، لأنه لا يملك قدرتك على تجاهلها.

أغلقت جهاز الكمبيوتر واضطجعت على السرير أنا ووهمي.

شعرتُ أني سأحترق. أطفأت النيران في كتابٍ أخذتُ أقرأ فيه حتى غلبني النوم على صفحاته.

***

لأن المطر ظلَّ يهطل طوال الليل، جاء الصباح رمادياً، شاحباً، كوجه أرملة. بقيت في السماء قِطعُ السحاب الأكبر سنّاً لتحجب وجه الشمس، بينما لا يزال في نسيم الصباح رائحة المطر، ولم تزل المظلاتُ مطويةً في الأيدي تحسباً لمعاودة هطله. هذا الضيف الملحاح الذي تعوَّدوه.

قدتُ سيارتي تاركاً نوافذها مفتوحةً ليرتطم هواء الصباح بوجهي ويحاول أن ينحته ويمنحه ملامح جديدة، لها برودة الأشياء التي يركمها الثلج تحته، وسماجة الغرباء المجلوبين ترفاً أو حزناً أو كبرياءً.

لا يهمّني كيف يرون شكل غربتي. ديار يظنها ترفاً لأن غربته هو شظفٌ فظيع. أروى تظنها حزناً لأنها تقرأ عيني أخيها بإشفاق. حسن يظنها كبرياءً لأني كنت تلميذه ولكني احتجتُ إلى ألف صفعةٍ حتى أستوعب الدرس.

منذ أن قررتُ أن أعود إليكِ أصبح شكل غربتي مجرد زمن أمكثه ريثما تنتهي شهادتي وأعود لأنتصب أمام بابكِ بكل عِناد الأرض.

لأن أحلام البارحة كانت سعيدة، جاء هذا الصباح هادئاً بدون صداع. لم أدخّن، ولم أتثاءب حتى وأنا أستيقظ.

هناك أشياء عندما تلتقي تخلق قوانين جديدة في الطبيعة.

صباحٌ غائمٌ، وشارعٌ غريب، وصوتُ فيروز.

هذا المغموسُ في لبن السماء.

لقاء هذه الأشياء لا يفهمه إلا أنا، والملايين من مواطني مدن الشتات فقط.

عندما يتململ الحزن في داخلنا، تحمل فيروز إناءً من الكريستال تجمع فيه همومنا وأوجاعنا، وتخلطها معاً، ثم تعود لتوزعها بيننا بالتساوي. فيحمل كل منا همَّ الآخر، ووجعاً جديداً عليه يواجهه بأمل أكبر، وصبرٍ أجمل، بعد أن كفته فيروز رتابة همومه القديمة.

هكذا توحّدنا فيروز بطريقتها. تلوّن دموعنا بلونٍ واحد، تقلّبنا على حزنٍ لا ندري كنهه ولا نفهم معناه ولا نعرف له اسماً، ولا رقماً، ولا هوية، ولكنه ينام في رئاتنا جميعاً، يزرعه فينا صوتها السماوي

الشفاف، ليجلو صدأ الدنيا عن صدورنا، ويشعل أخشاباً قليلة حتى لا تتجمد المشاعر.

«عشاق الطرقات افتَرَقوا..

لا حكي.. لا مواعيدْ..

أنا وحدي صوت الشوارع..

أنا طير القرميدْ

هربت بيهالليل..

من مربط هالخيل..

وأنا قنديل الحزن الوحيدْ».

راحت تغني فوقي مثل سحابةٍ تستحي أن تمطر. وجَّهتُ مشاعري إلى صوتها المسافر. تُرى كم عاشقاً قبلي علّمته فيروز كيف يبكي بسعادة؟

كم عاشقاً سرق من مشاويرها؟

«في قهوة ع المفرقْ..

في موقدة.. وفي نارْ

نبقى أنا وحبيبي

نفرشها بالأسرارْ

جيت اليوم لقيت

عشاق اتنين.. صغارْ
قعدوا على مقاعدنا
سرقوا منا.. المشوار».

تعاقبت الأغنياتُ على مسجّلي كما تريدها ذاكرتي. تدليكٌ طفيفٌ لأماكن الوجع، أو ربما تسريبٌ لمرهمٍ شافٍ من مساماتِ جلدي.

أتذكّر غناءكِ لي.

صوتكِ العذبُ الشفاف يأتيني عبر الهاتف بعد أن أُلحَّ عليكِ عشرين دقيقة، وألبث أستقطره غزلاً حتى توافقي أخيراً، وتغنّي لي مقطعاً، في البدء تضحكين، تخجلين، ثم يبدأ غناؤكِ..

«رجعوني عنيك لأيااااامي اللي راحوا..

علّموني اندم على الماااضي... وجراحو».

وعندما تصلين إلى المقطع الذي أصير فيه أنا عُمرَكِ، وأنتِ لا تدرين ما الذي يكون مني خلف الهاتف، كنتُ أبكي. بعض الغرور يجعلنا نبكي أحياناً، أو ربما كانت انفعالاتي متخبطة، أنا الذي لم أجرِّب شيئاً مثلكِ من قبل.

أتذكّر الصمت الذي احتلّنا طويلاً ونحن نكتشف للمرّة الأولى أغنيتنا الطويلة «عيناك»، نظلُّ له ساهمين في غرفتك حتى ينتهي.

صرتُ أعتقد أن بعض الغناء يقلِّبُ أحزاننا حتى لا تفسد.

ولكن بعضه أيضاً يشبه جرعاتِ الدواء الزائدة. يقتل. ألم تكد

«أحبنَّك» أن تقتلني في شقة ديار؟ أيُّ أغنيةٍ تلك التي تُسبّبُ انهياراً عصبياً وارتفاعاً في ضغط الدم؟

أكادُ أخرجُ من صفاء هذا الصباح. يكاد الهم أن يستيقظ.

أين أجد ديار الآن؟ ما دام هذا الصباح يرشوني ليُبقي حزني نائماً في صندوقه الأخير فهي فرصةٌ نادرة للقائه، حتى يرى أني رجلٌ طبيعي، لا يأكل الحزن من عقله. سأقصده في شقته. ربما كان مستيقظاً هذا الصباح.

رجلٌ كالقطط. ينام متى شاء، ويستيقظ متى شاء. كأن نومه يأتيه دون نعاس.

منذ رحلة ألبرتا وأنا أشعر أني بقدر ما أحتاج إلى وجوده صرتُ ألمح في جفنه المائل حاجةً تشبه حاجتي. ولكنها أكثر أملاً ومكابرة.

وعندما سقطتُ بكاءً في شقته تلك الليلة، وموّاله جاثمٌ على صدري، يحاول أن يخنقني، كان جزعه عظيماً، وإشفاقه عجيباً. بعدها صار يحنو عليّ وهو يدرك أني مريض. عندي كُليةٌ كسلى وقلبٌ يائس.

عندما يقسو يحيل رجلاً أضخم منه مرتين إلى كومة لحمٍ متكومةٍ تحت رجله، وعندما يحنو، يحفظ أكثر مني مواعيد دوائي.

قديماً، كنتُ أشعر أن ليتراتِ الدماء التي تحتويها أجساد العراقيين تزيد قليلاً عنها في الأجساد العربية الأخرى. لهذا تراهم يتعاملون مع هذا الفائض بإسراف. فهو في آخر الأمر جاهزٌ للتصدير

إما إلى الموت أو إلى المنفى، والقلة الذين تبقوا من هؤلاء ربما اتسعت أوردتهم قليلاً لفائض الدم هذا. كل شيء قابلٌ للتوسع في ذلك البلد، الأرض والأطماع والذمم وحتى عدد المحافظات.

كم أفسدهم فُراتهم وأفسد عليهم. يظنون أنهم باقون ما بقي هو، وكأنما لم تقف عليه قبلهم أممٌ لم يعد منهم الآن أيُّ أثر.

ليتهم تعلّموا من الجريان، ولكنهم التاثوا كثيراً بسلوكه في الفيضان. ديار هذا تعلّم كيف يستكين سكينة الفرات ويثور ثورته، ولكن بلا جدوى. أشعر أن عمره يتآكل سريعاً. قلبه ودماؤه ورئتاه وجبينه يستهلك بعضها بعضاً بشدة. وهو لا يفعل إزاء ذلك شيئاً إلا أن يخزّن ذاكرته في قبو صمته ثم يُعتِّقُها خمراً، ويحتسيها ذات ليلة حتى الصباح.

ويحاول ديار أن يحقن في عروقي أملاً فتفشل يداه، وتنجحُ شخصيته. هو يريدني أن أدوس ذكراكِ بنعل رجولة، وأنا لا أتكلم معه في هذا. ألا يعرف ديار كم من القرون يجب أن تتعاقبَ على الأقوام حتى ينسوا مقدّساتهم؟ كيف أنقلبُ على شرعية حُكمها فجأة كما ينقلب العراقيون على رئيسهم قبل أن يغتسل هو نفسه من وعثاء انقلابه؟

تخيلي لو أن رجلاً كديار كان بديلي في حبكِ.

قديماً كانوا يقولون: «حب العراقيين يكسر الضلع»، لأنه ثائرٌ دمويٌ كحبّ الجاهلية. أتصوَّرُ أن ديار كان ليشرب دم سالم هذا قبل

أن يسمح له أن يراكِ مجرّد رؤية، ولو وقفت عشرُ مدنٍ في وجهه لا مدينة واحدة.

لماذا لا أثور على زواجكِ هذ إذن؟ لماذا أظلُّ أنقعُ الأحزان وأسفُّها في ليل حياتي البهيم حتى آخر العمر؟ طريق النضال هذا قصير، سأعود إلى الرياض لأطرق بابكِ مرةً أخرى، وأدخل حياتكِ مرةً أخرى، فإما أن أجعلكِ تسعين إلى الطلاق منه، وإما أن أجعله هو يسعى إلى الطلاق منكِ.

هكذا، بكل بساطة لأن المبادئ كلما كانت أكبر كانت أوضح.

لماذا يظلُّ القرار ملكاً لكِ وحدكِ؟ ألستُ أنا الذي يموت؟ ألستُ أنا الذي أنحطِمُ حتى الرماد منذ سنتين دون أن أملك لنفسي درءاً ولا نهوضاً؟ ألم يخلق الله فيَّ غريزة البقاء على قيد الحياة مثل غيري من البشر؟ منذ متى يناقش الإنسان مع غيره حقه في استخدام غريزته؟

أنتِ إحدى امرأتين الآن، لا أتصوَّر أن امرأةً ثالثة يمكن أن تلبسكِ. إما أنكِ امرأةٌ ما زالت تعشقني كما كانت ملء الأرض والسماوات، ولكنها لا تدري كيف تتصرّف، بينما كابدت أنا من خوفها وتردّدها ووزنها الخاطئ للذنوب والحقوق الكثير من الألم، وجاء الوقت لأمسك بالزمام وأتصرف بنفسي.

أو أنكِ امرأةٌ بدأت تنساني واستبدلت بذكراي سعادةً لمستها في حياتها الجديدة. وهذه قِسمةٌ ضيزى. فأن أموت وتعيش، وأحترق وتنمو، وأبكي وتضحك، لبعض الوقت أمرٌ هيّن، أمّا أن تنسحب

هذه الحال على حياتي كلّها فلا.

إمّا أن تمدّي يدك إليّ بطوق نجاة حتى لا أغرق، أو أتعلق أنا بكِ فنغرق معاً. لا أحد يلوم غريقاً إذا تمسَّك بالحياة.

هذا ما قرأته في شخصية ديار، وأنا أؤمن أن أبلغ ما يتأثر به المرء من آخر هو شخصيته. لا حاجة إلى الكلام والأفعال والمحاضرات والجدل. إن أسلوب ديار يتغلغل في أفكاري ببطء منذ صداقتنا الأولى.

ليس في داخله مكانٌ يتَّسعُ ليخفي فيه شعوره نحوي، لذلك هو يلفظه في وجهي مباشرة: «لا تقوم تأذّي نفسك يا ملعون، ترا والله انزَرَعت بتشبدي يا معوّد». ذكرني حبه هذا بما قاله الإنجليزي لاورنس ستيرن: «إننا نحب الأشخاص بسبب ما عملناه في سبيلهم من خير، أكثر مما نحبهم بسبب عملهم الخير لنا». كان ديار يحنو عليّ كأخٍ أكبر، ولا يبالي بالسنوات القليلة التي يكبرني فيها. شادت بيننا فانكوفر أخوّةً أفتقر كثيراً إلى مثلها منذ أن مات يوسف.

لم أعرف في حياتي صديقاً مثله. أنا المقبل منذ طفولتي على اتخاذ الأخلاّء ولكني لم أكن أفتح لأحدهم الباب الأخير في قلبي، أو أن أحداً منهم لم يكن يملك المفتاح المناسب له.

ديار خلع هذا الباب الأخير من أطرافه خلعاً، واقتحمه كرجلٍ شجاع سمع استغاثةً في داخل صدري. لم أكن أتصوّر أن لي منه صداقة بهذا الحجم. كنتُ أراه همجياً في تصرفاته، وفوضوياً في مشاعره أول الأمر، ولكني اكتشفتُ بعد ذلك أن ديار من أكثر البشر

انتظاماً في العالم، ولكن بطريقته الخاصة.

ألا يكفيه انتظاماً أنه عاش ثمان سنواتٍ في تقلّباتِ الغربة بالوتيرة نفسها؟

حتى السُّكْر، لم يكن ديار من النوع الذي تظهر آثاره عليه مقزّزة، كان يتماسك طويلاً، ويبدو متّزناً وهادئاً، حتى إذا دارت الكحول برأسه حمل نفسه ورحل، دون أن يُلقي التحية على أحد.

كان يُهادن كثيراً أثناء الشرب، فلم يكن جلوسي معه يؤذيني، بل كان يبدو أكثر إصغاءً وتركيزاً لما أقول منه في صحوه، وأكثر احتواءً لبوحي له، وبكائي على كتفه. كأن الخمر تروِّض ذلك الحصان الجامح في أعصابه. حتى لارا كانت تعرف هذا الطبع فيه، وتعرف أنها لن تنال منه أكثر مما تناله وهو ثمِل، هي التي تحبه بجنون، ولا ألومها في ذلك.

تحبُّ ذلك العربي الطافر بالتناقضات، الذي تراكمت في داخله السنوات بلا ترتيب، وتداخلت فيه الظروف والأوجاع، ولم تعد تدري من أين تلج قلبه. كانت ترى فيه الجنس البشري الأقرب إلى الأصل، بشر المناطق الأولى التي سكنتها البشرية. تحب حرارته المحبوسة في جسده، وصدره الذي يغطيه الشعر، ويديه المعروقتين، وتدخينه المجنون، والسينمائية الصاخبة التي يشرب فيها كأسه.

لارا كانت تبوح لي عن علاقتها بديار أكثر مما تفعله معه. لست

أدري أيّ دورٍ يمكن أن ألعبه بينهما. كانت تبدو لي فتاةً طيبة، هادئة، وصبورة، من النوع الذي يمكن أن يحتوي، كفجوة، نتوء ديار، ومزاجيته. وكنت أعلم أن دياراً لن يعود إلى وطنه، وأنه محكومٌ بالغربة طويلاً، فلماذا لا يتزوجها؟ هكذا قلت له في كالجري، وأظنّه اقتنع.

وصلتُ إلى شقته. علَّقتُ معطفي وأنا أبتسمُ لصرخاته الترحيبية العالية. وجدته يدخن نارجيلته، بينما تميل لارا برأسها على كتفه العريضة. غفت قليلاً فقام من مكانه، وأسندها إلى الأريكة، ومضى إلى لوحاته وصخبها.

شقة ديار عربية جداً لولا أنها في فانكوفر. ألبومات فيروز وأم كلثوم وعبد الحليم وماجدة الرومي وكاظم الساهر، وكُتب السيّاب وصلاح عبدالصبور ونازك الملائكة وقاسم حدّاد ونجيب محفوظ، والجرائد العربية التي تفترشُ الطاولة، وتتراكم في الأركان.

قرأتُ عناوينها بسرعة.

جراحنا، بالخط العريض.

في الجرائد العربية لا فرق فعلاً بين العنوان والجرح. كل صباحٍ يستيقظ مجموعةٌ من الصحفيين ليعلّقوا آلامنا على الجدران فقط. لأن آخر العناوين الجميلة في تاريخنا كان قبل اختراع الصحافة.

صور مظفّر النوّاب كانت معلّقةً على الحائط وحولها بضع قصائد

له، خطَّها ديار بيده وعلّقها، هو الذي يعرف أين يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، لقد ضيَّع النوّاب نصفَ عمره وهو يشتم الحيطان التي لا تسمع ولا تحير جواباً.

في الوسط من شقته سجادةٌ يدويةٌ جميلة، ولكنها تبدو قديمة. علمتُ في ما بعد سرَّ احتفاظه بها رغم تضاربها مع ألوان الشقة. إنها السجادة التي كانت تجمعه وأبويه، عندما يفترشونها على ضفّة النهر، أو فوق سطح بيتهم البغدادي العتيق.

جرَّ ديار ذاكرته معه من بغداد، وافترشها، وجلس عليها.

ليته يستطيع أن يحمي ماضيه من حزنه. هي الآن تملأها آثار تدخين مجنون وأعقاب، وبقعٌ من الحبر الذي يخطُّ به ديار القصائد ويعلّقها على الحيطان. لأنه متطرفٌ حتى مع سجادة ثمينة كهذه. لا يملك التوازن في وسط، ولا يعرف المهادنة مع تلك الأشياء التي تثير حزنه.

التقطتُ جريدة الشرق الأوسط من الطاولة أمامه، ورحتُ أقرأ فيها.

هوايته التي يضيِّعُ فيها وقته هي المخطوطات البديعة التي يصنعها. تأملتُ لوحته الأخيرة التي علَّقها. تبدو حمراء ملطَّخة بدماء متمردة. كتب ديار بخطه الفارسي الجميل جزءاً من «لا تصالح»، وعلى الأرض ديوان أمل دنقل.

عدتُ إلى مجالسته وأنا أفكر في لوحاته. ما الذي أشعل البسوس

في عينيه هذه الأيام؟ هذا الرجل لا يحتاج إلى مزيد من الجاهلية.

ماذا لو كان ديار يكتب؟، ماذا لو امتلك مغوليٌّ مثله سلاحاً كهذا؟

لم أتحمل فكرتي، سألته:

- هل جرَّبت الكتابة؟

- يا للإهانة.

- عفواً، لا..، لم أقصد، أعني لم أرك تكتب من قبل.

- لا لا، أنت تهينني عندما تتهمني بالكتابة.

أغلقتُ فمي. شعرتُ بالارتياح أني لم أخبره عن كتابتي. تساءلتُ في قرارة نفسي لماذا يحتقر الكتابة وبين يديه كل هذه الكتب؟

- أنت تكتب، أليس كذلك؟

ولم يكتمل ارتياحي. اصطدمت عبارته بوجهي مباشرة. شعرتُ بغصّة أورثتني احتقاناً عابراً مكلّلاً بالدهشة كشفت له عن إيجابي. تلعثمتُ وأنا أحاول التبرير كما يفعل المتهمون الذين يحاولون تأخير نطق الحكم في فم القاضي.

ابتسمتُ ادعاءً للشجاعة:

- كيف حدست هذا؟

- الكتابة في عينيك يا عزيزي، في نظراتك، في طريقتك في الكلام، في أسلوبك في التعبير عمّا يجيش في نفسك، في وصفك للأشياء، للأحداث، للأماكن، للمشاعر، وهذا يجعلك أحد رجلين، رسّاماً أو كاتباً.

- رسّام؟

- أجل، أقرب الفنون إلى الكتابة، أنا أؤمن بذلك.

- وما هو وجه التقارب؟

- كلاهما تضييعٌ متقنٌ للحياة في عُقدة المساحة البيضاء.

- ولماذا تضييعٌ للحياة؟

- أن تكتب يعني أن تفني عمرك في محاولاتٍ تائهة لشرح ذاتك للآخرين. والآخرون هم الناس الذين لا يأبهون لك أصلاً، وعندما تغيب يهتمون بها، لأنهم يستغلّون محاولاتك تلك لشرح ذواتهم من خلالها.

- أنا أجد الكتابة تفريغاً مقنّناً للعاطفة التي بدأت تؤذينا.

- بل هي هدرٌ لها. لو أجدت التعامل مع هذه العاطفة لربما صنعت لك شيئاً حقيقياً بدلاً من بيعها للأوراق.

- لماذا لا تكون الكتابة محاولة لشرح الحياة نفسها؟

- من يأبه لشروحاتك؟ كلّنا يصرُّ على فهم الحياة من ذاته فقط. لا أحد يثق بعيون الآخرين. ستفهم وحدك، ولا أحد يقتنع بك، ماذا تستفيد؟ إذا لم تكتب ما يمتّعهم ما قرأوا لك، لماذا تحرق عواطفك لإمتاعهم؟

- لم أفكر في إمتاعهم، أريد أن أتوازن فحسب، يا ديار إما أن نبدع، وإما أن نُحدث في أجسادنا مئات الثقوب حتى يتسرَّب منها الحزن، لا أحد يريد أن يتضخَّم بلا معنى.

- ستعيش وحدك، وتموت وحدك.

- مثلما لو عشت معهم، ومتّ معهم، لا فرق.

تركته لانهماكه، أو ربما هو الذي تركني. عدتُ إلى وجه جريدتي. لم أكن متأكداً إن كانت عبارتي الأخيرة وصلته. لم أهتمّ بذلك. بعد قليل عرفتُ أنها وصلت، ولكنه أجَّل إجابته لمصلحة لوحته. سمعته يهمهم من وراء الجريدة:

- ما لت على شواربك، هسا وحده من الدنيا جننتك، شلون تريد تعيش لوحدك.

جاءني صوتُ نارجيلته بعدها. ابتسمتُ لأحزاني التي يسخر منها ديار. نظرتُ إليه من طرف لأجده قد أعاد الليَّ إلى مكانه، وعاد لينكبّ على عمله، وكأنه لم يقل شيئاً.

سألني بعد لحظات:

- ماذا تكتب؟

- الذي يتبعه الغاوون.

- تقصد: الذي يمارسه الغاوون.

- إذا كانت غوايتي في الممارسة، فهذه اللوحات التي تكتبها تقول لي إنك مِمّن غووا أتباعاً، أليس كذلك؟

- أنا من غزية يا معوَّد، شتريدني أصير، هات بس، سمعنا شي.

- لا أتذكر قصائدي، تركتها كلّها في الرياض.

قلتُ، وهو يصبُّ الشاي في كوبي:

- اكتشفتُ أخيراً هذه الفكرة، لن تطفئ الغربة جرحاً.

جلس أمامي. قال وعيناه مسافرتان عبر النافذة:

- رمادٌ يغطي الجمرة على أي حال.

- ألهذا تغمرنا الكآبة الباردة، هل هو الرماد؟

- إنها الأشياء التي نركمها على أنفسنا حتى نُثقِل عليها عندما تقرّر أن تتمرّد، التمرّد في الغربة لا يقود إلا إلى مزيد من اليأس، فلا تتفاءل به كثيراً.

- كأنك تغيِّر كلامك معي يا ديار.

التفت إليَّ قائلاً:

- أبداً، ولكن التمرّد عن بُعد لا يفيد. عُد إلى وطنك، وسيكون لثورتك هناك جدوى تلمسها. ربما تتغير معها حياتك. لا تنفجر في كهف. لا تشتعل كفتيلٍ سجينٍ في قارورة مغلقة. لن يلتفت أحدٌ إلى موتك إذن.

استرخيتُ أكثر على الأريكة، وتركتُ ديار يتابع:

- منذ خرجتُ من العراق وأنا أركُمُ الأشياءَ على نفسي لئلا تتمرّد، وأعترف الآن أني لا أثق بقدرتها على حصار حزني. يوماً ما سأرتكب حماقة.

من يصدّق أن ديار أصبح يكلّمني عن حزنه بهذا الاستسلام؟ ومن يصدّق أني أنا سأبدو كمن يشدّ عضُده في كلامي بعدها؟

قلت له:

- ربما لا تكون حماقة.

- أنت تعلم أن بقائي حياً طوال هذه السنوات هو معجزتي الصغيرة. من أول الضياع كنتُ أظن أنني سأندثر في زحام القاهرة أو عمّان قريباً، ولكن فانكوفر الباردة أطفأت غضبي، والتفّتْ عليّ بثلوجها وأمطارها وأشجارها لتبقيني هنا.

- أتريد أن تبقى غاضباً؟ ألا تدين لفانكوفر بشيء من الاستقرار؟

- أجل، ولكني أخشى عليك من هذه المدينة. إنها مدينةٌ تجعل المنفى يبدو مثل نزهة صيفية فتخدعك، أو ربما تجعله يشبه كتب الفلسفة حين تتناسل في عقولنا حتى لا تُبقي فيها موضع فكرة.

- لا تقلق يا ديار، لديّ ما أعود لأجله.

- متى؟

- لستُ أدري أيّنا سيرحل عن هذه المدينة أولاً يا صاحبي.

لم أكن أعلم وأنا أنفض قولي هذا في الطريق أني تنبأت لديار برحيلٍ قريب، بعد أكثر من سنواتٍ تسع، قضاها هنا في فانكوفر، حتى نال جنسيتها الكندية.

بعد أسابيع، فاجأني ديار بتذكرة سفرٍ إلى لندن، وخطاب استقالة من عمله، ووجهٍ كأن فيه مصالحةً مهينةً مع الحياة.

يا إلهي، هذا الراكدُ منذ سنواتٍ مثل مستنقعٍ عجوز، ما الذي يحرّكه بقوة هذه الأيام؟ هل أزِفت ساعة حماقته التي كان يشعر بدنوّها؟

ألقيتُ أسئلتي على حقيبة سفره. قال إن ثمّة أرحاماً بعيدةً له

لملمتهم شوارع لندن. المدينة التي تستضيف أحزاننا عادةً لتعبّئ ضبابها بها ومجرى نهرها. الآن يهرع إليهم ديار بعد أن وصلته رسائلهم من حيث لا يدري، وعرف منهم أبناء خؤولةٍ وجيرة وزملاء دراسة.

هرع إلى رائحة وطنه.

لن ينسى بغداده الأصيلة مهما طغت رائحة الدم والجوع. عاد ليراهم ويسمع منهم. اشتاق الغصن إلى جذره، أو أنه التمّ على غيره من الأغصان الجافة التي بعثرتها الريح، وألقت بها في بركِ الأمطار وقوارع الطرقات.

ودّعني على أن يعود، وأنا تظللني سحابة وحشةٍ تدنو. خفتُ كثيراً على نفسي من رحيله، أنا الذي أكره الوحدة حتى الموت، وأكره الموت حتى الوحدة.

***

اعتدل الجو في فانكوفر الخصبة، على أعقاب صيفٍ هاربٍ انحسرت خلاله الثلوج عن ضواحي المدينة، وتراجعت إلى قمم الجبال الشاهقة، وظلَّت الأمطار تنقر شوارعها صباحاً بعد صباح، وتغسل وجهي من آثار النوم، وآثار الوحدة.

لأن ديار أصبح بعيداً بُعدَ لندن عن فانكوفر، ومس تنغل أصبحت بعيدةً بُعدَ الموت عن الحياة، وأمّي بعيدة بُعدَ الشوق الذي في قلبها عن ابنها.

اتصلت بي هذا الصباح. كلّما تذكرتها جاءني منها اتصال ما.

قلّما خيّبت أمّي أشواق ذاكرتي. وصلتني دمعتها قبل سؤالها: «كيف أنت؟». طمأنتها بسرعة أني بخير وأنا أحبس في داخلي نهراً من الكلام الذي يتراكم في حناجر الأبناء المغتربين. أخشى إذا سال عليها أن يغرقها حزناً، أنا الذي أعقد هدنةً صغيرة مع حزني هذه الأيام، كي يجيء لطيفاً مثل نسمات الصيف، ولا يقتلع أشجاري ويطوّح بي بعيداً مثل عواصف الشتاء الماضي.

قالت أمّي إن سارة ستلد ابنها الثالث قريباً، وإن عُمر سينتقل إلى منزلٍ ثان بعد أن ضاق مكانه في البيت على عائلته. أخبرتني أيضاً أن جدتي خرجت من المستشفى وقد هدَّها المرض دون جدوى، وسكتت. أعلم أنها حزينةٌ، غير أني مطمئنٌ أنها لا تُخفي شيئاً عني، كعادتها.

تظن أمي دائماً أنني لا أتأثر بعنف مثل بقية إخوتي، فأنا الأثبت عوداً، والأكثر رباطةً في الجأش، وربما الأقسى قلباً، أو أقلّهم إحساساً بالمسؤولية لأني أصغرهم. هكذا تظن أمي بي، لا لشيء، إلا لأني كتومٌ فحسب.

ربما تدرك أمي يوماً ما أني أضعفهم جميعاً، وأحوجهم إلى الشكوى، ولكني لا أكشف عورة حزني لأحد.

أُعيد سمّاعة الهاتف وأكتشف أني لم أعد وحدي في الشقة. يجلس بجانبي جسدٌ من الحنين إليها والشفقة على دمعتها الهاتفية الطويلة، تلك التي أطلقتها عينٌ لم تَرَني منذ عامين.

عامان من الغربة والصمت والحزن والغرق والتراب. كلها تفصل بين الماضي والآتي. وأنتِ تنسحبين بينهما كخطٍ مستمر لا ينقطع. يربط الأشياء والأوقات والأماكن والأحزان والأحلام، وأنا أجرّب هنا ثمانية فصول، كلها كانت خارج عمري.

صار عندي جهادٌ جديدٌ، وأملٌ جديد، و القضية نفسها.

غداً أعود. أطرق بابكِ وقد غيّرني فراقكِ شكلاً ولوناً. ترين ما تبقّى من الرجل الذي تركتِه آخر مرّة عند باب بيتكِ، ودلفتِ إلى المنزل، لتخرجي منه مرّةً أخرى إلى سيارةٍ مختلفة، ورجل آخر. يعود وقد انسلخ جلده تماماً عن عوالق ضعفه، وتطهّر حبُّه بالحزن حتى لا تشوبه شائبة، وغسلت الدموع عينيه فاتضحت له الرؤى، وطهتِ الغربة أفكاره وأوجاعه، و منحته فانكوفر أخيراً.. قراراً ما.

قررتُ أن أكتب.

تصالحتُ مع الكتابة. إنها فرصةٌ مناسبة لصلحٍ كهذا. وحدي في فانكوفر. حزني راكدٌ مثل بركة. وحنيني يكبر إلى أهلي ووطني، وشيء آخر أيضاً. لم أعد يائساً مثلما كنتُ قبل عامين. صار عندي طموحٌ يقودني إليكِ.

اكتملت دائرة الكتابة إذن.

خرجتُ أفتش عن دفترٍ يلملم رغبتي الصباحية هذه. زرتُ عدة متاجر حتى عدتُ به. كان أخضر تتعرّق فيه خطوطٌ سوداء طويلة، وله أوراقٌ تميل إلى الصُّفرة، وأسطرٌ باهتة تنتظم فوقه حتى لا تُحرج

الكلمات وتُفسد البوح. شعرت بالأُلفة معه سريعاً، وحملته معي وأنا أفكر بأي حزنٍ أبدأ؟

«كثيراً ما أرتكبُ الأخطاء، ولكن دائماً ما تكون القرارات الأكثر صواباً في حياتي هي تلك التي حذّرني منها الجميع. مللتُ البكاء طويلاً ولم يزل في عروقي امتدادٌ طويلٌ إلى مها، ولا تزال هي امرأتي الوحيدة الوحيدة. غير أن الحزن لن يعود مجدياً، فقد تعلّمتُ أن الحزن قد ينطفئ، لذلك يجب عليّ أن أوقد سراجاً جديداً.

ربما، كل الأقدار تتمحور حول هذه الكلمة وتتغير أثناءها أشياء كثيرة، ولو أنني بقيتُ متعلقاً بالجذع اليابس لنزعتني عنه ريحٌ ما حتماً ولو أبقت يدي حوله، بصمةً أو إصبعاً أو ذراعاً كاملة، فهذه الريح لا يقف في وجهها شيء، حتى الحزن. وعندما تهبّ لا بد أن تحمل معها أقدارنا».

أحسستُ وأنا أكتب أن قدرتي على الكتابة ضعفت، ولكني ما زلتُ قادراً على التوازن فوق سطر، وما زالت الكلمات تتراءى لي كلحنٍ قديم أتذكره رويداً رويداً، وكنت أشعر بالرغبة في الكتابة لآخرين، أيّ آخرين.

ونمتُ وأنا أحلم برواية.

برحلةٍ طويلةٍ في عمق الوجع.

ربما أستطيع أن أشفي نفسي. ربما أعقد مصالحةً مع الحياة. ربما أكتشف ما لم أكن أعلمه من أمر حبنا.

ربما تقرئينها.

من أجل هذا قررتُ أن أكتب رواية. أريد أن أصنع نصّاً لديه القدرة على التكيف مع الظروف القاسية عند رجلٍ يائس، فلا يمرض، ولا يكلّ، ولا يقف في منتصف الطريق. أريده أن يكون مرِناً يحتوي تقلّبات أفكاري أثناء الكتابة دون أن ينحاز إلى إحداها. أريد فلاةً أوسع للركض، للاندفاع. أريد أن أكون حرّاً، حتى آخر كلمة.

أريد أن أكتب روايةً بحجم حزني فلن أكتفي ببناء السرادق، وصفّ الكراسي، وسماع القرآن، واستقبال المعزّين، ولكني أريد أن أختار بنفسي حتى كلمات العزاء نفسها.

أريد لهذا الحب أن يكتمل حزنه على الأقل، إذا لم يكتمل فرحه، أريد له حزناً مشرّفاً، ما دامت حياته انتهت مخزية.

ظهيرة يومٍ من يونيو، جلستُ مع دفتري على حدِّ الذاكرة. تعرّيتُ أمامه وتركته يقرأني بضع ساعات حتى امتلأت خلف غلافه عشرون ورقة، وانكفأ على المكتب كوبُ قهوةٍ مرهَق، وجبينُ رجلٍ متعب، متعبٍ بحق، من هذا الانهمار العنيف.

شعرتُ أني أنتقل فيزيائياً من الحالة الجامدة إلى السائلة، وخفتُ في غمرة النار أن أتبخر، فتوقفت. لم أكن أتوقع أن أنزف بهذا العنف. كأن قلبي قد خفق ملايين الخفقات منذ أن بدأت حتى وقفتُ عند آخر كلمة. تركت الدفتر مفتوحاً حيث بلغ رمادي ونمت على الأريكة.

***

قال ديار إنه سيعود قبل أن تصفرّ الأوراق هنا، وكان قد تبقّى على الخريف شهرٌ صيفي خاوٍ عندما رحل، قضيته وحيداً مثل خيال المآتة بعد أن قَطَعت الحياةُ قدميَّ اللتين أخطو بهما في رصيف الغربة، ديار ومس تنغل، ولو أن ديار يراسلني من حين لآخر، وأنا أكتب له كلما انتهكني ليلٌ وطواني خوف.

مرّ الشهر ولم يعد ديار. ظلّت رسائله تخبرني أن أموراً يسعى لتسويتها لم تنته بعد وأنه سيتأخر قليلاً، ثم طويلاً، حتى أخبرني أخيراً أنه لن يعود، وأنه وجد عملاً ما، وما زال يراهن عليه.

أُسقط في يدي. لم أحاول ثنيه عن ذلك. إنَّ ديار لا ينثني. قررتُ أن أجمع بقية أغراضه بنفسي وأحملها إليه لأكفيه مؤونة العودة لجلبها، وأقضي أياماً معه.

حملتُ إليه متاع المشرّدين وسافرت لأجد أمطاراً نظيفةً في انتظاري، ورجلاً لم تغيِّر فيه لندن موضع شعرةٍ يصافحني، ويجلس معي في سيارة الأجرة، وهي تخوض بنا في وحل لندن.

تركني ديار في فندقي لأنام، وأوى هو إلى حيث لا أدري. وقفتُ أمام الشّباك الذي يُطلُّ على شارع صغير. كانت على النوافذ أُصصٌ جميلة، وبعض الهواء البارد يرغمني أن أتدثَّر بسترتي وأنا أتأمل الشارع الذي تجتازه الآن سيارة أجرةٍ سوداء من تلك التي تشتهر بها المدينة. حاولتُ أن أنام فلم يغمض لي جفن، فنزلتُ إلى بهو الفندق، أقرأ في كتابٍ قصير.

أتذكر لندن التي رأيتها قبل خمس سنوات، قبل أن أعرفكِ وألتقيكِ وأحبكِ. كنتُ خاوياً من كل ما يكدّر هذا القلب الشاب، سعيداً بعطلتي القصيرة في المدينة العارمة. أملأ الهايدبارك ركضاً وضحكاً ونظراتٍ عابثة تلاحق الفتيات العابرات اللواتي يجزن المكان خفراً وتبختراً، ويبحثن عن قصص غراميةٍ يبدأنها هنا، ليكملنها في الوطن.

في الغد يأتي صباحٌ غائم.

يطير اسمكِ في ذاكرتي مثل الحمائم التي ترفرف في الميدان الشهير. تحطِّين على ذاكرتي كما تحطُّ على أكتاف السيّاح وأيديهم. أتأمل من نافذتي هذا الصباح اللندني الواجم. نسماتٌ باردة تحرّك شعري الذي لم أحلقه منذ شهرين. كنتُ أتفرَّج على السيارات التي تسيل من أمامي، وخطى بعض المارة وهي تلاحق الحافلات الحمراء، خطرت ببالي قصيدة القُصَيبي:

«وجه لندنْ

واجمٌ تكسوه حبَّاتُ المطرْ

وجهها.. وجهُ حبيبٍ

راعه يوم الفراقْ..

فتغضَّنْ».

أترك فراشي وأستحمّ وأتحوّل بعد دقائق إلى جزءٍ من هذا الصباح. أجوب الشوارع، أختار مقهى، أتناول إفطاراً، وأقرأ جريدةً

لا أجدها في فانكوفر، ثم أخطر في شارعنا العربي المجيد الذي منحتنا إياه بريطانيا في قلب لندن اعتذاراً عن الأرض التي منحتها لآخرين في قلب فلسطين.

الإيدجوار رود، وواجهاتُ المحال العربية، والمقاهي التي تمتد حتى نهاية الشارع، ودخان النراجيل، والمحلات التي تبيع كتباً للشتم والجنس، وكل كابينة هاتفية تمتلئ بالأرقام والصور، وكل رصيفٍ يحمل عرباً جالسين أو يمشون، غنيُّهم جاء يستجمّ، وفقيرُهم جاء ليخدمه أو يشتمه، كلّهم يجيد التعامل مع الآخر، والإنجليز يجوزون الشارع في برود منشغلين بأعمالهم وهمومهم اليومية، وكأن المخلوقات العربية على الأرصفة لا تهمّهم.

صباح الخير أيها العرب.

وجوه شاحبة على قوارع الطُّرق. وجوهٌ لم يزرها الرضا منذ سنوات، تعيش في المنفى.

عندما ييأسُ الغرباء يشكِّلون هذا الوطن في قوالِبَ أخرى. قلب امرأة، أو عتمة بارٍ، أو كرسي مقهى، أو صفحة أولى من جريدة وطنية تشفطها عيونهم على واجهات الشتات.

كم هم فائضون عن الحاجة هؤلاء الأشخاص. يدورون على سواقي الوهم. يجترُّون صدأ أحلامهم ويحرِّكون بألسنتهم مرارة العدم الذي يعيشون فيه. تدريجياً، فقدوا القدرة على التمييز بين تأثير حواسّهم وتأثير قلوبهم. تساوت عندهم مادّية الشيء ومعناه.

أصبحوا يعيشون في فوضى عارمة من المشاعر واللغات والأوطان والأحلام والدخان والمنفى.

حتى دموعهم فقدت ملوحتها فلم تعد تدري لماذا تبكي، كأنها تفعل ذلك فقط لتمسح عن مآقيهم صور الفراغ، وهلوسات الذات المتعبة الغارقة منذ قرون في فلسفة اللاشيء واللاحياة واللانهاية واللا أمل.

أشقياء.

كل النظريات تتدحرج أمام أقدامهم صدفة. تتسكَّع أمامهم مثل المومسات الرخيصات. ترافق خطواتهم نحو المجهول الذي ينتظرهم. إنهم لا يجدون مشقةً في استخلاص الحكمة من مآسيهم ولكنهم لا يفهمون أنفسهم، ولا يملكون أحياناً تفسيراً لاستيقاظهم كل صباح إلا كونهم ما زالوا أحياء.

أقطع الشارع من أوله إلى آخره وأخرج منه بجريدةٍ وإحباط. أنعطف يساراً في آخره. أعبر الإكسفورد بخطى فقير وأنا أتجنب شحّاذاً أو قوّاداً تجذبه ملامح العرب. أحاذي أخيراً سور الحديقة الواسعة، الهايدبارك، أجمل ما رأيتُ في لندن. ألج إليها وفي رئتيَّ نقشٌ قديمٌ عمره خمس سنوات لم يزل حاضراً في لوح الذاكرة الجدباء. وقفت أستحضر بذاكرتي ما أراه بعينيّ. هذا البساط الأخضر الذي لا ينتهي. أتأمّله كخروفٍ جائع وأمشي فيه وأنا أتنفس هواءً جميلاً، وألقي التحية على كل شجرة، وكل سنجاب، وكل

عشبةٍ خضراء تاهت عن الطريق وتسرَّبت إلى الممشى.

أجلسُ أمام البحيرة في انتظار ديار. كانت الإوزّات تسبح في انسيابٍ عجيب. تميل رقابها السوداء لتدسّ مناقيرها تحت أجنحتها لدقائق وكأنها خجلى، ثم تعود لترفعها مرةً أخرى إلى أفقٍ أوسع أو جناحٍ آخر. العينان اللتان لا يمكن أن نراهما معاً تمنحان هذه الطيور دعةً ما. أشعر أني أمنح إحدى العينين من الجانب الذي أراه فرصةً أكبر لادّعاء الوداعة، بينما الأخرى على الجانب الآخر، تستريح من الكذب.

لأن المشاعر في لندن دائماً مشكوكٌ في صدقها حتى في وجوه الإوزّ.

أحياناً يأتي ديار في موعده وأحياناً يمنحني شروداً يتلذذ هو بانتزاعي منه. غير أن فوضى حضوره لا تتغير. دائماً يجيء مثل الموج الذي يكسر القصور الرملية أولاً، ثم يعيد ترتيب الشاطئ. هو الذي اكتشف نفاق الإوزّات قبلي. كان يعلن مجيئه بحصاةٍ صغيرة، تمرُّ فوق رأسي، لتقع في مستقر نظرتي، وتشجّ شرودي، وتُحدِث فزعاً بين الإوزّات، بحجم الدوائر التي تتسع وراء أجنحتها الخائفة.

ديار معي، وكوبا قهوة، وثرثرةٌ صباحيةٌ عمرها شهر خرجت من صدره. هو الذي تدرّب على الصمتِ قبل أن آتيه بسبع سنوات، وأفسده بوح العام والنصف اللذين قضيتهما معه. هاهو يعرّي لندن أمامي يوماً يوماً. لندن أخرى غير التي أعرفها. عليها ملامح ديار

وأحكامه المطلقة التي يطلقها على الناس والأشياء دون تروٍّ. والأدهى، دون تراجع.

سيعمل ديار مديراً صغيراً في شركة نقل رأت أن خبرته التي قضاها سائقاً متنقلاً تؤهّله لذلك. أشفقتُ كثيراً عليه. هذا الذي عرفته لا يعبأ بالدنيا قد صار يهتم بأمورها، ويسعى لتحسين مستقبله الوظيفي الذي بدا أنه لن يتغير في كندا، ولكني شعرتُ بالرضا أنه بدأ يتحرك في هذا الاتجاه.

باركت قراره بقدر ما شعرت أني سأفتقده كثيراً. أتخيل مسبقاً كيف ستطحنني الوحدة هناك قبل أن أجد في فانكوفر كلها كوب قهوةٍ له مثل طعم ديار.

أين أجد حقلاً أخضر ترعى فيه همومي أوسع من صدره، وأين أجد متَّكأً أكثر راحةً من كتفه.

تعوّدتُ كثيراً هذا الرجل. أَلِفتُ حديثه وحرارته وصدقه وفوضاه وقناعاته وتناقضاته ولا مبالاته بالكون، كل الكون.

سأفتقد شقته وشاحنته ومواويله وارتعاشة وتره وسجائره وجرائده وكؤوسه وألوان مزاجه المتقلب.

عجيبٌ أمر الصداقة. هذه العلاقة التي لا قيد عليها في التكوّن في أي وسط وأي محيط وبين أي اثنين قادرين على وصلها بين روحيهما. وهي الصداقة أيضاً التي تنشأ داخل العلاقات الأخرى، بل تقيم نفسها كضرورة لاستمرارها. إنه الشعور الذي يقف جانب

الحب، على المستوى نفسه، ودون أن يتعلق به أيٌ من عيوب الحب ومساوئه.

ما أنا فيه الآن أجلى عيوب الحب. فهل لو كنتِ صديقتي يا تُرى كان حالي أفضل مما أنا فيه؟ لو أننا تحكَّمنا في اندفاعنا بادئ الأمر، وسيطرنا على نشوتنا، هل كنا حفظنا دموعنا أكثر، دون أن نمشي حتى آخر الشوط؟

لم أكن لأرضى منكِ بالقليل دون أن أشتاق إلى المزيد، ولم تكوني أنتِ لتقفي قبل أن تكتشفي تماماً آخر نقطة في جسدي.

كانت جميلةً سعاد الصباح عندما هتفت:

«كُنْ صديقي..
ليس في الأمر انتقاصٌ للرجولهْ..
غير أنّ الشرقيّ
لا يرضى بدورٍ..
غير أدوار البطولهْ».

لو زدتُ عليها لقلتُ، حتى الشرقية أيضاً تتوق إلى دور بطولة ما. الفرق بينهما أن الشرقي لديه القدرة، أو الرغبة، في تعدد أدوار البطولة، بينما تكتفي الشرقية بدورٍ وحيد، أو أنها لا تستطيع أن تلعب دوري بطولة في زمن واحد، وإلا تمزّقت عاطفياً.

هذه المرأة التي تسأل رجلاً ما صداقته فقط في قصيدة سعاد ليست زاهدةً في الرجال، ولكنّ دور البطولة في قلبها أخذه رجلٌ

آخر، وهي لا تريد أن تخسر الرجلين إذا جمعت بينهما، لذلك تحتفظ بحبّ أحدهما، وتسعى إلى صداقة الآخر. إنها توزع الأدوار فقط. تقسم أنوثتها بينهم بأنصبةٍ متفاوتة وتحاول أن ترضي الجميع.

ثم إنّ الوطن عموماً لا يفرق كثيراً بين صداقة وحب، فلو كنتُ أنا صديقكِ فحسب لحُرِمتُ منكِ كما أنا محرومٌ الآن. ليس عندكِ ما تعللين به وجودي في حياتكِ أمام المدينة. يبدو أن حبنا كان لا بد منه. وما دمنا مجبرين على تجشُّم عناء علاقتنا البشرية أياً كانت فلنتحملها حباً لأن التعب واحدٌ في النهاية. أنا لن أخدش الجدران، وأتسلل إلى غرف النوم، وأعاكس التيار الزمني لمجتمع بأكمله، من أجل صداقة.

أريد أن أسأل أنوثتكِ، ولا أسألكِ أنتِ، لأني أخشى أن تلتاث إجابتكِ بخوفكِ من تبعية الإجابة، وما قد يطالبكِ به رجلٌ مثلي وقد صرتِ زوجة رجلٍ آخر. أسأل مها الأنثى التي أحببت: هل تتمنين لو أن الذي بيننا كان صداقةً فحسب؟

هل كنتُ لأقع في حب امرأةٍ أخرى، وأزفّ إليكِ أنتِ كصديقة ما دار بيني وبينها كل يوم، وكيف أعشقها، وكم هي جميلة وفاتنة، وكيف عرفتها، وأين التقيتها، ومتى سأتزوجها، وكيف تسللتُ يوماً إلى غرفة نومها، وأقرأ عليكِ مساءً قصيدتي الأخيرة في عينيها، وأبثكِ عتابنا وتباريحنا وخصامنا، وأشكو إليكِ استبداد حبها، وقسوة أنوثتها، وطغيان جمالها، وأحكي لك ذات يوم قبلتنا الأولى، وجنوننا الأول، وتفاصيل لقائنا الأخير.

سِمة الصداقة تكرُّرُ الأدوار. قد يكون لنا أكثر من صديق دون أن يستنكر الناس ذلك. ولكن أن يكون لنا أكثر من حبيب، فهذا هو العار الذي يسم مرتكبه بالدناءة أو العهر. لذلك فكرت منذ البداية أنني عندما أتخذ صديقةً فإنني أكسرُ بذلك قوانين المجتمع الذي أعيش فيه، ولكن عندما أعشق لا تهمني القوانين الصغيرة، ما دمتُ مسيّراً بفطرة الحياة الأولى، الحب.

أول خطوةٍ لآدم خطاها على الأرض كانت بحثاً عن حوّاء، لأن الله فطره وعلَّمه أن الأنثى هي الحياة. وأنا أجرُّ خطاي على خُطى أبي الأول. أبحث عن حياتي، أبحث عن ضلعي الحبيب الذي انتزعوه بقسوةٍ من صدري، ناثرين الدم واللحم في كل مكان، تاركين الجرح ملوّثاً، والدم نازفاً، والدمع غزيراً، والروح شاردة، وأعطوا ضلعي لرجلٍ غريب، ليزيِّن به الجدار الوحيد الذي بقي خالياً من الزينة في حياته.

وحتى بعد الهول الذي وجدته في فراقكِ، والأمل الذي يتقلّب على فراش المرض، ما زلتُ متمسكاً بالحب، وأظن أن حباً كحبكِ يستحق كل هذا، لأنه لم يكن حباً عادياً قط، كان شيئاً تتجنبه الكلمات والصفات خوفاً من افتضاح قصورها.

الشرقيُّ الذي اكتشفته سعاد في قصيدتها هو الرجل القديم الذي لا يتعامل في حياته إلا مع ثلاث نساء: حبيبته، خليلته، محارمه. أما الصديقات، فهنَّ فئةٌ ساقطة من سجلّه الذكوري المتطرف، فالمرأة التي تدخل حياته إما أن تكون سيّدته، أو يكون سيّدها، إما أن يعلو

عليها كخليلة، أو تعلو عليه كحبيبة.

ولكنا كنا أصدقاء، أليس كذلك؟ بدأنا أصدقاء، واستمرت صداقتنا حتى الليلة الأخيرة، ولكنا أضفنا إليها حباً بحجم السماوات والأرض. صداقتنا هي التي أنجبت حبنا أول الأمر، ثم هي التي جعلته ينمو ويكبر، لأني كنتُ أشعر أنكِ نصفي الكوني الذي لا يتكرر، ولم يخلق الله لي نصفاً غيره.

نترك الكرسي الخشبي الذي نجلس عليه ونقوم معاً لنمشي على حافّة البحيرة. كان يطيب لديار أن يمشي أثناء الحديث. لم يكن يرهقه ذلك كأن مشيته جزءٌ من كلامه.

سألته:

- متى تعلّمت المشي؟

- لم أتعلّمه. هو يأتي مع التشرّد، كما يأتي الظلام مع الليل.

- أشعر وأنا أمشي أحياناً أني كائنٌ يتحرك على الأرض، فينتفي من داخلي شعور التفاهة، أنا مخلوق، ولي نصيبٌ من هذه الأرض، انتزعه منها مشياً.

- المشي كتابةٌ أيها الشاعر، هل مارست الكتابة على الرصيف؟ إن هذا ما تفعله الأقدام التي تدمن التيه.

يتوقف عن الكلام، ولا يتوقف عن المشي.

تذكَّرتُ الشاعر الفرنسي آرثر رامبو الذي كان يمشي كل يومٍ ثلاثين كيلومتراً لأنه قرر أن يكتب مشياً فوق بلاد الله ويترك الشعر

وهو لم يزل في سن العشرين بعد. كان يقول: «لم أعد شاعراً لأني لم أعد مجنوناً». ها هو رجلٌ آخر يحتقر الكتابة ويحترف المشي مثل ديار.

مات رامبو آلاف الأميال بعيداً عن باريس، تُرى أين ستتوقف خطى ديار؟

- هل تمشي سعياً، أم هرباً؟

- مللاً.

يقول كلمته الأخيرة وهو يبتسم. يفهم أن أسئلتي الساذجة دائماً ما تخفي وراءها رغبةً في البكاء. ليته يكشف رغبتي الآدمية التي كانت تدور بفكري قبل قليل في المشي وراء حوّاء حتى أجدها.

هو أيضاً الرجل الذي لا يحترم ذكائي ولا بكائي. لا أدري كيف تحملتُ طوال هذه الشهور رجلاً يقهقه ضاحكاً كلما غلبتي دمعةٌ أمامه. مرّةً قال لي:

- خلي الدمعة البيضاء لليوم الأسود.

أيّ سوادٍ ينتظره هو بعد كل هذه الأوجاع؟ وأيّ يومٍ تراه يدَّخره له بكاؤه؟

العجيب أنني أستنكف من البكاء أمام رجل، بينما يشهد عليَّ وجهكِ ونحركِ وكتفكِ أن دموعي كانت حرّى، وأن انثيالها كان هادراً سيّالاً لا يتوقف.

ومس تنغل كانت إذا بكيتُ أشاحت بوجهها عني قليلاً، ثم اقتربت لتمسح دموعي وعلى جفنها ارتجاج الدمعة.

أما أمي فلكم أبكاها بكائي عليكِ، وهي لا تدري لماذا أبكي. تُغرق سجادتها بالدموع كل ليلة لما تراه من حالي، ومن كتماني الذي يرهقها كثيراً. كانت تدرك أن ابنها الذي أصبح يفيق فجراً، ويبكي سرّاً، على غير عادته، يخفي بين جنبيه همّاً ثقيلاً ألمَّ به، وسحق عظامه، وأوهى احتماله، وتركه مثل الملدوغ، يركض في عرصات الليل من هول حزنه الذي يراه وهو يصيح.

تجاوزتُ ابتسامة ديار الساخرة تلك، وألقيتُ عينيّ في مرمى نظرته. هذا الرجل الذي يستعد ليغيّر غربةً بغربة، متى سيشعر باليأس؟ متى ستولد في عينيه الدموع؟ متى سينحني أخيراً، ويكفّ عن صلب قامته ونفخ صدره أمام الحياة؟ كيف يصمد وهو الذي لا يملك أي شيء، حتى تراب وطن يضمّه حين يتوقف عن المشي؟

أجاري ممشاه. أحاول في داخلي أن أقارن أحلامنا وأحزاننا. أنا الذي عندي وطنٌ وأسرةٌ ومشاعر في قلوب أخرى وُجدت لأجلي، هل تراني سأحتمل شتاتاً مثل شتاته اللانهائي، أنا الذي يميتني أن امرأةً ما تخلّت عني؟

إنه الحزن الواحد الذي يستبدُّ حتى يقتل. لو كان عندي أحزانٌ غيركِ لشغلتني عنكِ. ولكنكِ طويتِ كل ما في حياتي، وتفرَّدتِ بكل شيء. العمر والأحلام والطموح. وكنتِ الحب الوحيد، والحزن الوحيد.

والأحزان الوحيدة تفتك بنا دائماً. تجرح، تغوص في العمق،

تتسرطن، تتشعب، تتلوث، وتعيث فساداً في سائر الجسد. يا حزني أنتِ، لو تعلمين كم من الأفكار تنبعثُ كل يومٍ من جبيني عنكِ، وكم من الأحلام صارت مثل الفراشات، تولد وتموت، في اليوم نفسه.

وديار حزين. والعراقيون هم فنانو الحزن الأعرق في التاريخ. ربما أورثهم التعاقب السياسي السريع على رؤوسهم مآسي تشرّبتها قلوبهم مع الماء والهواء. كم من الدماء اختلطت بمياه النهرين منذ القدم؟ إنهم أغصان الحزن الضارب في عروق الأرض. إذا لم يحزنوا اعتسفوا حزنهم اعتسافاً، فكحّلوا به عيونهم وبكوا، ولوّنوا به حناجرهم وغنّوا، ورمموا به كربلاءهم، ورجموا به طُغاتهم، وسقوه لأفواه أطفالهم الجوعى.

كنتُ أودّ لو أظفر من ديار باعتراف لندني ضبابي أن الخوف هو الذي أورثه الصلابة. سألته عن ذلك، فسكت. ثم رمى عليّ ابتسامةً أعلم أن ما بعدها من كلامه سيلقي بي بعيداً.

قال ديار:

- هل تعلم أن الحزن بحد ذاته شجاعة. عندما تحزن فأنت تتخذ موقفاً من الحياة بأن ما تفعله بك لا يناسبك تماماً. وتنجح بذلك في تربية تمرّدك الداخلي على تعسّف مثل هذا. أنت، رغم مد الحياة الذي لا يجزر، وجدت مكاناً تبني فيه حزنك.

- وهل تأبه الحياة لحزني يا ديار؟

- الجبن والخوف هو أن تعتقد أن الحياة لن تأبه لك، وأنك إن

وقفت للحزن، فستمضي الحياة دونك، وتخلفك وحيداً. هذا الركض الخائب في أعقاب الحياة، هذا التمسك المذلّ بأذيالها هو الخوف، هو الجبن بعينه.

***

الكتابة بذهنٍ مشتّت تشبه النوم أثناء السباحة، كلاهما يؤدّي إلى الغرق.

وأنا لا أريد أن أغرق، لا سيّما أنّني ما زلتُ أتأرجح بين نوبات اليأس ومواسم الأمل حول إكمال ما بدأت بكتابته في دفتري الأخضر الهادئ.

عدتُ من لندن لأجده في انتظاري. عاودني حنين الكتابة القديم وقررتُ أن أدفن نفسي فيه ما دام ديار لن يعود. بدأتُ بالكتابة كيفما اتفق. ألقي الحروف وتتشكَّل، وأتذكر الليل وأنقشه سريعاً قبل أن يدركني الصباح، وأرسم شكل الجرح لا أفرِّق فيه بين خط القلم وخط النزف. فللكتابة الجراحية مثل كتابتي أحكامٌ مختلفة.

كنتُ قد كتبتُ قبل رحيلي عشرين صفحة. الآن أزيد عليها قليلاً، ثم أعدّ الصفحات التي مرّت، فلا تؤلمني ضآلتها بقدر ما يؤلمني فقرها المدقع.

أهذا ما تبقى من ذاكرةٍ عمرها عمر حبكِ؟ لا بد أن اليأس صدأ، والحزن صدأ، وهذه هي النتيجة.

الأوراق البيضاء تمشي إلى السواد في أبطأ تحوّل يشهده تاريخ

الكتابة منذ المسمارية القديمة، ولكني ما زلتُ أركض. الأمر يبدو لي وكأنه مجرّد محاولةٍ لتجميع الأحزان التي تشتتت في بؤرةٍ واحدة. كنت أريدها مأتماً صغيراً فإذا هي سيرة ميت. وجدتُ نفسي أعيد المرور على كل شيء دار بيننا، فأبكي على السعيد، لأنه ولّى، وأعيد البكاء على الحزين، لأن بكائي الأول لم يكن كافياً.

ولكني أحتاج إلى بضع أوراق أقرب ما تكون إلى رواية، أُفرغ فيها أحزاني، وأعزّي بها نفسي، وأقدّم لكِ في آخر المطاف وجعي بين دفّتي كتاب، فمنذ البدء خُلق الألم والوهم توأمي حياة، وعبر ملايين السنين ظلّ الألم كما هو وتحوّر الوهم ليصبح كتابة.

إنهم يكتبون لأنهم يتألمون، أو لأنهم تألموا يوماً ما. وهذه هي الهويّة الأولى للقلم، أداة صغيرة نخلق بها أوهاماً بحجم آلامنا.

طوال كتابتي كنتُ إخال وجهكِ الحبيب بين نهايات أصابعي وبدايات سطوري. أمشي على حبي لكِ محاولاً التوازن حتى لا أُهوِّم، ولا أترهّب، ولا أتبتّل. فأنا أريدها روايةً وليس أبخرة معبد. تراتيل الناس مملولةٌ مهما كان إيمانهم فلن أطيل الترتيل بكِ، ولكني سآخذ بيديكِ إليّ، وأعيد على مسامعكِ ما قلته لكِ، وما لم أقله، وما رحلتِ أنتِ قبل أن أقوله، وما منعني رحيلكِ عن قوله.

ولو كنتِ معي يا حبيبتي لما كتبت. يكفي أن أرحل إليكِ ليلاً كما تعوّدت، وأبكي على صدركِ بدلاً من البكاء المهين على الأوراق. لا حاجة إلى الكلام ولا الكتابة. في آخر الأمر أريدكِ أن تشعري أني

أحبكِ فقط، ولا يهم أن تدركي همومي أو لا تدركيها.

قديماً، سمّوا الأوراق بردي لأنها باردة، وحتى لو لم تكن كذلك، هي، أياً كانت، أبرد من اشتعال الكاتب فوقها، وأصغر من فكرته، وأهدأ من جمرته، لذلك يحترق هو ويفنى، وتبقى هي من بعده.

أريد من بكائي الوهمي البارد هذا أن يبقى من بعدي. ليس بعد أن أموت، فلا أظن أن الأمر سيعنيني حينذاك، ولكن بعد أن أسقط من قلبكِ كما تسقط ورقة الخريف، وأصبح غريباً عنكِ، بعيداً منكِ، مسافراً بلا وجهةٍ في سرمد الذاكرة.

أريد أن أموت على أوراق رواية بدلاً من أن تنثر الريح رمادي في العدم، فقد يدركني الموت فعلاً قبل أن أصل إليكِ، وقبل أن أكمل سعيي الذي أحثه الخطى نحوكِ، وقبل أن ينتهي جهادي من أجلكِ، وحلمي الأخير بالزواج منكِ.

***

كتبتُ:

«منذ سنين، في الصميم من مراهقتي، حلمتُ بحبٍ عاصفٍ لا يُبقي ولا يذر. يملأ قلبي حزناً، وينثر حبوب اللقاح على أوراقي، ويجعلني أكتب كما لم أكتب من قبل. كنتُ أحلم بالمد والجزر والموج، والبكاء على شطآن لا يرحمها البحر، ولا ترفق بها الريح، مثل صارٍ مرهقٍ محطّم، لا يحنو عليه إلا الرمل وبقايا الأصداف العتيقة.

كنتُ أريد أن تنتزع مني امرأةٌ دمعاتي ولا تعود، وتلقّنني كل يوم ٍ حرفاً من أبجدية الحزن واللوعة، وتتركني على حافة الانهيار، وشفا الجنون، معلقاً بين أصابعها حين تومئ وتشير، وبين عينيها حين تقسو وتدمع. أشد على إثرها رحال عُرْوَة، وأهيم على وجهي هيام قيس، كنتُ أريد من امرأةٍ ما، أن تعيدني إنساناً كما ولدت.

كنتُ أظنُّ أن الحب يزدريني إلى أن ضنّ عليَّ حتى بهذه الأوجاع. جلستُ على عتبات الشعر في انتظاره ولم يأتِ، وتعلّقتُ بأصنام النساء التي أنحتها بيدي ولم يأتِ، وخدشت سواد الليل الذي أقضيه ساهراً ولم يأتِ، فآمنتُ أن هذا الحبَّ مخلوقٌ متطرّف، لا يعرف الرجال الرماديين.

لم أدرك كيف يزور الحبُّ هذا الرجلَ الذي لا يكاد يخرج من غرفته، وحدود قصيدته، ونهايات دفتره وكتابه، هل يطرق الحبُّ القلوبَ الخجولة؟ وهل يملأ الضئيلُ النحيل الذي يبدو أصغر من عمره بسنين على الأقل قلبَ امرأةٍ ما؟ وأين تُراها تجده، هو الذي يختبئ من عيون النساء، كما يختبئ من قطرات المطر؟

ولما يئستُ من هذا الحب.. جاء. كأعنف ما يجيء به الحب، صخباً وجنوناً وعنفواناً وجرأة. ولما احتلّني تماماً أيقنتُ أن هيكل عظامي لم يكن مهيّئاً لحجمه. جاء كبيراً على جسدي وضعفي وركوني إلى السلم والهدوء. جاء عاتياً كعاصفة تشقُّ المحيط وتمزِّق الساحل. ولم يكن قاربي الصغير يقوى على طوفانه، ولكني

عشت حتى مضت العاصفة وخلّفتني مرمياً هنا.

كان حزني يفوق تحمّلي، وخوفي أكبر من شجاعة التراجع. وكان الهمّ ثقيلاً بحق، والغُصّة مؤلمة جداً. وصار قلمي أكثر جفافاً، وأوراقي أشد عُقماً، وفكرتي محاصرة بين طرفي بكاء، وخيالي لا يتجوّل إلا في داخلي. فولدت قصائد مشوّهة، لا تعني شيئاً، ولا تلقي خبراً. وخاب أملي في هذا الحب الذي ما رعى لهفتي عليه، وطول انتظاري له.

تمرّين سريعاً يا مها، من أبريل إلى يونيو من العام القادم. وتنطوي الصفحة. كنتِ حلمي الأجمل والأروع والأشهى والأسرع زوالاً. مرّت شهوري معكِ كأجمل ما تمر الشهور، وانتهت كأفجع ما تنتهي. أتذكر أثناءها كم تجاهلتُ أجراس الإنذار التي كانت تقرع في عقلي وأنا سائرٌ نحو الهوّة، أراهن كل يومٍ على أن حبنا سيمتد ويكبر حتى يثنيكِ عن زواجكِ المخيف، ولكن رهاني سقط مع ورقة التقويم الأخيرة التي كشفت لي عن يوم زفافك.

أتحسّر كثيراً لفرط ما أحببتكِ، وأتحسّر ألف مرّةٍ لفرط ما أحببتني أنتِ. كم من السهل أن يكون الرجل عاشقاً بجوار أن يكون معشوقاً بهذه الحرارة من امرأةٍ مثلكِ، لها كل هذه الأنوثة والذكاء والجمال.

أتساءل، كم ستكون الحياة عادلة لو أنها تحرمنا من كل ما لم نعرف، وكم هي قاسية عندما تعرِّفنا إلى الشيء، ثم تسرقه هو وفرحتنا به.

أين أجد بعدكِ من تغمرني بنصف هذا الحب، بنصف هذا العطاء، بنصف هذا الحريق؟ أين أجد امرأةً لا تطرق الأبواب، بل تتسرّب من شقوق حياتي قطرةً قطرة، فلا أشعر بها إلا وهي واقفة، بكل أنوثتها، في أعماقي.

لو كنتُ واجداً امرأةً مثلكِ لعقدتُ هُدنة مع الحياة، واتفاقاً معها، أظفر به بامرأةٍ تعطيني نصفَ ما تعطين أنتِ، وتأخذ هي ما أبقيتِه أنتِ مني، ولكني أظلم النساء لو أحببت منهن امرأةً بعدكِ. أعلم أني لو وفيتُ لها بجسدي، ما وفيتُ لها بقلبي، وأنها ستبقى طوال حياتها معي معلقةً في ميزان مائل، تجلسين أنتِ وحدكِ على كِفّته الراجحة.

لأني لا أمنح السطور حقَّها من الوجع، أودُّ كثيراً لو أتراجع، فلقد منحني القدر حزناً كما يفعل بالجميع، ولكنه لم يمنحني لساناً بفصاحة حزني، ولا قلماً بسيولته. أشعر بأني أختلس من مشاعري وأنا أكتب، ثم إذا التفت إلى الوراء، اكتشفتُ أني تركتُ بين كلماتي فراغاتٍ كثيرة، تتمدد في جسد الرواية مثل مرضٍ جلدي قبيح.

أين ذكرياتي معكِ؟ كأنني بودلير عندما قال: «عندي من الذكريات أكثر مما لو كان عمري ألف عام»، وأنا عمري أربعة عشر شهراً من الحب، وضعفها من الحزن، وليس عندي قلمٌ يستطيع أن يكتب شيئاً من هذا؟

أحياناً أقول لا بأس، فما زال هناك من منحه القدر نسخةً أخرى من

حزني، مدوّنةً باسمه، فمثل هذا حتماً سيغفر وهني لأنه جرّب الوهن مثلي، ولأنه تسكَّع على رصيف عشق فسيفهمني، ولأنه آمن أن الحب حياة والفراق موت فسيزور قبري، ومن انتظر أنثاه الحلم طويلاً ثم أفاق ليجد بين يديه حباً مرهوناً بعقربي ساعة، وورقة تقويم، ثم ترحل حبيبته إلى كنف رجلٍ آخر، فسيبكي طويلاً، مثلما يبكي الأرمل على الأرمل، والثاكِل على الثاكل، والعاشق على العاشق.

منذ أحببتكِ وأنا أكتب لكِ وأحمل ما كتبته إليكِ مثل طفلٍ لتريه حالما أنتهي منه. فتكافئينني بكلمة، بنظرة إعجاب، بدمعة، بقبلة. ما زلتُ أذكر تعليقكِ على كل قصيدة، بل أذكر شكل نظرتكِ إذا قرأتها أمامكِ، أو صدى تنهّدكِ إذا أسمعتكِ إياها في الهاتف، وما زلتُ أكتب لكِ.

لن أتمسك كثيراً بشكل كتابةٍ أدبيّ في دفتري الأخضر هذا. يكفي أن أكتب وأكتب، ثم أبعثها إليكِ كما تعوّدت، لعلّكِ تدركين أن حبي لكِ لم يكن نزوة رجل، ولا ضعف بشر، ولا تهويم شاعر، وإنما كان قدراً محفوراً بعمق في هويتي البشرية.

ما أكتبه الآن هو إما شهادة وفاتي أو تباشير عودتي. فلا تستعجلي البكاء أو الضحك قبل إكمالها، أو حتى بعد انتهائكِ منها مباشرة، فبعض الدموع تشوّه الحقائق، وبعضها تختصر النهاياتِ الشاقة، واعلمي أنها كتابة بلا نهاية، لأن نهايتها عندكِ أنتِ، وما زالت معلقةً على ما يمكن أن يُسفر عنه سلوككِ البشري تجاه رجلٍ يموت.

اتركيني أحجز مقعداً في ذاكرتكِ قبل أن تنزعني الأيام، فربما

تنتخب لنا الحياة قدراً جديداً من مجاهل ذاكرةٍ قديمة. أنا أكتب لكِ بيدي هذه التي كنتِ تقبِّلينها ثم تدسينها في صدركِ بحنان، وعليها الخاتم عينه الذي قلتِ أنكِ تغارين من التصاقه الدائم بي، قلم الرصاص ذاته الذي أهديته إليّ عفوياً في أيامنا الأخيرة. لا شيء جديد عليكِ إلا الدفتر وأحزاني.

من الحياة أكتب لكِ. تلك التي جمعتنا وفرّقتنا وتبقينا الآن على بُعد أميال لا أعلمها ولا أحصيها. أصارع هذا الغثيان اليومي من البشر، مشرّداً إلا من شقةٍ ودفتر، آوي إليهما إذا اشتدت الأمطار وعصفت الرياح.

أفكاري سافرت وراءكِ. تركتُ لها الخيار بعد رحيلكِ بين البقاء معي أو الذهاب معكِ، فلم يبق لي منها شيء. تبعتكِ جميعاً، وأظنها فقدت أثركِ بعد أشهر، وظلّت حائرةً بين انقسامات رجلٍ وامرأة.

كلما استغرقتني ذكرى رحيلكِ أنسى أنني أروي وأنسحب بذاكرتي إلى غيهب الوجع . أنا الذي ما أفاق من صدمة حبكِ حتى ارتطم بصدمة فقدك. أعرف من قبلُ أنَّ أوجعَ الصدمات تنفجر بعنف ثم تخبو نيرانها يوماً بعد يوم حتى تصلَ حدَّ الجمرة الأخيرة التي لا تفنى، وتظلَّ مختبئةً في أعطاف الذاكرة، ولكنّ صدمتي بكِ تمشي في الاتجاه المعاكس، إنها تكبر كل يوم، وتواصل انفجاراتها في وجهي الذي غابت ملامحه تقريباً.

لا أريد أن أكتب رسائل لوعة بل قصة حبٍ فحسب. أريدها أن

تجيء كما تجيء قصص الحب عادة، فليس في أوراقي شيء جديد. إنني أعيد أطلال ناجي، وآلام فرتر، وأكرر تقريباً مشاعر بول وفرجيني في غابتهما تلك. ربما يكرر القدر نفسه آلاف المرّات في الجيل الواحد، فما دام هناك قلوب.. فلا بد للحب أن يجد مكاناً لبذاره، وما دامت السماء فوق الأرض فلن يعدم الحزن بينهما مكاناً للتناسل.

ولكنّ أعظم فصول الرواية كانت تدور هنا، في داخلي. هنا المسرح الحقيقي لحدث الحب هذا، هنا كانت تقع الوقائع، وتدور المعارك، وتنكشف الحقائق، وتلتبس الأمور، وتتحقق النبوءات. هنا في داخلي كانت ورشة التأليف، ورُزَم الأوراق، وخراطيش الأقلام، ومستودع الألم. إنني أكتب مذكرات قلبي معكِ، وهو يمليها عليّ بشيخوخةٍ وسُعال.

ربما تملين الرتم الرومانسيّ الكئيب الذي يغلّف الكلمات، ولكن القصة لا تحتمل أكثر من ذلك، فلم يمنحني القدر أسطورةً أحكيها، ولكنه غمرني بكل ما في هامش الأسطورة من أحزان، وحرمني من مجدها نفسه.

ربما تشعرين أنها لا تستحق القراءة. ربما لا ترينها إلا بكائيةً غابرةً على جدار قديم. أنا أكتب لكِ ولا أهتم بما أكتبه. يكفي أن تعلمي ما قلت لكِ من أني أحبكِ، أما الرواية فهي نبأٌ مني، وقد فكرت أن أجعل نبئي هو عزائي، وعزائي هو وفائي، ما دمتِ حاضرةً في القلب مثل يمامة، وما دامت عيناكِ تدقّان في نفسي مثل أجراس الكنائس، وما

دام كل ما في حياتي يسألني عنكِ.

***

قبل الفجر بساعة، كان هاتف أُمّي يخبرني أن جدّتي أقرأتني السلام كما أقرأته أحفادها، قبل أن تصعد روحها إلى بارئها منذ ساعات، وعلى وجهها سكينة الرضا، وشهادة الحق.

تركتُ أُمّي تعزّيني وأنا أجتاز بعينيَّ زجاجَ النافذة، وأتأمل عن بُعد نافذةَ مس تنغل المغلقة منذ أشهر، وأعشاش العصافير التي هجرتها، والأعشابَ التي تطاولت على عتبات البيت، والأزهارَ التي انتحرت في أُصُصِها.

دهمتني دمعةٌ قبل أن تنتهي مكالمة أمّي. وتأملت الدفترَ، والليلَ الغارق في صمت مدينة غريبة. وراح الحزن يعيد ترتيب أشيائه في صدري بعد أن كان قد استعدَّ للرحيل منه. وخرجتُ إلى الشرفة وفي داخلي أصداء صوت أمي، وعليه آثار بكائها القريب. تركتُ نسمات الليل الباردة ترتطم بوجهي وبي جمودٌ عجيب، لولا بعض الدموع.

كم كنتُ أتمنى أن تري جدتي يا مها.

جلسةً جلستُها معها أثناء حبنا كنتُ أشتهي فيها لو كنتِ معنا. أتذكَّر أني هاتفتكِ حالما خلوتُ بنفسي، وأقسمتُ لكِ أني تمنيتُ بكل الدنيا أن تكوني بيننا وأنتِ زوجة لي، أشاكسكِ مع جدتي، ونمزح، وتحتكمين إليها، وتُنصفني، ثم تضحكُ بيننا كأنها طفلة.

هي جدتي ينبوع طيبةٍ أصيل، وأنا حفيدها المدلّل الذي ما زالت

تفاخر بنبوغه كل امرأة، لاسيما من كانت عندها فتاة لم تتزوج بعد.

كم من أفراد أسرتي سيموتُ يا تُرى قبل أن تعودي؟

فانكوفر، حان وقت رحيلي. هل ثمّة ندفة ثلجٍ أخيرة أحملها إلى قلب أمي المحترق في وطني؟ هل تسمحين لي أن أوقف جلساتِ علاجي فيكِ أيتها المنتجع الحزين؟ مرّ بي صيفاكِ وشتاءاكِ، وأربعة فصولٍ أخرى دون أسماء، اثنان يُحييان الأوراق، والآخران يقتلانها، وكلها شاركت في غرفة الجراحة. كلّها جسّت نبضي، وقاست حزني، وغمست في جسدي مِبضعاً ما.

لم يعد باستطاعتي البقاء هنا. لملمتُ أشيائي وصباح فانكوفر المقترب بهدوء يراقبني بضجر. هذه المرّة أصبح الموت يدفعني إلى قرار بعد أن ظلّ طوال حياتي يحرّضني على الهمود.

لستُ أدري كيف أبصرتُ حياتي قصيرةً جداً وأنا أقلّب أفكاري كما أقلّب أشيائي وأحشرها في حقيبة. مات أبي، ورحلت مها، وماتت مس تنغل، وماتت جدتي، ثلاثة موتى، وامرأةٌ غائبة، وليس لي إلا أن أتمسك بها قبل أن تلتاث حياتي بموسم الموت هذا، ولا بد أن أتعلق بحياة.

تأجّل مشروع الكتابة في فانكوفر. هذه المدينة لن تمنحني قلماً ولا ورقة. ستظل كتابتي موسومة بمدينتي الصحراوية الكبيرة، قريباً من ذكرياتي معكِ، وأحلامي التي ولِدت هناك، وماتت هناك، وأريد أنا العاجز أن أعيد بعثها من هنا.

هناك في الرياض سأنفض ذاكرتي عن عامين من الوجع. سأكتب

دون أن ألتفت إلى الأسئلة التي تحاصرني عن جدوى ما أكتبه. ربما كان خربشةً على هامش حبي لكِ، ربما كان رسالةً إلى عينين أشتاق إليهما بموت، فثمّة أشكالٌ كثيرة قد يأخذها شكل الرواية. ربما جاءت فتقاً في معطف شتائي قديم تآمر على دفئي، وربما كانت انحناءً عائداً إلى الكتابة من أجل النجاة، وربما احتراقاً أخيراً أطهّر به كل آثامي القديمة. ربما كانت الرواية يأساً بحجم الأرض، أو بكاءً بغزارة النجوم، أو لُهاثاً في مِضمار العدم، أو اشتهاءً لشبق الأوراق، أو استجداءً للأكتاف المعرضة، أو ربما استئنافاً لحكم فراقنا أمام القدر.

ليس عندي فكرة. وهذا الموت في جبين كاتب يعني الكثير. سوف أمضغ ذاكرتي ثم أبصقها يوماً فيوماً على صفحات الدفتر. لن يميّزني شيء عن الآخرين، فقريحتي أصبحت مثل محرّكٍ صدئ من عصر النهضة، يحتاج من الزيت إلى أكثر مما ينتج من القطع.

ربما كان خيراً للكاتب أن لا يمارس الكتابة بعد الصدأ حتى لا يخسر ما قد بدأ به. أما أنا، ذلك الذي صدئ قبل أن يبدأ، فليس لديّ ما أخسره بعدكِ. عليّ أن أكتب مصحوباً بصرير عقلي، وأتحمل ضجيجه، فحتى عيونهم لا أبحث عنها. دفعتُ ثمن هذا الدفتر وأصبح مملوكاً لي في الحياة، ومن حقي أن أخربش عليه بما أريد، لأثبت ملكيّتي له يوماً ما لمن بعدي.

الفصل الأخير

نَفَسُ الليل الأول. أريد أن أنام، ورسالة ديار طويلةٌ جدّاً.

جاءتني رسالته قبل أن أرحل من فانكوفر بأيام وكانت غريبة. لأن كبرياءه التي كانت تعلّمني الأمان انحنى كثيراً فيها. هاهو إنسانُ غُربتِه يحتضر.

«سأموت وحيداً.

كما تموت النخلات، كما يموت العراقيون.

لا أدري ماذا ينتابني هذه الأيام، أنا الذي ركمتُ على جراحي ألف سنة من الغربة، وحسبتُ أني خدّرتها تماماً، ولكنّها لندن.. تجيد تعرية الجراح.

لندن ملهاة العرب ومنفاهم. هنا يسيحون، وهنا يبكون، وهنا تتسلخ وجوه غربتهم أمام برودة الشعب. لقد قتلتني هذه المدينة يا صديقي. مزّقت كبريائي وصمودي. عرّت خطاي على الرصيف. أعماني ضبابها الممقوت. أودى بي لونها الرمادي. مالت بي الريح،

جعتُ وبكيت وانغرس التايمز مثل خنجرٍ ملوّث في صميم صدري.

مقاهي لندن ليست كمقاهي فانكوفر. هنا عربٌ وجُذام وعناوين صحف وجنون مغلّفٌ بأوراق تبغ، ووجوه كثيرة أعرفها ولا آلفها. لا يقيني معطفي الثقيل بردَ الشوارع، فالريح هنا تعرف أين نقطة الضعف في جلدي.

تعلّمتُ كيف أجعل ثلوجَ فانكوفر أليفةً، تمنحني دفء السماء إذا بردت الأرض، وعلمتُ هنا أن السماء تخدعني وأن البرد يدهمني من حيث لا أدرك، ولم أتعوّد، ولم أحتسب. إنه يدهمني من قلبي. جرح الإنسان الدائم الذي إذا سكن، مات الإنسان.

لعلك بخير يا صديقي..

....».

طويتُ رسالته واغرورقت عيناي بالدموع.

إذا شعر ديار بالبرد، فأيُّ رجلٍ في الدنيا يستطيع أن يعيش وحيداً ودافئاً؟

سأعود إلى خبز أمي كما قال درويش.

لأن بقائي في الغربة كان استلهاماً للتسبيح بعد أن كفرت بي مها. آن لهذا الحوت أن يلفظني عند شجرة اليقطين الآمنة، فليس عندي إيمان الأنبياء، ولا صبر الصالحين.

أريد رائحة أمي، إنها الأنثى الوحيدة التي لن تتخلى عني كرجل. أوديب الجديد يتكوّن في كندا، ولكنه أكثر تحفظاً هذه المرّة،

فقد علّمه حزنه أن تغيير الأحوال لا يحتاج دائماً إلى انقلاب، وأن الحزن وحده لا يكفي لإشعال ثورة.

ديار يحتضر، لأنه استعصم أمام العاصفة الثلجية، ظنّ أن جلده يتحملها وعاش، ولكن دماءه تجمدت عروقها، وتوقفت عن الجريان في لندن.

لأنه لم يُشعل النار في داخله. لأنه لم يخلق الهدف، ويتبنّى السعي. لأنه جابه مأساته كما جابهتها أنا. الفرق أني جلست أبكي على الحياة وهو جلس يبصق عليها.

كنا وجهين لعُملةٍ واحدة إذن. ألهذا خُيِّل إليّ أننا التقينا في النهاية؟ ولكن لماذا لحقتُ به أنا سريعاً، ألأنّ مشيي أسرع، أم لأنّ أحماله أثقل؟

ها أنا عائدٌ لأكرّس حياتي لاسترداد حبيبتي، وديار ماذا يفعل في لندن؟ تُرى ماذا حلّ به؟ لماذا أبكتني رسالته طويلاً، أيُّ عِرقٍ انفجر عندك يا صديقي؟

***

سوف تحملني طائرةٌ صباحيةٌ إلى لندن مرّةً أخرى، في طريقي إلى الوطن.

هذه المرّة أيضاً يستقبلني ديار في هيثرو العتيد، أو أن ساحة المطار، صورة المنفى والبرد والمسافات، كانت تستقبلني في جسد ديار.

كان وجهه غائماً، وكانت سماء لندن تتّشح باللامبالاة. من بدّل الأدوار يا ترى؟

واضحٌ أنكما تبادلتما الوجوه يا ديار، ولكن أيّكما خلع وجهه أولاً؟

أعانقه عناقاً يشبه عناقات من هم حولنا، وأهمس في أذنه:

- ماذا فعلت بك الرمادية يا صديقي؟

- إن الله يعاقبني أخيراً.

- ماذا تفعل؟

- أموت، ومن خلفي اثنتان وثلاثون حفنةً من الرماد. هكذا يقضي من لا وطن له.

- ولكنك تملك وطناً، وإن كنت لا تبلغ ترابه. إنه مجمّدٌ في حساب الزمن فحسب. يوماً ما يغيِّر دجلة أقدار ضفّتيه كما تعوّد منذ قرون.

- قتلوه، هذه المرّة كانوا أكثر دهاءً إذ بدأوا به.

يأخذنا صخب المطار. بقي على موعد رحلتي ساعات. أجلس مع ديار على كرسيّ منزوٍ في صالة السفر. يأخذنا الوهم والتعب والتدخين. يسألني ديار عن المدينة التي تركناها معاً، أما زالت تأتيها الشمس؟

يتركني ليجري مكالمةً هاتفية. أسلِمُ ظهري لاعوجاج الكرسي وأسترسل في تأمل العابرين.

دائماً صالات السفر مزارع قلق..

حتى وجوه الموظفين فيها كأنها تتساقط كل يوم وتتهدل جلودها، مهما ابتسموا، نراها قاسية.

من هذه وغيرها، تبدأ جرثومة الغربة رحلتها في أجسادنا.

يعود ديار ويشعل سيجارة:

– أكثر المسافرين تأنّقاً هو من يعود بعد أيام، وأقلّهم هنداماً لن يعود. ما لا نقدر عليه نواجهه بأقلّ عُدّةٍ ممكنة. كأنّ في اليأس آخر قطرات القوة.

ديار..

ديار..

ولأول مرّةٍ يشرد ديار منذ عرفته. هو الذي لا يجعل ترفاً فكرياً مثل الشرود يراوده. انتزعه قديماً من عقله وكأنه يريد أن يتحكم حتى في حضوره وغيابه. عندما يريد أن يشرد يشرب، وعندما لا يريد يتجنب الكأس. حتى الشرود لا يمكنه أن يأخذ ديار عنوة.

سكتُّ لعلّه يعود. باعد بين ساقيه واستند بمرفقيه إلى الركبتين، ودفن وجهه في كفّيه بإرهاق، ومكث لحظات قبل أن يغلغل أصابعه في شعره الطويل، ويرفعه عن عينيه، ويتنفس بعمق وكأنه صاعدٌ من أعماق البحر، ثم يلتفت إليّ، ويكلّمني بصوت خفيض:

– قبل أسبوعين كنتُ أجالس عراقياً أعمى، ما زالت عصاه تشمُّ طريقها الأولى في طرقات لندن. قالوا لي إنه من حيّنا القديم. سعيتُ أن ألتقيه لعلّي أعرفه، وكان أبا يوسف.

- من أبو يوسف؟

- نائبٌ سابق، وكاتب صحفي مرموق. حيًّنا لم يكن يسكنه إلا العلية. قضيتُ فيه طفولتي قبل أن يؤخذ أبي، ثم تمرض أمي، وأنتقل لأقيم مع عمي في حيّ آخر.

- هل نُفي؟

- ظننته هاجر بادئ الأمر، ولما التقيته كانت على وجهه جراحٌ غائرة، وعلى يديه آثار حروق.

- معارض؟

- قُلْ رجلٌ ما زال يتنفس.

- هل أحزنك مرآه؟

وقام ديار..

هجرني بضع خطوات، وأنا أتذكر طبعه الذي لم يتغير.

كلّما أخطأت في حديث ديار أثناء بوحه، أو ألقيتُ سؤالاً خارج مداه، كان يعاقبني بخطواتٍ كهذه، وإذا تعذّر عليه الوقوف، كان يشعل سيجارة، وينفث دخانها إلى حيث يودّ لو يرحل، ويتوقف عن الكلام.

لم يتغيّر مزاجه البتة. بقي على طائرتي سويعات وهو يصرُّ على معاقبتي. ابتعد عني قُرابة المترين، وكان ظهره يشبه جدران مقبرةٍ فرعونية، يتكلم بصمت لغةً لا أفهمها. يتغير ديار وقوفاً وجلوساً. له حالاتٌ لا تنتهي، وخط شخصيته يوحّد بينها.

كلّمني دون أن ينظر إليّ، من وراء ظهره:

– قبضوا عليه قبل ميلٍ من الأردنّ، وعادوا به إلى بغداد، ليسجن، ويعذّب.

– ماذا فعل؟

– كان يخاطب جرائد المعارضة خارج البلاد، ويكتب فيها باسم مستعار. ولما كُفّ بصره صار أقلّ حذراً، أو ربما أقلّ صبراً. فبدأ يجتمع بخلايا سرّية داخل البلاد، وانكشف أمر الشبكة. الشبكة التي كانت تربط شيعة الجنوب وأكراد الشمال لأول مرّة، ثمّة يد تركية خفية اشتمّها النظام، ولما حاول الهرب، كانوا لخطواته البطيئة بالمرصاد.

صمت ديار دقائق، ثم قال:

– أتدري من كان يحقق معه في السجن، ويعذّبه لينتزع اعترافه؟

– من؟

– عدنان مهدي، أخي.

– أخوك؟ أخوك أنت؟

أهمل ديار سؤال الدهشة. تركني أراوح النظرات استجداءً لجوابٍ نافٍ لم يأتِ. كل شيء في هيثرو كان يقول: نعم.

كثيراً ما أُفقد القدرة على احتواء الآخرين، أنا الذي لا أعرف كيف أحتوي وجعي. أشعر أن نظراتي فقط لا تستطيع أن تكمل دورةً واحدة على ظهر ديار، على شعره المتناثر فوق ياقة قميصه، على

عروق يديه الثائرة وهو يعقدهما وراءه. كنتُ في انتظار رجلٍ في بدايات انهياره، وأهيّئ لساني لأشدَّ من أزرِه بما أستطيع، ولكنه الآن يفجعني معه.

كان يبدو لي أن قناعاته الصامدة بدأت بالتآكل، وأن أضلاعه اعوجّت كثيراً وهي تلملم بعضها بعضاً حتى تشابكت، وأنّ آخر فوّهة قارورة بيرة أخبرته أنه لم يعد هناك جدوى من التماسك.

لم أكن أنتظر هذا الديار، كنتُ أتخيل دياراً آخر.

لا أتحمل أن أراه منكفئاً على أثر صدمة. قد أراه متخاذلاً، متعباً، مشتتاً، ولكني لا أريد ديار ميتاً. ها أنذا أنفض كل أفكار الساعات التسع التي قضيتها بين المطارين، فلم تكن ذات جدوى. حتى الكلمات أفرغتها في بالوعة الصمت، وبقيتُ مطرقاً أحدّق في كتفي الرجل، وفوضى الأرض.

عاد ديار من خطاه. جلس وتنهد وابتسم وربّت كتفي وتأمّلني بودّ، وأنا أشعر بارتباكٍ ما. ربما لأني عاجزٌ عن مواساته. من يواسي رجلاً مثله؟

حقيقة الأمر، لم أكن أدري إن كان حزيناً لما حلّ بجاره القديم، أو لما آل إليه أخوه، أو أنه يشعر بالعار والقرف فحسب. قررتُ أن أصمت حتى يحدد ديار شكل حزنه بنفسه. قال:

- أخي يستدرجني للعودة.

- لماذا؟ كيف؟

ما زلت مضطرباً، يكمل ديار:

- بعث لي رسالة. هذا السافل تذكّر أخاه بعد تسع سنوات، ثم هاتفني مرّتين، وما زال أحمق. لم يدرك أني قد أتساءل كيف عرف عنواني وهاتفي، أنا الذي لم ألبث طويلاً في لندن.

- ولكن ماذا يريد منك؟

- لقد صرتُ عضواً في المعارضة العراقية.

- ....

- بادئ الأمر ظننتُ أن أخي يبحث عني مدفوعاً بحنين الطفولة. أمُّه حملته بعيداً عند أهلها بعد وفاة أبي، ولكني مذ التقيتُ أبا يوسف، علمتُ أن أخي ينتظر ليكون جلادي القادم.

- أمتأكدٌ أنت يا ديار؟

- أجل يا صديقي. المعارضة في لندن بدأت تشتد. قياداتٌ كبيرة في الوطن بدأت تنضمّ إلينا، وصرنا مدعومين من دول وأنظمة كثيرة. إن عضواً في التنظيم اللندني يُعتبر صيداً ثميناً للنظام هناك، ولو كان أخاً.

- ولكن لماذا المعارضة؟

- ولماذا الحياة؟

سكتُّ وأنا لا أحير جواباً. أهذا إذن ما جاء بديار إلى لندن؟ كان هذا علِّة تغيّره الطفيف الذي شعرت به في كالجري. لقد ألقى ديار وشاح لامبالاته بالكون وقرر أن يحيا من أجل عقيدة، من أجل وطن، من أجل حياة لها معنى.

وبمجرد أن قرر تغيير حياته، اجتمعت عليه أحزانٌ لا يدري من أين جاءت. ها هو ذا يُدرَجُ اسمه ضمن قائمة المطلوبين للنظام، وها هو ذا يُفجع في أخيه لأبيه، عدنان، وها هو ذا يبصر بأمّ عينه ما حلّ بجاره، وما يمكن أن يحلّ به هو، وها هي لندن فعلاً كما قال، تجيد تعرية الجراح.

لندن، جرحنا العربي الكبير الضارب في جذور التاريخ. كل مآسينا العربية أصلها لندن. كل أوجاعنا مصدرها لندن. كل الاستعمار ومخلّفاته، والفقر وفجائعه، والعمالة وأذنابها، والشعوب التي نسيت شكل المجد، وطعم الانتصار، منشأها لندن.

أنت عربيٌ يا ديار، لهذا فقط تضطهدك لندن.

ها نحن نتعانق مرّة أخرى للرحيل، ويترك ديار دمعةً على كتفي ويرحل.

يضيع في داخلي الشعور بالوطن الذي ينتظرني. بعثرني ديار في شتات عينيه، هذا الرجل الذي أصرّ أن يعبّئ حقيبتي حزناً، كما ملأ جبيني قُبلاً.

كم أنا قلقٌ عليه. لأن ذوي القامات الطويلة عندما يسقطون تكون سقطتهم مميتة.

عندما علّمني ديار دون أن يدري كيف أحرق الدنيا من أجل حبي، لم أكن أدري أني سأشهد سقوط معلمي قبل أن أبدأ في تطبيق ما تعلمته.

عراقيٌ آخر يحتضر. ابنٌ جديدٌ يموت من أبنائك يا عراق. هل تسمعه؟

***

ليل الطائرات طويل طويل. وأنا مثقلٌ بصوت أمي وثلوج غربتي وغموض مستقبلي ودمعة ديار على كتفي.

الكثير من الأسئلة تفتك بنا أكثر من همومنا، وأنا أطحن عقلي منذ ساعات.

متى يتوقف البشر عن البكاء؟

إننا مخلوقاتٌ باكية. ما زلنا نصنع أحزاننا، ونصنع أحزان غيرنا، وندبُّ على وجه الأرض.

وديار..

أين تنتهي يا تُرى حلقة الوطن / الإنسان التي تدور عليها هذه البسيطة منذ ملايين السنين؟

متى يتوقف جرح الرجل عن النزيف؟ ومتى يتوقف هو عن إطفاء سجائره على طريقة مواطنه بلند الحيدري: «سيجارةً في كل جرحٍ»؟

أو متى تنتهي السجائر في عُلبة ديار، أو غربة ديار؟

وحده هذا الرجل يعلّمني كيف تطغى الأحزان أحياناً على حجمنا البشري الضئيل. وحده أراني كيف تترك عوامل التعرية آثارها في

الجبال الشاهقة. وحده رمَّمني طوال سنتين، ثم لما اقتربت من العودة هشَّمني معه على أرضية هيثرو الباردة.

من قال إننا قادرون على حمل الأمانة؟ إننا أضعف المخلوقات في هذا الكون، ألسنا المخلوقات الوحيدة التي تبكي؟

ولكنها فطرة حياة، لا أدري لماذا يرفضها البعض رغم اعتدالها، أن نعيش حزانى، فلماذا التشاؤم، لقد كفانا خالقنا هذه الفلسفة «لقد خلقنا الإنسان في كَبَد».

إنه قدرٌ إلهيٌ إذن.

ماذا نملك نحن البشر أمام أقدارنا الإلهية؟

الحزن هو طعامنا الأول على الأرض. تتغير الأحوال والأقدار، ويأتينا حزنٌ ما. مهما كانت الظروف.

أنا أحبُّ مها وهي هجرتني كأحزنِ رجلٍ في الدنيا، وسالم راح يكتشف كل يومٍ في حبيبتي شهوةً جديدة، ويوماً ما ستفرُّ نُطفةٌ منه لتصنع جنيناً، وقبل مها، كبرتُ يتيماً وبسيطاً، ومات يوسف، والآن ماتت جدتي، وبكى صديقي على كتفي قبل ساعتين. لو لم تكن لي هذه الأحزان، فأيّ أحزانٍ أخرى كانت لتحملها لي الأقدار يا ترى؟

ربما كان ما أنا فيه أشدَّ وطأةً، وربما أخفّ، غير أننا نألف أحزاننا أحياناً، كما نألف بيوتنا.

لو قُدِّر لي أن أغيِّر خريطة حزني الآن لربما تردّدتُ كثيراً، ولو كانت أحزاني الجديدة أقل وقعاً وألماً على النفس.

يبدو أن الإنسان الذي كتب عليه خالقُه الكَبَد، لم يحرمه نعمة التعايش معه.

تذكَّرتُ مقولة طاغور ومضيفة الطائرة تناولني حبتي أسبرين: «أبلغ دروس الحياة أن ليس هناك ألمٌ لا يمكننا أن نتصادق معه»، كأنكِ علمتني كيف أتصادقُ مع ألمكِ فلا أنساه، أنا الذي لم يمنحني الألم فرصة الاختيار هذه.

قد أسعى لمحو أحزاني ولكني لن أجرؤ على استبدالها بحزنٍ مجهول. لن أقامر على طاولة الحياة. وحشة هذا الحزن المجهول أشدُّ عليَّ من حزنٍ قديم أليف.

وعندما أحاول فرز أحزاني أحتار فيكِ، أسأل نفسي في ظل ما أنا فيه الآن: هل مها حزنٌ أم حُبٌّ؟

هل أصنِّفكِ ضمن أحزان عمري، أم ضمن دقات قلبي؟

لا أدري، ولكن كأني أهتدي أحياناً إلى أن حبي لكِ شيء، وحزني عليكِ شيءٌ آخر.

عندما كنتِ معي كان عقلي وقلبي يشتركان في صنع قرار الحب. لم تبدي لي رائعةً لأني أحبكِ فقط، ولكني أحببتكِ، لأنكِ بدوتِ لي رائعةً حقاً.

رائعة مثلما استُخدِمت هذه الكلمة لأول مرّةٍ في التاريخ.

كان خلف جبينكِ منطقٌ جذّابٌ. فتاةٌ تجاوزت منطقة الوأد، وحلّقت كأنثى فوق مجتمع الصيادين، ولم تخيِّبي رغبة الجناح ولا

حلم السماء الوادعة رغم القضبان الحديدية. تسرّبتِ إلى قلبي بهدوء، وانزلقتِ فيه كما ينزلق المفتاح في ثقبه، لأنّه فُصِّل بحجمكِ تماماً، أنا الذي ما عرفتُ توأماً لي قبلكِ، ولا أظن أن لنا توأماً ثالثاً.

لم أتخذ قراراً في حياتي أسهل من قرار حبكِ. ليس لأني كنتُ متسرّعاً، ولكنه كان سهلاً لأنه القرار الوحيد الذي يمكن أن يُتَّخذ تحت سلطة اعترافي بكِ كأميرة. لم ألتفت، لم أتردد، لأني كنتُ أعرف أن التردد في الحب الأول قد يصيب قلبي بالشلل.

هذا كان حبي لكِ، أما حزني عليكِ فقرارٌ آخر.

قرارٌ انفرد به قلبي المكلوم، وكان عقلي أبرأ شيء منه.

لأني لم أُطق الانتظار طويلاً من أجل العلاج، فقد اخترتُ حُقنتي بنفسي، وغرستُ إبرتها المحمومة في ذراعي بعمق، وكان قراراً بالإدمان. هكذا دون أن أتدرّج في السقوط، دون أن أتدحرج في الهاوية، وجدت نفسي أتعاطى حزنكِ جرعةً بعد جرعةٍ حتى تشرّبته خلاياي تماماً، وتعوَّدته قطرات الدم، وأنسجة الجسد.

بين الحزن والحب، تساءلتُ أيضاً: أن أعيش لحبكِ، أو أموت بسببه، أيهما أبلغ تأثيراً يا تُرى؟

***

أضواء الرياض ليلاً تتقاطع بانتظام، ثم ينفصل عنها خطان طويلان

من الأضواء المتوازية حذاء الطريق الذي يصل المدينة بمطارها.

بعدد ما سافرتُ عن هذه المدينة، وحملتني منها طائرات، وأعادتني إليها أخريات، كنتُ في كل مرّةٍ أقبل عليها لا أقاوم الرغبة في النظر عبر النافذة إذا كان الوقت ليلاً إلى عرس الأضواء هذا. ربما هو عناقُ ما لا أستطيع أن أحيطه بذراعيّ الآن، فأحطته بعينيّ.

هذه المدينة الملتهبة صيفاً التي لا تتنفس إلا في ثلث الليل الأخير بضعة أنسام يقتسمها الجميع ، والباردة شتاءً، التي لا تتوقف لفحة الهواء فيها إلا في آخر العظم، والمعتدلة فقط أياماً معدودة تمطرها السماء فيها أواخر السنة الميلادية، هذه مدينتي، حبّي الحافي الذي ينتعل الشوق أياماً فقط .

يدهشني حنيني إليها، ويدهش الكثيرين ممّن ربّوا على هضبتها النجدية الساهمة تعلُّقهم الشديد بها، رغم جفافها الكبير.

ثَمَّ صحراءُ تحيط بها من كل الجهات وتتمادى أحياناً لتتشعّب في أحيائها وأطرافها مثل سرطانٍ كبير. وما ينجو من الصحراء لا ينجو من الإسفلت والإسمنت، ولكنها تكبر وتنمو، وتهفو إليها قلوب أهليها، فلا يتخلّون عنها.

كلُّها نقائض هذه المدينة. فيها الفقر والغنى، كعادة المدن الكبيرة. كما أنها خالية من كل ما يجذب سائحاً ما. فلا بحر، ولا اخضرار، ولا آثار، ولا قبلة دين، ولكنها تقتلنا شوقاً كلّما رحلنا عنها إلى حيث يرحل الراحلون.

يكفيني الآن من طولها وعرضها بيتنا الذي ينتظرني. رائحة الأهل، ووجوه الأصحاب. الشوارع التي ابتدأت، والبنايات التي استحدثت، والثمامة التي لا تزال وقفاً على قلوب العشاق، وأنفاس الذين يحترقون حنيناً كما يحترق الغضا المشتعل أمامهم على الكثيب الهادئ. إنها مدينتي الأولى. ذاكرة الطفولة التي لا تُمحى، والمراهقة التي مرّت ولم أشعر بها، والشباب الذي لم ينته بعد، وما زال جرحه مستغلقاً على فهمي وضمادي.

أظنني عدتُ مشرّداً كما رحلت، غير أنّ في أعماقي رغبةً عارمةً في تغيير هذا الواقع المؤلم الذي شرّدني طويلاً. أريد أن أعيش كما يعيش أولئك الذين ابتنوا سعادتهم بأيديهم ولم يفكروا في السماء. إنهم سعداء حتى ولو فشلوا، يبقى لهم مجد المحاولة، وشرف التجربة، ونقاء العنصر البشري الذي لا يصدأ.

إنهم يبكون ربما، غير أن بكاءهم هذا رهين موقف، وأنا بكائي رهين عُمر.

لو أني تخلّيتُ عنكِ الآن وتجاوزتُ ذكراكِ إلى امرأةٍ أخرى، وحياةٍ أخرى، هل تظنين الروح تبرأ؟ إنه عارٌ إنسانيٌ ضخم سأظل أحمله على كتفي حتى في شيخوختي، ذلك أني ثنيتُ العزمَ دون حلمي، وكررتُ المطيَّ دون مدينتي، وتركتُ طموحي للأقدار تتناهشه كما تشاء، وأكملتُ حياتي ذليلاً على رصيف الدنيا، من يأبه لي؟

الحياة قصيرة بحق، فلماذا أعيشها بهذه الضآلة؟ ليس عيباً ألا ندرك ما نتمنى، ولكنّ العيب الكبير ألا نسعى لما نتمنى.

قد لا أغترب بعد اليوم طويلاً، ولكن ماذا أفعل في تلك الغربة المقيمة في جوانحي؟ صعبٌ أن أنتزع تأشيرة الوهم المتشبّثة بعنف في جدران روحي منذ عرفتكِ. حبكِ كان جواز سفرٍ يختصر عمري، وفراقك كان التذكرة التي أوردتني منفاي.

شعورٌ بعدم الرضا يتغلغل في صدري وأنفاسي ومشاعري، وذاتي المتعبة اللاهثة في مضمار اللاشيء. هذا الضعف العاطفي يؤلمني منذ طفولتي. لماذا دقّة الحسّ بدلاً من مناعة تقيني عوادي الزمن وأحزانه؟ ليتني جئتُ قاسياً، بارداً، لا مبالياً. ترحلين عني فلا آبه لكِ، وتهجرين قلبي فيبتلعكِ النسيان، ولكن هيهات.

ربما حان الوقت لسحب السلطات من قلبي ومنح عقلي فرصة التفكير المفيد، بعيداً عن تهاويم الحزن العاجزة. يبدو أن قلبي كان يحتاج إلى وصيٍّ ما يدبّر شؤونه، ويأخذ بيده، حتى يفهم أن لنبضته ثمناً، ولاختلاجته حقاً، ولألمه معنى.

حبكِ سرطنني. عرّيتُ صدري أمام هذا الشعاع الخفيّ حتى أنهك خلاياي تماماً، ولم أعلم أن دفئه اللذيذ ترك لي بعد رحيلكِ جسداً مليئاً بالأورام.

***

دموع أمّي على قميصي كانت حكايةً طويلة.

لأنّ لجوئي إلى هذه الأمّ تعاقب عليه مدٌّ وجزرٌ خلال حياتي. منذ الطفولة وأنا أستنشق الطهارة من بياض وجهها، غير أن مراهقتي شيءٌ آخر.

كنتُ منطوياً على كل ما يخصُّ مشاعري وأحاسيسي اليومية. أُصرُّ على التماسك، أو ادّعاء التماسك، بينما ينهار في داخلي ألفُ جدار. مشاكلي الصغيرة تنمو. صارت غثياناً، ثم صُداعاً، حتى استحالت أوجاعاً دفينة في أعماقي، ولم تتغيّر عاداتي تلك، ولا أنا خلعتُ ذلك القناع الكاذب.

لا أدري لماذا كانت الشكوى تكسوني خجلاً كثيفاً كلّما هممتُ بها. ربما هو الضعف القديم كوّن فيّ نقصاً ما يدفعني دائماً إلى إخفاء شكواي تظاهراً بالقوة. صغيراً كنتُ، وحولي الكثير من الكبار الأقوياء، ولكني نادراً ما كنتُ أقرأ خلف عيونهم تجاوباً لا يأخذ شكل الشفقة أو اللوم.

حتى أمّي الطيبة، لا أدري لماذا تسترسل في عتابي قبل أن يأخذ كلامي معها مجرى الشكوى؟ كانت رغبتها الفطرية في تربيتي تُنسيها أحياناً أن كفاً حانية تجري على جبينٍ مُرْهَق قد تغيِّر الكثير مما قد يتشكل خلف هذا الجبين، ربما أكثر مما تفعله المحاضرات الطويلة، عن الدين والحكمة والمثالية، وكيف تؤخذ الدنيا غِلاباً.

اللوم والشفقة، حاجبان مخيفان، يردّان كل شاكٍ عن مجلس من يؤمّله. بعض الإصغاء الصامت أحياناً يجدي أكثر من كلمات المواساة المهينة. ليتهم علموا أن هذين الهاجسين هما ما يجعل شكواي تطير كعصفور خائف في صدري فقط، وقد سُدّت في وجهه منافذ الدموع والكلام، قبل أن يهوي في قعره ميتاً في مقبرة العصافير القديمة.

هذه الليلة اختلفت أُمّي. كانت دموعها على قميصي لا تلوم ولا تُشفق. كانت تنزل تماماً كما تنزل دموعي على ذراعيها الهزيلتين. جمعتُ شقاء الليل والنهار، ووحشةَ العمر وغربته، وصببتها دمعةً كبيرة كبيرة، لم تجهد طويلاً لتنزل، مثلما تنزل الأقدار على وجوه البشر.

صخب اللقاء والترحيب وصالة المطار وشوارع مدينتي التي تزداد إسمنتاً وطوباً، وباب البيت الذي تغيّر، ووجوه إخوتي التي تضحك، ودموع عائشة التي تتحدّر، والأطفال الذين صرتُ لهم عمّاً أو خالاً أثناء الغربة، ورائحة العود في المكان، كل هذه البدايات كانت دافئة، ولكنّ النهاية كانت هناك، قُبيل الفجر، في غرفة أمّي.

أويتُ إليها بعدما رحل الجميع وقد شيّعوني إلى غرفتي لأرتاح من وعثاء السفر. خرجتُ إلى الصالة التي شهدت طفولتي وصباي. وقفتُ أمام باب جدّتي المغلق والظلام الحالك الذي وراءه. تذكّرت باب شقة مس تنغل الذي انغلق على بقايا طيبتها، ونفضتُ

الموتَ من ذاكرتي، وسعيتُ إلى الحياة.

ألفيتُ أمّي جالسةً جلسة التسليم من الصلاة. دخلتُ عليها. قبّلت رأسها ثم توسّدتُ رجلها بعد أن قبّلتها أيضاً، واستسلمتُ لحركاتِ يديها في شعري.

- كأني بسجّادتكِ لم تتحرك قيد أُنمُلةٍ من مكانها يا أمي.

- ما تغيّرتِ القِبلة حتى تتغيّر سجّادتي يا بنيّ.

حكيتُ لأمّي حكاياتي. أخبرتها عن فانكوفر الخصبة وحزنها الجميل. شقّة مس تنغل التي صمتت، والمسافات الطويلة في خطى ديار. حفل التخرّج الصغير والشهادة والإطار، ونُدف الثلج التي ذابت على جبين حُمّاي، وشقّتي وأثاثها، والمقاهي، وأشجار الخريف، وكيف استطاعت تلك المدينة أن تسقيني سائلاً غريباً، لا هو أسكرني، ولا أسعدني، ولكنه داواني بألم، وأبقاني حياً.

كانت أصابعها الحانية تفتّش في خُصلات شعري عن شيبات نادرة في الرأس الشابّ، وتنتشل من ذاكرتي كلَّ وجعٍ لم أقله لأقوله. ولكنّ ثمّة شيئاً كان يُبعدكِ عن أصابعها المتمادية، حتى وجدتكِ أخيراً.

- هل تتزوّج يا حبيبي؟

أبتسم لأمّي، وأبدي دلال العائد تواً:

- هل هناك من تستحقّ ابنكِ يا أمّي؟

- اختر أنت فلن أتدخّل هذه المرّة.

- ماذا لو اخترتُ فتاةً سبق لها الزواج، أو أرملة مثلاً؟

- اظفرْ بذات الدين يا ولدي، ثم اخترْ من تسكن إليها نفسُك، وتقرُّ بها عينُك، أيّاً كانت.

- قريباً يا أمّاه، أقرب ممّا تظنّين.

- تروّ في اختيارك، لا تفعلها مرّةً أخرى.

كان يبدو أن انفصالي الأول عن الفتاة التي اختارتها أمّي ما زال أثره في نفسها، مثل جرحٍ صغير كلّفته إياها، حياءً وخجلاً من أهل الفتاة.

قلت لها:

- لا يا أمّي، لن أفعلها مرّةً أخرى.

وفي نفسي قلت: لا يا أمّي، لن أحاول الزواج بغير مها مرّةً أخرى.

تركتها تستغفر، وتهمهم بأذكار الصلاة، وتوسّدتُ ذراعي، وشردتُ في أنحاء وجهها وكأني أتأمّله لأول مرّة.

كانت السّتون تغزو ملامحها بقسوة. لم أكن أرى شعرها الذي يختفي خلف حجاب الصلاة، ولكنّ خُصلاتٍ خرجت لتشرب من بياض وجهها كانت تشي بالكثير من الشعرات البيضاء التي لا أدري أيها نَمَت حزناً، وأيها نَمت هرماً.

أصابعها كانت أكثر امتلاءً قبل أن أرحل، والآن بدأ يشوبها هُزالٌ

قليل، وحول عينيها تشكّلت تجعيدتان طفيفتان، كانتا الخربشة الأخيرة لريشة الزمن.

بالفعل، كانت دموعها على قميصي حكاية.

للمرّة الأولى أشعر أن أمّي تعبت وأنها تتوكّأ على قلب ابنها بعد أن أرهقتها السنون. كنتُ أشعر أنها سعيدةٌ وراضية، ولكنّ الزمن يجري ثقيلاً على البشر، ولو كانوا أصحّاء، سعداء.

لم أشعر بالخوف، ولكني شعرتُ أن أحدهم يحتاج إليّ. شعرتُ أن أمي التي أرهقها العطاء صارت ترنو إلى أبنائها بعين رجاء، وقد صاروا رجالاً ونساءً، أن اعتنوا بأنفسكم، فلم يعد لدى أمّكم العجوز الكثير ممّا تقدّمه لكم.

قرأتُ هذا في عينيها الغارقتين بدموع الرضا والحنان. شعرتُ في دوّامة المشاعر أنه صارت لديّ رسالةٌ طويلةٌ أكتبها بدماء السنوات، ردّاً على رسالةٍ أطول منها، ظلّت أمّي تكتبها لي وحدي طوال خمسٍ وعشرين سنة.

قالت لي:

- لم يبقَ لي من هموم الدنيا وقد رحلت جدّتك إلا انتظار مجيئك أنت وأختك أروى. اسأل هذه السجّادة يا بنيّ كم كنتُ أغرقها دعاءً ودموعاً لعلّك لا تعرى، ولا تجوع، ولا تحزن.

- ولا أضِلّ يا أمّي.

- ولا تضلّ يا حبيبي.

ونمتُ تلك الليلة في غرفتها. أطرد البقية من ثلوج فانكوفر من أنفاسي، وأُبقي رائحة أمّي في لحم الرئة. تختلط على جدار جفني أحلامٌ ووجوهٌ وأجوبة قديمةٌ.

***

نُشرت الرواية، قبل أن السنة بعشرة أيام.

وجدتها معروضةً في المكتبة التي التقيتُ فيها مها قبل ثلاث سنوات.

لأن بعض الأمكنة لا تكفيها البدايات فقط، تمسكُ بطرفي القصّة، وطرفي الحزن، وتؤرجحنا بينهما مثل الحبل الذي يقفز من فوقه الأطفال.

جلستُ أُحصي أحزاني..

٨٦٥٦ سطراً..

٩٧٥٢٣ كلمة..

٤١٧٧٥٨ حرفاً..

وأكثر من مئتي علبة سجائر..

حصادُ الحزن العييِّ. الحزن الذي يحتاج إلى كل هذه الصفحات ليعرِّف بنفسه فقط.

ويبدو أني لم أنقل أحزاني فقط إلى الرواية. الحقيقة أني كنتُ أصدر منها نسخةً أخرى، فقط، بينما ما زالت المخطوطة الأصلية في صدري.

عندما يمنحني الزمن فرصةً للراحة، أضيّعها في بوحٍ أحمق كهذا.

ربّما أغلقتُ ذلك الدفتر الأخضر أخيراً ورميته في جحود كاتب في صندوقٍ صغير، بعد أن أفرغت ما في جوفه على أوراق أخرى، مطبوعة، أكثر أناقة، وأنصع بياضاً، وأشدّ برودة، غير أنه حان الوقت لأكتب في دفتر آخر. دفتر حياتي.

حان الوقتُ لأغيّر ملامحي، حان الوقتُ لأقتلع مها من عيون الدنيا، وأعيدها إلى قلبي.

وانتظرتُ أياماً حتى تبرد عاطفتي من حرارة البوح، ثم حمل البريد روايتي إلى بلدٍ بعيد، لم أكن بالغه إلا بشقِّ الكتابة.

بعد شهر، كنتُ أَجلس في المجلس الصغير الذي كتبتُ فيه الفصول الأخيرة، أكنسُ المكان وراء ذاكرتي بهدوء، عندما دخلت مها..